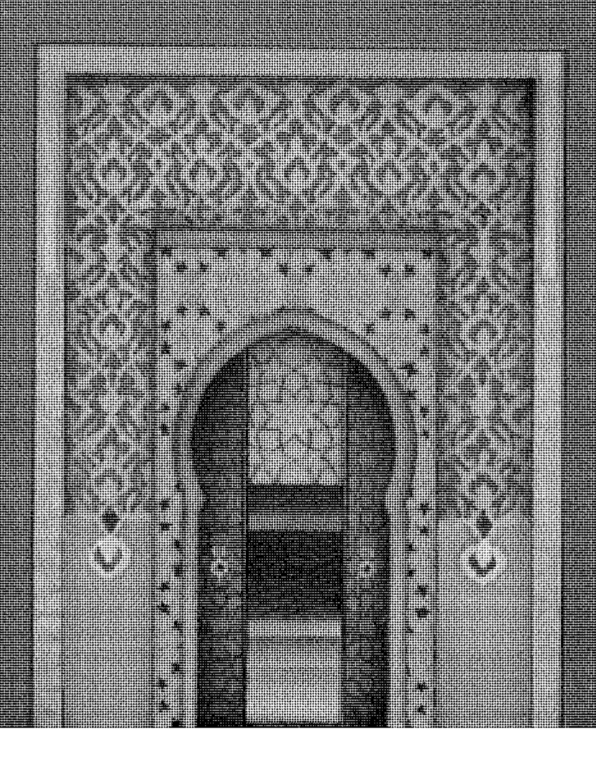
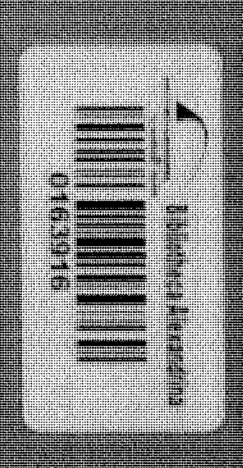
الأستاذ نجيب زبيب

الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس

تقديم سعادة المستشار

احمد إبن سودة





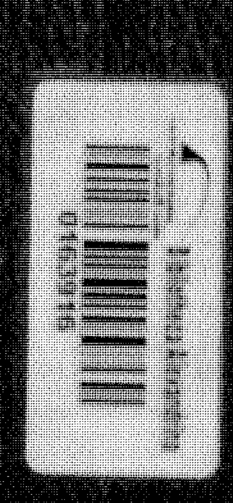
دار الأمير

الأستاذ نجيب زبيب

الموسوعة العامة لتاريخ
المغرب و الأندلس

تقديم سعادة السفير
احمد ابن سودة

الجزء الثاني



دار الأمير

دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

مؤسسة تعنى بالنتاج الفكري وشؤونه وتواكب نشاطه وتطوره.

العنوان: بيروت ص. ب ٥٥٥١ / ١١٣

هاتف: ٦٠١٠٢٠ / ٨٢٣٥١٢ مقسم ٥١٩

فاكس: ٦٠١٠٠٥ بيروت

٣٥٧ / ٤٦٢٥٨٤٨ قبرص

الموسوعة العامة
لتـاريخ

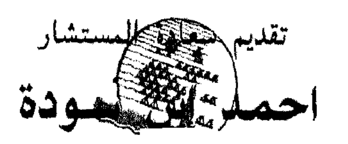
المغرب و الأندلس

الأستاذ نجيب زبيب

الموسوعة العامة
لتــاريخ

المغرب و الاندلس

تقديم [illegible] المستشار



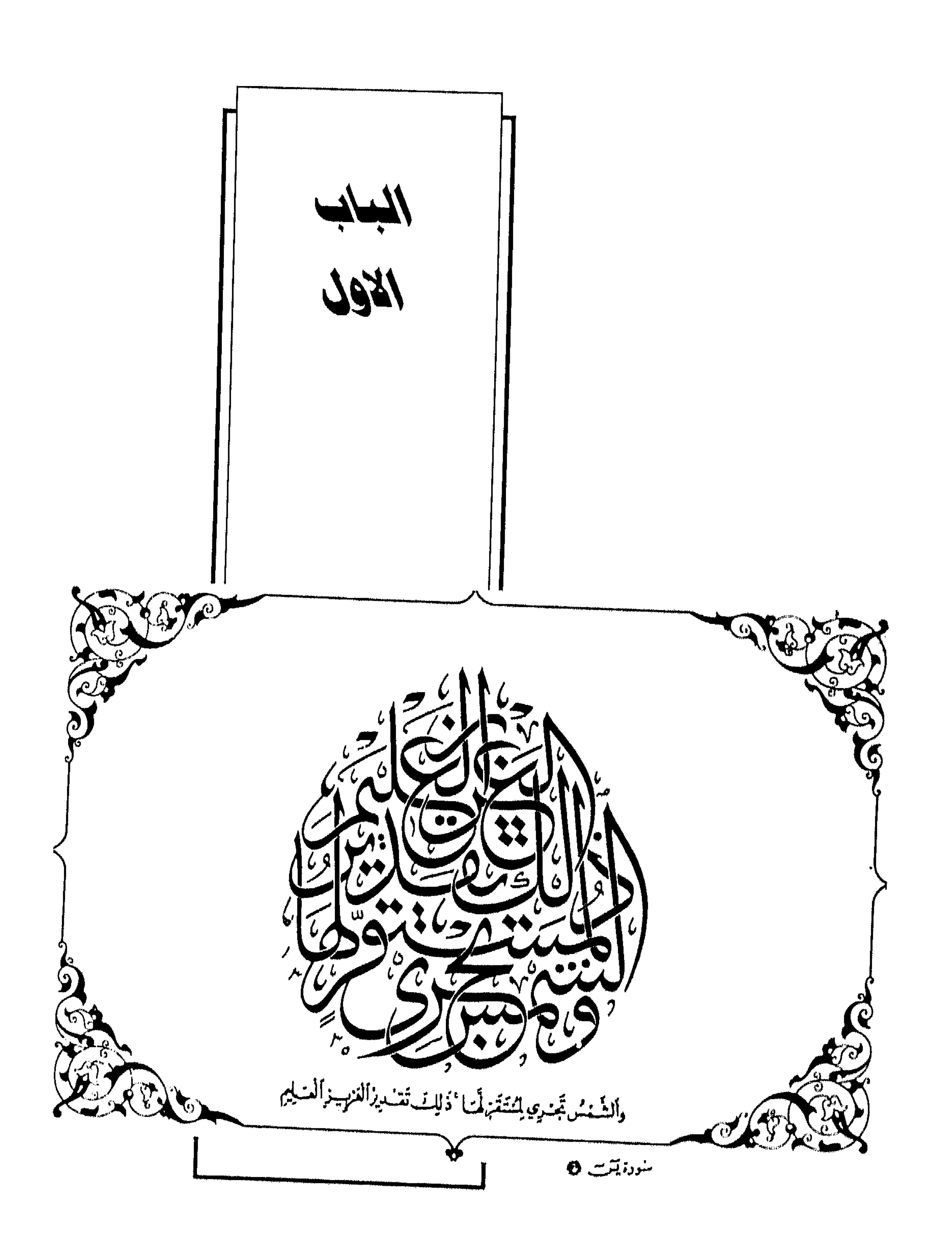
احمد [illegible]ودة

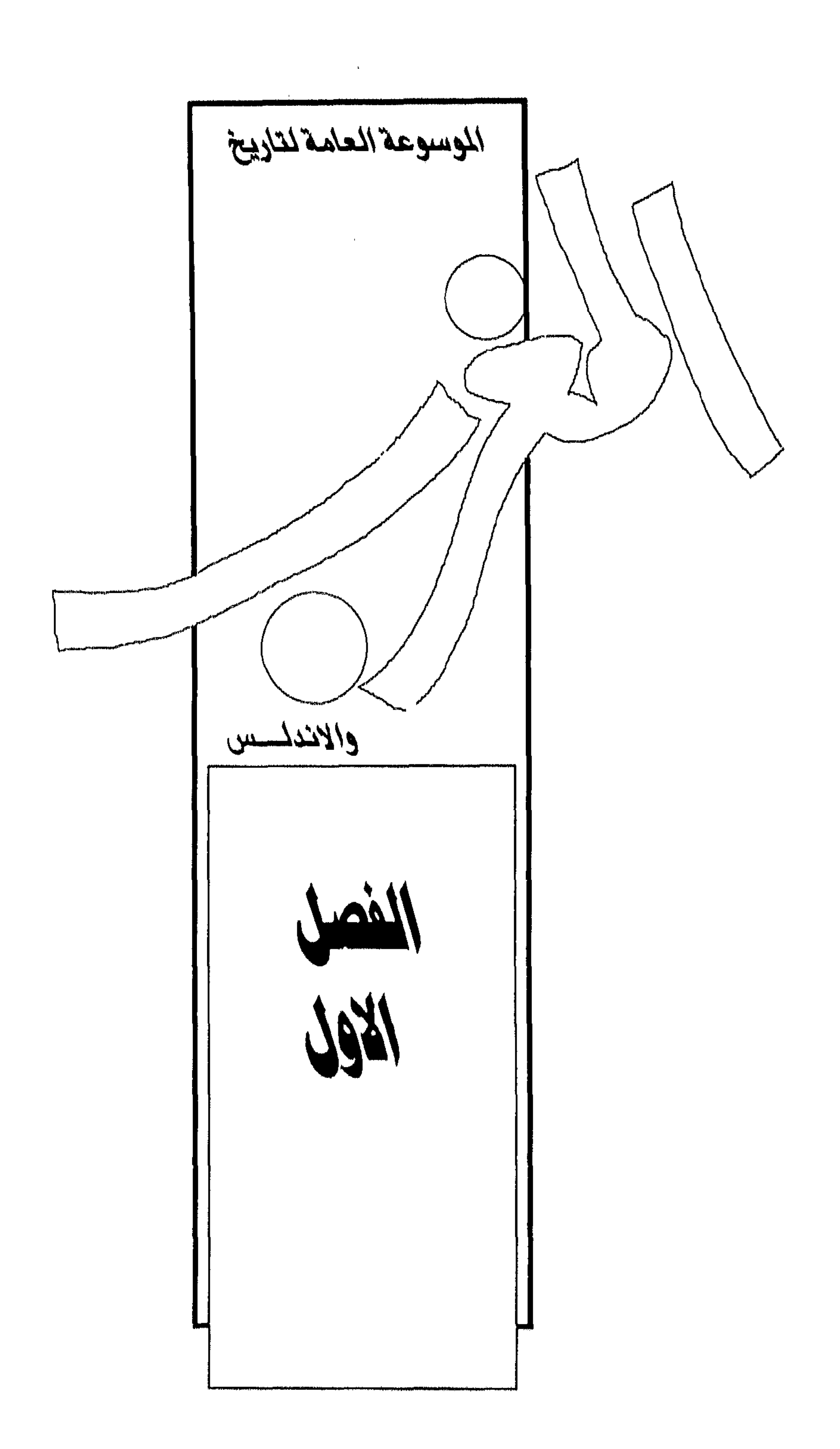
الجزء الثاني

دار الامير

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م




الباب
الاول
والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم
سورة يس


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــــس
الفصل
الاول

الفتح العربي الإسلامي
في شمال أفريقيا

لقد حكم الرومان من غربيين وشرقيين بلدان شمال افريقيا حكماً تعسفياً ظالماً واستغلوا المناطق التي سيطروا عليها أبشع استغلال ولم ينقلوا الى تلك المناطق أية حضارة او ثقافة، لأنهم كانوا يحتلون مدناً كانت قد ازدهرت فيها الحضارة منذ قرون طويلة، ولم يكونوا متفوقين بأي علم أو صناعة أو أساليب زراعية متطورة حتى ولا بفن التعدين أو فن صنع اصباغ الأرجوان والإسمانجوني، وكانت الملابس المصبوغة بها يرتديها الأباطرة الرومانيّون في الطقوس الدينية أو في الاحتفالات الخاصة والعامة وعلى الأخص احتفالات النصر على الشعوب المغلوبة التي كانوا يحكمونها بالقهر والغلبة.

وكان الحكم الروماني قائماً على السلب والنهب والتمادي في جمع الضرائب ومصادرة المنتوجات الزراعية والصناعية بالاضافة الى الضرائب الخاصة والباهظة التي كانت تفرض على التجار وأرباب

السفن[1].

ولما طردوا من البلاد لم يشعر أحد بأسف لفقدانهم كما أنهم لم يتركوا فراغاً في شمال أفريقيا ومصر كان لا بدّ من ملئه بقوات رومانية؛ رحلت تلك القوات وبقيت البلاد لأهلها وأبنائها الذين كان لزاماً عليهم أن يستعدوا للذود عن بلادهم ضد العرب الفاتحين الجدد الذين جاؤوا من الشرق بدين جديد ومعتقدات جديدة وتقاليد خُلقية وأدبية جديدة وشرائع جديدة مستمدة من كتاب الله تعالى الذي يحفظونه في صدورهم.

[الفاتحون العرب ينشرون دين التوحيد]

تفرد الحكم الإسلامي العربي في المغرب الأقصى وفي المغرب الأوسط وفي تونس وليبيا بأنه كان يشكل حلقة تامة قائمة بذاتها فصلت بين ماضي تلك البلاد ومستقبلها لذلك كان العهد العربي خاتمة لعهود الظلم

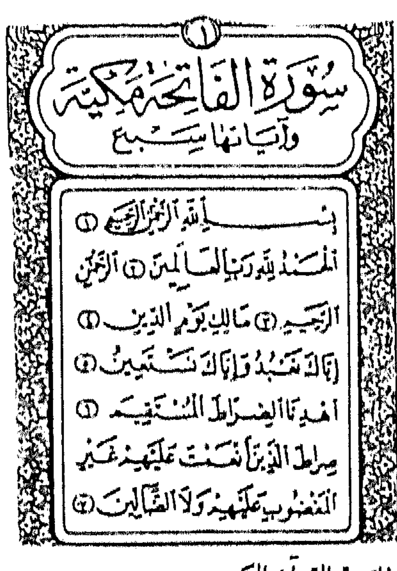
---

(١) تعقيباً على ذلك فقد جاء في قصة الحضارة وصف للحياة الرومانية قبل نصف قرن فقط من الميلاد جاء فيه: «وكانت الديمقراطية تحتضر في عاصمة البلاد. فكانت الأحكام القضائية ومناصب الدولة وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها تباع الى من يعرض فيها أغلى الأثمان. من ذلك ان القسم الأول من المقترعين في الجمعية قد استولى في عام ٥٣ على عشرة ملايين سسترس ثمناً لأصوات افراده ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الإلتجاء الى الاغتيال. ونشأ الاجرام في المدينة كما انتشرت السرقات في الأقاليم. ولم يكن في هذه ولا تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على انفسهم أو أموالهم فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم في الجمعية وأضحت العصابة التي ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هي التي تشرع للدولة كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم ثم تشعل النار بعد الضرب في بيوتهم. وقد كتب شيشرون بعد جلسة من هذه الجلسات يقول: «لقد امتلأ التيبر بجثث المواطنين كما سدّت بها البالوعات العامة واضطر الأرقاء الى امتصاص الدم بالاسفنج من السوق العامة» قصة الحضارة ص٩/ ٣٦٦-٣٦٧ فإذا كانت الحالة هكذا في العاصمة والأقاليم التي حولها فكيف هي اذن بالبلاد البعيدة النائية؟...

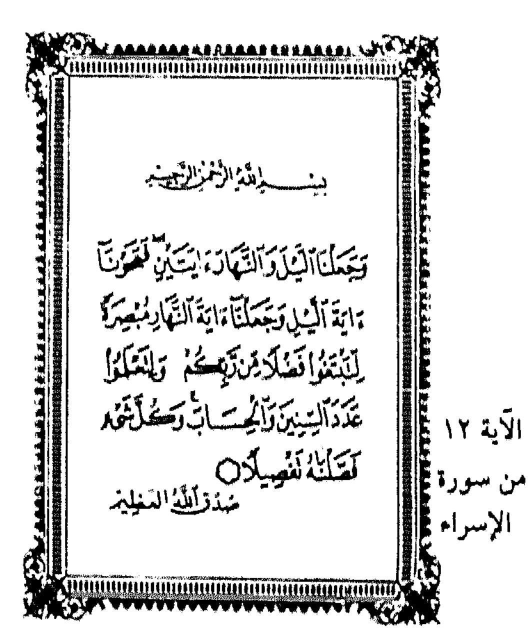
والطغيان الرومانية والفندالية والبيزنطية وقد استهله الفاتحون الحددبنشر دين التوحيد الداعي الى عبادة الله الواحد الأحد. وإلى تآخي المسلمين من العرب وغير العرب من سكان شمال أفريقيا وايبيرية عملاً بما جاء في القرآن الكريم ﴿**إنما المؤمنون أخوة**﴾[1] والى نبذ التفاخر بالعنصرية والانساب كما كان يقول الرسول محمّد (ص) : «لا فضل لعربيّ على أعجمي الاّ بالتقوى»[2] فقضى بقوّة الإيمان على العنصرية والقبلية، وساوى بين جميع الطبقات وجعل التفضيل للناجحين المتفوقين في خدمة الإسلام والمسلمين، فأصبح الناس متساوين في الحقوق والواجبات لا يستبد القوي بالضعيف ولا الغني بالفقير. . وانتشر الدين الإسلامي وتغلغل في النفوس، فحررها من الأثرة والأنانية والأحقاد والتباغض وأقام العدل ميزاناً لأعمال الناس فانتصر المظلوم من الظالم واقتص المسلوب من السالب وأقيم الأود والقصاص لينال كل أمرىء عقابه على ما جنته يداه. فلا قناصل سيوفهم مصلتة فوق الرقاب تجتاح البشر والحجر وتصادر الحرث والنسل ولا أباطرة يهدمون المدن ويبيعون سكانها الأحرار في أسواق العبيد الرومانية، وسادت الشورى مستضيئة بآيات الله وبيناته وقامت الاجتهادات الشرعية لتحل محل التسلط والعبودية.

(١) الآية رقم ١٠ من سورة الحجرات: وتمام الآية: انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلّكم ترحمون.

(٢) يقول الرسول الكريم: كلكم سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى.



فاتحة القرآن الكريم



الآية ١٢ من سورة الإسراء

أنه دين الإسلام الداعي الى عبادة الله الواحد الأحد. فلا أصنام ولا أوثان ولا جبابرة يزينون رؤوسهم بالتيجان وملابس الأرجوان ولا شيء الآ الدين القائم على الأخوّة والمحبة والتعاون.

بهذه العقيدة وهذه الشريعة السماوية المنبثقة عنها قرع الفاتحون الجدد أبواب فارس واقتحموا بلاد الساميين جدودهم الأوائل والكنعانيين في الشرق الأوسط وحرّروها من الغطرسة الرومانية وساروا على اسم الله لتحرير المغارب بعد أن حرروا المشارق.

وكانت عقيدة الإسلام السمحة قد تمكنت من قلوب المسلمين وعقولهم فانصرفوا عن الدنيا وملذاتها فأحبوا الله وأحبوا الجهاد كخير وسيلة لنشر ألوية الدين الإسلامي على المغرب العربي من ليبيا الى شواطىء بحر الظلمات[1]. ومن المغرب العربي مخرت الجيوش العربية البربرية بسفنها البحر بقيادة طارق بن زياد الى العدوة المقابلة التي كانت تعرف في ذلك

(١) بحر الظلمات هو المحيط الأطلسي كما كان العرب يسمونه قديماً.

الوقت باسم واندلوسيانسبة الى الوندال القوط الذين كانوا يحتلونها .

فعقيدة الإسلام هي التي حبّبت المسلمين في الجهاد الأكبر ودفعت بهم الى خوض المهالك وميادين القتال، وأرخصت في عيونهم أنفسهم، فصاروا يؤثرون الموت تحت الاعلام على الحياة. . لا بل ويحرصون على الموت حتى تُكتب لهم الشهادة في الحرب والقتال في سبيل الله ونشر الدين الإسلامي في تلك الأصقاع النائية .

وإذا ركّزنا الفكر على هذه «العقيدة الإسلامية» الراسخة في القلوب والعقول نرى أنها خلقت «مثلاً عليا» تضاءل أمامها كل ما هو دونها من المثل، وآمن بها رجال وهبوا أنفسهم لها فهانت الحياة الدنيا في أنظارهم ولم يعد لهم مطمح أو مأمل الا بنشر الإسلام أينما حلواوحيثما نزلوا . . ولم يعد لهم رغبة في اقتناء الأموال ولا طمع بالسيادة بالرغم من ولع العرب وشدة حرصهم على بلوغ قمم العز والسؤدد . . لقد كان المجاهدون الأوائل يريدون العزّ والخلود للعقيدة الإسلامية، فإذا عزّ الإسلام عز العرب وإذا بهم يجودون بأرواحهم في سبيل مثلهم العليا لنشر عقيدة الإسلام والجود بالروح أقصى غاية الجود .

وعندما نستقصي حقيقة تلك المُثُل نجدها قد تأصّلت في عقول وقلوب المجاهدين الأوائل، تأصّلت بالخبرة الطويلة والممارسة . فالعكوف على قراءة القرآن أنار عقولهم وفتّح بصائرهم على المثاليات التي وردت في آيات الذكر الحكيم، فاتحدت المثاليات في القلوب والعقول واندمجت فيها أيّما اندماج، وحمل المسؤوليات الجسام ـ وهذه جزء من المثاليات لا يتجزأ ـ جعلهم قادة مجربين في الحروب والقيادة . فهم يخططون للمعركة بعقل

حصيف[1] . وفكر متأنٍ وإذا أعوزتهم المشورة استشاروا دون أن يجدوا في ذلك غضاضة؛ وكان أولئك القادة المجاهدون قد شهدوا المعارك الكبرى في المشرق قبل مجيئهم لنشر عقيد الإسلام في المغرب، فتأدّبوا بآداب الحرب وإذا كانوا قد نالوا حظاً وافياً من المثاليات والخبرة في فنون القتال والكر والمراوغة. إلاّ أنهم مع ذلك كانوا لا يكفون عن استشارة أصحابهم المعمرين أو الشبان الأذكياء من ذوي الخبرة والعبقرية في الفنون الحربية.

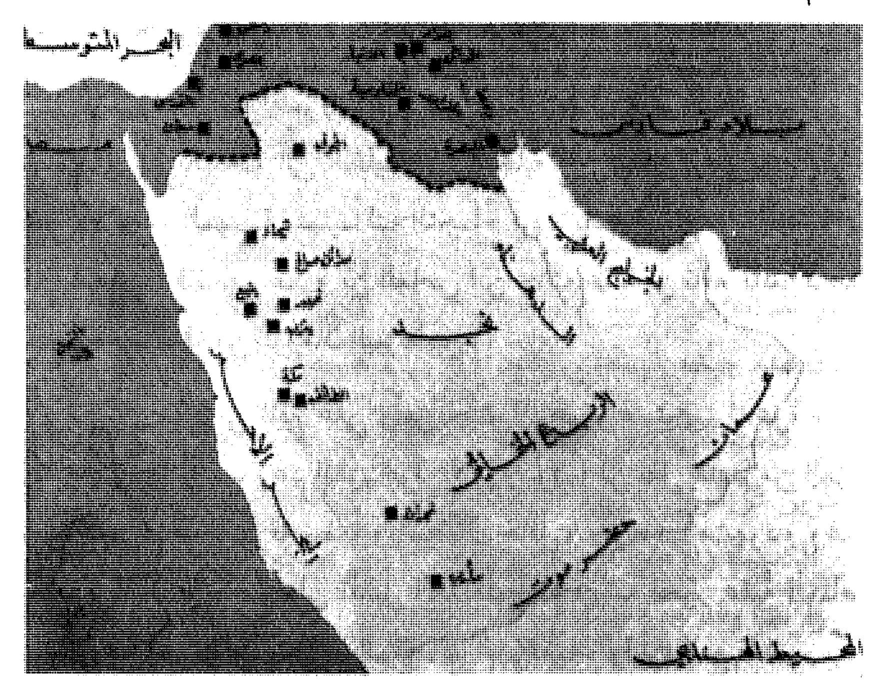
وفي ليالي السمر كانوا يسترجعون أخبار القادة الأوائل ليس حباً بسماع الحكايا أو القصص والروايات بل لاستخلاص المثالية القدوة، والخبرة العالية، والفنون الحربية ممن سبقهم في ميادين الحرب في المشرق العربي.

وكان أولئك القادة يخوضون القتال في المقدمة فكان منهم يتألف الصف الأول المهاجم أو المدافع، على قلّة اضطرارهم للدفاع ـ لأنهم كانوا دائماً هم الذين يبتدأون عدوّهم بالقتال، ولأنهم كانوا هم القدوة والمثال لذلك كانوا يتصدرون الصفوف ويحاربون في المقدمة وقد هانت عليهم نفوسهم وصغرت الدنيا ـ التي هي متاع الغرور ـ في أنظارهم.

هؤلاء القادة الذين زحفوا على المغرب الأدنى «ليبيا» والأوسط «تونس والجزائر» والمغرب الأقصى «مراكش» كانوا من أبناء الأجلّة والصحابة التابعين الذين حلّوا محل القادة الأوائل الذين فتحوا سوريا والعراق وبلاد فارس ومصر في عهدي الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. من أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح والمثنى بن حارثه الشيباني وسعد بن أبي وقّاص، وشرحبيل بن حسنة والمقداد بن الأسود وعمرو بن العاص وغيرهم. وكان الرعيل الأول بقيادة سيد البشر

(١) حصيف: من حصف الشيء حصافة كان محكماً لا خلل فيه ويقال حصف فلان استحكم عقله وجاد رأيه فهو حصيف. (المعجم الوسيط).

محمّـــد (ص)، من أمثال حمزة بن عبد المطّلب وعلي بن أبي طالب وسعد بـن عبـادة وأبـي دجـانـة، وضـرار بـن الأزور وغيـرهـم مـن كبـار قـادة العـرب العظام.



شبه الجزيرة العربية

عقبة بن نافع قائد حملة الفتح الأولى

كـان عمـرو بـن العـاص داهيـة العـرب ـ وأول مـن استعمـل السيـاسـة كوسيلة لتحقيق المآرب والأهداف ـ قد انتهى من فتح مصر واستقر فيها والياً في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب. وفي عام ٦٤٢ ميلادية، سنة ٢٠ هجرية، استقبل بمدينة الفسطاط وفداً ليبياً من أهالي برقة[١] . وكانوا ممن

(١) مدينة كبيرة قديمة بين الاسكندرية وتونس. افتتحها عمرو بن العاص سنة ٢١ للهجرة

أطلق عليهم الجفاة الرومان إسم «البربر» جاؤوا ليعرضوا ما أجمع عليه قومهم الذين آثروا اعتناق الدين الإسلامي، ليتخلصوا مما يحتملونه من ظلم واستبداد على أيدي مستعبديهم الرومان البيزنطيين، إذا استطاعت الجيوش الإسلامية تحريرهم من الظلم والعبودية وطرد البيزنطيين المعتدين.

وسرعان ما نقل عمرو بن العاص رغبة وفد برقة الى الخليفة عمر بن الخطاب، مع نصيحته الى الخليفة بالإستجابة الى رغبته. ففوضة الخليفة عمر بانجاز المهمة متمنياً له النجاح فيها بعد أن زوّده بالنصائح والإرشادات، فانتدب عمرو بن العاص ابن خالته عقبة بن نافع قائداً لجيش الفتح لتحرير برقة من الرومان البيزنطيين.

وسار عقبة بن نافع على رأس جيش التحرير مستجيبا لدعوة سكان برقة وليس غازياً كما زعم المؤرخون الأوروبيون ومن نقل عنهم من العرب المستكتبين، فدخل برقة سلماً وباستقبال حافل، وترحيب مشهود، وعمل سكان برقة ما بوسعهم على تذليل العقبات أمام جيشه فحرّر عقبة المناطق الساحلية، ثم انطلق لتحرير الواحات الداخلية، وقد وضع نصب عينيه تحرير تونس ـ أو المغرب الأوسط، بعد فراغه من تحرير الواحات.

وكانت تعليمات الخليفة عمر التي أرسلها لعمرو بن العاص تقضي باستشارته قبل أن يهم بفتح جديد، فلمّا أرسل اليه يستشيره في ذلك، طلب منه التريّث والتفرّغ لنشر الإسلام فيما حوله، حتى تثبّت دعائم الإسلام وتستقر بين سكان برقة وقبائل الواحات فاكتفى عمرو بما وصل إليه وألحق برقة من الوجهة الإدارية بمصر كولاية إسلامية وأقام عقبة بن نافع في برقة يدير شؤون البلاد ويشرف عليها.

فيها آثار فنيقية ورومانية. تشتهر بتربية المواشي والأغنام.

عبد الله بن سعد بن أبي سرح قائد الحملة الثانية

بعد مرور عام واحد على تحرير برقة اغتيل الخليفة عمر وجاء عثمان بن عفان خليفة ثالثاً للمسلمين فعزل عمرو بن العاص مؤثراً عليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو الخليفة بالرضاعة، فانتقل الى مصر وسط أنباء وأخبار واردة من برقة تقول أن البيزنطيين يحشدون قواتهم على حدود برقة، فاستعد لزحف جديد بعد أن استشار الخليفة عثمان مده بجيش أسناد وأجاز له أن يضم لقواته من أحب الجهاد وأراده من أهالي مصر وقبائل برقة، فارتفع بذلك عدد جيشه الى عشرين ألف جندي معظمهم من العرب.

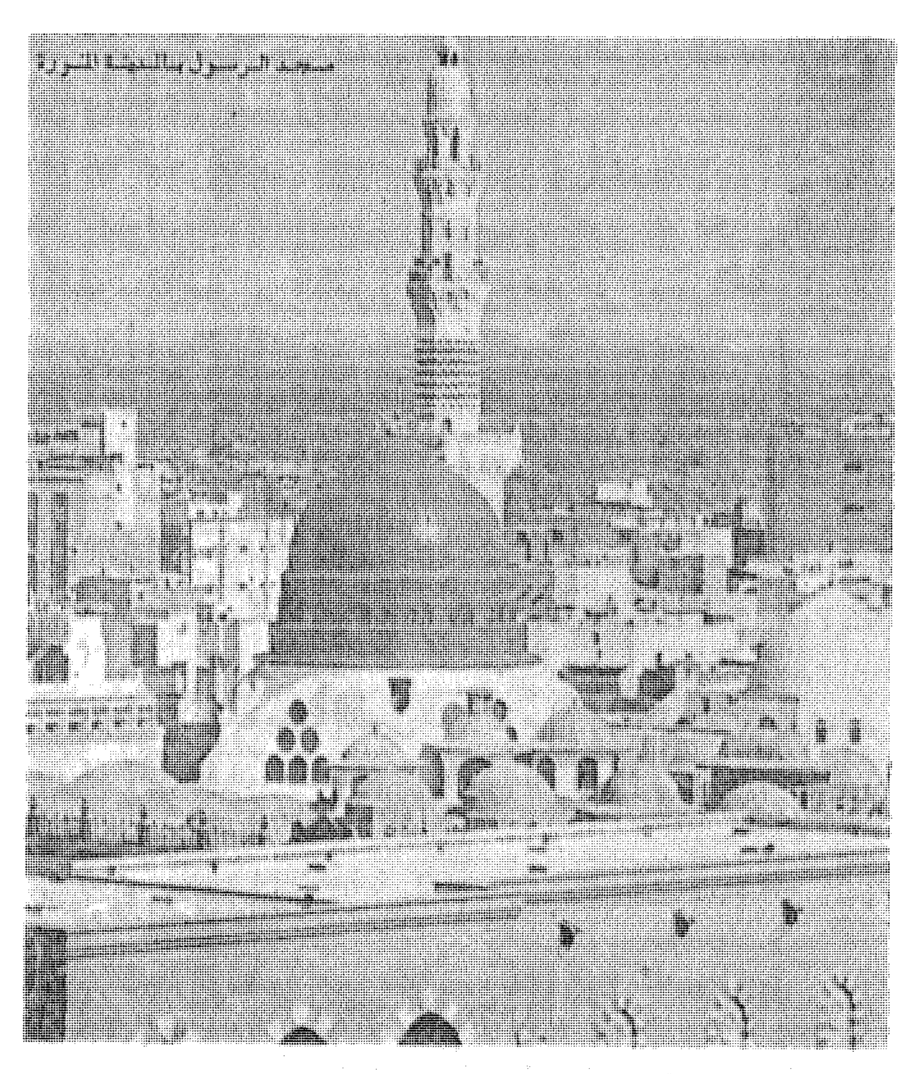
كانت أفريقيا في ذلك الوقت خاضعة للبيزنطيين شكلاً ويتولى زعامتها البطريق غريغوار «جرجير» وكان قائداً طموحاً اغتنم فرصة الخلافات الناشبة بين الكنيسة والامبراطور فانفصل عن الأمبراطورية البيزنطية معلناً استقلاله في أفريقيا وقد جهّز جيشاً قيل أن تعداده يبلغ ١٢٠ ألف جندي.. وحاول أن يتصدى به لجيش المسلمين الذي كان بقيادة ابن أبي سرح تسانده قوات عقبة بن نافع المرابطة في برقة، ولما اشتبك الجيشان في معركة سُبيطلة[1] «سوفيتولا» كان النصر للمسلمين وهزم جيش العدو وقتل البطريق غريغوار في هذه المعركة.

---

(١) سبيطلة: هي مدينة قمودة تبعد حوالي ٧٠ ميلاً عن القيروان. كانت مدينة جرجير التي دخلها عليه المسلمون في جيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وكان جرجير قد ابرز ابنته وحرّض الرومان على قتال المسلمين. ووعد من قتل بن أبي سرح بأن يعطيه ابنته ويشاطره في ملكه وبلغ ذلك عبدالله بن أبي سرح فحرض المسلمين ووعد من قتل الرومي الملك بأن ينفله ابنته. فقتله عبد الله بن الزبير ونفله ابن سعد ابنته والخبر طويل: ابن عذاري ص١/ ٩-١٤.

رفع هذا النصر العظيم قيمة جيش الإسلام ومعنوية المسلمين أمام سكان تلك البلاد خصوصاً القبائل الوطنية التي تمجد الشجاعة وتتغنى بها وقضى على الأسطورة البيزنطية التي تقول بأن جيوشها لا تغلب في شمال أفريقيا . . لكنهم غلبوا . . وبعد الهزيمة التي حاقت بهم اعتنق العديد من سكان أفريقيا بما فيهم القبائل الدين الأسلامي حباً وطوعاً وعمّت فرحة النصر أرجاء البلاد العربية في مشرقها ومغربها وراح المجاهدون الأبطال بطالبون بتحرير المزيد من الأراضي ونشر الإسلام فيها وبعد أن رأوا مناصرة المغاربة لهم بهذا الشكل المذهل. الا أن القائد ابن أبي سرح فضّل العودة الى مصر بعد أن تغيّب عنها خمسة عشر شهراً، دون أن يعيّن والياً على أفريقيا من قبله فترك خلفه علامات استفهام كثيرة.

ويبدو أن ابن أبي سرح كان على عجل من أمره بعد أن تلقى أخباراً تنبيء عن وقوع أحداث جُلّى في الحجاز بعد نشوب الثورة ضد عثمان بن عفّان التي أدّت الى مقتله. في ١٧ حزيران من العام ٦٥٦م/٣٦هـ وكان من بين قتلة عثمان جماعة من العرب المصريين تسوّر بعضهم عليه وهو ابن الثمانين، فوجدوه عند أمرأته نائلة يقرأ في المصحف فقتلوه فكان أول خليفة قتل بأيد عربية إسلامية . . وكان عدد الثوار المصريين الذين جاؤوا من مصر غضاباً ثائرين على عثمان زهاء ٥٠٠ ثائر.



مسجد الرسول (ص) بالمدينة المنورة

ثم بدأ النزاع بين الإمام عليّ ومعاوية على الخلافة. وكان قد بويع للإمام عليّ بن أبي طالب في مسجد الرسول في ٢٤ حزيران سنة ٦٥٦/٣٦هـ.

ولكن معاوية رفض أن يبايع علياً فشقّ بذلك عصا الطاعة وكانت بداية

الفتنة العمياء التي اتسع نطاقها فشملت الحجاز والعراق والشام فقمع الإمام عليّ فتنة البصرة المعروفة «بمعركة الجمل» في ٩ من كانون الأول سنة ٦٥٦م/ ٣٦هـ. فاندلعت بعدها معركة صفين بين الخليفة الإمام علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ومعاوية بن أبي سفيان الذي كان على رأس «الفئة الباغية» ومعه عمرو بن العاص. ثم اتفق الإمام علي ومعاوية على التحكيم شرط أن ينزل الفريقان عند حكم الله وكتابه[1] ولم يكن التحكيم نزيهاً فوقعت الخسارة على الإمام عليّ وهو الخليفة بينما كان معاوية أميراً أو والياً على الشام. ثم اغتيل الإمام عليّ في أوائل كانون الثاني سنة ٦٦٠م/ ٤٠هـ ولكن معاوية لم يعلن خلافته الاّ بعد انقضاء زهاء سنتين على تحكيم «اذرح»[2] وذلك في عام الجماعة بايلياء[3] «في القدس الشريف» سنة ٦٦١م.

وهكذا شهدت مدينة القدس المباركة مولد الخلافة الأموية في شخص معاوية بن أبي سفيان. فاتّخذ دمشق عاصمة له، وهي التي قال فيها المرحوم شوقي:

وعزُّ الشرق أوّلُهُ دمشق.

المغاربة يطالبون بتحرير المزيد من بلادهم ونشر الإسلام فيها

وما أن استتبّ الأمر للخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان حتى وفد عليه «غنّاجة» وهو من قادة القبائل الكنعانية البارزين، وكان قد أرسل من قبل

---

(١) يراجع نص وثيقة التحكيم في الدينوري ص٢٠٦.
(٢) اذرح: في هذه المدينة تم صلح الامام الحسن بن علي ومعاوية بن ابي سفيان.
(٣) إيليا: اسم مدينة بيت القدس الشريف. قيل معناه بيت الله وقد سمي البيت المقدس ايلياء بقول الفرزدق:

وبيتان بيت الله نحن وُلاته ... وقصر بأعلى إيلياء مُشرّق.

قومه لحث معاوية على استئناف إرسال الجيوش لتحرير شمالي أفريقيا، من الاحتلال البيزنطي الذي استشرى وتمادى في العسف والطغيان رداً على ثورة المغاربة ضد حكامهم. وتعهد «غناجة» لمعاوية بأن يعمل دليلاً للقوات العربية الإسلامية. فاختار لهذه المهمة معاوية بن حديج[1] وأوكل إليه قيادة الحملة الجديدة.

معاوية بن حديج يقود الحملة الثالثة

في عام ٦٦٦م/ ٤٦هـ وفق ابن حديج بالإستيلاء على العديد من المدن والمعاقل في القسم الشمالي من أفريقيا الشمالية فحاصر عبد الله بن الزبير «سوسة» في تونس واستولى عليها، واستولى عبد الملك بن مروان على «جلولاء» ثم احتُلّت جربة وبنزرت وكلها في «تونس»[2]

بعدها توقف بن حديج عن الزحف وعاد الى كرسي ولايته في مصر مرتكباً الغلطة نفسها التي ارتكبها سلفه ابن أبي سرح، بعدم تسمية من ينوب عنه في ادارة البلاد المحتلة. الأمر الذي يدعها عرضة للفوضى والاضطراب.

ويبدو أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان بالرغم من اهتمامه بأجزاء

---

(١) معاوية بن حديج توفي سنة ٥٢هـ/ ٦٧٢م كان ممن شهد حرب صفين في جيش معاوية. وولاه معاوية امرة جيش جهزه الى مصر وكان الوالي عليها محمد بن ابي بكر الصديق من قبل الامام علي بن ابي طالب فقتل محمداً وأخذ بيعة اهل مصر لمعاوية. ولي غزو المغرب مراراً آخرها سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م واستولى على صقلية وفتح بنزرت وهو ابن كبشة بنت معدى كرب الشاعرة.

(٢) تجدر الاشارة هنا الى انه اجتمع في معارك تونس هذه قائدان كبيران اصبح كل منهما فيما بعد خليفة للمسلمين وهما: عبد الله بن الزبير في الحجاز وعبد الملك بن مروان في دمشق ثم اقتتلا وتحاربا مدة طويلة الى ان قتل عبد الله بن الزبير وثبتت الخلافة لعبد الملك بن مروان وذريته فيما بعد.

أخرى في الوطن العربي ظل فكره مشغولاً بشمال أفريقيا التي لم يكتمل بعد افتتاح بعض احضارها الأكثر صعوبة ووعورة سيما وان سكانها وقبائلها أشد مراساً وعنادا من غيرهم.

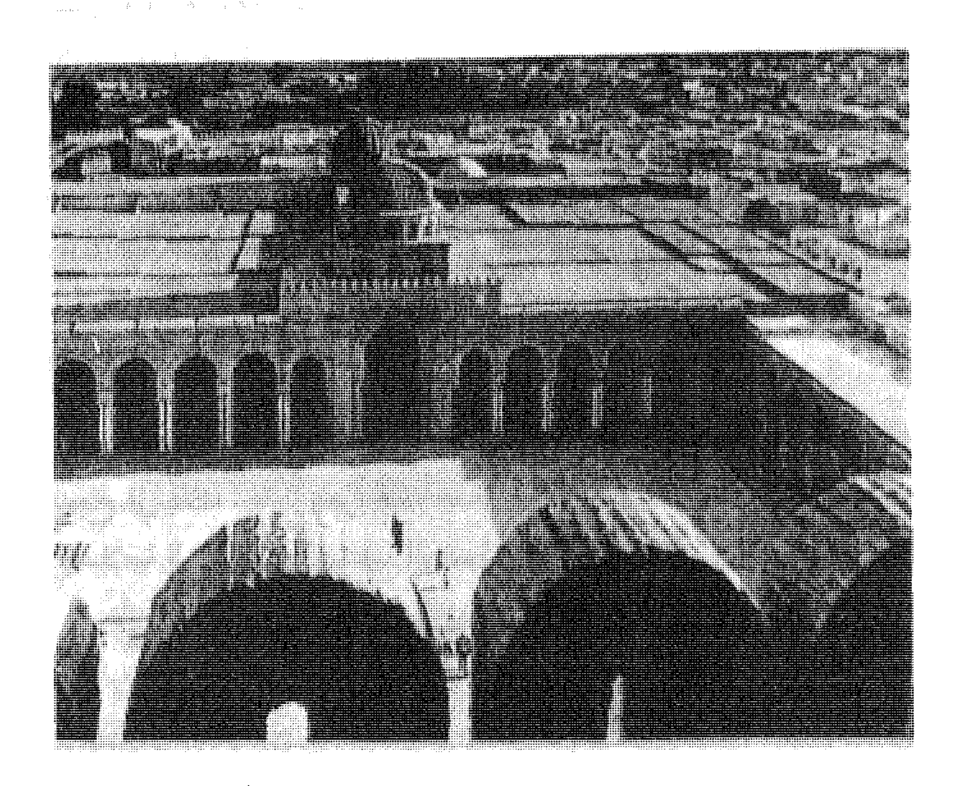
عقبة بن نافع يعود ليقود الحملة الرابعة:

وبعد أربع سنوات أي في عام ٦٧٠م/ ٥٠هـ حزم الخليفة رأيه وأعاد منصب القيادة العامة في أفريقيا للقائد الكبير عقبة بن نافع الذي سبق له أن احتل واحة «غدامس»[١] في عام ٦٦٢م/ ٤٢هـ.

وهكذا دخل عقبة «تونس على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندي، وكان قد اكتسب طيلة وجوده في ليبيا خبرة واسعة، جعلته مطلعاً على أحوال البلاد وسكانها، فضم اليه العديد من أولئك السكان خصوصاً زعماء القبائل الذين اعتنقوا الإسلام، فانضموا اليه مع قبائلهم، ولم ينس وهو يستعد لحملته الجديدة هذه أن يستعيد في ذاكرته تعليمات ونصائح الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي نصحه بأن يتّخذ له قواعد دائمة في البلاد التي يحتلها لتكون له بمثابة حصن منيع. فوقع اختياره على نجد واسع الرحبات في منتصف أراضي «تونس» وابتنى فوقه مدينة القيروان لتكون رباطاً دائماً للجيوش الإسلامية وذلك في عام ٦٧٤م الموافق سنة ٥٥ هجرية.

---

(١) غدامس. مدينة تقع في الصحراء فيها كهوف كانت سجوناً للكاهنة سكانها بربر مسلمون من قبيلة لمتونة وهي بطريق السودان



صحن جامع عقبة بن نافع وبيت الصلاة في مدينة القيروان

مدينة القيروان

كانت فكرة تأسيس مدينة القيروان ناجحة جداً خصوصاً بعدما شاد فيها مسجده الكبير الذي أصبحت تدرس فيه تعاليم الإسلام وأحكام الشريعة الإسلامية ويقرأ القرآن وتفسّر معاني آياته ويتذاكر فيه القوم بالأحاديث

النبوية وعلوم اللغة والآداب العربية المتوارثة، وتقام الصلاة في مواقيتها بعد الآذان وقد استغرق بناء مدينة القيروان من عام ٥٠ الى ٥٥هـ ـ ٦٧٠ـ٦٧٤م.

وشاهد سكان البلاد الذين اعتنقوا الإسلام كيف يقبل المسلمون على الصلاة بخشوع وورع، وكيف يتعامل المسلمون معهم بأمانة وصدق وتقوى وانعطاف، فأحبوا الإسلام ديناً يتجلّى فيه الورع والسماحة، فأقبلوا ينهلون من منابع الإسلام بشوق وحمية وحماسة كانت مثار إعجاب العرب المسلمين في مختلف بلادهم.

لقد أراد عقبة بن نافع أن يخدم الإسلام بنشر دينه بين سكان البلاد فنجح في ذلك نجاحاً باهراً كنجاحه في معاركه التي خاضها لمد الفتوحات الإسلامية الى أقصى ما يستطيع الوصول إليه.

واستمر عقبة في عمله الجليل دائباً زهاء خمس سنوات شغل معظمها ببناء مدينة القيروان. فاتهمه عامل مصر لدى الخليفة[١] بالانصراف عن مهام الفتح والاهتمام بتوريد المزيد من الغنائم الى بيت المال. وهذه مكرمة تزيد عقبة بن نافع شرفاً على شرف. ولكن عامل مصر كان جاهلاً حتى بالمبادىء الحربية التي تقوم على إقامة قواعد ثابتة لجيوش المسلمين لتخزين المؤن والأسلحة وحشد الكتائب وتدريبها واعداد فرق احتياطية مدربة للقتال.

ومع أن معاوية بن أبي سفيان كان قائداً حربياً قبل أن يصبح والياً ثم خليفة على المسلمين، وبدلاً من أن يثني على عقبة بن نافع لما كان يقوم به من جهود مضنية لتعزيز الإسلام ونشره وإقامة قواعده الثابتة ـ فإنه استجاب

---

(١) كان يومها مسلمة بن مخلد الأنصاري الذي كان معاوية بن ابي سفيان قد ولاه سنة ٤٧هـ/ ٦٦٧م.

لطلب واليه على مصر فعزل عقبة في سنة ٥١ هـ نزولاً عند رغبة هذا الوالي وبإلحاح مستمر منه.

أبو المهاجر دينار[1] يقود الحملة الخامسة

هكذا ازيح عقبة عن مهام القيادة وأنيطت بقائد جديد هو أبو المهاجر دينار أي في الوقت الذي كان فيه عقبة يتابع زحفه المكلل بالنصر في المرتفعات الوسطى مبتعداً عن الساحل. فلما تلقّى نبأ الإقالة تقبله بطاعة القائد المحارب المخلص الذي يجاهد في سبيل الله، وليس في سبيل والي مصر والخليفة معاوية الذي كان يبعثر أموال المسلمين لاسترضاء الغاضبين على تمرده. وعملاً بالشهامة العربية المتوارثة وبالمكارم الأخلاقية المأثورة فقد تخلّى عقبة بن نافع عن القيادة وسلمها للقائد الجديد الذي جهّز في الحال حملة عسكرية كبيرة قادها بنفسه وسار متوجها الى جبال الأوراس معاقل المغاربة الأشداء الذين عجزت بيزنطيا ومن قبلها روما عن اخضاعهم واكتفت بولائهم للأمبراطورية فقط واعترفت باستقلال منطقتهم. ويقال بأن أبا المهاجر أساء معاملة عقبة بن نافع وسجنه بعد تسلّمه.

كان أمير المغاربة في ذلك الحين يدعي كسيلة وهو رئيس قبيلة أوربة يتمتع بنفوذ واسع في مملكة الأوراس الصعبة المسالك. ولكن أبا المهاجر نازله وهزمه عام ٦٧هـ ففرّ كسيلة وطارده أبو المهاجر واستمر في زحفه الى

---

(١) ابو المهاجر: هو دينار فاتح من القادة كان مولى لبني مخزوم ولما ولى مسلمة بن مخلد مصر وافريقيا استعمله على افريقيا بدلاً من عقبة بن نافع فدخلها سنة ٥٥هـ/ وقاتله كسيلة البربري بقرب تلمسان فظفر ابو المهاجر وأظهر كسيلة الاسلام. عزله يزيد بن معاوية سنة ٦٢هـ/ ٦٨١م وأعاد عقبة بن نافع وحارب ابو المهاجر مع عقبة بأرض الزاب وقد انتقض كسيلة وفاجأ عقبة بجمع من الفرنج فاستشهد عقبة ومن معه جميعاً وكانوا زهاء ثلاثماية من كبار الصحابة والتابعين وبينهم ابو المهاجر وقد ابلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً. (الاعلام ٣/ ٢٥).

أن وصل تكمان فظفر المغاربة فيها بكسيلة ويبدو ان هذا تظاهر يومها باعتناق الاسلام على غير نية صادقة فصدقه ابو المهاجر ووثق به واستبقاه الى جانبه يستعين بمعلوماته عن احوال البلاد وسكانها .

ثم واصل زحفه فحاصر قرطاجة وكانت ما تزال في حوزة البيزنطيين، فلما عرض أولئك الفدية عليه لرفع الحصار عن المدينة التاريخية قبلها، وفك الحصار .

وهكذا انتهت مهمة أبي المهاجر لأن الفتح الإسلامي كان قد بلغ في عهد معاوية بن أبي سفيان المغرب الأوسط . أما المغرب الأقصى «وهو المملكة المغربية الحالية» فإن تحريره لم يبدأ إلا في عهد يزيد بن معاوية الخليفة الأموي الثاني .

وكانت الخلافة الإسلامية قد حوّلها معاوية الى ملكية وراثية خارجاً بمنهجه هذا عن طريقة الخلفاء الراشدين الذين كانوا يؤثرون انتخاب الخليفة الجديد وفقاً لمبدأ الشورى بين المسلمين .

عقبة بن نافع يقود الحملة السادسة سنة ٦٨٠م/ ٦١هـ

أعاد يزيد بن معاوية «٦٨٠-٦٨٣» القائد الكبير عقبة بن نافع الى مركز قيادته مستبدلاً به أبا المهاجر الذي سبق أن سجن عقبة وأساء معاملته أثناء ولايته كما أشرنا فقبض عليه وأخذه معه في حملته وكان أبو المهاجر قد كسب صداقة كسيلة رئيس قبيلة أوربة وجعله وقومه يعتنقون الإسلام. وفي أثناء تقدمه نحو جبال الأوراس في زحفه نحو الغرب علم بأن البيزنطيين عقدوا محالفة جديدة مع سكان الجبال «البربر» وأرسلوا أي البيزنطيين بعض خبرائهم بحرب الجبال والحصون والحصار مع قوة كبيرة مجهزة بآلات

الحرب الثقيلة والمنجنيق[1] لاعتراض الزحف العربي الإسلامي وإعاقته.

ولكن عقبة القائد المدرّب على الحروب والورع الزاهد المتقشف الذي كان يقضي ليله في الصلاة، فإذا داهمه النوم أغمض عينيه وافترش الأرض وتغطّى بعباءته ـ كان يمر بالقلاع والحصون الكثيرة المنتشرة فوق الجبال فلا يعيرها أدنى التفات، لأنه لم يكن حريصاً على أخذ المغانم بقدر ما كان حريصاً على مواصلة حملته حتى يصل إلى نهاية اليابسة. ومع ذلك فقد كانت الجموع المتربصة به في طريقه تعترضه فينقضّ عليها كالأسد الهصور ويشتتها فتهرب من أمامه وتلجأ الى الحصون والقلاع.

وكان السكان البربر أبطال الجبال يشاهدون بأعينهم بساله عقبة وصحبه المجاهدين فيزداد اعجابهم به فيقبلون عليه أفراداً وجماعات ـ بعد أن لمسوا بأنفسهم خوف البيزنطيين من قوة رجاله المحاربين الأشدّاء ـ والشجاع يحب الشجاع، لذلك أسرعوا للإنضمام إليه وأقبلوا على اعتناق الإسلام.

ولما أقبل عقبة على مدينة «تاهرت»[2] وهي معقل جبلي موقعه بين مدينتي الجزائر ووهران وجد بانتظاره جموعاً غفيرة من قبائل زناته وأخرى من لواته وهوارة وزواغه ومطماطة، فلم ترعه حشودهم. وأخذ يهيّىء

---

(١) منجنيق: أعجمي معرب. آلة للقذف استعملت في حروب الحصار منذ القرن الخامس ق.م. حتى القرن الخامس عشر. من أنواعه ما يرمي السهام او الحجارة او قدور الحشرات. وقد بطل استعماله في اعقاب اختراع البارود والمدفعية. والعرادة أصغر من المنجنيق (الموسوعة العربية الميسّرة)

(٢) تاهرت. مدينة مشهورة من مدن الغرب الأوسط على طريق المسيلة من تلمسان. كانت فيما مضى مدينتين كبيرتين احداهما قديمة والأخرى محدثة. جملة سكان المدينة القديمة من البربر. أما سكان المدينة الحديثة فهم من قبيلة لواته وهوارة. اتخذها الأباضيون أيام ميمون بن عبد الرحمن بن رستم عاصمة وكان يسلم عليه بالخلافة.

لمعركة خاطفة معهم.

ولما حان وقت الصلاة ترجّل عن فرسه وأمّ رجاله وصلّى بهم على مرأى من حشود الأعداء صلاةً هادئةً مباركة. فدهشت حشود العدو من جرأته وأعجبوا بورعه، لدرجة أنه لم يحاول أحد منهم أن يرميه بسهم، وبعد الصلاة، امتطى عقبة فرسه واندفع نحو تلك الجموع ففرّت خوفاً وفزعاً من أمامه، وهم الذين لم يكونوا من قبل يعرفون الخوف والفزع في الحروب، ولكن هيبة عقبة وعظيم ايمانه والصلاة التي أقامها سيطرت كلها على انفسهم، فأحسّوا بأنهم ينجذبون إلى هؤلاء، الورعين الذي ما نسوا الله في أشدّ المواقف حرجاً فاستأمنوا إليه وأسلموا جماعات جماعات.

ضم سبتة وطنجة الى قائمة المدن المحررة.

فأمر عقبة ببناء مسجد لهم وترك فيهم من يعلمهم الكتاب والسنة، ومضى في طريقه نحو «تلمسان» ثم انطلق بمحاذاة الساحل الى سبتة الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وكانت خاضعة لحكم جوليان «يليان» باسم الامبراطورية البيزنطية وكان جوليان غير راضٍ على أسياده الرومان فاستسلم لعقبة وتنازل له عن المدينة دون قتال، ولكن عقبة استبقاه في ولايته كتابع للدولة الإسلامية بعد أن وثق بولائه وبذلك سلمت سبته من الحروب وويلاتها. وكانت مدينة طنجه تابعة لولاية جوليان فضمها إليه وفيها رسم له جوليان المسيحي على الطبيعة خارطة البلاد والطرق التي سيعبرها في مسيرة الفتح وهي بلاد تسكنها قبائل صنهاجه النبيلة التي تسود جبال الأطلس في المغرب الأقصى، وهي الجبال التي استعصت من قبل على الفاتحين الرومان ولم تسمح لأحد باجتيازها.

وهكـــذا تـــابـــع مسيـــرتـــه فـــاحتـــلّ حصـــن

فلوبيليس[1] الروماني والمدينة قائمة بجواره، ثم اخترق جبال الأطلس الشديدة الوعورة واخترق معابرها الحصينة واستولى على بلدة «وليلي» التي تسكنها قبيلة أوربة ثم انطلق نحو إقليم «تادلا»[2] ومنه أشرف على وادي درعة[3] فقطع بذلك ألف كيلو متر في شهر واحد أو أكثر . .

وهذا جهد عظيم لا يقوم به إلاّ رجال عظماء أفعمت نفوسهم بالإيمان وعمرت قلوبهم بالبسالة التي لا حدود لها .

عقبة بن نافع على شاطىء المحيط

ثم انطلق عقبة يصول ويجول في مرتفعات الأطلسي الجبليّة فاجتاح إقليم تافيلالت وعاصمته سجلماسة، ثم اندفع نحو الغرب مخترقاً قبائل صنهاجة مارا بمنطقة السوس الأقصى فاستولى على تارودانت ليجد نفسه مواجهاً للمحيط الأطلسي عند قرية تدعى «ايغران» وراح يجول ما بين اغادير وتزنيت وهناك اقحم فرسه في مياه المحيط مستلاً سيفه بيمناه ووجهه الأسمر المعروف مشرئبّ نحو السماء، فهتف مخاطباً ربّه بإيمان عميق قائلاً: اللّهمّ إني لم أخرج بطراً ولا أشراً، وأنك لتعلم أني أطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين . . وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك . . اللّهمّ لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لخضته اليها في سبيلك» .

فيا له من ابتهال رجل مؤمن ويا لها من تهليلة كميّ باسل أدى واجبه

---

(١) فولوبيليس: هي مدينة وليلي فيما بعد. تعد من أهم وأبرز المدن الأثرية المغربية. تقع على بعد ٣ كلم من مولاي ادريس. اسّسها المغاربة القدماء (الموريطانيون) جعل منها الرومان مدينة زاهرة خصوصا في عهد الامبراطورية. (احمد المكناسي).

(٢) تادلا: اقليم مغربي سمي باسم المدينة الأزلية القائمة وفيها أثار للأول.

(٣) درعة: بالمغرب في جهة سجلماسة، وانما تعرف درعة بواديها فإنه نهر كبير يجري من المشرق الى المغرب وينبعث من جبل درن.

نحو ربّه ودينه وفي سبيل أُمّته مُعبّراً عن طموحٍ بلغ مداه وترفعٍ تجاوز حدّه، فهنيئاً له من بطل انسان، وعربي مكافح، حقق لأمّته معجزة جديدة، من معجزات الفتح بسيفه المسلول وبسيوف ورماح رجاله الكماة الميامين، فمرحى له وألف مرحى في سجل الخالدين على شهامته وبطولته[1].

بعد صيحة البطولة هذه قفل عقبة عائداً نحو الشرق ليتابع اداء رسالة الفتح بين القبائل المغربية حتى وصل «بسكرة»[2] من أعمال الزاب قاطعاً مسافة ٥٠٠٠ كيلو متر تقريباً، وتوغّل فيها عبر مناطق لم يسبقه اليها أحد من الفاتحين العرب مسجّلاً إسمه في التاريخ كبطل عظيم من أبطال الأمة العربية الذين جادوا بالنفس والنفيس في سبيل رفع أعلام الإسلام فوق المغرب العربي الإسلامي الجديد.

وعاد عقبة ادراجه والقبائل تسلم عليه وتستسلم له، وتدخل في دين الله أفواجا بين تسبيح وتهليل وهو يستغفر الله لكل من آمن واعتنق الإسلام «فسبّح بحمد ربّك واستغفره أنه كان

---

(١) كانت معلومات عقبة بن نافع الدينية المستمدة من تعاليم القرآن والسنة كبيرة وافية وعلى قدر من العمق. غير ان معلوماته التاريخية فيما يتعلق بالاسكندر المكدوني كانت على ما يبدو غير دقيقة. لأن الاسكندر لم يصل بفتوحاته الى شمال افريقيا بل أنها توقفت عند مصر. وكانت فتوحاته الكبرى في آسيا الصغرى والشرق الأدنى وبلاد فارس حيث قضى على الامبراطورية الفارسية الأولى ثم فتح الهند وخراسان والديلم «افغانستان حالياً» ووصل الى بكتريا وهي بلخ وما حولها من المدن فقط. كما ان هناك اختلاف في نص الكلمة التي قالها عقبة وقد جاءت في بعض المراجع على الشكل التالي: «يا رب: لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد الى مسكن ذي القرنين» وفي البيان المغرب يقول) «اللّهم انك تعلم أني لم أطلب الا ما طلب عبدك.، ووليك ذو القرنين.

(٢) بسكرة من بلاد الزاب بأرض المغرب (الجزائر حالياً) وهي قاعدة تلك البلاد كبيرة عليها سور وخنادق (قديماً) وتعرف ببسكرة النخل ويشق غابتها نهر كبير ينحدر من جبال أوراس.

توابا»[1] ويقال بأنه تزوّج بإحدى بنات القبائل وترك ذرية صالحة فيها. وابتنى العديد من المساجد في مساكن القبائل، الى أن وصل الى قرية نفيس الواقعة على كتف واد صغير شمالي وادي السوس فابتنى هناك رباطاً ومسجداً، وترك في الرباط جماعة من المجاهدين كان معظمهم من الفقهاء المحاربين الأبطال، وعلى رأسهم صاحبه «شاكر».

ولم يلبث أن صار ذلك الرباط يدعى «رباط شاكر» صاحب عقبة بن نافع وصار مركزاً مرموقاً ومشهوراً من مهامه نشر الإسلام في جنوبي المغرب الأقصى.

واستمر عقبة في رحلة الإياب يتقدمه اسمه النبيل، وسمعته الطيبة العاطرة وعفته ونزاهته وصلاحه وتقواه، ومما يؤثر عنه أنه كان عالماً باكتشاف الينابيع والمياه الجوفية، فكان يتجول في قطعة أرض اذا أعوزتهم المياه ثم يدق رمحه في الأرض ويقول أحفروا هنا.. فلا يلبث الماء العذب أن يتفجّر.. وقد فسّر العلم في العصر الحديث هذه الموهبة التي يتمتع بها بعض الناس الموهوبين بحاسة اكتشاف الينابيع والمياه القريبة من السطح، تفسيراً علمياً مقبولاً وأقرّ بها.

استشهاد عقبة بن نافع

كان الفاتح عقبة بن نافع لا يثق بكسيلة[2] ملك قبائل الأوراس فلم

---

(١) الآية رقم ٣ من سورة النصر.

(٢) كسيلة: ملك أوروبا والبرانس وقد أسلم هذا الرجل على يد أبي المهاجر الذي أحسن اليه واستبقاه. فلما قدم عقبة في ولايته الثانية وعزل أبا المهاجر عرفه الأخير بأن كسيلة من ملوك البربر وانه لم يستحكم اسلامه ونصحه بأن يعامله بالحسنى ولكن عقبة استخف بالأمر وراح يسيء معاملة كسيلة. وقد لام ابو المهاجر عقبة قائلاً «بئس ما صنعت كان رسول الله (ص) يتألف جبابرة العرب وانت تأتي الى رجل جبار في قومه وفي دار عزه قريب العهد بالشرك فتهينة؟». ولكن عقبة تهاون بكلامه واستمر في

يحسن معاملته كما أحسنها من قبل أبو المهاجر دينار، لذلك حجز على حريته وقيل بأنه وضع القيد في يديه بدلاً من التودد اليه، فأسرها كُسيلة في نفسه حتى لاحت له غرّة فانتهزها وفرّ هارباً، ملتحقاً ببعض قبائل المغرب ومن هناك أجرى اتصالاته بالبيزنطيين فتحالف معهم من جديد.

فنصب لعقبة كميناً في «تهودة»[1] من أعمال الزاب، من حيث لم يكن يحتسب وعلم عقبة بأن خطراً يهدد القيروان فأذن لمعظم رجاله بالإسراع الى العاصمة وبقي هو في خمسة آلاف في مقدمة طليعته عندما خرج عليه كسيلة مع القبائل التي تمكن من حشدها وبمؤازرة القوات البيزنطية فاشتبك عقبة مع المهاجمين في معركة فجائية لم يكن متهيئاً لها قرب وادي الأبيوض.

وفي هذه المعركة الضارية تكاثرت عليه جموع المهاجمين فسقط شهيداً، وبسقوطه أصيب الجيش الإسلامي بنكسة مروعة، اضطر على أثرها الى الجلاء عن القيروان عائداً الى أراضي برقة قاعدة الإنطلاق الأولى نحو المغرب. وهناك عند كتف وادي الأبيوض يقوم حالياً ضريح سيدي عقبة بن نافع وكان تاريخ هذه الانتكاسة المؤلمة عام ٦٥هـ/ ٦٨٤ اي في أول خلافة عبد الملك بن مروان..

وبالرغم من تلك الانتكاسة المؤلمة فإن المغاربة الكرام الذين تذوّقوا حلاوة الاسلام شعروا بفداحة الانتكاسة ولكنهم لم يرتدوا عن الاسلام، لأن

اساءة معاملته ونتيجة لهذا الوضع اغتنم كسيلة اول فرصة فنكث وقام في اهل بيته وقبائله من البربر وتحالف مع الروم وزحف على جيش عقبة ووقعت بين الفريقين معركة انتصر فيها كسيلة وقتل عقبة وابو المهاجر ولم يفلت احد ممن كان معهما من المسلمين وعددهم حوالي خمسة آلاف وكان ذلك سنة ٦٣هـ/ ٦٨٢م.

(١) تهودة: من بلاد الزاب بالقرب من بسكرة وهي مدينة من بناء الأولين عندها قتل عقبة بن نافع وقبره اليوم في مكان قريب منها.

املهم بالله كان عظيماً وبأن يعود المنتكسون المتراجعون الى ميدان الفتح ليتمموا رسالتهم التي ائتمنوا على ادائها. ولا شك بأن غلطة القائد عقبة باساءته معاملة كسيلة. قد جلبت على المسلمين وعلى مسيرة الفتح وعليه هو نفسه خطراً جسيماً. والانسان غير معصوم عن الخطأ وقد يكون لعقبة عذرة واسبابه في إساءة الظن بكسيلة وهو صديق الى المهاجر دينار بن ام دينار الانصارية، وكان الاثنان محجوزاً عليهما في معسكره ثم أخذهما معه في مسيرة الفتح وقُتل ابو المهاجر دينار مع عقبه.

هكذا بنيت القيروان

كان ذلك في خلافة معاوية بن ابي سفيان سنة ٤٦هـ/ ٦٦٦م عندما وجه معاوية عقبة بن نافع لاحتلال افريقيا «تونس» وأصحبه خمسة وعشرين من أصحاب رسول الله فافتتح ودان وجرمه ـ وهي مدينة فزان وخاور ومزاته وغُدامس وقصطيليه حتى وصل الى موقع القيروان وكان وادياً كثيف الشجر والغابة: كثير القطف[١] تأوى اليه الوحوش والسباع والزواحف، فهدته فطرته الصحراوية وتربيته العسكرية الى اختيار المكان الأنسب للدفاع والهجوم في آن واحد، فقرر أن يبني مدينة القيروان ومسجدها العظيم استناداً الى الاعتبارات الأمنية التالية:

ـ كونها قريبة من البحر مسافة تمكن المقيمين فيها من صد الغارات البحرية بكل سهولة.

ـ موقعها الجغرافي المتميز الذي يجعل من الاغارة البحرية عليها عملاً حربياً فاشلاً او متعذراً او باهظ الثمن والخسارة مهما كانت القوة المهاجمة ومهما كان عدد السفن التي تحشدها مراعياً في نفس الوقت عملية جلب

---

(١) كثير القطف: أي كثير الثمار المقطوفة.

المياه اليها من مكان يبعد ٦٣ كيلو متراً الى الجهة الغربية منها حيث يقع جبل «شريرا».

ومن عجائب مبتكرات العرب في الحصول على المياه واختزانها في الوسط الصحراوي انهم انشأوا صهريجاً ضخماً تحت الفناء الداخلي للجامع تنساب اليه مياه الأمطار، وكان الناس يستعملون «الدلاء» خلال فتحات رخامية ست موزعة في الفناء الخارجي لاستخراج المياه عند الحاجة.

وأجمل ما تحويه القيروان جامعها الكبير القديم الذي بناه وخط محرابه عقبة بن نافع بنفسه، وقد هدم في سنة ٧٨ هجرية وأعيد بناؤه فيما بعد، ولم يبق الآن من بناء مسجد عقبة القديم سوى جزء من المحراب.

ويقال بأن عقبة شعر بالخطر على الجياد والجمال من السباع والحيات الكبيرة والعقارب وكان مجاب الدعوة.

قال ابن عبد الحكم: فوقف على كتف الوادي ونادى بأعلى صوته: «يا أهل الوادي ـ مخاطباً رحمه الله السباع والآفات الأخرى ـ ارتحلوا فأنا نازلون» أعاد ذلك النداء ثلاثة أيام متوالية فلم يبق من السباع والوحوش والهوام شيء الآرحل، وأمر الناس بالتنقية والتخطيط وركز رمحه في ذلك الموضع وقال هذا قيروانكم بمعنى الرباط، وجماعة الخيل، أو معظم الكتيبة والقافلة.

وقال الليثاني سعد: «فجعلت الحيات والعقارب تنساب خارجة نحو الصحراء» وقال زياد بن عجلان: أن أهل القيروان أقاموا بعد ذلك أربعين سنة لو التمست حية أو عقرباً بألف دينار ما وجدت».

وليس ذلك بأمر عجيب لأن الحيوانات والأفاعي والعقارب تهرب من الأماكن التي تباشر فيها اعمال البناء من حفر وقطع الأشجار وتنظيف الأرض

من الأعشاب، ناهيك عن ضرب المعاول والمهدات وهي تحطم الصخور على وجه الأرض وكثرة الجلبة والصياح. وهذه أمور تنفر منها الحيوانات وتهرب الحيات والعقارب الى الصحاري، فليس في الأمر معجزة ولا كرامات.

وفي سنة احدى وخمسين للهجرة عزل والي افريقيا مسلمة بن مخلد الانصاري عقبة بن نافع بأمر من معاوية وعين بديلا عنه أبا المهاجر دينار بن ام دينار الانصاري كما مر معنا وكان معاوية قد ولى مسلمة بن مخلد سنة ٤٧ هجرية وأوصاه بأن يعزل عقبة بن نافع أحسن العزل، فخالفه ابو المهاجر وأساء عزل وسجنه وأوقره في الحديد، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه اليه. فخرج عقبة رضي الله عنه، ودعا الى الله ـ وكان مجاب الدعوة قائلاً: اللّهمّ لا تمتني حتى تمكنني من ابي المهاجر، فبلغ ذلك ابا المهاجر فلم يزل خائفاً متوجساً.

وحين تقابل الخليفة مع القائد البطل حصل بينهما الحوار التالي:

قال عقبة: «فتحت البلاد، وبنيت المنازل ومسجد الجماعة، ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار «وكان أبو المهاجر مولى لهم «فأساء عزلي».

فقال معاوية: معتذرا: «قد عرفت مكان مسلمة بن مخلّد من الامام المظلوم عثمان بن عفان، وتقديمه إيّاه وقيامه بدمه، وبذل مهجته؟! وقد رددتك الى عملك» ويبدو أن تسلم القيادة لم يتم الا بعد موت معاوية.

والحقيقة هنا هي ان عقبة بن نافع أعيد الى عمله في عهد يزيد الأول بن معاوية.

فخرج عقبة حتى قدم افريقيا، فقبض على ابي المهاجر وعامله بمثل ما عومل أي أوثقه وأساء عزله وحمله معه مكبلاً في غزوته. حتى بلغ البحر

فقال كلمته اللّهم اني اشهدك ان لا مجاز ولو اني وجدت مجازاً لجزت؟!».

والتحريف هنا من كتّاب الحديث والقصة. ومن روائع اعمال عقبة المعمارية بناؤه المسجد الأعظم في القيروان وتحديده لمحرابه الذي تحددت محاريب المساجد في المغرب كله على سمته.

ومن فضائله انه كان المثال الاسلامي الأعلى والداعية الأول الذي عرّف البربر بالاسلام ورغّبهم فيه، فأثرت فيهم شخصيته الفذّة، فأسلموا أفواجاً أفواجاً، وتحول المغرب الى قلعة اسلامية ضخمة مدّت نفوذها الى المغرب الأقصى كله والى ايبيرية وجنوب فرنسا وسردينيا وصقليه كما سيجيء معنا.

وعاشت القيروان قروناً عدة ترفل في اثواب المجد والعزّ، وشهدت أشهر قادة العرب يأتون من المشرق على رأس جيوشهم الجرارة في طريقهم الى المغرب والأندلس.

كما شهدت الأهوال والحروب، ـ ويعتبر عصر القيروان الذهبي بعد عقبة ـ هو عصر الدولة الأغلبية بين ١٨٤و٢٩٦ هجرية حيث ذاع صيتها وازدهرت أسواقها وانتشر اشعاعها الى اوروبا عن طريق صقلية التي احتلها الأغالبة[1].

---

(١) راجع الفصل الخاص بالأغالبة وعصرهم الذهبي.



مدينة القيروان: الحصن الأول للإسلام في الشمال الافريقي

زهير بن قيس البلوي يقود الحملة السابعة ويقضي على كسيلة

وفيما كان المجاهدون يجمعون جموعهم ويحتشدون في برقة[1]،

(١) برقة: احدى مدن ليبيا اليوم بين الاسكندرية وتونس تبعد عن البحر حوالي ٦ أميال فيها أثار كثيرة وهي برية بحرية، وقد نسب اليها جماعة من أهل العلم.

كان عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الخامس مشغول البال بالحرب الدائرة الرحى بين عامله الحجاج بن يوسف وعبد الله بن الزبير، وكان الاثنان من قبل في الحملة التي قادها معاوية بن حديج في تونس فاحتل عبد الله بن الزبير مدينة «سوسة» موجودة حالياً واحتل عبد الملك بن مروان «جلولاء» وهما الآن يتقاتلان حتى الموت على خلافة المسلمين.

ورأى عبد الملك أن التهاون والتقاعس في قتال كسيلة قد يزيده تمادياً في عدائه للمسلمين فالتفت لمعالجة انتكاسة الجيش العربي في المغرب بعد مقتل قائده عقبة بن نافع. فقرر أن يثأر لعُقبَة فانتدب زهير بن قيس البلوي عاملاً على مصر وقائداً للحملة الجديدة على المغرب، وكان عقبة نفسه قد اختار زهير المذكور لينوب عنه في القيروان عندما زحف على المغرب.

كان الجيش العربي حاضراً وجاهزاً عندما قاده زهير بن قيس منطلقاً به كالعاصفة الى القيروان ـ فانضم اليه في الطريق كل المغاربة الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام قبل النكسة وظلوا محتفظين بعقيدتهم الاسلامية. فاضطر «كسيلة» الى الانسحاب من القيروان نحو «ممس»[1] ولكن زهيراً أدركه وخاض معه المعركة الفاصلة التي انتهت بمصرع «كسيلة» سنة ٦٨٦م ـ ٦٧هـ كبطل كان يدافع عن ارضه وبلاده. وبمصرعه تبدد جيشه.

وقع العديد من افراده في الأسر فقنع زهير بالنصر الذي أحرزه وقرر العودة الى برقة.. بدلا من القيروان وذلك بعد أن نُمي اليه أنّ الأسطول البيزنطي يغير على السواحل الاسلامية، فانقض على البيزنطيين وأمعن فيهم تقتيلاً حتى أجلاهم عن السواحل وحرر المسلمين الأسرى، ولكنه في أثناء هذه المعركة سقط شهيداً مأسوفاً على براعته وقيادته وشجاعته. وبذلك

---

(١) ممس: وقيل ممش.

يكون قد انضم الى قافلة الشهداء الغُر الميامين الذين قضوا وهم يحررون المغرب.

وكان لمصرع القائدين الكبيرين عقبة وزهير بن قيس رنة اسى فظيعة لفجيعة الاسلام بهما لذلك عمّ الحزن أوساط القيادة العربية، وكان عبد الملك بن مروان أشدّهم حزناً ولكنّه حتى تلك اللحظة كان ما يزال شديد القلق على مصير الحجاز الخاضع لعبد الله بن الزبير فأرجأ الحملة الجديدة على المغرب حتى يصفي حساباته مع عبد الله وأخيه مصعب بن الزبير وكان مصعب في الماضي صديقاً حميماً. لعبد الملك بن مروان.

حسان بن النعمان يقود الحملة الثامنة

لما وافت البشائر عبد الملك بمصرع ابني الزبير: عبد الله ومصعب، وبعد ان وطد الحجاج الأمن وأقره في الحجاز واليمن واليمامة، اسند اليه الخليفة مهام ملاحقة الخوارج فانتدب لقتالهم المهلب بن ابي صفرة.. بعد ذلك استدار عبد الملك نحو المغرب، فاختار حسان بن النعمان الغسّاني لقيادة جيش كثيف أعدّه وجهّزه لتكملة فتح المغرب. وقدّر هذا الجيش بأربعين ألفاً، ثم انضمت اليه أعداد غفيرة من سكان البلاد ممن ذاقوا حلاوة الجهاد والفتوحات فاستعاد القائد حسّان القيروان عام ٦٩١م ـ٧٢هـ.

ويقال بأن حسان سأل سكان البلاد «الأفارقة» عن أقوى ملوكهم فأجابوه بأنه «سيد قرطاجة» وكانت قرطاجة خاضعة لحكم البيزنطيين، فهاجمها حسّان في العام التالي من ولايته وحرّرها من سيادتهم، كما حرّر سواها من مدن الساحل بمؤازرة الأسطول العربي، ثم اتّجه شمالاً فحرّر «بنزرت» ثم انطلق الى جبال الأوراس، لمنازلة قبيلة جراوة، وكانت بزعامة كاهنة الأوراس ولم يذكر

اسمها[١] . ولكنها كانت داهية بارعة في تأليب سكان الجبال للدفاع عن معاقلهم، هذا بالإضافة الى بعض الوحدات البيزنطية التي كان من مهامها تدريب الجبليين على القتال والفنون البيزنطية الحربية.

ان مدة التسع سنوات التي قضاها عبد الملك بن مروان في قتال خصومه ومزاحميه على الخلافة، أتاحت لكاهنة قبيلة «جراوة» مجالاً كبيراً للاستعداد وحشد القبائل الشديدة المراس، للقتال في معاقلهم العالية الوعرة التي لا تفسح اي مجال للفرسان العرب بالوصول اليها كي يصولوا ويجولوا كما هي عادتهم في حرب السهول الملائمة لكر الفرسان وطردهم. لذلك اندحر حسان في معركة «باغاي تبساً» واضطر الى التراجع الى قاعدة انطلاقه الأولى في برقه. فخسر في هذه النكسة كل المناطق التي ظفر بها وحررها في مطلع زحفه ومنها «قرطاجة»[٢] .

وراح حسان ينتظر وصول التعزيزات والامدادات، ويبدو ان «الكاهنة» لم تكن منسجمة تماماً مع الوحدات البيزنطية التي كانت تساعدها لذلك اتخذت موقفاً مستقلاً معتمدة على نفسها. . ولكنها كانت تدرك ان حسان او غيره سيعود لمناجزتها على رأس جيش كثيف مدرب لذلك لجأت الى الورقة الأخيرة في سياستها وهي «حرق الأرض» وتقويض المدن والحصون على

---

(١) الكاهنة: لم تذكر جميع المصادر المتوفرة لدينا اسم هذه الكاهنة وانما اكتفت بالقول انها زعيمة جبال الأوراس ورئيسة قبيلة جراوة. وإن كانت بعض المصادر تقول بأن اسمها دهيا ولكن هذا الإسم هو على الأرجح لقب عرفت به لدهائها وحنكتها حيث استطاعت أن تجمع حولها جميع قبائل الأوراس حتى سماها البلاذري بملكة البربر.

(٢) الظاهر أن هذه المعركة كانت على أحد روافد نهر مسكيانة وهو الإسم الصحيح كما في ابن عذاري وقد نجا زهير بعد أن ترك أرض المعركة وخسر عدداً كبيراً من زهرة شباب العرب ووقع في أسر الكاهنة حوالي ٨٠ رجلاً من وجوه أصحاب حسان بينهم خالد بن يزيد. وظل رجال الكاهنة يتبعون حسان حتى خرج من حدود قابس منسحباً الى ما وراء مدينة طرابلس.

امل ان يدب اليأس والقنوط في نفوس العرب فيتركونها وشأنها، ولكن رؤساء القبائل وسكان المدن وقفوا في وجهها ومنعوها من احراق الزرع والضرع. واستفحل الخلاف بين الكاهنة ورؤساء القبائل فأرسلوا الى حسان يستنجدون به كما ارسل حسان رسلاً الى الخليفة ليطلعه على تفاصيل الوضع المتفاقم ويعتقد بأنه ارسل مع رسله بعض رؤساء القبائل من الذين جاؤوا يستنجدون به، وادرك الخليفة عبد الملك بن مروان حراجة الموقف فاستجاب الى حسان وطلب منه متابعة الهجوم وارسل اليه التعزيزات المطلوبة.

وعندئذٍ، زحف حسان بقواته، وانقض على جبال الأوراس واشتبك مع الكاهنة وكانت قواتها أقل مما كانت عليه من قبل فدحرها وقتلت الكاهنة أثناء المعركة بعد ان سجلت لنفسها بطولة خارقة... عن جدارة وشجاعة نادرة استحقتها. ثم واصل زحفه في انحاء المغرب فاحتل قرطاجة ثانية عام ٦٩٥ ميلادية الموافق لعام ٧٦ هجرية(١).

وهكذا انهارت المقاومة في المناطق المحيطة بقرطاجة، واستسلمت قبائل المغرب ـ الذي أصبح بفضل حسان قطراً عربياً. وسارع المغاربة الى الانخراط في الجيش الإسلامي وعمّ الاسلام شمالي افريقيا. وتعزز الاسلام بدخول سكان المغرب فيه واعتناقهم لدينه.

مآثر حسان بن النعمان الغساني

قام حسان بن النعمان الغساني بأعمال ناجحة وبطولات خارقة استحق عليه ان يكون من كبار القادة المجاهدين في سبيل العروبة

(١) يقول المالكي في رياض النفوس: انه قد حدثت معركتان كبيرتان بين حسان والكاهنة الأولى منهما عند قابس والثانية وهي الفاصلة وقعت في جبال أوراس كما يذكر الدباغ كذلك وقد طلب ولدا الكاهنة الأمان من حسان بين المعركتين.

والاسلام[1] .

ويبدو انه اتبع سياسة الملاينة مع الحزم بعد الحرب، اي في خلال الثلاث سنوات التي قضاها في شمال افريقيا بعد النصر، لتعزيز القدرات العسكرية بالاصلاح المنشود. ويعزى الفضل الأول ببناء مدينة تونس الى القائد المجاهد حسان. . ولكننا لا نستبعد ان يكون المكان الذي انشئت فيه المباني الجديدة، كان مسكونا من قبل كضاحية من ضواحي قرطاجة على اعتبار ان السكان المزارعين والفقراء كانوا يسكنون خارج قرطاجة اي في الموقع الذي انشأ فيه حسان مبانية الجديدة على شكل رباطات، ومسجد للصلاة وامثال ذلك. . كما اسّس ترسانة لصناعة السفن اطلق عليها اسم «دار الصناعة» فهو والحالة هذه جمع ما بين القيادة العسكري والاصلاح المدني في نطاق واحد فهو قائد حربي ومصلح اجتماعي في آن واحد.

وهذه المآثر سجلت في تاريخه الإسلامي لأنه عزّز الإسلام باستتباب الأمن في الربوع المغربية من برقة الى جبال الأوراس؛ وعمل على نشر العقيدة الإسلامية بما أعدّهُ من رباطات وما بناهُ من مساجد لتعليم اللغة العربية وآدابها وتحفيظ القرآن الكريم. وأكثر من ذلك فقد أتم رسالة من سبقوه من الفاتحين الكبار بتحرير شمال أفريقيا من ظلم واستبداد الرومان البيزنطيين أو على الأصحّ من اللّعنة التي انصبّت على الشرق الأوسط والشمال الأفريقي أكثر من ٩٠٠ سنة من حكمهم أي منذ أن اقتحم بومبي القائد الروماني سوريا وفلسطين. وسقوط قرطاجة عام ١٤٦ ق.م.

موسى بن نصير وطارق بن زياد

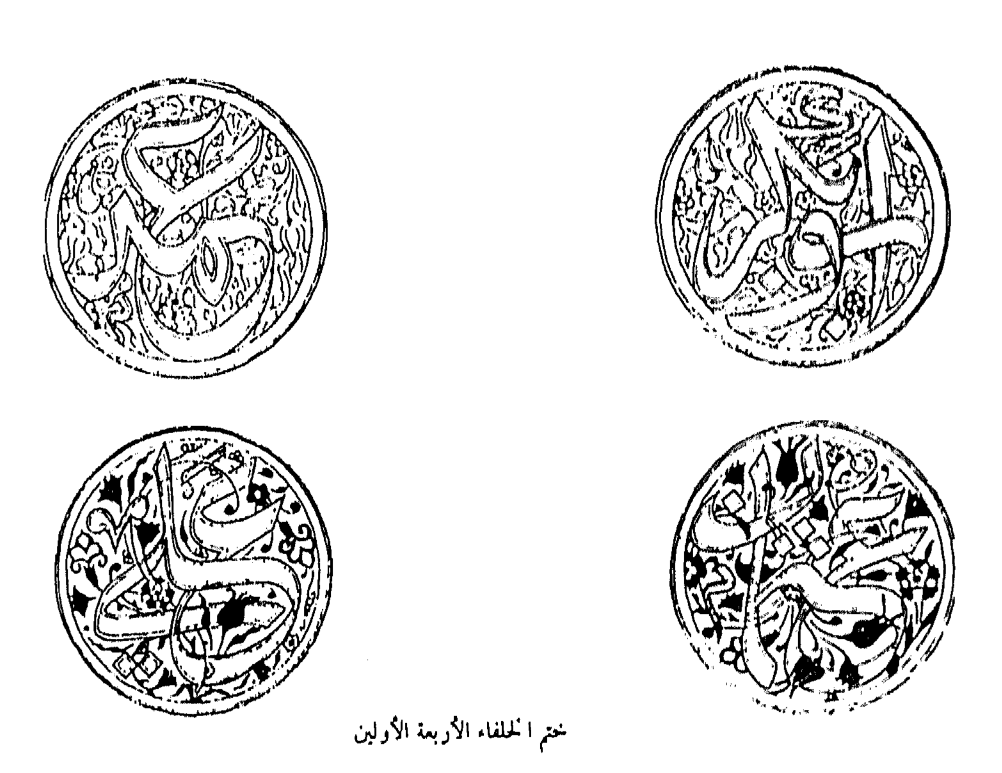
وظلّ حسان عاملاً أمنياً على شمال أفريقيا إلى أن أُعفيَ من مناصبه في

---

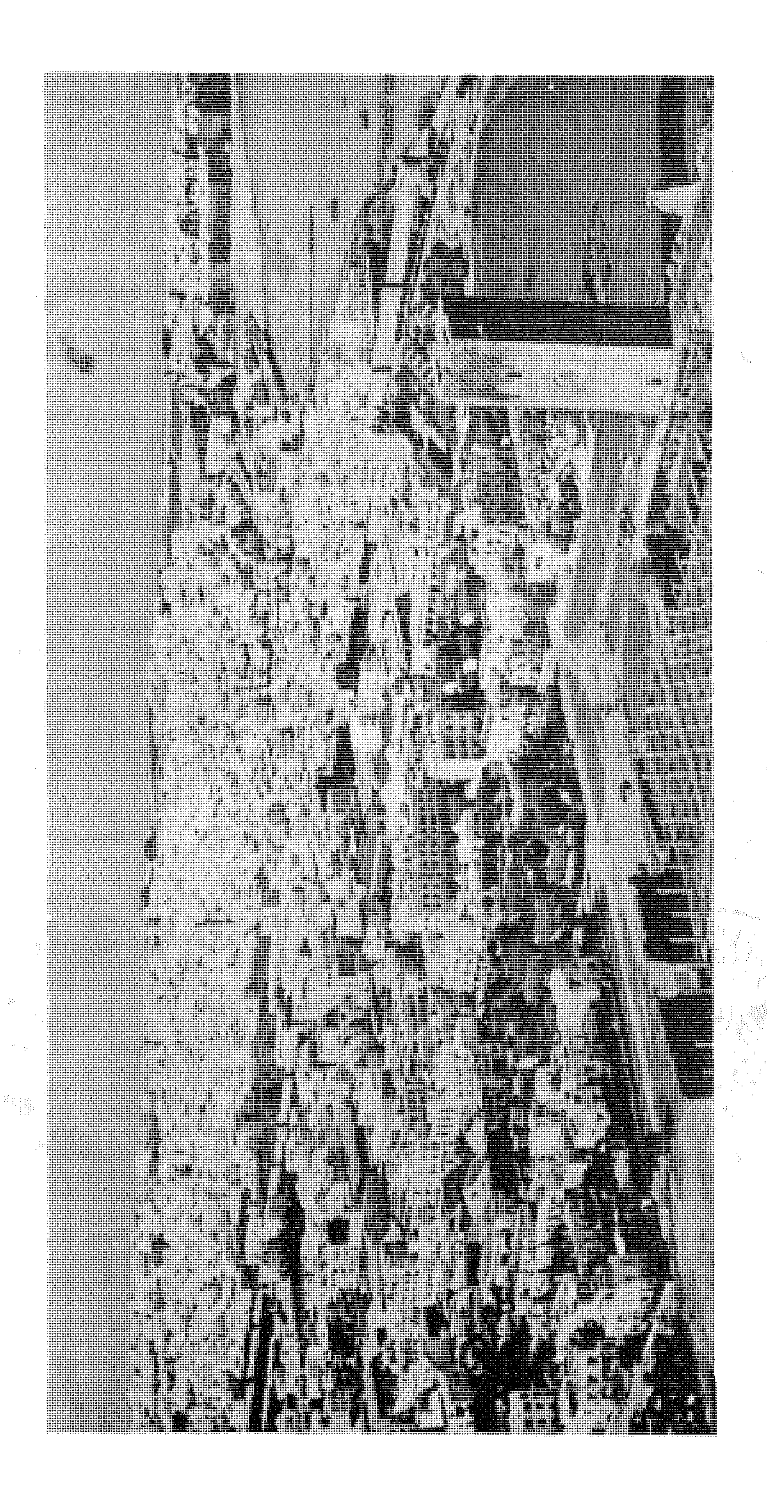
(١) البلاذري ص٢٢٩ـ ابن خلدون ص٧/٨ـ٩ـ ابن عذاري ص ١/ ٣٨ـ٣٩.

سنة ٧٠٤ م/ ٨٥هـ، حين عُيّن خلفاً له القائد موسى بن نصير كوالٍ أمويّ جديد على بلاد المغرب وكقائد عام للجيوش الإسلامية في الشمال الأفريقي.

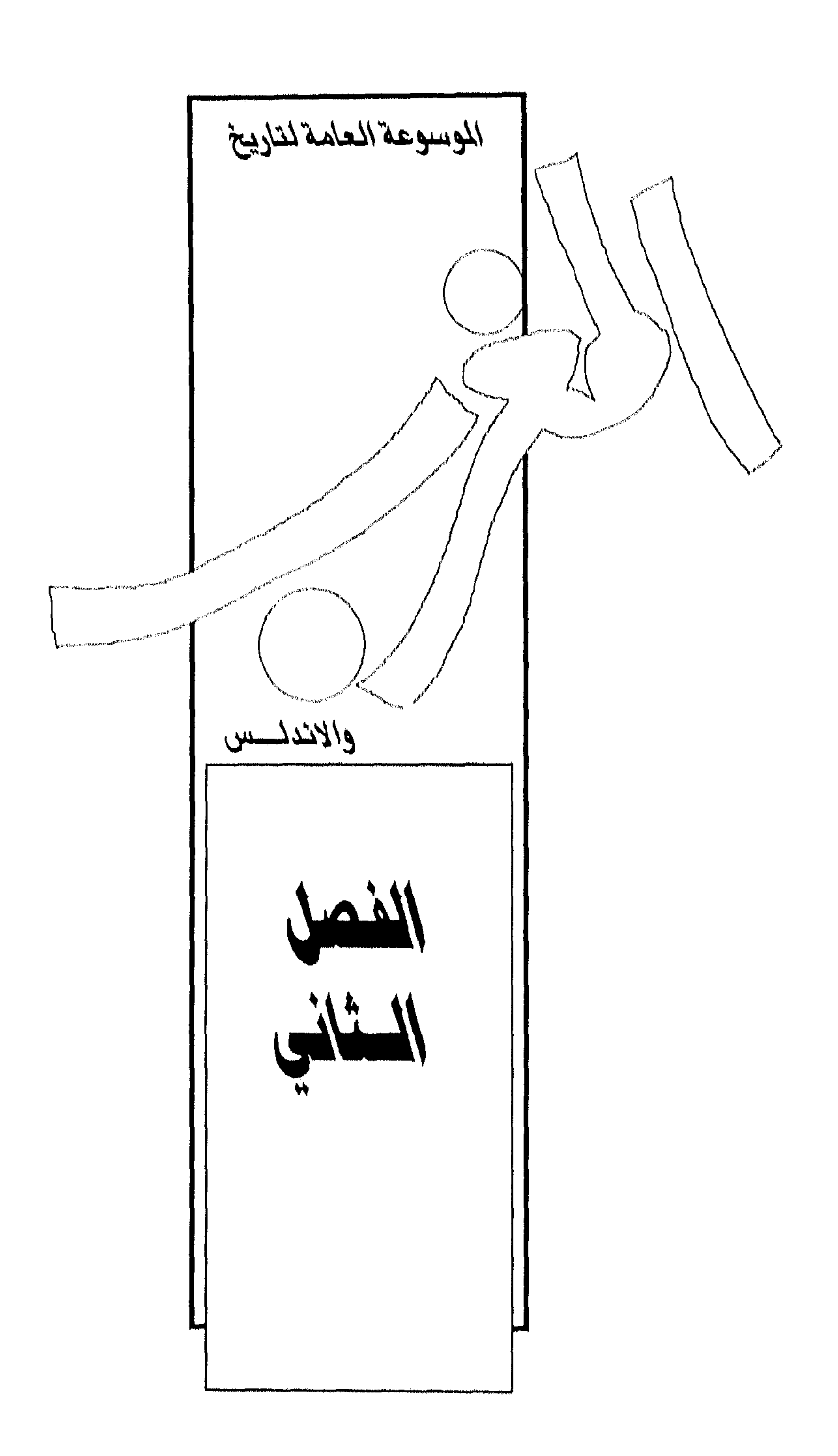
في عهد موسى بن نصير أصبحت حكومة أقطار شمالي أفريقيا تساس من القيروان بعد أن استقلّت عن مصر وصار أمرها منوطاً بالخليفة في دمشق مباشرة.



ختم الخلفاء الأربعة الأولين



منظر عام لمدينة الرباط وترى صومعة حسان الى اليمين



الفصل الثاني

المغاربة في ظل الحضارة الإسلامية

لمـا كان لا بد من اعادة المناطق التي سبق ان احتلها عقبة بن نافع الى ما كانت عليه في عهده فقد اتبع موسى بن نصير[1] الخط الذي سار عليه

---

(١) موسى بن نصير (١٩هـ ـ٦٤٠ـ٧١٥م) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء ابو عبد الرحمن فاتح الأندلس أصله من وادي القرى بالحجاز. نشأ موسى في دمشق وولى غزو البحر لمعاوية وغزا أفريقيا في ولاية عبد العزيز بن مروان. ولما آلت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك ولاه أفريقيا الشمالية وما وراءها من المغرب سنة ٨٨هـ/ ٧٠٦م واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة وأمره بغزو شواطيء أوروبا فزحف طارق واجتاز البحر سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م فاحتل الجبل الذي سمي فيما بعد باسمه وقتل الملك روذريق بيده. وكتب طارق الى موسى بما حصل فكتب اليه موسى يأمره بأن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ولم يعبأ طارق بأمره وكان موسى يومها مشغولاً باخماد ثورات البربر التي كانت لا تزال خارجة عن الطاعة في أطراف المغرب حيث وجه اليهم ولده عبد الله فأخضمهم وأتاه بمئة الف رأس من السبايا ثم وجه ابنه مروان الى جهة اخرى فأتاه بمئة الف رأس أيضاً ويضيف بعض المؤرخين فيقول: أن بلاد المغرب كانت يومها في قحط شديد فأمر موسى الناس بالصوم والصلاة وخرج بهم الى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ثم صلّى وخطب بالناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له: الا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى: وقيل ان موسى ندم على تأخره وعلم أن طارقاً ان فتح شيئاً نسب الفتح اليه دونه فأخذ في جمع العساكر وولى على القيروان ابنه عبد الله

عقبة فاجتاز المغرب الأوسط حتى بلغ المناطق الشمالية، فدخل طنجة، ومن هناك سيّر ابنيه عبد الله ومروان لاستكشاف المناطق الجنوبية، وحدثت هناك اللّحمة، لحمة العرب بالمغاربة الذين أقبلوا أفواجاً أفواجاً وقبائل لاعتناق الدين الإسلامي العظيم واهتدى موسى بسيرة سلفه حسان بن النعمان باتباع سياسة الملاينة والرفق مع سكان البلاد، فاكتفى بأخذ بعض الرهائن من أبناء القبائل لضمان ولائها.

هذا مع العلم بأن سكان المنطقة الشمالية الساحلية كان معظمهم قد اعتنق الدين المسيحي في العهد البيزنطي، وظهر ترتليان والقديس كبريانوس والقديس اوغسطينوس وهؤلاء من ألمع الشخصيات المسيحية المتقدمة، وفيما عدا ذلك فلم يكن ثمة أدنى أثر لما يسمى بالحضارة الرومانية على المغاربة سكان البلاد الأصليين، لأن الرومان من قبل والبيزنطيين من بعد سكنوا في المناطق الساحلية كأجانب محتلين

واقبل نحو الأندلس في ١٨ ألفاً فدخل اسبانيا في رمضان سنة ٩٣هـ/ ٧١١م سالكاً غير طريق طارق فاحتل قرمونة واشبيلية وغيرها وفكر في العودة الى المشرق عن طريق القسطنطينية ولكن الوليد بن عبد الملك كتب اليه يأمره بالعودة الى دمشق وأطاع موسى الأمر فاستخلف ابنه عبد العزيز على قرطبة وأتى بسبايا لم يعهدها فاتح قبله وقيل أنه عندما وصل الى بعض جهات فلسطين كتب اليه سليمان بن عبد الملك يعلمه بمرض أخيه ويطلب منه التمهل بعض الوقت ريثما تنتقل الخلافة اليه فلم يطعه موسى ودخل دمشق سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م والوليد في مرضه فلما ولى سليمان عزله ونكبه وتوفي في وادي القرى بالحجاز في حالة سيئة.

وقال بعض العلماء أن موسى بن نصير كان عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً لله تعالى ولم يهزم له جيش قط وكان والده نصير على جيوش معاوية ومنزلته لديه مكينة ولما خرج معاوية الى حرب صفّين لم يخرج معه. فقال له ما منعك من الخروج معي ولي عندك يدٌ لم تكافيء عليها؟ فقال: لم يمكنّي أن أشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك فقال من هو؟.. فقال: الله عزّ وجلّ. (المراجع: نفح الطيب ـ جذوة المقتبس ـ الحلة السيراء ـ وفيّات الأعيان).

«ومكروهين» في الوقت نفسه، لأن ثقافتهم وعاداتهم كانت تختلف اختلافاً بيّناً عن ثقافات وعادات سكان البلاد، وعلى عكس ما قيل فإن سكان البلاد لم يكونوا من البدو كما زعم بعض المؤرخين وهم يريدون بذلك ربط حياة البداوة المغربية بحياة العرب «كبدو» قادمين من الصحراء، والحقيقة ان سكان المغرب عامة وسكان الشواطىء خاصة كانوا شعباً واعياً ومثقفاً يتميّز بمزايا خلقية كانت مفقودة لدى الغزاة الرومان. لأن العرب اشتهروا بالصدق والأمانة وحسن التعامل في السياسة والتجارة وفي أساليب الحكم ناهيك بأنهم كانوا يكرهون سفك الدماء، واستعباد الأحرار، لأن الدين الاسلامي ينهي عن ذلك، وكانوا متحلين بالفضائل الانسانية والاسلامية فهم لا يتعاطون شرب الخمور. ولا يزنون ولا يرتكبون الفواحش، ولا يأكلون حقوق الناس، ولا يغتصبون أملاكهم، ولا يعتدون على المنازل لأنها حرمات مقدسة، ولا يهاجمون المعابد والكنائس، لأن الدين الاسلامي يحض على احترام الكنائس والبيّع ومعاملة رجال الدين والرهبان بتجلة واحترام.

هذه القضايا الاخلاقية جعلتهم أقرب الى قلوب سكان البلاد من الرومان والبيزنطيين الذين كانوا يستعبدون الشعوب ويطلقون عليهم اسم «الأرقاء» كما كانوا يطلقون على ملوك المغاربة لقب «الملوك الأرقاء» ويبيعونهم اذا ثاروا في أسواق العبيد.

أمّا قول المؤرخين الغربيين بأن موسى بن نصير لم يمد نفوذه الى أبعد من طنجة فهو تقوّل وإفتأت على الحقائق، لأن موسى أرسل ابنيه عبد الله ومروان لاحتلال وادي درعة والتخوم الصحراوية، وقد استمال اليه حاكم سبته النصراني، وأكثر من ذلك فإن الأكثرية ـ ثم الأقلية التي تبعتها بعد فتح الأندلس قد اعتنقتا الدين الإسلامي تلقائياً وانخرط العديد منهما في سلك

الجهاد.

وزعم المؤرخون الغربيون أيضاً أن المتحضرين من المغاربة قبلوا «النير الجديد» كشرط لتأمين النظام.. والحقيقة أنه لم يكن ثمة «نير» على الإطلاق. فالحكم الإسلامي كان قائماً على مستوى الدين السماوي وتعاليم القرآن وشريعته المتحدة من القرآن واجتهادات الرعيل الأول من الخلفاء الراشدين والصحابة من المهاجرين والأنصار والتابعين..

ولعل أكبر وأعظم دليل على ذلك هو أن الجيش الجديد الذي أعده موسى بن نصير لفتح الأندلس كان من المغاربة أي سكان البلاد الأصليين وقوامه سبعة آلاف جندي منهم ٣٠٠ فارس من العرب فقط[١] وأكثر من ذلك فقد قاد ذلك الجيش طارق بن زياد.. وهو من سكان البلاد المغاربة وكان بالأصل من موالي موسى بن نصير. لذلك فهو كنعاني - بربري صميم. ولا نستبعد انه كان عربياً من العرب الذين اختلطوا بالمغاربة وجاؤوا من اليمن عن طريق السودان.

وقد ذكر أحدهم في كتاب «تاريخ المغرب» ما نقله حرفياً عن كتاب لأحد المؤلفين الفرنسيين وربما كان «قزال» بأن المغرب الذي أصبح «نظرياً» ولاية في الامبراطورية العربية كان يقدم الجند والعبيد ويدفع الخراج لملء خزائن خليفة بغداد.. وهذا أيضاً كلام غير مقبول. والا اضطررنا الى فتح ملف العبودية والاستعباد، حيث تروي أبشع المآسي عن استعباد الغرب

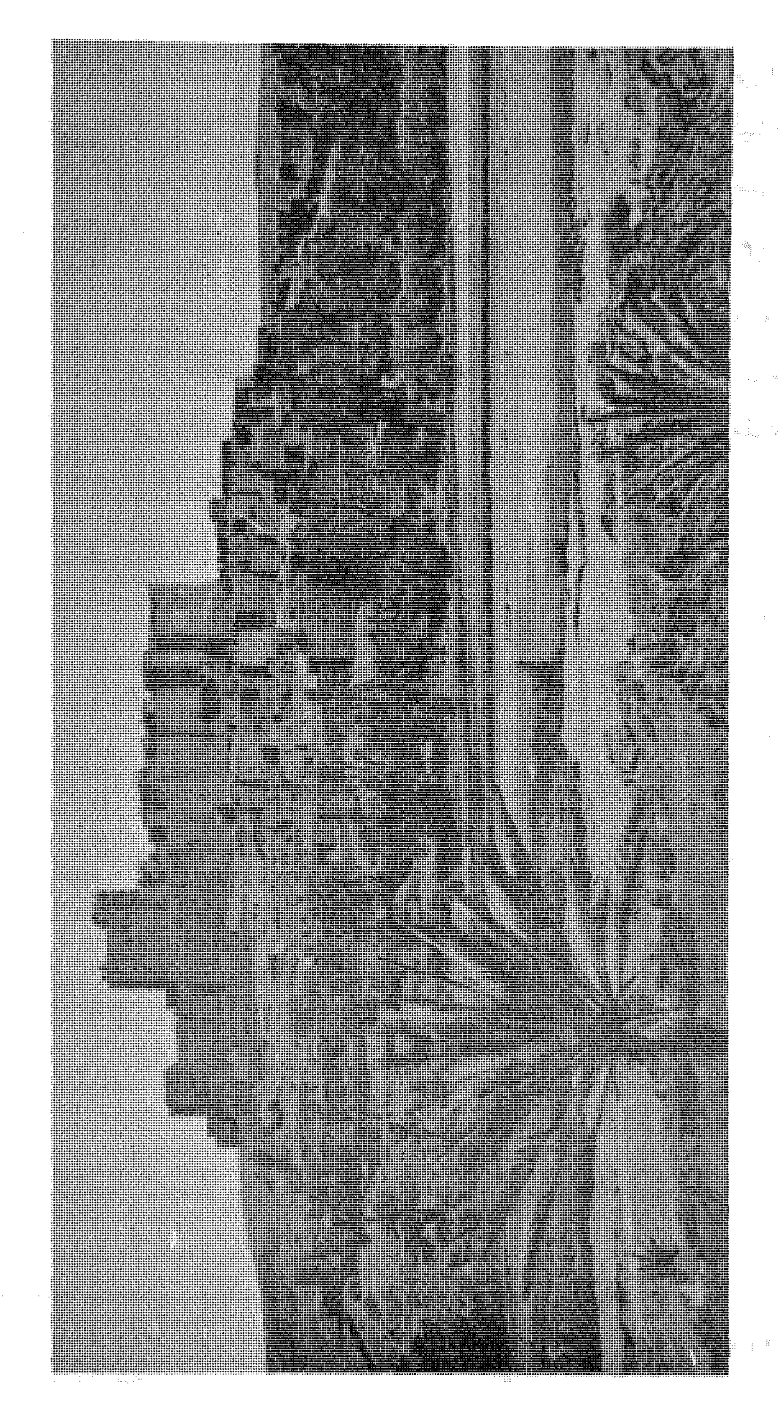
---

(١) يقول ابن عذاري في بيانه أن موسى بن نصير خرج الى الأندلس في عشرة آلاف من أفريقيا ص٢/ ١٣ ويقول المقري في نفح الطيب انه غزا الأندلس في اثني عشر الفاً من البربر خلا اثني عشر رجلاً النفح ص١/ ٢٣٩ وتقول مصادر أخرى أنه دخل الأندلس في ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر وكان بينهم عدد من التابعين ومن زعماء القيسية واليمنية ويذكر من التابعين حنش الصنعاني وعلي بن رباح اللخمي ومغيث الرومي وغيرهم.

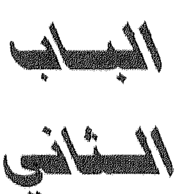
الوثني ثم المسيحي لإقطار عديدة في غربي آسيا وشمال أفريقيا، وفي أوروبا بالذات . . حيث استعبد الرومان مملكة راشيا وهي رومانيا حالياً طمعاً بالاستيلاء على خزائن الذهب فيها ـ وقد قام بهذا الاستعباد الأمبراطور تراجان الروماني الذي تولى الحكم سنة ٩٨ ميلادية وتوفي سنة ١١٧م.

والتاريخ يحدثنا أن ملك راشيا «رومانيا حالياً»[(١)] انتحر مع وزرائه ورجال البلاط في مأساة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً . . حتى أن تراجان عندما دخل قاعة العرش ووجد المنتحرين بالسم جالسين على عروشهم ومقاعدهم وكأنهم أحياء ذعر ذعراً شديداً.

(١) مذكرات الامبراطور هادريان ١١٧ ميلادية وقد حكم بعد تراجيان مباشرة وهو من عائلته ووريثه.

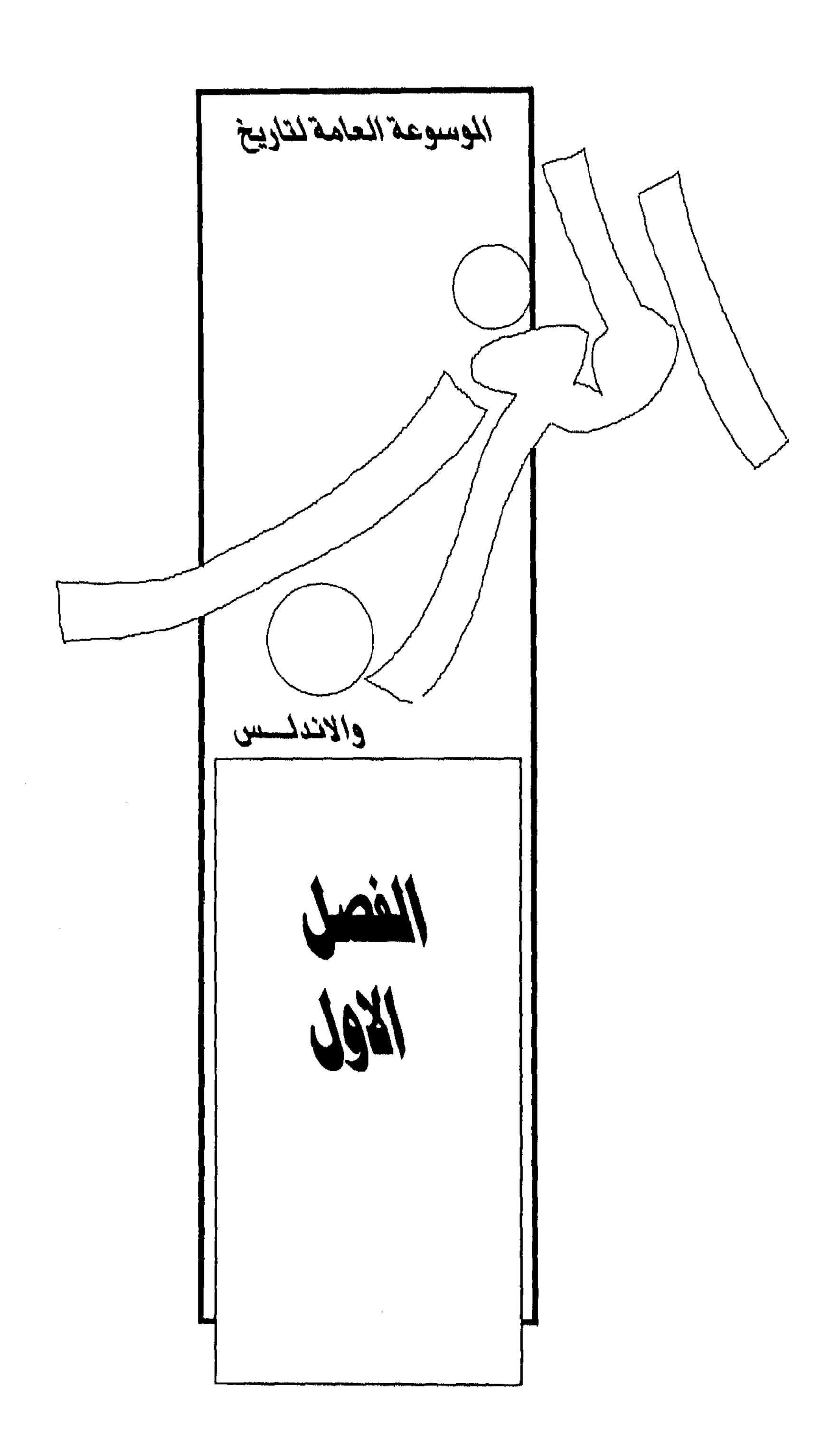


احدى قلاع المغرب المقاوم



الباب الثاني

جبل طارق كما يبدو اليوم



الفصل الاول

فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد(1)

لقد دهش المؤرخون الغربيون وذهلوا من السرعة الخارقة التي تم فيها احتلال أقطار شمالي أفريقيا، فراحوا ينقبون في مخلفات روما والقسطنطينة لعلهم يعثرون على الأسباب والمسببات، ولكنهم لم يعثروا على شيء يتخذونه حجة ضد العرب، فراحوا يستنطقون كتب التاريخ الموضوعة في عهد الرومان وفي عهد بيزنطة، أو في ايبيريه لعلهم يعثرون على مذبحة ارتكبها العرب أو على عمل من أعمال الوحشية والقسوة كتلك التي كان يرتكبها الرومان والبيزنطيون في شمالي أفريقيا، ولكن بحوثهم لم تجدهم نفعاً فاستسلموا وهم يطوون ضلوعهم على غيظ شديد، استسلموا الى التخمينات والافتراءات، وتمويه الحقائق بالباطل.

(1) طارق بن زياد قائد من البربر ينسبه ابن عذاري الى قبيلة نفزة كان مولى مغربيا لموسى بن نصير ندبه موسى بن نصير لغزو الأندلس فعبر طارق المضيق بمساعدة يليان حاكم سبتة وخف لذريق حاكم القوط على رأس جيش كبير لملاقاته والتقى الجيشان عند بحيرة لاجندا وهزم لذريق.

وتقدم طارق وراح يستولى على المدن واحدة واحدة وتبعه موسى بن نصير واستولى كذلك على مدن كثيرة وبهذا ثبت فتح العرب لاسبانيا فحكموها حتى سنة ١٤٩٢. وعاد موسى وطارق الى دمشق سنة ٧١٤م.

ثم اشتد غيظهم وحقدهم على العرب عند ما لم يجدوا الأسباب المقنعة التي حملت السكان المغاربة على اعتناق الدين الإسلامي الحنيف بتلك السرعة المذهلة، وتضاعف ذهولهم واشتدّ غيظهم من ذلك التعاطف الذي آخى بين العرب والمغاربة لدرجة أقبل المغاربة معها وبسرعة مذهلة على الانخراط في الجيش العربي الاسلامي. ولما لم يجدوا اي برهان ولم يعثروا على اي دليل يؤيد دعواهم قالوا كلمتهم المشهورة «بدوٌ التقوا بدواً فتوثقت بينهم العلاقات».

ومن المعلوم أن أوروبا كانت ما تزال غارقة في الجهل وان القوط والغاليين الذين احتلوا أوروبا الغربية كانوا وما يزالون قبائل من الغزاة والمغيرين الباحثين عن وطن جديد. وقد دمر القوط الامبراطورية الرومانية فاحتلوا أقساماً كبيرة من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذها ومنها ايبيريه.. وحتى ذلك التاريخ لم تكن تعرف باسبانيا بل ايبيرية.. اما بالنسبة للكنعانيين فكانت تعرف باسم اتيكا وترشيش وبالنسبة للقرطاجيين كانت تعرف باسم قرطاجنة وهي ابنة قرطاجة على ساحل ايبيرية المُطلّ على شاطىء البحر الأبيض المتوسط.

الواقع الديني والمذهبي في ايبيرية إبان فتحها

أطلق العرب على ايبيرية اسم «الأندلس» المشتقّ من اسم قبائل الفندال أو الوندال الذين احتلوها بعد الرومان ثم نزحوا منها الى شمالي افريقيا ـ كما مرّ معنا ـ

وقبل أن يمتد اليها الفتح العربي كانت ايبيرية خاضعة للاحتلال الروماني «أي الامبراطورية الرومانية الغربية. وفي مطلع القرن الخامس الميلادي أي حوالي عام «٤١٠م» اجتاحتها قبائل القوط وأسسوا فيها دولة

قوطية واتخذوا مدينة طليلطة عاصمة لها.

ومن هنا نفهم أن القوط كانوا مثل الرومان غزاة محتلين لبلاد سكانها من الكنعانيين ومن أبرز أسباطهم: السينيون والصوريون والصيدونيون، والأرواديون والجرجاشيون ثم القرطاجيون وهم بالأصل من مملكة صور الكنعانية ـ الفينيقية.

وكنا ألمَحنا الى أن ايبيرية عندما كانت تدين بالمذهب الكاثوليكي وهو مذهب الرومان، ودين أصحاب الأملاك والاقطاعات من أعيان الرومان الذين استعمروا ايبيرية وعاشوا على استغلال أراضيها وشعبها الكنعاني المغلوب على أمره.

بينما كان القوط على المذهب الأريوسي، وبين الكثلكة والأريوسية عداء قديم. ومما زاد في نقمة الرومان ورجال الدين الكاثوليك تكاثر الشيع الدخيلة على ايبيرية والتي أدخلها القوط معهم ومنها شيعة نسطور[١]. وشيعة باسيليوس[٢]. وهي مذاهب اعتنقها بعض السكان تمرداً على الرومان الكاثوليك..

---

(١) النسطورية بدعة ظهرت في القرن الخامس الميلادي حين اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الآله وعارضه كيرلس الاسكندري وانعقد بسبب هذه المشكلة ثلاثة مجامع دينية متلاحقة (٤٣١م-٤٥٠-٥٥٣). ناصرت كنيسة انطاكية مذهب نسطوريوس ولا يزال لهذه الكنيسة اتباع في العراق وايران وبعض بلاد الهند وتدعى احياناً بالكنيسة الأشورية. وقد ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل كما ذكرها ابن حزم في (الملل والأهواء والنحل) والباقلاني في التمهيد.

(٢) باسيليوس: القديس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) أحد آباء الكنيسة اليونانية المشهورين مطران قيصرية الجديدة من أعمال كبادوكيا. كتب معظم القانون المطول والمختصر لرهبنة الباسيليين اسهم في معارضة الأريوسية وتوطيد دعائم الأرثوذكسية. والباسيليون يعيشون في وحدات متفرقة مستقلة دون سلطة مركزية أشهر أديرتهم بجبل آثوس (اليونان) وطورسينا (مصر) (الموسوعة العربية الميسرة).

وبعد أكثر من قرن شعر القوط بأن قوة الكاثوليك تعمل على التضييق عليهم ومحاربتهم بالسر والعلانية. ونظراً لأن الوضع كان يزداد تأزّماً وتفاقماً قرر أحد ملوك القوط وهو «ريكاردو» أن يعتنق المذهب الكاثوليكي كوسيلةٍ لإرضاء رجال الدين الكاثوليك عام ٥٨٧م. وتبعته الرعية القوطية في ذلك، مما زاد في قوة رجال الدين الكاثوليك ففرضوا شرطاً على انتخاب الملك يقضي بأن يكون قوطياً كاثوليكياً.

ولكن الروابط الدينية بين القوط والرومان لم تستطع القضاء على التباين العنصري بين الشعبين القوطي والروماني. وباعتناق القوط الكثلكة تضاعف نفوذ الرومانيين فشعر القوط بأنهم خسروا من حيث كانوا يأملون أن يكونوا هم الرابحين. وفي الوقت الذي كانوا فيه يُمَنّون أنفسهم باستمالة أعيان الروم ورجال الدين الكاثوليك اليهم وجدوا أنفسهم يساعدونهم على تقوية نفوذهم.

وأحسّ «غيطشة» ملك القوط «Witiza» بذلك الخطر الجسيم فصمم على تحطيم النفوذ الروماني بالاضافة الى رجال الدين الكثالكة ولكن كيف سيتم ذلك؟..

وكان السكان في تلك الحقبة مؤلفين من أربع طبقات عنصرية: طبقة القوط الحكام المستعمرين وهم يحكمون دوقيات تستمد أوامرها من الملك القوطي مباشرة، وطبقة الأعيان الرومانيين ومعهم رجال الدين وهم أصحاب الاقطاعات الزراعية والصناعية والملاكين، وطبقة اليهود الذين يكتنزون الذهب والفضة ويقرضون أعيان الرومان بالربا الفاحش. وطبقة الشعب العامل وهم الأكثرية المطلقة الذين يستعبدهم الأعيان الرومانيون ورجال الدين الكاثوليك، وكانت العبودية مفروضة وفقاً للشرائع الرومانية القديمة.

هذا التباين بين الأجناس شجع «غيطشة» ملك القوط فأصدر أوامره الى حكام الدوقيات القوط باضطهاد اليهود والأعيان الرومان، وسرعان ما انحاز الشعب المستعبد الى جانب الملك ضد مستعبديه من الأعيان الرومانيين.

ومما زاد في حراجة الموقف ان الضرائب تضاعفت على الرومان واليهود وهما القلة الغنية ولكن عبء الضرائب والغلاء وقع على عاتق الشعب الفقير. وهو يشكل الأكثرية الساحقة من السكان.

وفعلت الدسائس والمكائد في اذكاء نيران الشرور والأحقاد فالأعيان من الرومان يؤازرهم رجال الدين راحوا يحيكون المؤامرات لخلع الملك «غيطشة» وغيطشة راح يحرّض الشعب الكنعاني ضد مستعبديه الرومان من جهة، واليهود من جهة أخرى.

ونجح الأعيان الرومان باستمالة «لذريق» وهو قوطي الى جانبهم ولكنه لم يكن من سلالة غيطشة، وان كان من سلالة نبيلة أخرى كانت تنافس غيطشة، فانتهز فرصة اضطهاد رجال الدين للوقوف ضده بمؤازرة الرومان ورجال الدين معاً ولعبت المؤامرات دورها باستغلال النعرة الدينية الى ان توفي غيطشة، فاستولى لذريق على الملك وجعل عاصمته قرطبة لأن قبيلته كانت تحتل جانباً من تلك المدينة الكنعانية الخالدة. وفي ذلك الوقت كان القوط قد فقدوا عاملين كبيرين من عوامل سيادتهم على البلاد وهما: المذهب الأريوسي واستبعاد اللغة القوطية بتبنّيهم اللغة اللاتينية الرومانية.

ومع ذلك لم تستقر الأمور للذريق[1] لأن أبناء غيطشة: الموند وارطباش ورملة واخو الملك. أيّاس «يجب ملاحظة الأسماء القوطية لأنها

(١) راجع ملحم البستاني: العرب في الأندلس ص٥ـ٦ـ١٢.

من جذر كنعاني» كانوا ناقمين على لذريق الذي اغتصب حقّهم في الملك. لذلك ظلت الدسائس والمكائد ترعى في الصدور.. وبقيت النيران متأججة تحت رماد التظاهر بالخضوع، على علم منهم بأن لذريق فرض عليهم مراقبة شديدة.

وكان من تقاليد ملوك القوط ان يستدعوا الى بلاطهم أبناء وبنات النبلاء ليتأدّبوا بالآداب الملكية على غرار ما كان يجري قديماً في بلاط الكلدانيين والأشوريين والفرس. وهي ظواهر بروتوكولية وان كانت تخفي غرضاً سياسياً معيناً، ليضمن الملك بوجودهم في بلاطه عدم تمرد النبلاء حكام المقاطعات، وكان من بين الأميرات الأميرة «فلورندا» ابنة جوليان «يليان» حاكم سبتة[1]، فأعجب لذريق بجمالها وحاول ان يستميلها اليه فنفرت منه وشكته الى والدها بعد ان اغتصبها، فتأجّج غضبه وراح يضمر الشر للذريق.. ويتحين الفرصة للانقضاض عليه.

وفي الوقت ذاته كان ابناء الملك غيطشة المتوفي يكيدون للذريق في السر في حين كان لذريق يترقب برعب ووجل الفتوحات الغربية في المغرب الأقصى، وما إن اكمل موسى بن نصير تحرير المغرب شماله وجنوبه من البيزنطيين والمقاومة الضعيفة التي جابهته حتى اطمأنّ على حملته فأخذ في تثبيت دعائم الحكم العربي في البلاد.

وعندئذٍ، حانت الفرصة الملائمة لأبناء غيطشة للانتقام من الملك لذريق المغتصب لعرش والدهم فكلفوا جوليان بمفاوضة العرب لتوجيه حملتهم الى الأندلس، وهم على علم بالمغبات والنتائج من الاستنجاد بقوم جاؤوا للفتح والبقاء، لكن الحقد يعمي البصائر والأبصار فأقدموا على

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق ص١٢ وأصل كلمة سبتة سبتم مراترس أي (الأخوة السبعة).

مكيدتهم ولسان حالهم يقول: فليكن ما يكون. . او فلتكن البلاد للعرب لا للذريق. .

وكتب جوليان[1] حاكم سبتة الى موسى بن نصير يحثه على غزو الأندلس، ويَعِدُهُ بالمساعدة ودبَّج كتابه بوصف البلاد ومواسمها الخصيبة، وأغراه بما فيها من أموال، وكشف له عن أسرار ضعفها، وسهولة التغلب عليها، وأنبأه عن الخلافات العنصرية والعصبية المتفشية بين طبقاتها الى آخر ما هنالك من الحض والترغيب.

فوجدت رسالة جوليان أذناً صاغية لمغرياته لدى الأمير العربي الطموح الذي يريد ان يُرضي خليفته ويمهد لأبنائه من بعده. فكتب الى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه بفتح الأندلس فأذن له. ويقال أنه طلب اليه ان يخوض حرب الأندلس بجيش من السرايا التابعة والمساعدة لجيش الفتح. . فكلف موسى بن نصير واحداً من قادته يدعى طريف بن مالك النّخعي وهو فارس مقدام مشهود له بالفروسية والشرف والوفاء، وأرسله في ٤٠٠ راجل من المشاة أقلتهم اربع سفن أرسلها جوليان باراً بوعده فنزل بهم في جزيرة الفاندال التي أطلق عليها فيما بعد اسم جزيرة طريف على اسم فاتحها طريف بن مالك النخعي.

ويبدو ان الحملة كانت على شكل بعثة عسكرية للاستكشاف، فملأ طريف يديه من الأموال والأسرى والسبي وعاد الى الشاطيء المغربي فائزاً غانماً[2] فسر موسى بن نصير بالنتائج الباهرة التي حققتها البعثة ولكن ثيوديمير حاكم الجزيرة عاد اليها بعد أن خرج منها طريف. .

---

(١) راجع البيان المغرب لابن عذاري ص٦٢.
(٢) جوليان يرد اسمه في أشكال مختلفة مرة إليان ومرة يليان وأخرى جوليان كما في البلاذري وابن عذاري وغيرهم.

وكان موسى قد عيّن مولاه طارق بن زياد حاكماً على طنجة فاستدعاه وجهزه بسبعة آلاف جندي من المغاربة سكان البلاد «البربر» ليس فيهم سوى ٣٠٠ فارس من العرب وذلك في سنة ٧١١م/ ٩٣هـ.

والى هنا يبدو وكأن المقادير تلعب دوراً رائعاً في حملة مثالية رائعة وموفقة يقودها رجل مغربي بقوات كل مشاتها من المغاربة لكي يفتحوا لله فتحاً جديداً في أول بلد على طرف القارة الأوروبية كان سكانه ـ مثل سكان المغرب ـ من الكنعانيين ثم تسلط عليهم ثلاثة أقوام من محترفي الاستعمار والتسلط وهم القوط، وبقايا الرومان واليهود[١] .

فأقلت السفن التي بعث بها جوليان جيش القائد الكبير طارق بن زياد فنزل بالقرب من جبل الفتح ـ جبل طارق ـ بعد ان جازوا المضيق وعرضه ١٣ ميلا تقريباً ثم أُمدّ طارق بالامدادات حتى أصبح في اثني عشر ألف مقاتل أو يزيد. وما ان وطأت أقدامهم اليابسة حتى قام طارق في أصحابه فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه وقال:

خطبة طارق قبل فتح الأندلس

«أيّها الناس، أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم، والله، إلاّ الصدقُ والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدُبة اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه، واسلحتُه وأقواتُه موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم الا سيوفكم، ولا أَقوات الا ما تستخلِصونه من أيدي عدوّكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تُنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خِذلان هذه العاقبة من أمركم بمُناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به

---

(١) راجع البيان المغرب لابن عذاري ص٦/٢.

اليكم مدينته الحصينة. وان انتهاز الفرصة فيه لممكن إنْ سمحتم لأنفسكم بالموت.

وإني لم أحذّركم أمراً أنا عنه بِنَجْوة، ولا حَمَلْتُكم على خِطة أرخص متاع فيها النفوس إلاّ وأنا أبدأُ بنفسي! واعلموا أنكم إن صَبَرْتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظكم فيه بأوفرَ من حظي.

وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة والحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بنُ عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقةً منه بارتياحكم للطِّعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة. وليكون مغنمُها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليّ أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أني أول مجيب الى ما دعوتكم اليه، واني عند مُلْتَقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحمِلوا معي، فإن هلكت بعده فقد كُفِيتم أمره ولم يُعْوز كم بطل عاقل تُسندون أموركم اليه. وان هلكتُ قبل وصولي اليه فاخلُفوني في عزيمتي هذه. واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله **«فإنهم بعده يخذلون»**.

فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق وأصحابه وما وعدهم من الخير الجزيل انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبت رياح

النصر عليهم وقالوا له: قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه فاحضر اليه فإننا معك وبين يديك[1] .

وكان على جزيرة الفاندال حاكم قوطي يدعى تيوديمير، فلم يستطع الصمود في وجه القوات المهاجمة فهرب الى اشبيليه «Sevilla» وأرسل يخبر لذريق بوصول القوات العربية الى جزيرته ويقال بأنه اتهم جوليان بالتواطؤ.

طارق يشتبك بجيش لذريق

وفي ١٩ تموز سنة ٧١١ اشتبك طارق بجيش الملك لذريق وقوامه ٢٥ الفاً من الجند والفرسان «في وادي بكة»[2] ، على ميمنتة وميسرته ابنا غيطشة اللذان كانا يريدان للملك الهزيمة والهلاك، ودارت الدائرة على القوط بسبب خيانة ابني غيطشة وأعداء الملك الذين يتزعمهم ايّاس أخو الملك المتوفي غيطشة.

هذه المعركة التاريخية الحاسمة كشفت عن بطولات خارقة لدى المحاربين المغاربة والعرب وكانت الجولة الأولى قد دارت في ضواحي قادس أي وادي بكة ودام فيها القتال ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع، أقبلت كتائب القوط التي يقودها لذريق وهو على مركبة من العاج يجرها بغلان أبيضان وقد لبس رداء من الأرجوان مزركشاً بالذهب، ويعلو رأسه تاج مرصع بالحجارة الكريمة. وما ان اشتبك الجيشان واستحر القتال حتى كادت كثرة القوط تتغلب على القلة العربية، لو لم يثبت القائد طارق بن زيادة فراح يصيح بصوته الجهوري ملهباً الحمية والحماس في صدور المغاربة والعرب فانطلقوا على جانبيه وهو يشق بهم الصفوف ويضرب بسيفه

---

(١) راجع نفح الطيب للمقري ١/ ٢٤٠ـ٢٤١.

(٢) وادي بكة: أي وادي البقاع والاسم كنعاني.

ذات اليمين وذات الشمال حتى نشر الذعر في صفوف الأعداء فولوا هاربين، وهرب الملك لذريق بعد ان ترك مركبته وتاجه ورداءه على ضفة نهر بيتس، وترجح بعض المصادر انه مات منتحراً. . وعلى كل حال فقد ابتلعته مياه النهر.

واحتار طارق بعد ذلك النصر ماذا يفعل فحرضه جوليان بقوله: ان الملك قد هلك، والأمراء تفرقوا، والجنود تبددوا، والشعب في وجل عظيم، فأرسل رجالك تحتل مدينة «بتيك» واذهب انت وادخل طليطلة دار الملك ولا تعطهم وقتاً فيختاروا لهم ملكاً جديداً[1].

موسى بن نصير يدخل الأندلس

ما ان تلقّى موسى بن نصير أنباء ذلك الانتصار الرائع، وما أحرزه طارق بن زياد من مغانم واسلاب، حتى دبّت في صدره الحماسة فقرر أن يشترك فعلاً بالفتح فأرسل الى طارق يأمره بوقف القتال حتى يصل اليه، ولكن طارقاً أبى ان يمتثل لأوامره بعد أن أصبح سيد الموقف في «ايبيرية» وبعد ان علم أن العدو في حيرة وارتباك فقرّر متابعة الزحف فقسم جيشه الصغير البالغ ١٢ الفاً الى أربعة أقسام فوجه القسم الأول منه الى قرطبة والثاني الى ملقا «مالقة» والثالث الى غرناطة والرابع الى مدينة البيرة وهي رابع مدينة تحمل هذا الإسم[2].

وقاد الجيش الرابع بنفسه متوجهاً الى لقاء جيان في طليطلة. . ففتح الجيش الأول قرطبة ودخلها ليلاً وتمكن الجيش الثاني من الاستيلاء على ملقا، ثم أسرع للانضمام الى الجيش الثالث الزاحف على مدينة البيرة،

---

(١) أنظر الوافي بالوفيات ص٤٩.

(٢) الأولى تقع بالقرب من القدس والثانية مرفأ أثينا في أتيكا اليونانية والثالثة في البقاع الغربي من لبنان.

ولكن الجيشين حاصرا غرناطة وفتحاها، ثم انطلقا الى «اريولة» من أعمال «مرسية» لأن القائد القوطي تودمير كان قد تحصَّن فيها بعد موت لذريق وأعلن نفسه ملكاً على القوط، وبعد محاصرتها طويلا استوليا عليها صلحاً، وتوجه معظم الجيشين لمساعدة طارق على فتح مدينة طليطلة ـ مدينة الملوك.

واخترق طارق الأراضي الفاصلة بين كستيلية والأندلس، حتى وصل الى طليطلة التي كان معظم سكانها قد هربوا، وحاول الباقون التحصن في المدينة ولكنهم عجزوا عن القتال فصالحوا طارق، فدخلها سلماً وخيّر أهلها بين البقاء أو الرحيل آمنين وسمح لمن ارادوا الرحيل ان ينقلوا معهم أموالهم. ثم واصل زحفه شمالاً، فاحتل المدن والمقاطعات التي مر بها وصارت فيما بعد ولايتين: ولاية كستيلية وولاية ليون. وواصل زحفه الى ان بلغ جبل استورياس[1] على مسافة ٧٠٠ ميل من جبل طارق. وتوقف قليلاً عند مدينة جيجون القريبة من خليج بسكايّا المطلة على المحيط الأطلسي. وبعد ذلك قفل راجعاً الى طليطلة.

المائدة العجيبة

كان طارق في غزواته الموفقة قد غنم الكثير من الأموال والتحف، ومن جملتها المائدة الزمردية التي أصبحت أسطورة لجمال صنعها وروعة سبكها بالذهب وبهاء ترصيعها بالحجارة الكريمة ـ حتى قال بعضهم أنها من صنع الجن في عهد الملك سليمان بن داود ـ

---

(١) استورياس منطقة ومدينة بشمال غربي اسبانيا على خليج بسكايا شرقي غاليسيا تخترقها جبال كانتابريا استغلت مناجم الفحم منذ العهد الروماني وتعتبر أغنى مناجم اسبانيا ويستخرج منها الحديد والزنك أيضاً من هذه المنطقة بدأت استعادة اسبانيا من العرب على أيدي النبلاء المسيحيين الذين كانوا قد اعتصموا بالجبال الأشورية.

وأصحّ خبر نقل عنها ما كتبه ابن حيان في كتاب الوافي صفحة ٥٠ حيث قال: «أن تلك المائدة المنسوبة الى سليمان بن داود، لم تكن كما زعم الرواة. وإنماً في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه موائد وكراسي وأشباهها من الذهب والفضة، تضع الشمامسة والقسوس فوقها كتب الانجيل اذا أبرزت في أيام المناسك. يضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها، فكانت «تلك المائدة في طليطلة مما صنع في هذا السبيل، وتألق الملوك في تفخيمها بما يزيده أحدهم على الآخر حتى أصبحت «المائدة» عجيبة في صنعها وزخرفتها وترصيعها ـ لأنها كانت مصوغة من خالص الذهب ومرصعة بأكرم الدر والياقوت والزمرد ولم تر العيون مثلها.

وهكذا تمكن طارق من فتح نصف بلاد الأندلس وهو مجدٌ لم ينافسه فيه منافس، وفخر لم ينله أحد قبله الا ألفاتحين العرب العظام في فجر الاسلام وضُحاه الأمر الذي جعل المغاربة يفخرون بطارق لأنه منهم.

موسى بن نصير يكمل الفتح

وحسد موسى بن نصير طارقاً «مولاه» على انتصاراته الرائعة فجهّز حملة قوامها عشرة آلاف جندي وفارس من العرب وأهل الشام وقصد المدن التي لم يفتحها طارق اي القسم الباقي من الأندلس مثل المدن: شذونه، وقرمونة، واشبيليه الحصينة الرائعة. أكبر مدن الأندلس وابهاها واعلاهامركزاً في الحضارة والرقي؛ وكانت من قبل حاضرة الرومان قبل ان يحتلها القوط.

ولكن اشبيليه قاومت الحصار الذي ضربه عليها موسى بن نصير حتى

آخر حزيران سنة ٧١٣م/ ٩٥هـ[١] .

وقد أجمعت كل المصادر على أن موسى بن نصير التقى بطارق في طليطلة فوبّخه لأنه لم يطع أوامره وقنعه بالسوط[٢] ، وقيل أنه شد وثاقه لتقدمه دون رأيه وهو مولاه. وهذا عمل غير لائق من موسى مهما كانت الدوافع، فأين هو من قول عمر: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

ولكن العرب نسوا كل شيء بعد الخليفة عمر فصاروا في العهد الأموي يستعبدون الأحرار ومن جملتهم القائد الكبير طارق بن زياد.

وكان موسى قد احتل «ماردة» وفي صحبته جوليان، ولكن بعد جهد وعناء ولما وصلت اليه الامدادات يمّم شطر «غواديانة» وحاصر مدنها وأخضعها كلها وبعد ماردة توجه الى طليطلة ـ كما ذكرنا.

وقدم اليه طارق التحف والأموال التي استولى عليها فعفا عنه خصوصاً بعد أن أهداه «المائدة العجيبة» ولكنه استبقى واحدة من قوائمها لغرض في نفسه. ثم انطلقا معاً لتتمة مسيرة الفتح. . ولكن الفتح أصبح مرَّ المذاق بعد الذي ارتكبه موسى بحق طارق بن زياد.

فدخل طارق ولاية «تركونه» وبنى فيها بأمر الخليفة جامع سيراكوسا وجعل مرفأ برشلونة مَرْسى لسفن الشام. وسار موسى شمالاً ففتح سرقسطة ثم غزت جنوده مرتفعات اراغون وليون واستوريا وجليقية، وظل العرب يطاردون القوط حتى أجازوهم مناطق البرنات الى ولاية سبتمانية المعروفة الآن باسم بلانكو ادوكه، ووضع موسى قوات هناك للمحافظة على الحدود

---

(١) راجع ابن عذاري ص٢/ ١٥ـ١٦ ونفح الطيب ص١/ ١٧٠ـ٧١.

(٢) راجع ابن عبد الحكم ص٢١٠ وابن عذاري ص٢/ ١٧ـ١٨.

وبعدها رجع الى سواحل جليقية ولوسيتانية. وفي أثناء ذلك تغلب ابنه عبد العزيز على جيوش تيوديمير الذي كان قد أعلن نفسه ملكاً على القوط، وعقد معه معاهدة.

الوليد بن عبد الملك يأمر موسى بن نصير بالعودة الى دمشق

وفي خريف سنة ٧١٣م/ ٩٥هـ وردت كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك تدعو موسى بن نصير وطارق بن زياد للاسراع بالعودة الى دمشق، فامتثل موسى بعد تردد لأنه كان خائفاً من الوليد لعدم اطاعته أوامره منذ أن تلقى منه أول كتاب يأمره فيه بالتوجه الى دمشق فغادر الأندلس بعد أن ترك ابنه عبد العزيز والياً عليها كما ترك بعد ذلك ابنه الثاني عبد الرحمن والياً على أفريقيا الشمالية.

فتوجّه موسى الى الجزيرة الخضراء[١] لينقل الغنائم والذخائر الأندلسية ـ الأفريقية واصطحب معه ٤٠٠ اميرقوطي عليهم التيجان والمناطق الذهبية وثلاثين ألفاً من الأسرى والسبايا ليقدمهم هدية للخليفة.

وكان موسى بن نصير قد فصل شمال أفريقيا والأندلس عن ولاية مصر فأصبح بهما مستقلاً ومرجعه الوحيد الخليفة الأموي نفسه.

ولما وصل موسى الى طبرية في فلسطين جاءه رسول من قبل سليمان بن عبد الملك ـ ولي العهد آنذاك ـ يأمره بالتأخر الى ان يأخذ البيعة لنفسه من الناس، لأن الخليفة الوليد كان مريضاً بالمرض الذي توفي به من بعد. . كما كان الوليد يفضل مبايعة ابنه على أخيه سليمان.

ولكن موسى خاف من عقاب الوليد، فيما لو تأخّر وأطاع سليمان

---

(١) ابن عذاري البيان المغرب ص٢/ ٢١ـ٢٢ـ ابن القوطية ص١٠ ـ قصة فتح الأندلس من كتاب الأمامة والسياسة لابن قتيبة.

شقيق الخليفة. فدخل دمشق في الوقت الذي مات فيه الخليفة الوليد، فأمر سليمان بزجّه في السجن، وهو عمل بالغ القسوة لا تجيزه الشرائع الاسلامية، ولكن الأمويين كانوا يتجاوزون الشرائع بأوامرهم الارتجالية عندما تكون من أجل الانتقام من الولاة.

ودخل موسى دمشق في شباط سنة ٧١٥م/ ٩٧هـ ـ كما قلنا ـ وقدم للخليفة الجديد كل الهدايا التي جلبها معه ومنها المائدة العجيبة[1] وكانت ناقصة رجلاً، فلما سأله الخليفة عن الرجل الرابعة تحيّر فيما يجيب، وعندئذٍ أخرجها طارق للدلالة على أنه هو الذي أصابها فصدّقه سليمان بن عبد الملك الخليفة الجديد.

محنة موسى بن نصير

وجاء في المقري ما مُلَخَّصُه: أن موسى بن نصير كان شديد الرغبة في الوصول الى جليقية، وفيما هو كذلك اتاه مغيث الرومي رسول الوليد يأمره بالانصراف عن الأندلس، والتوقف عن التوغل فيها ويأمره بالقفول اليه، فساء ذلك موسى ومنعه عن ارادته اذ لم يكن في الأندلس بلد لم يدخله العرب غير جليقية، وكان شديد الحرص على افتتاحها، فلاطف موسى مغيثاً الرومي رسول الخليفة، وسأله إنظاره الى أن ينفّذ عزمه في الدخول اليها، والمسير معه في البلاد أياماً يكون شريكاً في الأجر والغنيمة، ففعل ومشى معه حتى بلغ صخرة «بلاي» على المحيط الاطلنطي وبذلك يكون قد احتل كل الأندلس وسكنت العرب المدن المحتلة فاتسع نطاق الاسلام.

وبينما كان موسى يهم بالعودة، قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى ابا نصر بعث به الوليد بعد مغيث لما استبطأ قفول موسى، فكتب اليه يوبّخه

---

(١) راجع وفيات الأعيان لإبن خلكان ص٣/ ٢٦ـ٢٧.

ويأمره بالعودة فخرج من مدينة «لك» مستقبلاً الفج المعروف «بفج موسى» وأقبل عليه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى فأرجعه معه ومضيا معاً الى اشبيليه فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الأندلس وأقره باشبيلية وركب موسى البحر الى الشام سنة ٩٥ هجرية[١] .

سليمان بن عبد الملك يسيء معاملة الفاتحين

وقبل ان يزج الخليفة سليمان بن عبد الملك، موسى بن نصير في السجن، أمر طارق أن يقنعه بالسوط فتردد طارق. ولكن الخليفة سليمان زجره، فوضع السوط برفق حول عنقه، ووضع موسى يوماً كاملاً تحت وهج الشمس وغُرّم بدفع ٢٠٠ ألف دينار. ثم بعث سليمان من قتل ابنه عبد العزيز وهو في مسجد قرطبة، وكان قد تزوج الملكة اجيلونه ارملة لذريق وأمر سليمان بحمل رأس عبد العزيز اليه في السجن، وبعد أن طرح الرأس أمامه سأله سليمان عما اذا كان يعرفه فأجاب بغضب يخالطه الحزن الشديد نعم! انني أعرفه وأعرف أنه بريء وأنه مات مظلوماً وأسأل الله أن يحلّ على رؤوس قاتليه ميتة مثلها. قتلتم والله صوّاماً قواماً.

بعد ذلك التعسف والإذلال أمر الخليفة سليمان، موسى بالسفر الى مكة، وهناك مات حزيناً.. فقيراً في قرية نائية في وادي القرى من أعمال الحجاز[٢] .

نهاية مجهولة للقائد الشهير طارق بن زياد

أما طارق بن زياد ذلك القائد والبطل الكبير فقد اختفى اسمه من التاريخ بعد مثوله مع موسى بن نصير أمام سليمان بن عبد الملك. والعجيب

---

(١) راجع نفح الطيب للمقري ص١/ ١٦٧ـ١٧٢ـ١٨٠ والوافي بالوفيات ٣/ ٥٢.
(٢) ابن الأثير ص٤/ ٤٨ـ٤٩ـ ابن خلكان ص٣/ ٧٦ـ٧٧.

أن أحداً من المؤرخين لم يتتبّع قصة نهايته الحزينة . . أقول أن طارق بن زياد فاتح الأندلس لم ينل ما يستحقه من تمجيد وتعظيم في العهد الأموي ولم يذكره أحد ولا يعرف كيف كانت نهايته[1] !

وقد قيل بأن سليمان أذلّه واستعبده مرة ثانية ولكن المصادر لم تسعفنا بمعرفة صحة هذا الخبر من كذبه .

ولكن ابن خلكان يقول بأن سليمان أعظم جائزته حين قدّم له «رجل» المائدة للدلالة على أنه هو الذي غنمها وهذا كل شيء . . فوا أسفاه على طارق! ووارحمتاه على مصيره المجهول!

وكان موسى أول والٍ على الأندلس ثم حلّ محلّه ابنه عبد العزيز الذي غدر به سليمان وأمر باغتياله في مسجد قرطبة، وبقي الأمويون مدة ستة أشهر لا يعيّنون عليها والياً، فقرر زعماء الكنعانيين «البربر» أن ينتخبوا والياً عليهم فاختاروا ابن أخت موسى بن نصير، وهو أيوب بن حبيب اللخمي فنقل سريره من اشبيليه الى قرطبة، ثم خلعه محمد بن يزيد عاهل افريقيا الشمالية من قبل سليمان بن عبد الملك وعيّن محلّه الحر بن عبد الرحمن الثقفي وهو الوالي الرابع بعد موسى سنة ٧١٧م/ ٩٩هـ.

الخلافات القبلية تنتقل مع العرب الى الأندلس

بعد احتلال الأندلس نزحت اليها القبائل العربية وحملوا اليها عصبياتهم وتقاليدهم القبلية وخصوماتهم الحزبية المعروفة بالقحطانية والعدنانية تارة، والقيسية واليمانية تارة أخرى فَدَبَّ الشقاق بين المسلمين وكثرت الفتن بينهم وعمّت الخلافات .

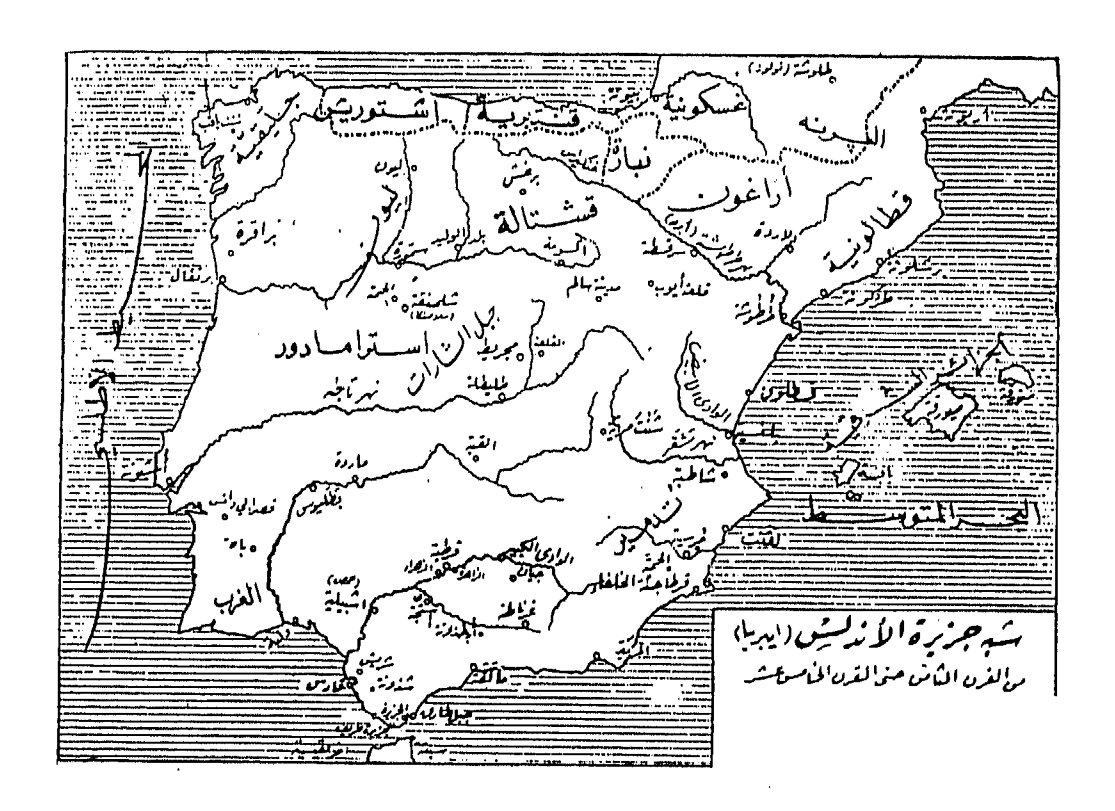
ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل تعدّاه الى الفتن والثورات التي نشبت

---

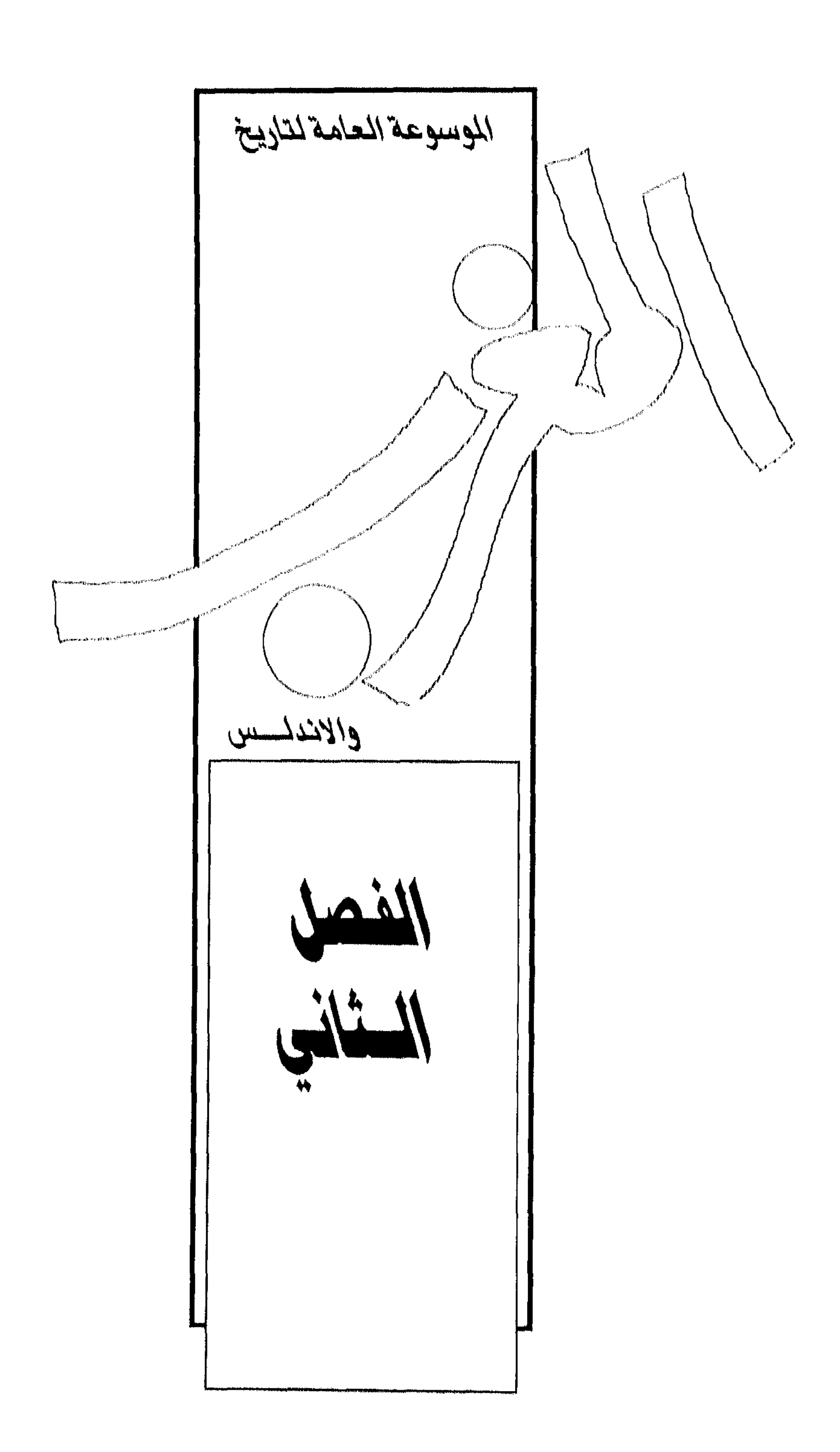
(١) ابن خلكان ص٢/ ٢٦ـ٢٧ .

بين العرب والكنعانيين «البربر» وهؤلاء كانوا يجاهرون بأنهم هم الذين افتتحوا الأندلس، وان القائد الأول طارق بن زياد كان منهم وقد خاض الحرب في الأندلس بجيش معظمه من الكنعانيين المغاربة. وهكذا ثار المغاربة على الشاميين والمصريين في المغرب.

وهذا ما قصدنا اليه في هذا الفصل من أخبار فتح الأندلس لنسجل هذه الحقيقة الخالدة، ونعطيها قيمتها المعنوية وهي ان الكنعانيين أي المغاربة «من البربر» هم أصحاب الفضل في فتح الأندلس، واحتلالها وتعريبها ونشر الاسلام في جميع أنحائها.



شبه جزيرة الأندلس (ايبريا)
من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الــثاني

حكم الولاة في الأندلس

أن الولاة الذين تعاقبوا على حكم الأندلس منذ فتحها حتى تأسيس الخلافة الأموية فيها على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٨م وباستثناء طارق بن زياد وموسى بن نصيرهم :

ـ **عبد العزيز بن موسى بن نصير**: استخلفه والده على الأندلس وترك معه حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع وزيراً له. فجعل من اشبيلية قاعدة لحكمه وتزوج من امرأة لذريق (أَيْلَة) التي أصبحت فيما بعد (أم عاصم) فافتتح المدن الكثيرة وسدّ الثغور وضبط الحكم في البلاد وكان من خيرة الولاة ودامت ولايته سنة وعشرة أشهر فقط ذلك أن الخليفة سليمان بن عبد الملك بعث الى الجند يأمرهم بقتله بعدما سخط على أبيه فقتل في مسجد اشبيلية وهو يصلي صدر رجب سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م. واحتزَّ رأسه وأرسل به الى دمشق وقيل أن سليمان بن عبد الملك عرض الرأس على والده موسى فتجلد وصبر وقال: هنيئاً له بالشهادة. قتلتم والله صواماً قواما.

ـ **أيوب بن حبيب اللخمي**: قدم أهل الأندلس عليهم وخاصة البربر منهم أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن عمة عبد العزيز وكان رجلاً صالحاً

محباً للعمران ولكن مدة ولايته لم تزد على ستة أشهر فتولّى بعده:

ـ **الحر بن عبد الرحمن الثقفي** سنة ٩٩هـ/ ٧١٧م الذي نقل دار الحكم من اشبيلية الى قرطبة ولم يزل الحر على الأندلس حتى استخلف عمر بن عبد العزيز فبعث السمح بن مالك الخولاني والياً على الأندلس.

ـ **السمح بن مالك الخولاني** الذي لم تدم ولايته أكثر من سنتين ونصف وعندما قدم إلى الأندلس أوصاه عمر بن عبد العزيز بأن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق وأن يُخمِّس أراضيها وعقاراتها. وعندما خمّس قرطبة أخرج منها البطحاء المعروفة بالربض فجعلها مقبرة للمسلمين واستشهد السمح بطرسونة في احدى غزواته سنة ١٠٢هـ/ ٧٢١م.

ـ **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي**: تولى الأندلس سنة ١٠٢هـ/ ٧٢١م وكان من كبار الجند فيها غير أنه ترك الحكم فجأة ليحل محلّه عنبسة بن سُحيم الكلبي ثم أعيد الى ولاية الأندلس للمرة الثانية عام ١١٢هـ/ ٧٣٠م فأقام والياً مدة سنتين وسبعة أشهر واستشهد في بلاط الشهداء في أرض العدو في رمضان سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م.

ـ **عنبسة بن سُحَيْم الكلبي**: وكان رجلاً صالحاً قام باصلاحات عمرانية كثيرة استمرت ولايته ١٠٢هـ/ ٧٢١م الى سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م. أما في الفترة الواقعة بين ١٠٧هـ الى ١١٢ هـ تاريخ بدء ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية فقد ولّى الأندلس خلالها ستة ولاة هم:

عذرة بن عبدالله الفهري: يحي بن سلمة الكلبي ـ حذيفة بن الأحوص القيسي ـ عثمان بن أبي نسعة الخثعمي ـ الهيثم بن عبيد الكلابي ـ محمد بن عبد الله الأشجعي.

وكانت ولاية بعضهم لا تزيد على ستة أشهر.

- **عبد الملك بن قطن**: وقد ولّى بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م فاستولى على السلطة بقرطبة وصرف كل جهده لاجلاء القوات الشامية الموجودة في الأندلس الى الساحل الأفريقي فطلب الى زعيمها بلج بن بشر القشيري العودة الى المغرب فرفض هذا وعندما حاول عبد الملك استعمال القوة ضدهم طردوه من قصر الامارة في قرطبة وأجلسوا مكانه زعيمهم بلج في أول ذي القعدة سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م.

- **بلج بن بشر القشيري**. وكان هذا قد عبر بقواته الشامية التي كان الثوار البربر قد حاصروها في طنجة وقد سمح له عبد الملك بن قطن بالدخول الى الأندلس سنة ١٢٣هـ/ ٧٤٠م ليعاونه في حروبه مع البربر فيها. وبعد أقل من عام تمكن من القضاء على الثائرين البربر. وعندها طلب منه عبد الملك مغادرة الأندلس الى المغرب فرفض وانتهى النزاع بعزل الأخير ولكن بلج كان قد أصيب خلال المعركة بسهم قاتل فلم تدم ولايته أكثر من بضعة أشهر فتوفى سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م.

- **ثعلبة بن سلامة العاملي**: وقد ولاه أهل الشام بعد بلج في شوال سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م. وما ان تسلم ولايته حتى ثار عليه البربر بمدينة (ماردة) فقتل عدداً كبيراً منهم وأسر الباقين ولكن ولايته لم تدم أكثر من عشرة أشهر فحلّ محله أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي.

- **ابو الخطار بن ضرار الكلبي**: تولّى على الأندلس سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢م وكان رجلاً صالحاً فهدأ الوضع المتفجّر وألف بين المختلفين وأجمعت عليه الكلمة فأحبه الناس ومن أشهر أعماله انه فرّق أهل الشام على الكور فأنزل أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن بريّة. وأهل فلسطين بشذونه وأهل حمص باشبيلية وأهل قنسرين بجيان. وأهل مصر بباجة

وتدمير. وفي زمنه دخل الأندلس الصميل بن حاتم الكلبي[1] . وقد دامت ولاية أبي الخطار حوالي السنتين.

ـ **ثوابة بن سلامة الجذامي**: ولي سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م ولم يستمر في ولايته أكثر من سنة واحدة إذ مات في أوائل سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٦م وبموته اندلعت الفتنة وعادت الحرب الى ما كانت عليه بين اليمنية التي نادت بأبي الخطار والمضرية التي تزعمها الصميل وظلت الأندلس غارقة في نزاعاتها الدامية طيلة أربعة أشهر أو يزيد دون وال عليها ولا مسؤول ثم توصلوا فيما بعد الى تقديم يوسف الفهري العريق بنسبة والمعروف بشدة ورعه وتدينه.

ـ **يوسف الفهري**: هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي يرقي بنسبة الى البطل الشهير عقبة بن نافع. وقد تم انتخابه والياً على اسبانيا في ربيع الثاني سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٦م وكان آخر الولاة فيها.

وما أن استتب له الأمر حتى غدر بيحي بن حريث الذي كان قد طالب بالامارة لنفسه وأعطي كورة ريّة، فالتجأ هذا الى أبي الخطار الذي كان يعتبر نفسه الوالي الشرعي للبلاد ووضع بتصرفه جميع الكلبيين في الجزيرة[2] وزحف بهم الى يوسف بقرطبة ونزل الصميل بالمحلات بعد أن عبر النهر والتقى الفريقان بقرية شقندة جنوبي قرطبة على الضفة اليسرى للوادي الكبير ودارت المعركة واستحرّ القتال بين الطرفين حتى تقصفت الرماح وتماسك المتقاتلون بالأيدي وانتهت المعركة بانهزام أبي الخطار وأسره وأسر يحيى بن حُرَيْث معه وقُتِلا على الفور في ميدان المعركة سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٧م فخلا بذلك الجو ليوسف الفهري فعين الصميل والياً على سرقسطة مكافأة له

---

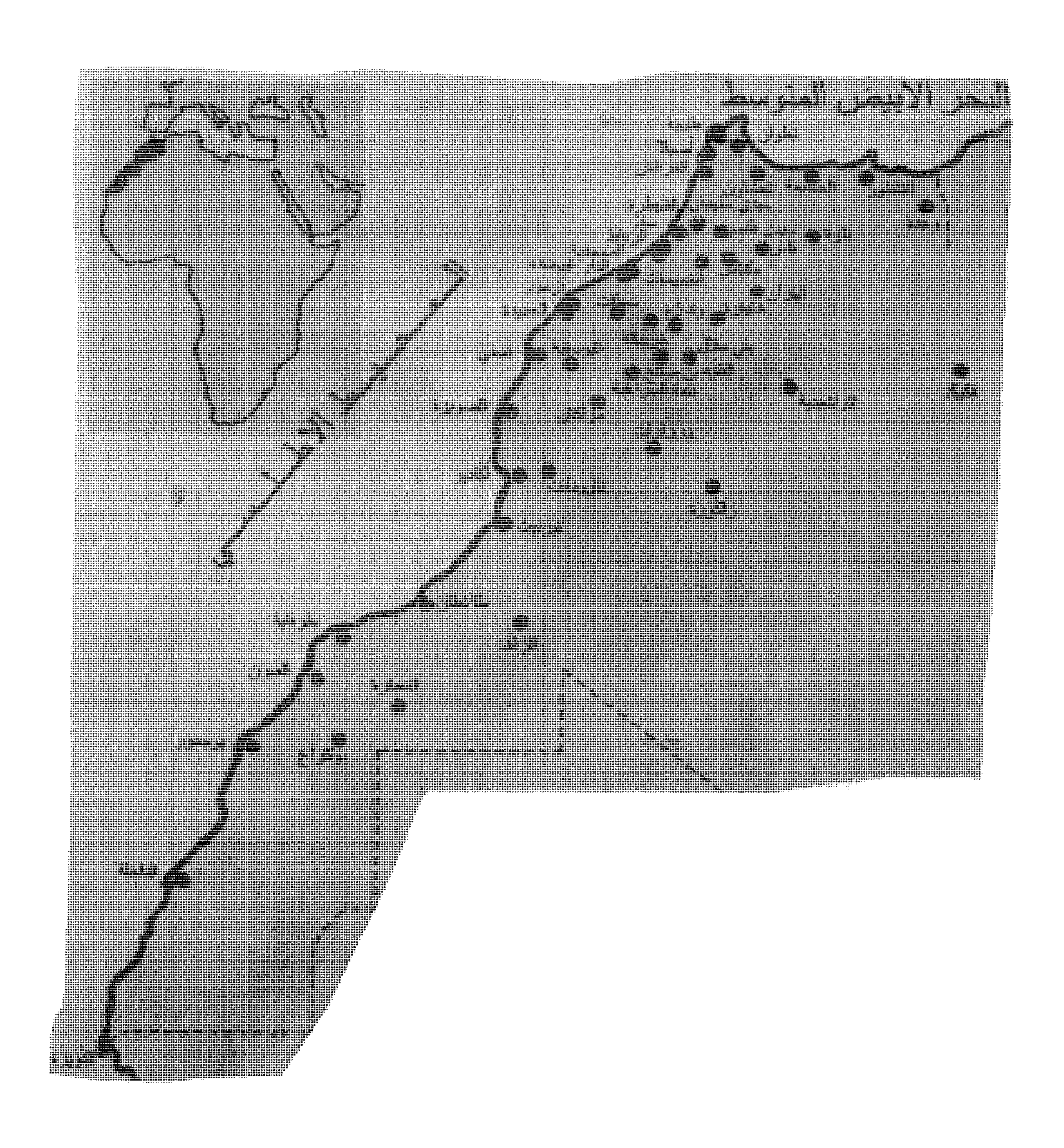
(١) الصميل بن حاتم هذا جده شمر بن ذي الجوشن قاتل الامام الحسين في كربلاء وهو من أهل الكوفة وقد فرّ الى الأندلس هرباً من المختار الثقفي الذي قتل أباه

(٢) لقد أحيا العرب هناك باختلافاتهم أحقاد معركة مرج راهط

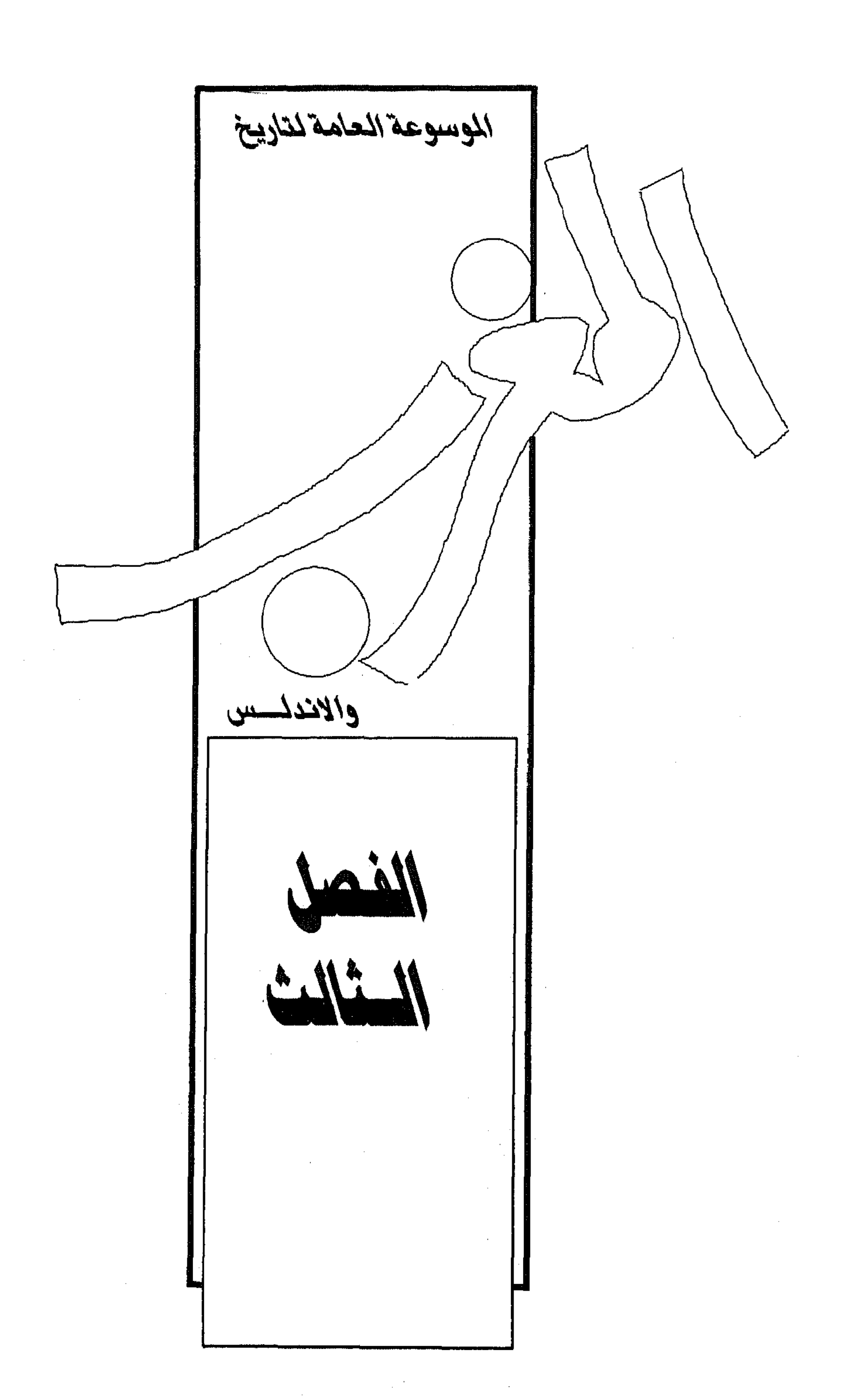
وأعطاه حرية التصرف في حكمها، فالتحق هذا بها سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م وظل الأمر هكذا في أخذ ورد وهدوء واضطراب حتى سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م عندما دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأندلس وأسس الدولة الأموية فيها[١] .

---

(١) أنظر حسين مؤنس تاريخ المغرب والأندلس - ابن عذاري في البيان الجزء الثاني - أخبار مجموعة لمؤلف مجهول.



المغرب في الطرف الأغر من الشمال الافريقي


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل الثالث

تأسيس الدولة الأموية في الأندلس

وهكذا نجد أنه في تلك الحقبة الممتدة ما بين فتح الأندلس وقيام الدولة الأموية والبالغة حوالي ٤٠ سنة أو يزيد بقليل قد تعاقب على حكم الأندلس أكثر من عشرين والياً لم تزد ولاية بعضهم عن ستة أشهر. وهؤلاء لم يكونوا في الحقيقة الاّ ممثلين أو نواباً لوالي القيروان الذي كان يعيّنهم بفضل التماس أهل الأندلس ونزولاً عند رغبتهم. وكانت حاضرة هؤلاء جميعا قرطبة وذلك قبل تأسيس الدولة الأموية الثانية في الأندلس.

عبد الرحمن الداخل أو صقر قريش مؤسس الدولة الأموية في الأندلس

تأسّست الدولة الأموية في الأندلس بزعامة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان (٧٥٥ـ٧٨٨م) وهو الذي نجا من مذبحة الأمويين بسيوف العباسيين ففرّ متنكراً الى المغرب. ولما كانت أمه مغربية فقد لجأ الى أخواله من بني (نفزة) فأحسنوا استقباله في المكان الذي يقطنونه بالقرب من سبته عام ٧٥٥م.

قال ابن الخطيب في الإحاطة ناقلاً عن ابن حيان في المقتبس: ان عبد

الرحمن لما دنا من ساحل الأندلس وكان بها همه يستخبر من قرب فعرف أن بلادها مفترقة بفرقتي المضربة واليمانية فزاد ذلك في أطماعه فأدخل اليها بدراً مولاه يحسس عن خبرهم فأتى القوم وبلى ما عندهم فداخل اليمانيين منهم وقد عصفت ريح المضريين بظهور بني العباس بالمشرق فقال لهم: ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم فيقيم أودكم ويدرككم آمالكم؟.. فقالوا: ومن لنا به في هذه الديار؟.. فقال بدر: ما أدناه منكم وأنا الكفيل لكم به. هذا فلان بمكان كذا وكذا يقدمنّ نفسه فقالوا فجيء به أهلاً إنا سَراع الى طاعته. وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه فدخل اليهم بأيمن طائر واستجمع اليه خلق كثير من أنصاره[1].

ولما دخل الأندلس كان على رأس اربعين ألف جندي من المغاربة والعرب أنصار بني أميه فبثوا دعوته ونشروا ذكره، وفتحت ابواب جنوب الأندلس للأمير الأموي الجديد فدخل «ارخدونة» وفيها عرب الأردن، ثم توجه الى مقاطعة «شذونه» وفيها عرب فلسطين، فدخلها حتى بلغ اشبيلية وفيها عرب حمص[2] فبايعه هؤلاء طوعاً ورحب به أهلها أجمل ترحيب.

ودخل عبد الرحمن قرطبة بعد قتال شديد سنة ٧٥٦م فحال دون نهب العاصمة، ثم احتل طليطلة عام ٧٦٤م.

---

(١) الإحاطة ص١/ ٤٤٤.

(٢) نشير هنا الى أن أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان عامل أفريقيا ركب اليها البحر من تونس فدان له أهل الأندلس واستقام أمره وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم وكثر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق وأنزل أهل حمص اشبيلية وسماها حمص. وأهل قنسرين جيّان وسماها قنسرين وأهل الأردن ريّة ومالقة وسماها الأردن وأهل فلسطين شذونة وهي شريش وسماها فلسطين وأهل مصر تُدْمير وسماها مصر. (نفح الطيب ١/ ٢٣٧)

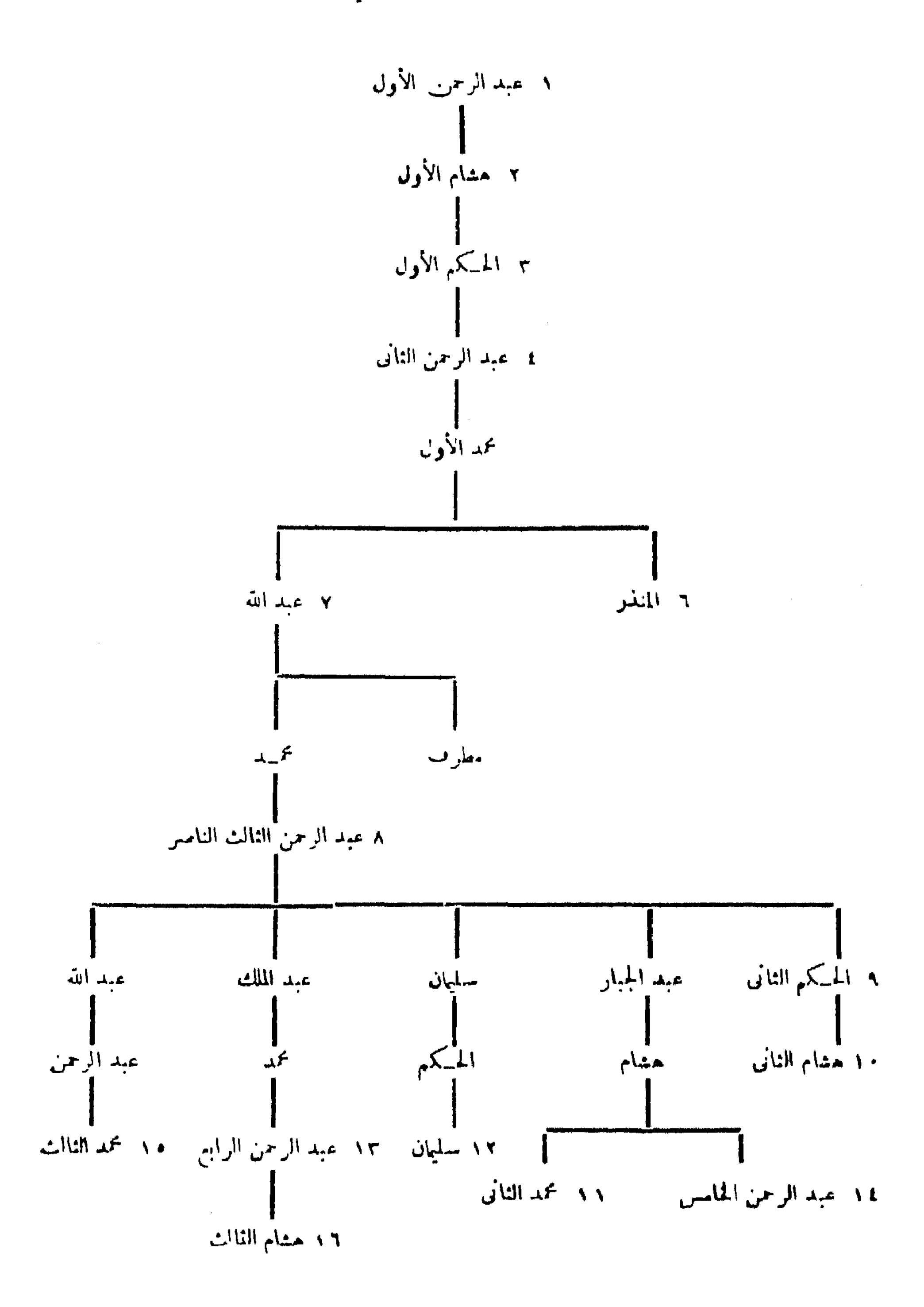
وبذلك يعود الفضل في تأسيس الدولة الأموية الثانية في الأندلس الى أخوال الأمير عبد الرحمن الهارب من سيوف بني العباس الى أحضان أخواله بني «نفزة» المغاربة الكنعانيين الذين، رحبوا به وناصروه وساعدوه على الوصول الى الأندلس وكانوا يؤلفون القوة المدافعة عنه حتى بعد وصوله الى الأندلس.

وقد استعان عبد الرحمن في سبيل تحطيم مناوئيه بجيش أعده وجهزه ودرّبه على القتال أحسن تدريب[1] فبلغ اربعين ألف مقاتل ـ أكثرهم من قبائل أخواله البربر. . الذين استجلبهم من افريقيا واعتمد على ولائهم بتوطيد عرشه وقد تمكن من الاحتفاظ بوفاء هذا الجيش بما اغدقه من أعطيات على افراده.

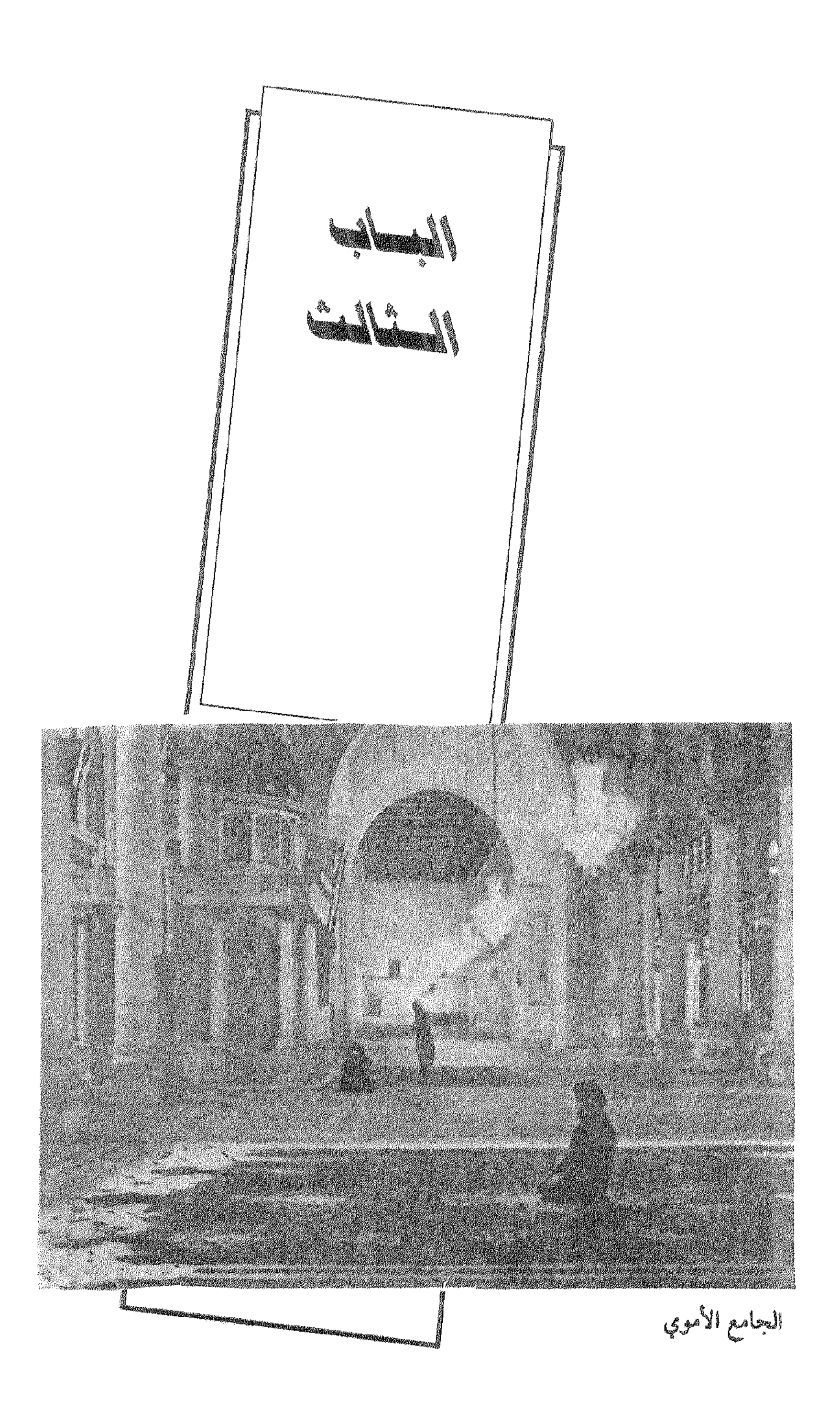
وهذا فضل جديد يضاف الى المغاربة الذين وطدوا عرش الخليفة الأموي الجديد في الأندلس.

(١) راجع ابن الأثير) ص٦/ ٧ـ٨ـ ابن خلدون ٤/ ١٢٣ـ أخبار مجموعة ص١١٣.

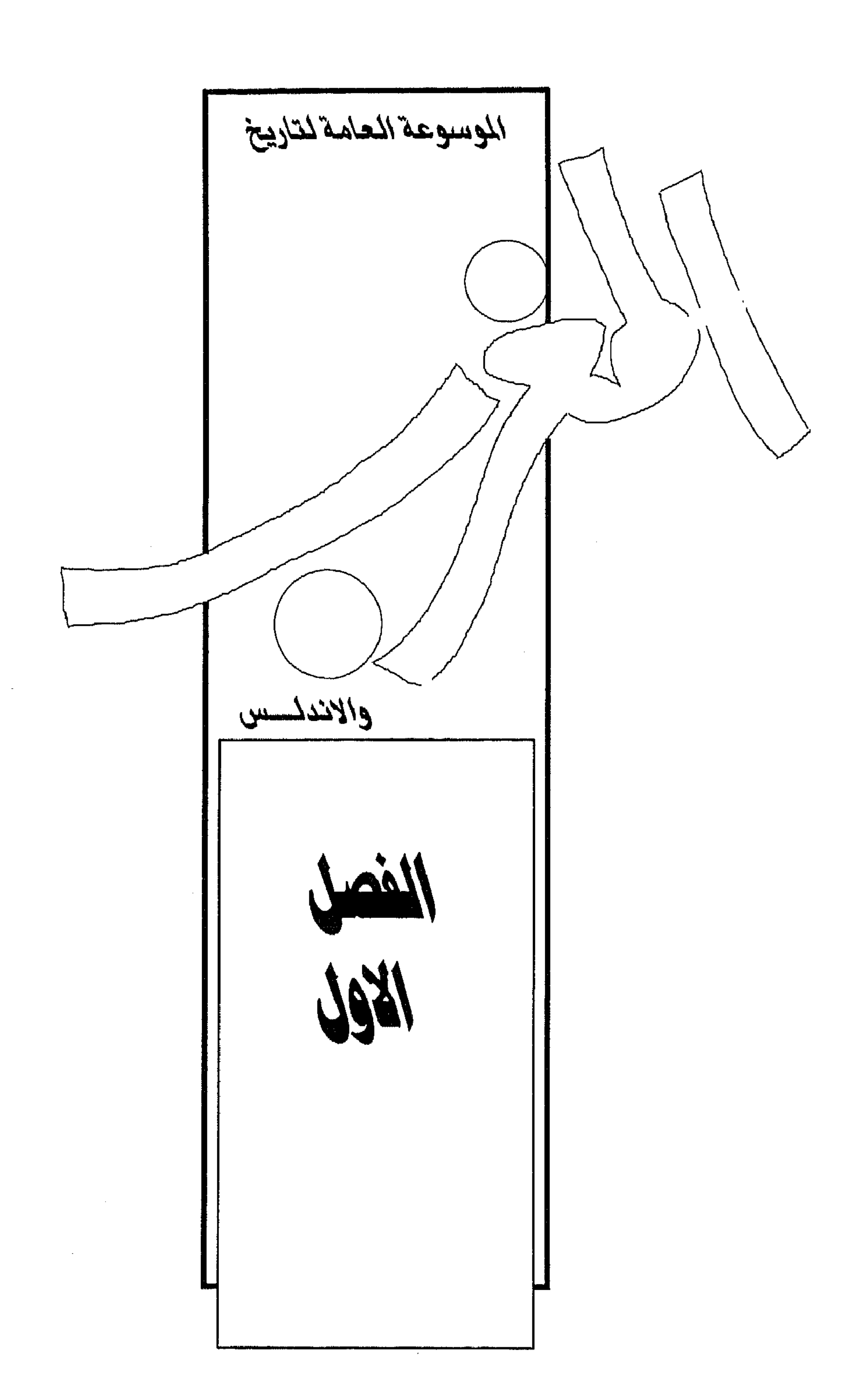
شجرة نسب الخلفاء الأمويين في الأندلس



الباب الثالث



الجامع الأموي


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــــس
الفصل
الاول

بعد مئة عام على وفاة النبي (ص)

كان النبي العظيم محمد صلوات الله وسلامه عليه قد بشر المسلمين مرارا بفتح فارس والبلاد التي يحتلها قيصر الروم، وفي أواخر حياته بعث عبد الله بن حذافة السهمي[1] الى كسرى ملك الفرس، وحاطب بن ابي بلتعة الى المقوقس في مصر، وحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ملك الروم وغيرهم من الملوك في عصره يدعوهم الى الاسلام، ثم توفي صلوات الله عليه.

وقد كان عام ٧٣٢م العام المئوي الأول لوفاته (ص)، وها نحن نرى بعد مئة عام على التحاقه بالرفيق الأعلى، كيف انتشر اتباعه انتشاراً واسعاً في الأرض فصاروا يحكمون امبراطورية أعظم من امبراطورية روما في أبان مجدها تمتد من خليج بسكي الى جبال الأندلس وحدود الصين، ومن بحر أرال الى شلالات النيل السفلى واصبح اسم الله ورسوله يرددان خمس مرات

(١) هو عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي صحابي أسلم قديماً هاجر إلى الحبشة. شهد بدراً وأسره الروم في أيام عمر ثم أطلقوه شهد فتح مصر وتوفي بها في أيام عثمان سنة ٣٣هـ/٦٥٣م.

في كل يوم من فوق منارات المآذن المرتفعة على الآلاف من المساجد في جنوب غربي أوروبا، وشمالي أفريقيا، حتى غربي آسيا وشرقيها في الهند وأواسطها في فارس. وقد أصبحت دمشق عاصمة هذه الدولة البعيدة الأطراف بعد المدينة.

كيف حكم الأمويون البلاد الاسلامية

وفي دمشق ابتنى معاوية مؤسس الدولة الأموية قصر الأمويين وهو القصر الأخضر الزاهر، تحف به الجنات الخضر وقد سمي قصر الخضراء[1] ، وارتفع الى جانبه المسجد الأموي الذي زيّنه الوليد بن عبد الملك وجعله آية في الفن لما حازه من جمال البناء ورونق الهندسة الرائعة وما زال يستهوي الى أيامنا هذه هواة الآثار الفنية من مختلف الأقطار. وقام في قصر الخلافة عرش معاوية المربع الجوانب تسنده الوسائد المطرزة، والخليفة فوقه بلباسه الرسمي متشحاً بجبّته الفضفاضة وعن يمينه وشماله أخواله وبطانته.

وعلى مثل هذه الابهة والعظمة تعاقب خلفاء عبد الملك بن مروان على عرش معاوية كالوليد بن عبد الملك ثم أخيه سليمان، وهو الذي استقبل موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحي الأندلس ومن ورائهما ثلاثون ألف من أعيان القوط وأسرهم وسائر الأسرى، الصهب الشعور، والاسلاب والكنوز والذخائر وإذا كان هناك مشهد من مشاهد التاريخ يمكن أن يمثل قمة الازدهار فهو هذا.

وهذا أمر طبيعي، وثمة قاعدة اخلاقية تقول: اذا دب الفساد في الرأس

---

(١) راجع رحلة ابن جبير ص٢٦٩- القبة الخضراء في الأغاني ص٦/١٥٩- نفح الطيب للمقري ص١/ ١٤٤.

انتقل الى الأطراف، فمنصب الخلافة في دمشق هتك ودبّ فيه الفساد، والخلفاء فتكوا[1] وتهتكوا والحاشية فسدت بفساد الخليفة.

معاوية بن ابي سفيان

ولنبدأ من الأول عندما، تمرد معاوية بن ابي سفيان على الخليفة المنتخب علي بن أبي طالب، وشق عصا الطاعة وزاحمه على منصب الخلافة، وأيّد عائشة بنت ابي بكر الصديق زوجة رسول الله (ص) عندما ثارت على خلافة علي بن أبي طالب، ثم هزمت في معركة الجمل، التي أشعلت نار حربها ضد علي، فكانت أول حرب اسلامية شقّت القبائل العربية فتوزعت أقساماً بعضها مع عائشة وبعضها الآخر مع عليّ.. وقد شجعت ثورة عائشة معاوية على اعلان التمرد بعد هزيمتها. فحاربه علي في معركة صفين ثم انفصلا بالتحكيم المغشوش، ولا غرو فالتمرد في روح معاوية الذي ينشد السيادة المطلقة على العرب فقد ورثه عن والده ابي سفيان الذي تمرد على رسول الله (ص) من قبل وحاربه في مواقع بدر وأُحُد والخندق عدا عن المناوشات الأخرى وكان اسلام ابي سفيان رقيقاً شفافاً.

يزيد بن معاوية

وقبل أن يموت معاوية اختار ابنه يزيد ولياً للعهد ونصبه بالقوة، ففقدت الخلافة الاسلامية عاملاً من أكبر عواملها الا وهو الشورى[2]، ولما

---

(١) فتك: ركب ما تدعو إليه نفسه غير مبالٍ ـ المعجم.

(٢) جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ص٤/٣٦٨ ما يلي: لما مات زياد سنة ٥٣ أظهر معاوية عهداً مفتعلاً فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده وانما أراد ان يسهل بذلك بيعة يزيد فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين ويشاور ويعطي الأقارب ويداني الأباعد حتى استوثق له من أكثر الناس... ثم بايع الناس ليزيد فقال رجل وقد دعي للبيعة «اللهم اني أعوذبك من شر معاوية فقال له معاوية: تَعَوَّذ من شر نفسك فانه أشد عليك وبايع قال اني أبايع وانا كاره للبيعة... ثم كتب الى مروان بن الحكم

صارت الخلافة وراثية أصبحت شبيهة بالملكية، ناهيك عن سمعة يزيد وتهتكه بشرب الخمور وارتباط القرود، فقد روي عنه منذ أن كان ولياً للعهد وبعد أن أصبح خليفة للمسلمين أنه كان لا يُمسي الاّ سكران ولا يصبح الا مخموراً حتى لقّب بـ«يزيد المخمور»(١) .

وورث يزيد عن أبيه وجدّه العنصرية الأموية وعنجهيتها . فساعد على تنفير أنصار المدينة، وبعث جيشاً لمحاربة الإمام الحسين بن علي السبط الثاني للرسول (ص) فقتله في معركة كربلاء كما سنرى فيما بعد، وجيء له برأسه، فوضع طرف صولجانه في فم الحسين وقال متمثلاً بقول عبد الله ابن الزبعري(٢) .

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلناه ببدرٍ فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف ان لم انتقم	من بني أحمد ما كان فعل

عامله على المدينة ان ادع أهل المدينة الى بيعة يزيد فإن أهل الشام والعراق قد بايعوا فخطبهم مروان وقال سنة ابي بكر الهادية المهديّة فقال له عبد الرحمن بن ابي بكر كذبت انَّ ابا بكر ترك الأهل والعشيرة وبايع لرجل من عديّ رضي دينه وأمانته واختاره لأمة محمد (ص) وتكلم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وانكروا بيعة يزيد.

(١) المرجع السابق ٣/ ٤٠٣ـ النويري النهاية ص٤/ ٩١.

(٢) ابن الزبعري هذا هو ابو سعد بن قيس السهمي القرشي شاعر قريش في الجاهلية كان شديداً على المسلمين الى أن فتحت مكة فهرب الى نجران فقال فيه حسان أبياتاً فلما بلغته عاد الى مكة فأسلم واعتذر. وجاء في العقد الفريد أيضاً ص٤/ ٣٩٠ أنه عندما قال يزيد هذين البيتين قال له رجل من أصحاب رسول الله (ص) ارتددت عن الاسلام يا أمير المؤمنين قال بلى، نستغفر الله : قال والله لاساكنتك أرضاً أبداً وخرج عنه.

معتبراً انتصاره على الحسين في كربلاء موازياً لانتصار الرسول عليه السلام على جده ابي سفيان في معركة بدر الكبرى. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على رقة دينه وضعف ايمانه متناسياً أو متجاهلاً ان مقام الخليفة أعلى وأسمى من العنصرية الدنيوية والثارات والتشدق بالأمثال. وقد كان من مهام الخليفة أنه يحمي الدين، ويقمع أهل الزيغ والألحاد والمارقين، ويطبق الحدود على السكارى وهو منهم، ويحارب البدع ويستأصل الفتن وكان هو من مثيريها منذ أن كان ولياً للعهد الى أن مات غير مأسوف عليه.

عاش معاوية ومات «٦٦١-٦٨٠م» غير مرضيّ عنه الا ممن كانوا حوله من القبائل وتقلد يزيد الخلافة «٦٨٠-٦٨٣م» لمدة ثلاث سنوات[١] فتولاها بعده ابنه معاوية الثاني «٦٨٣م» لبضعة أشهر ثم انتقلت الخلافة بعده الى مروان الأول بن الحكم الذي تسبب بالفتنة الكبرى التي راح ضحيتها الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

واشتد أمر عبد الله بن الزبير في الحجاز بعد جلاء الأمويين عن الجزيرة العربية فبويع له بالخلافة في الحجاز والعراق حيث عيّن أخاه مصعب بن الزبير والياً وأناط به ولايتي جنوب الجزيرة العربية ومصر، وأيّد الضحاك بن قيس الفهري وهو زعيم القيسية ـ عرب الشمال الزبيريين، في حين كان بنو كلب اليمنيون يؤيدون الأمويين وسرعان ما نشبت بين الفريقين معركة مرج راهط[٢]، فغلب القيسية وقتل الضحاك في تموز سنة ٦٨٤م/ ٦٥هـ.

---

(١) كانت خلافة يزيد ثلاث سنين وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوماً.

(٢) مرج راهط سهل كبير موقعه الى الشرق من قرية العذراء القريبة من دمشق. راجع وصفاً مفصلاً لهذه المعركة في العقد الفريد لابن عبد ربه عند الكلام على حروب عبد الملك بن مروان مع الزبير بين ص٢/٤٠٨ وما بعدها. وفي مروج الذهب للمسعودي ٥/٢٠١.

مروان بن الحكم

وكانت قبائل كلب تقيم في سوريا قبل الهجرة، فلما استتبت لهم السيادة بعد «مرج راهط» بايعوا لمروان بن الحكم خليفة وهو ابن عم عثمان بن عفان ووزيره ومشعل نار أول فتنة في الاسلام، فانتقل الى دمشق وأسّس الدولة المروانية من دوحة الأسرة الأموية بعد موت معاوية الثاني المستضعف، وقد حكم مروان «٦٨٤ـ٦٨٥» سنة واحدة، وقد اعتبر العرب تقلده عرش الخلافة تحدياً للمهاجرين والأنصار.

عبد الملك بن مروان

وبعد موته تولى الحكم ابنه عبد الملك بن مروان ٦٨٥ـ٧٠٥، وكان انساناً طموحاً يفضل المنصب على الدين فعيّن الحجاج بن يوسف أميراً على العراق فحكمها بالسيف والجلادون بين يديه طول النهار يقطعون رؤوس الثائرين على الحكم المرواني من الرجال والنساء وكل من تسوّل له نفسه انتقاد الخليفة أو أعوانه وأتباعه وهو القائل في خطبته الأولى في المسجد:

انا ابن جلا وطلاّع الثنايا　　　متى أضع العمامة تعرفوني. . [1]

(١) كانت تلك الخطبة في مسجد الكوفة اذ بدأ الحجاج بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو ملثّم بعمامة حمراء فقال عليّ بالناس فحسبوه وأصحابه خوارج وكان في اثني عشر رجلاً فهمُّو به. حتى اذا اجتمع الناس في المسجد قام وكشف عن وجهه ثم قال:

انا ابن جلا وطلاّع الثنايا　　　متى أضع العمامة تعرفوني
صليب العود من سلفي رباح　　　كنصل السيف وضّاح الجبين
وماذا يبتغي الشعراء مني　　　وقد جاوزت حدّ الأربعين
أخو خمسين مجتمع أشدي　　　وَنَجذَني مداورة الشؤون
وإني لا يعود اليّ قرني　　　غداة العبء الا في قرين

أما والله أني لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وإني لأنظر الى الدماء بين العمائم واللّحى تترقرق.

وهو في الحق، لم يكن شيئاً مذكوراً قبل ذلك سوى انه كان معلماً للأولاد في الطائف، ولكنه تمكن بالسيف من تذليل الصعوبات للحكم المرواني، فأرسله عبد الملك الى مكة فحاصرها في ٢٥ آذار سنة ٦٩٢م/ ٧٣هـ وضربها بالمنجنيق، وقتل في هذه المعركة الخليفة عبد الله بن الزبير ابن أسماء بنت ابي بكر الصديق الملقبة بذات النطاقين واحتزّ رأسه وأرسله الى عبد الملك بن مروان في دمشق، وعلقت جثته على خشبة ثم سلمت الى أمه أسماء، وبموت ابن الزبير زال ركن من أركان السلف الصالح من رجال الاسلام وخلا الجوّ للأمويين.

كان لهذه الفتوق والانشقاقات دويّ صاخب في الاسلام في العالمين العربي والاسلامي.

الوليد بن عبد الملك

وورث الخلافة من بعده ابنه الوليد بن عبد الملك ٧٠٥ـ٧١٥، فاتجه بسياسته نحو الفتوح فشغل بذلك جميع القبائل العربية عن الفتون والفتوق، فنجح أيّما نجاح، وفي عهده فتحت الأندلس والهند وأفغانستان، ونسي الناس عهد الانشقاق والتمرد، وأقبلوا يتحدثون عن الفتوحات وأبنائها وعن البطولات العربية وأنواع السلاح، ومع ذلك فقد كان يشرب الخمر يوماً ويدع يوماً مثل أبيه عبد الملك الذي كان يشرب الخمر مرة في كل شهر حتى لا يعقل «أفي السماء هو أم في الماء ويقول: انما أقصد في هذا الى اشراق العقل وتقوية مُنّة الحفظ وتصفية موضع الفكر[1].

قد شمّرت عن ساقها فشمري الخ (العقد الفريد ٤/ ١٢٠).

(١) راجع التاج في اخلاق الملوك للجاحظ ص١٥١.

سليمان بن عبد الملك

ولما توفي تولى الخلافة أخوه سليمان بن عبد الملك ٧١٥ـ٧١٧ وكان على نقيض أخيه الوليد خاملاً، حسوداً، عدواً للفاتحين فأوقع بمعظمهم وزجّهم في السجون والتفت الى ملذاته الخاصة وأهمها الطعام، وكان بطيناً أكولاً نهما لا يشبع، وراح الناس في عهده يتحدثون في مجتمعاتهم الخاصة عن الأطعمة والأشربة وأنواعها، ثم مات بالتخمة بعد سنتين من حكمه القصير الأمد[1] .

عمر بن عبد العزيز

وجاء من بعده عمر بن عبد العزيز «٧١٧ـ٧٢٠» بن مروان بن الحكم وأخو عبد الملك. وكان في شبابه من محبي اللهو والملذات، ووصف في صدر شبابه بمشيته المتهتكة، ثم تاب وتنسك، وكان قد تزوج قبل التوبة بفاطمة بنت عبد الملك، عندما كان يملك الكثير من الضياع والقصور ومتع الحياة مما ورثه عن ابيه، وما أغدقه عليه الخلفاء من أبناء عمه، فكانت له املاك كثيرة في مصر والشام واليمن والبحرين، وكانت فاطمة من الجميلات الفاتنات اللواتي تغنّى بهنّ شعراء الحجاز وفي مقدمتهم عمر بن ابي ربيعة، وقد قضت في صحبته ١٧ عاماً تسكن القصور، وتلبس الديباج والحرير، وسرعان ما تبدّلت حياتها من يسر الى عسر بعد تولي زوجها عُمر بن عبد العزيز الخلافة ـ اذ تنازل بعد تولّيه الخلافة عن كل أملاكه وأمواله وأملاك زوجته وأموالها وحليها وكل شيء.

وقد عرض عليها عمر أن يطلقها لتهرب من حياة التقشف التي فرضها

---

(١) كان سبب موت سليمان بن عبد الملك أن نصرانياً أتاه وهو بدابق بزنبيل مملوء بيضاً وآخر مملوء تيناً. قال قشروا! فقشروا فجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بقصعة مملوءة مُخ ابسكّر فأكله فأتخم فمرض فمات (المرجع السابق ٤/ ٤٣٠).

عمر على نفسه، ولكنها أبت اباء العربية الحرة فسلمت جواهرها وحليها الى بيت المال، ولما مات عمر بن عبد العزيز لم يترك لها ولا لأولاده الخمسة عشر الا سبعة عشر ديناراً فكفّن بخمسة منها واشتري له موضع قبره بدينارين.

وعرض عليها أخوها يزيد الثاني بن عبد الملك لما تولى الخلافة ان يعيد اليها جميع ما تنازل عنه زوجها في حياته لبيت المال ولكنها رفضت وقالت: ما كنت لأطيع عمر حيّا وأعصيه ميّتا.

وقد كدّس عمر بن عبد العزيز اموال الدخل في بيت المال فضاقت البلاد على رحبها وقلّت الأموال المتداولة في أيدي الناس ورافق السنوات الثلاث من حكمه انحباس الأمطار في الجزيرة العربية، فعمّ فيها الجرب والقحط وانتشر الجوع فجاءت اليه الوفود شاكية باكية فلم يتنازل الا عن القليل من أموال الدولة لكشف الضائقة عن الجماهير الاسلامية.

وكان عمر بن عبد العزيز قد الغى الضرائب المفروضة على الداخلين في الاسلام ولكنه ارتكب خطأً فاحشاً عندما فرض قيوداً صعبة على النصارى حظرت عليهم تقلد المناصب في الدولة ومنعتهم من لبس العمائم، وشرطت عليهم ان يجزّوا نواصيهم، والاّ يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم بل تكون لهم ملابس خاصة بهم، وان يشدوا الزنانير في اوساطهم والا يركبوا على سرج بل على إكاف، ولا يحدثوا كنيسة ولا ديراً ولا صومعة، والاّ يرفعوا أصواتهم في الصلاة[1] الا أن هذه القوانين لم يعمل بها طويلاً، لا بل ألغيت في عهد الخلفاء اللاحقين من بني أميه، فقد ابتنى خالد بن عبد الله القسري عامل هشام على العراق كنيسة لأمه

(١) ابو يوسف الخراج ص١٥٢ـ١٥٣ـ ابن الجوزي في سيرة عمر ص١٠٠ـ العقد الفريد ص٢/ ٣٣٩ـ٣٤٠.

النصرانية[1] لكي تتعبّد فيها، كما أنه منح حق ابتناء المعابد للنصارى واليهود وعيّن من أتباع زرادشت الفارسي موظفين في الدولة.

التفاوت الطبقي في العهد الأموي

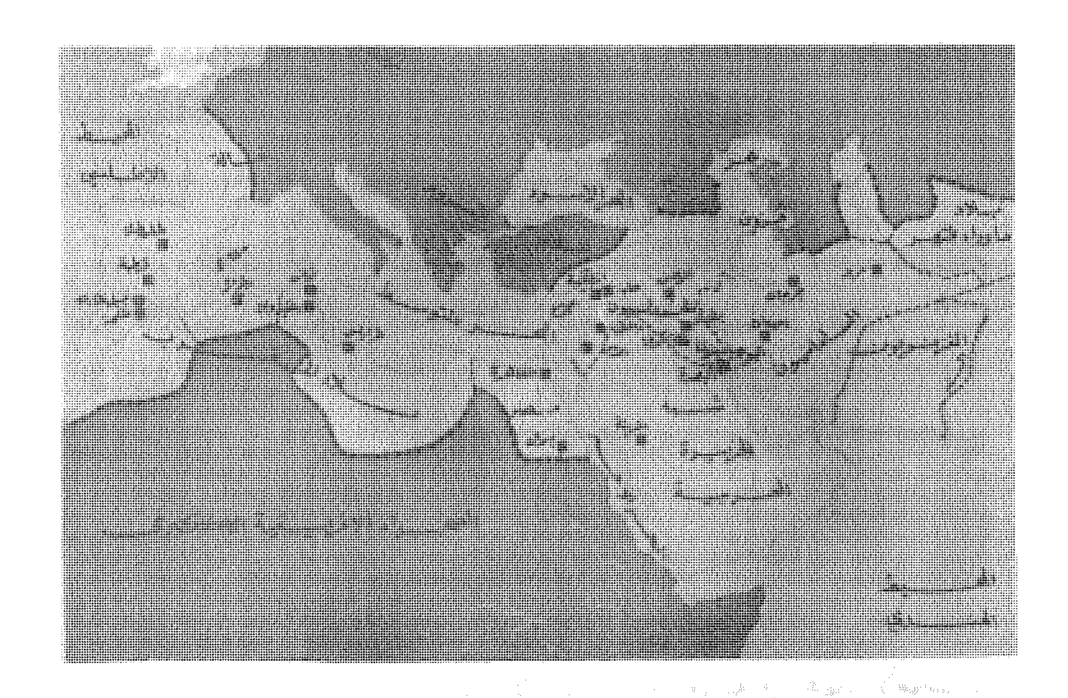
وفي العهد الأموي انقسمت الهيئة الاجتماعية في جميع انحاء الدولة الى طبقات اجتماعية اربع، كانت الطبقة العليا منها هي طبقة العرب المسلمين وعلى رأسها أسرة الخليفة الارستقراطية والعرب الفاتحون، ولم يكن عدد الذين اعتنقوا الاسلام كبيراً قبل القيود التي فرضها عمر بن عبد العزيز على النصارى واليهود.

ويلي هذه الطبقة من العرب المسلمين طبقة الموالي، اي المسلمون من غير العرب الذين اعتنقوا الدين الاسلامي طوعاً فأصبحوا يتمتعون بحقوق الرعوية الاسلامية، ولكن الارستقراطية العربية في عهد الأمويين، وقفت سداً منيعاً في وجه هذه الطبقة فحالت دون حصولها على حقوقها المكتسبة في الاسلام.

وشعر الموالي بالغبن اللاحق بهم من جراء هذه الفروق الطبقية المخالفة لتعاليم الاسلام والأحاديث النبوية: ليس لعربي فضل على أعجمي الاّ بالتقوي، وكلكم سواسية كأسنان المشط[2]، وسلمان منّا أهل البيت، وكان سلمان فارسياً الى أخره ثم استنكر الموالي وضعهم ولم يرضوا به قط، ومن هنا يمكن تفهم الباعث الذي حدا بهم الى مناصرة الحركات المتنوعة المناهضة للحكم كحركة الشيعة في العراق والخوارج في فارس وشمال أفريقيا.

---

(١) أنظر ابن خلكان ص١/ ٣٠٢.
(٢) الحديث الشريف هو: كلكم سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي الاّ بالتقوى.



التوسع الأموي

وكان من الطبيعي أن ينافس الموالي أسيادهم العرب في الاقبال على العلوم العالية، والفنون الجميلة وان يبذوهم في الطب والفلك والفقه والحديث واللغة والأدب، وما ان تفوقوا على العرب المسلمين في ميادين الحركة الفكرية والعلمية حتى راحوا يشرئبون بأعناقهم الى الزعامة السياسية، ثم امتزجوا بالزواج مع الأسر العربية. . ومع ذلك فقد ظلّت كلمة الموالي تشكل حاجزاً بغيضاً بين العرب والمسلمين سكان البلاد الأصليين الذين دخلوا الاسلام بعد الفتح.

وتألفت الطبقة الثالثة من أهل الذمة، وهم أهل الكتاب من نصارى ويهود وكان قد اشترط عليهم الا يحملوا السلاح وان يؤدوا الجزية مقابل

الحماية الاسلامية لهم.

وكانت الطبقة الأخيرة مؤلفة من «الرقيق» وقد احتفظ المسلمون بنظام الرقيق القديم الذي أقرّته التوراة من قبل، واستنكره الاسلام ولكنه لم يستطع ان يلغيه الغاءً تاماً، ومع ان الاسلام أوصى باصلاح شأن العبد، ومنع الشرع استرقاق المسلم فان العبد المملوك لم يكن من حقه أن يعتق بمجرد دخوله في الاسلام، وكان معظم المستعبدين في فجر الاسلام من أسرى الحرب أو الغزاة أو من الذين شروا بالمال. وكان المستعبدون شتى من الزنوج السود ومن الصفر المجلوبين من فرغانة[1] أو تركستان الصينية وهؤلاء هم الذين مكّنهم الله من رقاب العرب ابتداء من منتصف الحكم العباسي أي من عهد المعتصم بن هارون الرشيد وابنائه وأحفاده، ولا نريد أن نتوسع في هذا الموضوع لأننا نشعر بالخجل..

يزيد الثاني بن عبد الملك

ولما مات عمر بن عبد العزيز تنفس الناس الصعداء. فتولى الخلافة يزيد الثاني بن عبد الملك «٧٢٠ـ٧٢٤» وكان مولعاً بشرب الخمور وعاشقاً لجاريته حَبَابه[2] وصديقتها

(١) فرغانة. منطقة بوسط الاتحاد السوفياتي السابق اوزبكستان وطاجكستان حالياً بعض أجزائها صحراوي والبعض الآخر زراعي قامت فيها مناطق زراعية منذ القدم نالت شهرة عالمية وكذلك مناطق تجارية. حمل العرب اليها الاسلام في القرن الثامن الميلادي استولى عليها الروس عام ١٨٧٦.

(٢) حبابة: توفيت سنة ١٠٦هـ/ ٧٢٤م هي جارية يزيد بن عبد الملك واسمها العالية من مولدات المدينة كانت لرجل يدعى ابن مينا وهو الذي أدبها فلما صارت الى يزيد سماها حبابة. كانت طريفة حلوة الوجه طيبة الصوت تعزف على العود وأخذت الغناء عن جميلة وعزة الميلاء ومعبد قيل أنها دخلت على يزيد في ازار له ذنبان وفي يدها دف ترمي به وتتلقاه وهي تغني في صوت ابن سريج وكان يزيد مؤثراً لها فلما ماتت جزع عليها وجلس على قبرها يرثيها ثم لم يلبث بعدها أربعين يوماً حتى دفن الى

سلاّمة[1] فقضى الأربع سنوات من حكمه بين الجاريتين فلما شرقت حبابه بحبّ الرومان وماتت حزن عليها ورفض السماح بدفنها، ولكنه ما لبث أن مات ولحق بها الى الجحيم.

هشام بن عبد الملك

كان الخليفة هشام بن عبد الملك وهو الرابع من أبناء عبد الملك بن مروان أكثر خلفاء الأمويين حزماً ٧٢٤ـ٧٤٣. وكان عليه أن يولي الخلافة من بعده لولي عهده الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك «٧٤٣ـ٧٤٤».

عهود الغلمان من بني أميّه

كان الخليفة الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك أكثر انكباباً على اللهو والصيد ومعاقرة الخمور والاستمتاع بالسماع والشعر، فقتل على فراش لهوه وملذّاته. أما يزيد الثالث ابن الوليد الأول فمشى على غرار الوليد حتى سميّ بيزيد الناقص ٧٤٤م ودام حكمه بضعة أشهر فقط فتولّى بعده مروان الثاني أو مروان الحمار ٧٤٤ـ٧٥٠ وكان من درجة معاوية بن أبي سفيان وهشام بن عبد الملك حزماً وقوة، وقد حاول اصلاح ما أفسده غلمان بني مروان ولكنه فشل فالثورة الشيعيّة العلوية ـ. العباسية أدركته وانتزعت منه الخلافة والملك. وهكذا انتقلت الخلافة الى العباسيين.

نفهم من هذا الاستعراض أن الخلافة الأموية سقطت بسبب سقوط

جوارها. (الموسوعة العربية الميسرة).

(١) سلامة: وتدعى سلامة القس توفّيت سنة ١٣١هـ/٧٤٨م مغنية شاعرة من مولدات المدينة نشأت بها وأخذت الغناء عن معبد ومهرت به وحذقت الضرب على الأوتار شغف بها عبد الرحمن الحشمي الملقّب بالقس لعبادته فنسبت اليه اشتراها يزيد بن عبد الملك بثمن باهظ جداً فانتقلت الى بلاطه كان يفضل عليها حبابة. لها شعر في رثاء يزيد وقد أدركت أيام ابنه الوليد وتوفّيت بدمشق (المرجع السابق).

العدد الأكبر من خلفاء مروان بن الحكم . . لقد كان الجد فاسداً وورث أبناؤه وأحفاده طريقته في الفساد والكفر والزندقة والخروج عن تعاليم الاسلام.

ففي عهد الدولة الأموية تم تنظيم طبقة الخصيان التي ساعدت على تكوين نظام الحريم واستشرى البذخ والترف والتنعم وكان الخليفة يزيد الثالث ابن الوليد الأول، أول خليفة في الاسلام أمُّه «أم ولد» أي جارية غير عربية وكذلك كان الخليفتان اللذان وليا الخلافة من بعده[1] . ولم تكن سبل اللهو والعبث التي سلكها أمراء الطبقة المالكة الا دليلاً على الانحطاط الاخلاقي المتفشي في قصر الخلافة، ومنه انتقل الانحطاط والفساد الى سائر القصور في سوريا والعراق وخرسان وأجزاء من الحجاز واليمن وو. . الخ

مدارس الموسيقى في العهد الأموي

وأصبحت مكة والمدينة في العهد الأموي موئلاً للموسيقى العربية ومربعاً لهواتها[2] . وكانت أول مدرسة لتعليم الجواري الموسيقى أنشأتها «جميلة» معلمة الغناء والعزف في المدينة المنورة، ومنها تخرج عدد كبير من الجواري المغنيات ومعظمهن من أصل عربي من أمثال: سلامة «القس» وسلامة الزرقاء، وحبابة، وفريدة، وكان يتردد على هذه المدرسة كبار الموسيقيين من أمثال: معبد وابن سريج وحكم الوادي وغيرهم.

وكان يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي وأحضر المغنين الى دمشق فكان يقيم الحفلات الكبرى في بلاطه الملكي، وشمل عبد الملك بن مروان ـ ابن مسجح من مغني الحجاز بعطفه واستقدم الوليد بن يزيد، ابن سريج ومعبد وسلامة الى دمشق واحتفى بهم. واصطفى هشام بن عبد الملك،

---

(١) راجع الطبري ص٣/ ١٨٧٤ـ اليعقوبي ٢/ ٤٠١ـ ابن الأثير ٥/ ٢٣٥ـ الأغاني ١/ ١٠٢.

(٢) راجع الأغاني ١٦/ ٧٠ـ المسعودي ٥/ ١٥٦ـ١٥٧.

المغني حنيناً وهو من الحيرة[1] وقد ورث ذلك كله الخلفاء العباسيون ابتداء من الخليفة المهدي بن ابي جعفر المنصور وابنيه من بعده على التوالي الخليفة الهادي والخليفة هارون الرشيد وفي عهد هذا الخليفة اصبحت قصور الخلافة موئلاً للمغنين والمغنيات والجواري والسّراري من كل جنس وسنخ.

وهكذا استشرى الفساد في العهد الأموي وتمادى في العصر العباسي، فالعُرى التي أوجدها الاسلام لربط أجزاء العالم الاسلامي أخذت بالتفكك.

توزع القبائل العربية

وكانت قبائل العرب الشمالية قد هجرت مواطنها في عهود الجاهلية وانتقلت الى العراق إبان الفتوحات لتشارك فيها. وانتقلت بالمثل الى شمال العراق قبائل ربيعة من بكر وتغلب وأقامت مضاربها على ضفاف دجلة، بينما أقامت قبائل مضر «القيسية» على ضفاف الفرات، كما هاجرت في أوقات متفاوتة قبائل الجنوب وسكنت بلاد الشام وسميت باليمانية، وكان المقام الأول فيها لبني كلب. أما عرب خراسان فقد انتقلوا أصلاً من الجزيرة العربية الى البصرة لأنهم من عرب الشمال ثم انتقلوا الى خراسان وأهم قبائلهم تميم. هذا بالاضافة الى قبائل الازد العُمانية التي سكنت خراسان أيضاً.

الخلفاء الأمويون يثيرون النعرات القبلية

وكان معاوية يستعين باليمانيين، أما يزيد «ابنه» وأمه كلبية يمانية فقد تزوج كأبيه من كلبية يمانية أيضاً، فكان ذلك من الأسباب التي أدّت الى ايغار

---

(١) حنين: ويدعى حنين الحيري توفي سنة ١٠٠هـ/٧١٨م هو ابن بلوع الحيري المغني كان شاعراً ومغنياً من الفحول المتقدمين كان نصرانياً يسكن الحيرة بالعراق. كان ظريفاً مطبوعاً على الغناء حسن الصوت ولم يكن بالعراق غيره. وقيل أن حنين قدم الحجاز وغنّى مع ابن سريج ومعبد (المرجع السابق).

صدور العرب القيسية بالحقد ضد يزيد بصورة خاصة فرفضوا الاعتراف بخلافة معاوية الثاني ابن يزيد فظاهروا عبد الله بن الزبير في الحجاز، ثم كان الفوز لبني كلب على بني قيس في معركة «مرج راهط» «٦٨٤» كما ذكرنا فاستقرت الخلافة لمروان بن الحكم وفي عهد الوليد الأول بن عبد الملك علا نجم قيس على يد الحجاج بن يوسف وصهره محمد بن القاسم فاتح الهند، وقتيبة بن مسلم فاتح آسيا الوسطى «أفغانستان وما حولها» أما سليمان بن عبد الملك فمال الى اليمانية، ولكن يزيد الثاني بن عبد الملك حابى القيسية متأثراً بميول أمه المضرية وفعل مثله الوليد الثاني، أما يزيد الثالث فقد أثر اليمانية واستعان بسيوفهم على اغتصاب الخلافة من الوليد الثاني.

وهكذا . . فالخلفاء الأمويون جددوا النعرة القبلية الجاهلية بين العرب النزاريين ومنهم مضر وربيعة واياد وغيرهم، والعرب اليمانيين من أبناء قحطان. ففي عهد معاوية وابنه وعبد الملك بن مروان اشتد الخلاف والتنابذ والمهاجاة بين العرب المضرية فكان يقود هذه الحملة جرير والفرزدق والأخطل التغلبي ـ وهو من ربيعه ـ حتى ليقال ان ثمانين شاعراً كانوا يهجون جريرا. وكان هذا الهجاء يتضمن هجو القبائل وأثارة النعرات القبلية والحروب الجاهلية الى أخره.

وشجع يزيد بن معاوية الأخطل التغلبي على هجو الأنصار أي الأوس والخزرج سكان يثرب «المدينة المنورة» الذين نصروا رسول الله. وشجعه من بعد يزيد بن عبد الملك بن مروان على هجو الأنصار وغير الأنصار. وكان الأخطل التغلبي يحضر مجلس الخليفة عبد الملك ورائحة الخمر تفوح من بين شفتيه. وهو القائل في مجلس الخليفة عبد الملك بن مروان:

اذا ما نديمي علني ثم علني ... ثلاث زجاجات لهنّ هديرُ
خرجتُ أجرّ الذيل، زهواً كأنّني ... عليك، أمير المؤمنين، أميرُ

ومن هنا يتضح أن تجديد المنافرة والعصبيات القبلية الجاهلية زاد في تفشّي الأحزاب السياسية والنزعات والانتماءات بين القبائل العربية.

وفي العصر الأموي قويت الشيعة وظهرت كأكبر خصم للانحراف الأموي سيما بعد أن ادرك المسلمون ان الامام علي بن ابي طالب قتل غدراً في مسجد الكوفة بمؤامرة مدبرة. وأن يزيد بن معاوية قتل الامام الحسين السبط الثاني للرسول (ص) وابن ابنته فاطمة الزهراء بعد أن قام لاصلاح أمة جده وبعد ان رأى ان الدنيا في ظل حكم يزيد وابيه من قبله قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ولم يبق منها الا صبابة كصبابة الاناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل وان الحق أصبح لا يعمل به وان الباطل لا يُتناهى عنه[1].

وقد قتل الامام الحسين في كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م وقتل معه ابناؤه وأخوته وأبناء أخوته وأصحابه بشكل مأساوي وفي مجزرة قلّ مثيلها في تاريخ الانسانية كلها.

وظهرت في الوقت نفسه جماعة الخوارج ومعظمها من تميم وكانت مناوئه للامام علي ولمعاوية في آن واحد. وقد ضمت جيوشها معظم فرسان الاسلام الناقمين على معاوية والمتمردين على الامام لأنه رضي بالتحكيم المغشوش.

وقد أذنت ساعة انحلال الدولة الأموية حين تم الاتفاق بين الشيعة في الحجاز والعراق وأهل خراسان والعباسيين.

لماذا ثار المغاربة على الأمويين؟

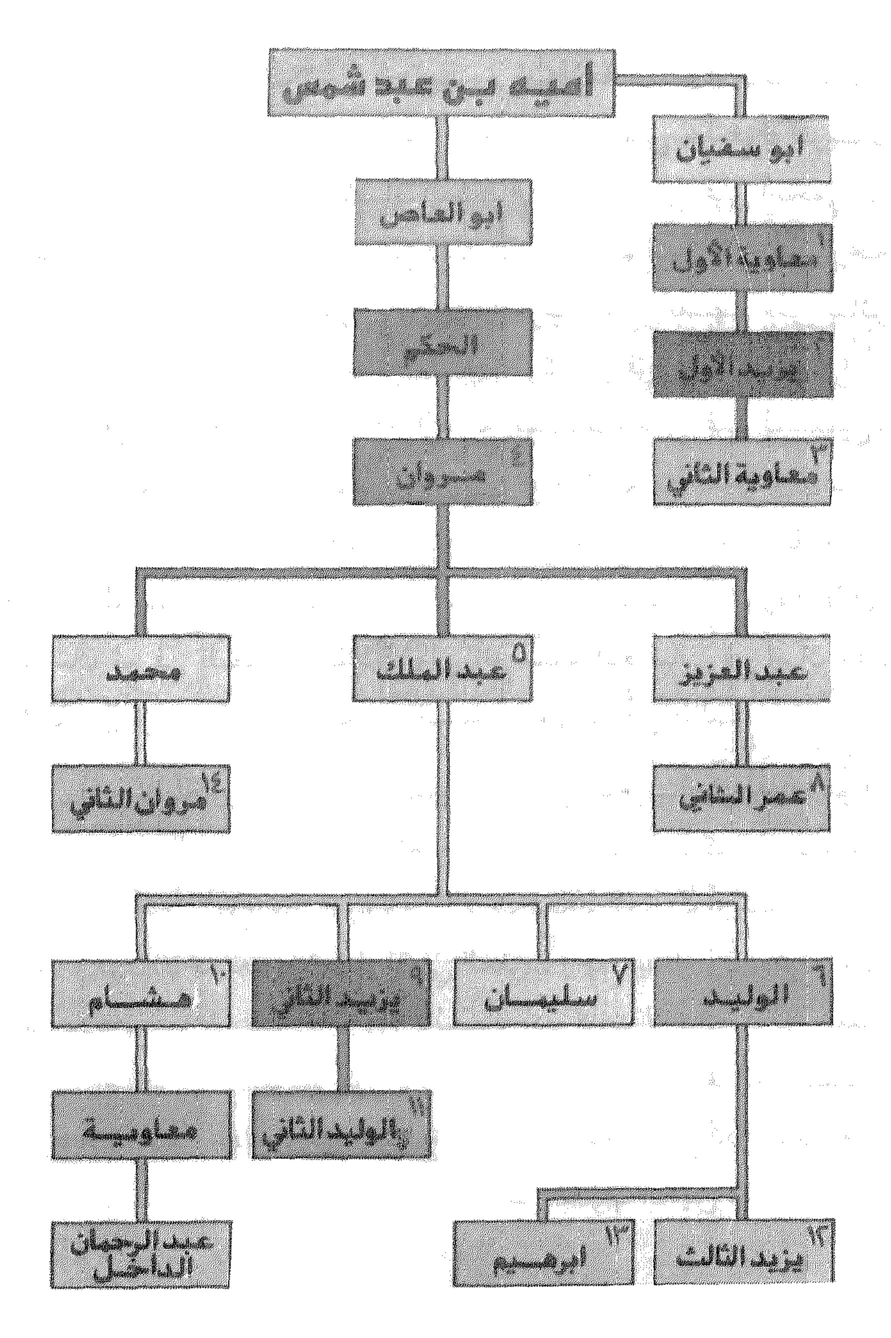
لم تكن نقمة المسلمين من غير العرب خاصة في بلاد المغرب،

---

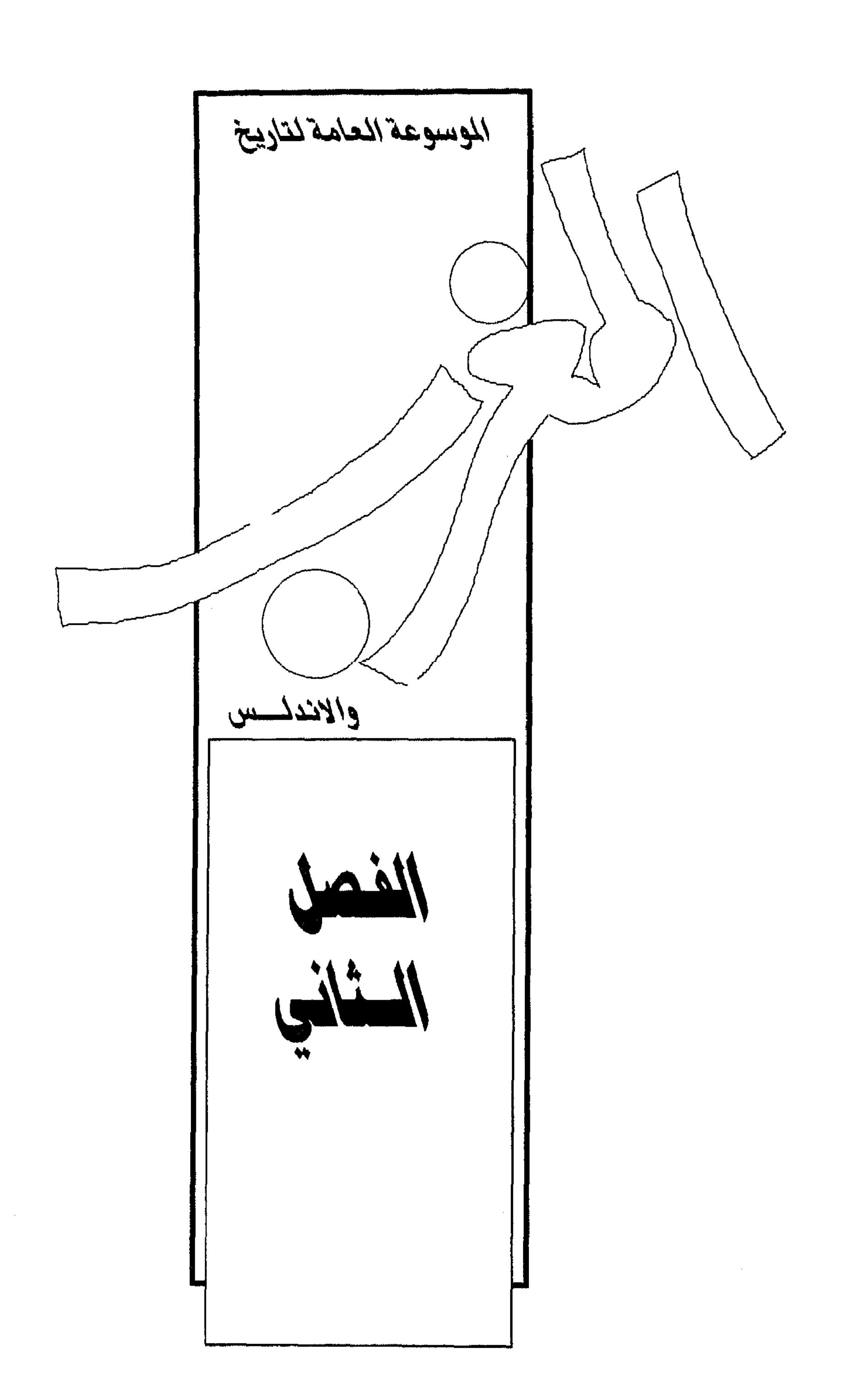
(١) من خطبة للإمام الحسين في أصحابه قبيل موقعة كربلاء.

وشمال أفريقيا وفي خراسان دون مبرر، فهؤلاء المسلمون كانوا يمنون أنفسهم حين اعتنقوا الاسلام بالتساوي مع العرب على حد قول الرسول محمد (ص) كلكم سواسية كأسنان المشط «لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوي» ولكنهم رأوا عوضاً عن ذلك أن مركزهم قد تدنى الى درجة «الموالي» وهي كلمة عنصرية اتخذها العرب لتمييز أنفسهم على سائر الشعوب الأخرى «من غير الجنس العربي» وكان يرافق كلمة «الموالي» أو «مولى» في كثير من الأحيان دفع الجزية المفروضة على غير المسلمين، وزاد في نقمتهم شعورهم بأنهم كانوا أرقى وأعرق ثقافة من العرب والأعراب الذين جاؤوا من البادية، وهكذا وجدت بذور الحركة الشيعية. تربة خصبة صالحة للنمو في المغرب وفي خراسان، فانتشرت فكرة الثورة أولاً في خراسان ثم في المغرب، فقاد الأولى أبو مسلم الخرساني في ايران وقاد الثانية ادريس بن عبد الله بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.

لقد كانت مبررات النقمة والتمرد كثيرة في المغرب ومن أهمها هو أن المغاربة أبناء البلاد اعتنقوا الاسلام حباً بالدين وبالمساواة كما ذكرنا ولكن خلفاء بني أميّة ظلوا يرسلون ولاة من العرب لحكم المغرب أو شمال أفريقيا قاطبة، دون الأخذ بعين الاعتبار أن في المغرب رجالاً يصلحون ليكونوا ولاة على بلادهم أو على بلدان أخرى. فالمسألة اذن كانت لا تعدو كونها جعلت العرب أسياداً في المغرب مثل الرومان والبيزنطيين، والمغاربة المسلمين مسودين.. ومن هذه الحقيقة نستنتج أن الثورة المغربية لم تكن شعوبية بل ثورة على الظلم والاستغلال ضد الولاة من العرب الذين كانوا يميّزون أنفسهم عنهم ويرهقونه بالضرائب الباهظة.



جدول نسب بني أمية الأمويون في الشام


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الـثاني

حكم الولاة في المغرب

أرسل الخلفاء الأمويون ثمانية ولاة بعد طارق بن زياد وموسى بن نصير «ونحب أن نشير الى أن المعاملة السيئة التي لقيها طارق بن زياد المغربي الأصل عندما قنّعه موسى بن نصير بالسوط وأذله على مرأى من جيش المغاربة، ثم ما آلت اليه حاله بعد عودته الى دمشق واختفاء اثره بعد ذلك. هذان السببان مع امثالهما أجّجا نيران النقمة على العرب في المغرب. يضاف الى ذلك أيضاً فساد بعض الولاة العرب الذين حكموا المغرب بعد موسى بن نصير.

وكان من خيرة هؤلاء الولاة اسماعيل بن عبد الله بن ابي المهاجر الذي ثابر على نشر الاسلام في المغرب اقتداء بأبيه الذي كان من المجاهدين الأوائل في المغرب. وكان قد أرسله عمر الثاني بن عبد العزيز عام ١٠٠هـ/ ٧١٨م.

وفي عام ١٠٢هـ/ ٧٢٠م عُيّن يزيد بن ابي مسلم والياً على المغرب ففرض ضرائب على عمل العاملين كما كان يفعل الرومان والبيزنطيون من

قبل وأنشأ لنفسه حرساً خاصاً لحمايته ولكنه ما لبث أن قتل . .

وبدأ التمرد المغربي في «السوس» وهو اقليم كبير في جنوب المغرب ويعرف حالياً بمراكش ففي عام ٧٣٤ عُيّن عبيد الله بن الحبحاب والياً على المغرب بعد أن تولّى مصر مدة من الزمن وأثبت جدارته، فعهد الى نوابه ومن بينهم عبيد الله المرادي الحكم في طنجة، وكانت أعمال التوسع في البر والبحر ما تزال تسير سيراً حسناً، ويقال بأن المرادي اراد جباية ضريبة الخُمس من المغاربة المسلمين فقتل عام ١٢٣هـ/ ٧٤٠م وكان قائد حركة التمرد «ميسرة» وهو من الصفريين الخوارج المتشددين في الصلاح والتقوى والثائرين على كل تجاوز ينتهزه الولاة لصالحهم او لصالح خليفة دمشق.

ولكن وصول «ميسرة» وهو داعية متطرف من دعاة الخوارج الثائرين على الحكم العربي الاسلامي يشكل مرحلة جديدة من مراحل الشغب والهدم في المغرب، وكنا قلنا من قبل ان بعض القبائل العربية التي رحلت الى الأندلس والمغرب نقلت معها خصوماتها وحزازاتها في الجاهلية والاسلام الى أطراف الدولة الأموية لإثارة الشغب والاضطرابات بين الشعوب غير العربية التي اعتنقت الاسلام حديثا على أمل تحطيم الدولة الأموية، وها نحن الآن أمام موجة جديدة من الخوارج زحفت على المغرب وهي تحمل في أيديها معاول الهدم.

وما كاد ميسرة يعود مرة ثانية الى طنجة حتى انقسم أصحابه الثوار على أنفسهم فاغتيل «ميسرة» وحل محله خالد بن حُميد الخارجي.

وقد تمكن هؤلاء الخوارج في حملتين متتابعتين من هزيمة الجيش العربي الذي أرسل من القيروان لقمع الشغب، فانتصر الخوارج في معركة الشليف ومن بعدها في معركة وادي «سبو».

عندئذٍ أرسلت دمشق جيشاً بقيادة كلثوم بن اياد فدارت معارك حامية في جنوب قسنطينة في الجزائر الى ان تقلد القيادة حنظلة بن صفوان فتمكن من قمع الخوارج في معركتي القرن والأصنام وسحق التمرد عام ٧٤١م.

وجرب بنو عقبة بن نافع ان يقتطعوا لأنفسهم امارة من الدولة العباسية فيما بعد فأقام عبد الرحمن بن حبيب «٧٤٥-٧٥٥» دويلة صغيرة له في القيروان ولكن المحاولة ما لبثت ان فشلت بسبب تنازع الأسرة على السيادة وتدخل الخوارج مرَّةً أُخرىٰ من جهة طرابلس - ليبيا واهتمام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بالأمر. فماتت دويلة أبناء عقبة في مهدها.

وحاول الخوارج مرة أخرى تجديد الثورة في جنوب تونس ولكن عمر بن حفص عامل المهلب بن ابي صفرة ٧٦٨-٧٧١ تصدّى لهم وأعاد الهدوء الى المنطقة دون أن يقمع الخوارج ثم تولّى الأمر بعده يزيد بن حاتم ٧٧١-٧٨٨، ثم روح بن حاتم ٧٨٨- ٧٩٠ وهذا الأخير تمكّن من عقد معاهدة سلم مع ابن رستم زعيم الخوارج فاستقر الأمر وعاد السلام موقتاً الى جنوب تونس.

لكن من هم هؤلاء الخوارج الذين تسلّلوا الى شمال أفريقيا وهم يحملون معاول الهدم والتدمير. بعد ان فشلوا في تدمير الدول العربية الاسلامية في دمشق وبغداد؟

لقد بدأوا بالظهور في عهد الوالي الأموي عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع. وكان قد ارسله والياً على أفريقيا الخليفة هشام بن عبد الملك لقمع الثورات والفتن التي أثارها الخوارج.

ولما ان أعاد الهدوء واستتبّ له الأمن غزا جزيرة صقليه لأول مرة في تاريخ العرب عام ١٢٢هـ/ ٧٣٩م فهاجم سرقوسة وحاصرها، وفرض الجزية

على اجزاء أخرى في الجزيرة، ثم قفل راجعاً الى طرابلس ليخمد ثورة «البربر» بعد أن وصلت اليه أنباؤها وهو في صقليه يحاصر سرقوسة.

ولما وصل الى طرابلس علم بأن سكانها قد بايعوا بالخلافة رجلاً من الخوارج يدعى ميسرة المطغري الأنف الذكر. ثم قتلوه بعد أن اكتشفوا بأنه كان دعيا كذابا، ثم اختاروا بعده أميرا يدعى خالد بن حميد الزناتي من قبيلة زناتة الكنعانية ـ البربرية.

ونصح عبد الرحمن بن حبيب ببناء سور حول طرابلس لحمايتها من غارات القبائل المتمردة فبنى السور عام ١٣١هـ/ ٧٤٨م.

وفيما كان عبد الرحمن يقوم برحلة تهدئة في أرجاء البلاد انقض على طرابلس ثائر جديد يدعى عبد الجبار فاحتلها وقتل حاكمها أبا بكر بن عيسى القيسي. فعاد عبد الرحمن على عجل وقتل الثائر عبد الجبار، ومرة أخرى شرع بتحصين المدينة.

ثم استقل عبد الرحمن بولاية أفريقيا وثبته عليها الخليفة مروان الثاني بن محمد بن مروان الأول بن الحكم:

ولكن عبد الرحمن بن حبيب ما لبث أن توفي سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩ وتصادف موته مع نهاية الدولة الأموية في دمشق وقيام الدولة العباسية.

وسرعان ما أعلنت طرابلس الغرب استقلالها وانفصالها عن الخلافة العباسية، وقلّدت أمورها الى خارجي يدعى ابا الخطاب الأباضي نسبة الى مؤسس الأباضية عبد الله بن أباض من أهل النصف الثاني من القرن الأول للهجرة.

وقد تمكن ابو الخطاب من توحيد ليبيا عرباً وبربر ثم احتل القيروان

وعيّن عليها والياً من قبله يدعى عبد الرحمن بن رستم الفارسي.

ولكن العباسيين سرعان ما جردوا حملة عسكرية للقضاء على الفتن والمتمردين ـ بقيادة محمد بن الأشعث ١٣٧ هجرية ـ ٧٥٤م، فحارب ابا الخطاب وقتله في تاورغه ثم عاد واستردّ القيروان بعد هروب ابن رستم الفارسي الى تاهرت، واستردّ أيضاً طرابلس وهكذا رويداً رويداً عادت بلدان شمال افريقية الى حظيرة الخلافة العباسية.

وبانتهاء مُهِمَّتِهِ عاد ابن الأشعث الى المشرق عام ١٤٨هـ/ ٧٦٥م وولّى على شمال افريقيا الأغلب بن سالم التميمي.

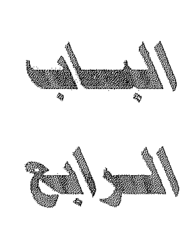
وولّى عرش الخلافة في بغداد هارون الرشيد فولّى على طرابلس سفيان بن ابي المهاجر، ولكنه استقال بعد عامين ونصف، فولّى الرشيد مكانه محمد بن مقاتل العكي ـ وهو أخو الرشيد بالرضاعة ـ فقدم الى القيروان عام ١٨١هـ/ ٧٩٧م. ولكن الجنود ثاروا عليه لسوء أخلاقه ـ كما قيل ـ ولما علم بذلك ابراهيم بن الأغلب زحف بقواته على القيروان فاستردها وأعاد محمد بن مقاتل والياً. . سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م.

ولكن الثورة لم تنطفىء نيرانها في ليبيا فاستشار هارون الرشيد حاشية فيمن يولي على شمال أفريقيا فنصحوه بتولية ابراهيم بن الأغلب.



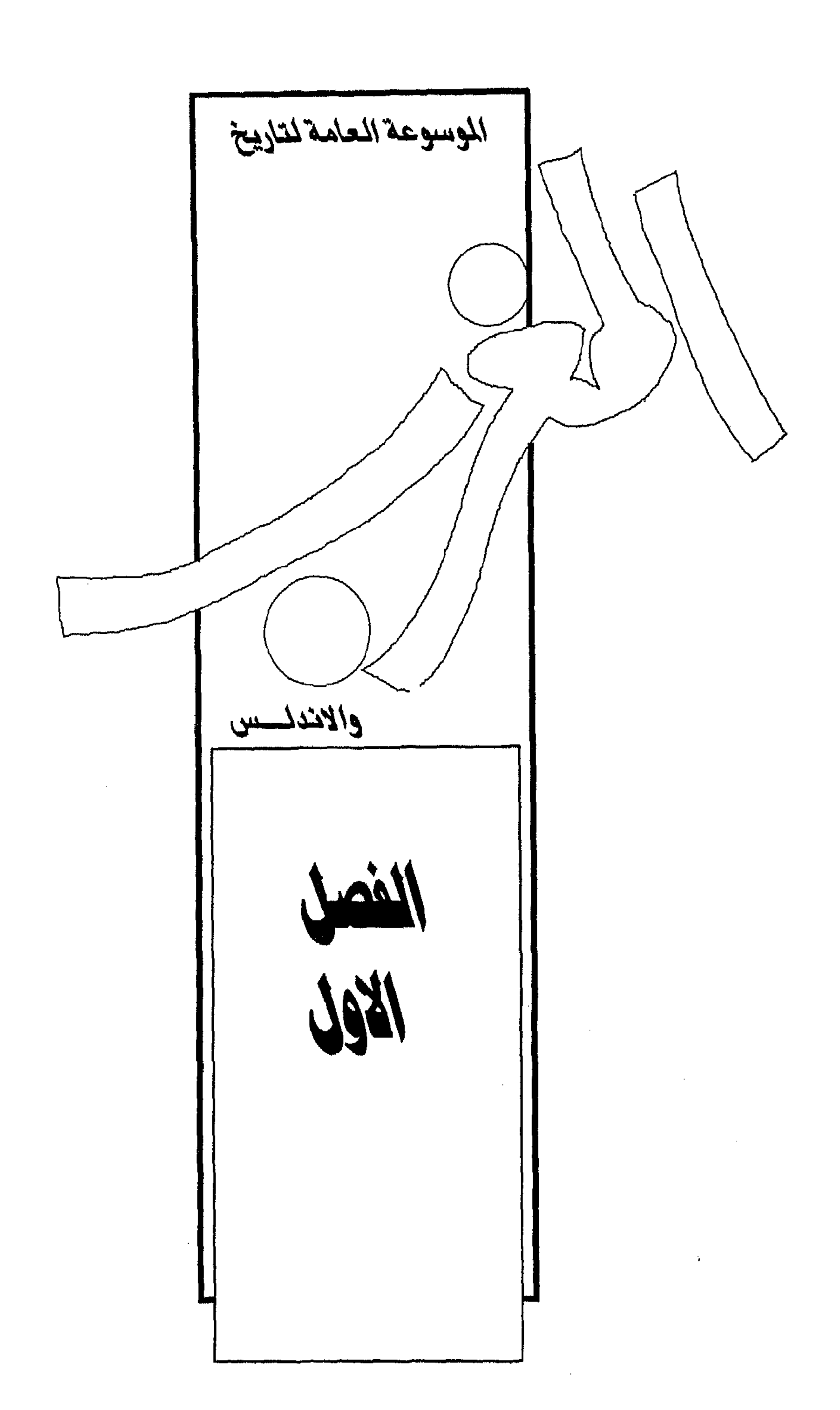
مغربيات في الريف

الباب الرابع





شاطىء الرستنكا سمير القريب من سبتة



الفصل الاول

عهد الأدارسة

لم يكن قد انقضى على تأسيس الخلافة العباسية أكثر من خمس سنوات حين دخل عبد الرحمن فتى أُمية مدينة قرطبة هارباً ـ بعد أن نجا بأعجوبة ـ من المجزرة الكبرى التي استهلّ بها العباسيون عهدهم الجديد، وذلك بقتل كل من وصلت اليه أيديهم من رجال وفتيان بني أميه. وأنصارهم وكان قد أوقع السفاح ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، بعدد من أحفاد الحسين بن علي بن ابي طالب ممن بدأت الدعوة العباسية بأسمائهم ثم استأنف مطاردة الباقين منهم أبو جعفر المنصور أخو السفاح المذكور آنفاً. / ١٣٧هـ/ ٧٥٤م.

ادريس بن عبد الله الإمام المؤسس

وفي سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م أسهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، بثورة من تلك الثورات التي كان يخوضها العلويون في المدينة المنورة وغيرها.

ويخبرنا الأشعري في تاريخه أن محمد بن عبد الله النفس الزكية ثار

على أبي جعفر المنصور قبل معركة فخ[1] . . بزمن طويل وهي المعركة التي كانت السبب في هجرة ادريس الأول الى بلاد المغرب، وقيل أيضاً أن محمد بن عبد الله هو الذي أرسل أخاه ادريس الى المغرب للقيام بالدعوة العلوية. وعلى أي حال فان ادريس بن عبد الله فر من ينبع في الحجاز وليس معه سوى خادمة راشد المغربي «البربري» فبلغ المغرب عام ١٧٢هـ/ ٧٨٨م بعد سنتين من تولي هارون الرشيد الخلافة.

ويبدو ان خادمه راشد كان من قبيلة «أوربه» المغربية فقاده اليها في مدينة أُوليلى المعروفة قديماً باسم «فولوبيليس» وهي قريبة من زرهون، حيث حل ضيفاً عزيزاً مكرماً وسرعان ما أصهر الى أحد زعماء القبيلة فتزوج ابنته وراح ينشر الدعوة الاسلامية فالتفت عليه القبيلة وراحت تؤازره وتناصره.

وكان رجال القبيلة ذوي بأس شديد فالتفوا حوله وبايعوه إماماً ومرشداً ثم أميراً للمسلمين مبايعة من قلوب صافية مؤمنة بعقيدة الاسلام الخالية من الشوائب والمنزهّة عن العنصرية والتعصب، واقبلت القبائل المجاورة على مبايعته بعد أن توسّمت فيه الصلاح والتقوى والمروءة المجردة من العصبية القبلية او الجاهلية وبعد أن عرفوا أنه فرع من تلك الشجرة الزكية المباركة وغصن من أغصانها وجده الامام علي وجدته فاطمة الزهراء بنت

(١) فخ: في الخبران رسول الله (ص) اغتسل بفخ قبل دخوله مكة. وبفخ كانت وقعة الحسين وعقبه. قال البكري: وذلك أن الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب كان قام بالمدينة أيام موسى الهادي ثم خرج الى مكة في ذي القعدة سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م وخرج معه جماعة من بني عمه واخوته منهم يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن. وزحف اليهم جيش الخليفة في أربعة آلاف فارس فقتل الحسين وأكثر من كان معه. وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير. وهرب يحيى وادريس ابنا عبد الله فلاذ يحيى ببلاد فارس فالديلم ووقع ادريس الى بلاد المغرب.

الرسول (ص).

ولما كان الامام ادريس طموحاً كسائر العلويين فقد شكل من أنصاره البواسل الملتفين حوله جيشاً ليكون سنده ووسيلته الى تحقيق طموحاته. بذلك الجيش المؤمن تمكن من انشاء دولة الأدارسة متخذاً مدينة أُوليلي عاصمةً له، ومع الجهد والعرق اتسعت دولته فامتدت الى تلمسان.

دام عهد ادريس الأول خمس سنوات، ثم توفى مسموماً على يدّ مأجور مخاتل هو «سلمان بن جرير» بعثه هرون الرشيد الخليفة العباسي الخامس ليقضي على حركته قبل أن يستفحل خطرها وتصعب السيطرة عليها.

ادريس الثاني

خلف ادريس الأول ابنه ادريس الثاني الذي أخذت له البيعة سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م.. وكان عمره وقتئذٍ يتراوح بين ١٦و١٧ عاماً.

وفي هذه السنة بالذات باشر ببناء وتأسيس مدينة الجديدة «فاس» في وادٍ تكسو الأعشاب والحشائش عدويته وتملأ الوحوش جنباته ويؤمه الملأ من السكان للصيد والقنص.

وثمة روايتان مرتبطتان بالأحداث المتعلقة بتأسيس فاس فإحداهما هي التي دوّنها المؤلفون في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي «والثامن الهجري الرابع عشر الميلادي» تقول بأن المدينة أنشئت على العدوة اليمنى لنهر فاس سنة ١٩٣ هجرية الموافق لسنة ٨٠٨ ميلادية وهي السنة التي بدأ فيها ادريس الثاني بتصريف أمور الدولة، وتقول الرواية الثانية أن ادريس عاد في السنة التالية فبنى على العدوة اليسرى من النهر مدينته الثانية واتخذها له مقراً.

ويقال بأن البحاثة الفرنسي ايلي ليفي ـ بروفنسال ـ كان يتتبّع هجرات اليهود من الأندلس أثناء سقوطها دولة بعد أخرى بأيدي القوط الاسبانيين هروباً من انتقامهم لأنهم قدمّوا مساعدات للعرب في ابان احتلال الأندلس نكاية بالقوط ـ لم يعجب بالروايتين المذكورتين فقرّر مواصلة البحث لمعرفة الحقيقة واكتشاف كيف بنيت فاس ومن بناها؟

فاهتدى الى رواية أقل شيوعاً وان كانت أقدم عهداً من القرن الرابع/ أي العاشر الميلادي، وتقول الرواية الجديدة بأن ادريس الأول هو الذي بنى المدينة «فاس» القائمة على العدوة اليمنى قبيل وفاته ولكنه لم يتمها، فجاء من بعده ابنه ادريس الثاني في سنة ١٩٤ هجرية، ٨٠٩ ميلادية فأسس المدينة الثانية على العدوة اليسرى.

وفيما يلي الخطوط العريضة لهذه الرواية كما وردت في كتاب «روض القرطاس» لابن ابي زرع، وفي رواية أخرى مفصلة لدى مؤرخين هما الجزنائي في كتابه زهر الآس، وابن القاضي في كتابه جذوة الاقتباس».

أما رواية ابن ابي وزع في «روض القرطاس» فانها تقول: ان ادريس الثاني «أقام» بالقرب من جبل زرهون شهرين بعد وفاة ادريس الأول، وكان قد تولّى تربيته مولاه راشد خادم والده الرفيق المخلص لادريس الأول، فكبر ادريس الثاني، وفي سنة ١٨٨هـ ٨٠٤م بايعته سائر القبائل البربرية في المغرب، وبعد ذلك بقليل توفي راشد. وفي آخر السنة التالية ١٨٩هـ ٨٠٥م، تقاطر على ادريس الثاني عدد من المهاجرين العرب الذين جاؤوا من القيروان ليربطوا مصيرهم بمصيره فأصبحت بلدة أوليلي وهي مقر إقامته لا تكفي لايواء هذا المزيد من السكان فقرر اذ ذاك انشاء مدينة لتكون عاصمة لمملكته.

وفي سنة ١٩٠هـ ٨٠٥م وجد موقعاً ملائماً بالمنحدر الشمالي لجبل زلاغ، وقيل بأنه «جبل وليخ» فشرع في تشييد مدينته. الا أن عاصفة شديدةً هبّت فدمّرت «ورشة العمل» فتوقّفت حركة البناء.

وفي السنة التالية ١٩١هـ ٨٠٦م صمّم ادريس الثاني على ان يستقر غير بعيد عن الضفة اليسرى «لنهر سبو» مباشرة قرب الينبوع الحار «خولان» المعروف اليوم باسم سيدي حرازم على بعد ١٥ كيلو مترا شرقي فاس، وظل اسم خولان متداولاً حتى القرن الثامن عشر ـ فأمر بإحضار المواد بالقرب من مكان العمل ثم خشيَ من عواقب الفيضانات فأجّل المشروع ولكن المحاولة الثالثة كُلّلت بالنجاح. فقد وقع الاختيار على أرض مغطاة بنباتات متشابكة، وتجري فيها مياه حيّة «صالحة للاستعمال» ويخترقها نهر بمياه «تحت أرضية»[1] تنبثق من الخارج.

واقترح المباشرة بالبناء وزير ادريس وهو عربي يدعى «عمير» ثم اشترى الأرض من السكان المحليين وهم من قبيلة زناتة.

وفي فاتح ربيع الأول ١٩٢هـ ٤ يناير «كانون الثاني» سنة ٨٠٧م أمر بالشروع في العمل فبنى سوار بستّة أبواب في القسم الواقع على العدوة اليمنى من النهر، وغير بعيد عن معسكر ادريس الذي يحميه حاجز من الخشب، وشيّد مسجداً قرب بئر، والسور المذكور هو سور المدينة التي تحمل اسم «عدوة الأندلسيين».

وبعد ذلك بنتّة كاملة أي في يوم ٢٣ «دجنبر» وتعنى «ديسمبر» سنة ٨٠٨ شرع ادريس الثاني ببناء سور جديد يقابل الأول، يحيط به جزء صغير من مجرى النهر، ويمتد على طول العدوة اليسرى وهذا سور المدينة التي

(١) تحت أرضية بمعنى مياه جوفية.

سمّيت «عدوة القرويين» وكان على غرار السور الأول المقابل له، بني فيه ستّة أبواب، ومسجد، وأحاطت به بعد ذلك متاجر وقيسرية وقصر. وسمّيت «فاس» لعثورهم على فأس أثناء حفر الأساسات.

وكانت سِنُّهُ ذاك لا تتعدّى سبعة عشر عاماً، وكان سكان المدينة الشرقية من «البربر» بينما كان سكان المدينة الغربية من العرب، وبقي ادريس الثاني هكذا الى سنة ١٩٧هـ ـ ٨١٢م. ثم ذهب في حملة عسكرية نحو الأطلس الكبير ثم عاد الى فاس ليخرج منها ثانية سنة ١٩٩ هـ ـ ٨١٤م قاصداً بلاد تلمسان ورجع بعد ثلاث سنوات الى عاصمته التي احتضنت في الوقت نفسه عدداً كبيراً من الأندلسيين الذين طردهم الخليفة الحكم الأول «الأموي» بعد ثورة «الربض» فأسكنهم ادريس الثاني داخل السور الشرقي. وفي سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م توفيَ ادريس الثاني في ظروف يكتنفها شيء من الغموض وخلف أولاداً عديدين منهم إثنا عشر من الذكور اقتسموا ملكه فيما بينهم[(١)].

---

(١) بعد وفاة إدريس الثاني تولّى الأمر ابنه محمد الذي استمر على اتخاذ فاس عاصمة لملكه وبناءً على نصيحة جدته كنزة فقد قسم المملكة الى عدة ولايات وضع على رأس كل واحدة منها واحداً من أخوته الكبار واحتفظ هو لنفسه بولاية فاس واستبقى أخوته الصغار في كفالة جدته:

وتم هذا التوزيع بعناية روعي فيه التقسيم الجغرافي للمغرب وفيما يلي جدول بتوزيع المملكة:

محمد: فاس وما حولها
القاسم: البصرة وطنجة وما والاهما.
عمر: صنهاجة وغمارة.
داود: هوارة وتاسلمت.
يحيى: أصيلا والعرائش الى بلاد درعة.
حمزة: مدينة وليلي وما حولها.
عيسى: تامسنا وأزمور وشالة.

وكان مولد ادريس الثاني سنة ١٧٥ هجرية الموافق غشت اغسطس - اي سنة ٧٩١ حسب رواية الرازي.

وجاء في نص آخر لإبن سعيد الشهير من القرن الثالث عشر ميلادي ورد في كتاب مسالك الأبصار لفضل الله العمري وفي صُبح الأعشى للقلقشندي.

ونصّ ابن سعيد يقول: وهما مدينتان احداهما بناها ادريس بن عبد الله أي ادريس الأول أول الخلفاء الأدارسة وتعرف «بعدوة الأندلسيين» والأخرى بنيت بعدها وتعرف «بعدوة القرويين» أي الذين جاؤوا من القيروان.

والذي نستخلصه من هذه الشهادة هو أنها جاءت إثباتاً لرواية الرازي.

وفي فقرة نقلها الجغرافي البكري نجد المؤرخ المذكور يصرّح بأنه في سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م في الوقت الذي قام فيه ادريس الثاني بقتل رئيس قبيلة أوربه المدعو أبو ليلى إسحاق «نزل في عدوة الأندلسيين وأقام بها شهراً وهذا يعني أن مدينة فاس كانت موجودة في ذلك العهد ثم يقول: وكانت عدوة القرويين غياضاً في أطرافها «ابيات» خيام من قبيلة زواغه.

وقد جاء في كتاب روض القرطاس أن ادريس الثاني استقبل سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م وكان قد قضى أربع عشرة سنة في الحكم، استقبالاً فخماً خمسمائة فارس عربي قدموا من تونس والأندلس وكان فيهم ممثلو النخبة الأرستقراطية العربية ممن ينتمون الى قبائل قيس «والأزد ومذحج ويحصب والصدف» والأربع قبائل الأخيرة يمنية ويبدو أنهم كانوا متذمرين من النظام،

عبد الله: السوس الأقصى وجبال مصمودة.
أحمد: مكناسة وبلاد فازاز وتادلة.

الأغلبي في تونس، وقد اعتبر إدريس الثاني مجيئهم نعمة لأنه كان يشعر بالغربة بين أصهاره السكان المغاربة. وبعد فترة وجيزة أنشأ ديواناً عربياً صرفاً مؤلفاً من وزيره عُمَير بن مصعب الأزدي وهو الذي أصبح فيما بعد جداً لعائلة فاسية هي عائلة بني «الملغوم» التي ورد ذكرها في روض القرطاس، وقد تزوج عمير بن مصعب ابنة ادريس الثاني «عتيكة» ولعب دوراً في تأسيس عدوة القرويين، وأتحف المدينة بقصر جديد لادريس وبنىٰ مسجد الاشراف نسبة لقرابة ادريس من الرسول (ص) كما بنى قيسارية على غرار قيسارية دمشق وتلك التي في قرطبة وأسس ادريس بعد وصول «الفرسان العرب» مركزاً للقضاء وآخر للكتاب. والمهم في الأمر أن الوزير عمير بن مصعب هو الذي اقنع ادريس الثاني ببناء العدوة الثانية لتكون مقراً له بعيداً عن قبيلة أوربه التي سبق له أن قتل سيدها رغم أنهم استقبلوه وبايعوه كما استقبلوا والده من قبل وزوّجوه أم إدريس الثاني وبايعوه والتفّوا حوله.

ومنذ أمر إدريس الثاني بقتل أبو ليلى إسحاق رئيس قبيلة أوربه سنة ١٩٢هـ انتقل من أوليلي الى فاس وباشر في بناء العدوة الثانية لأنه كان خائفاً من القبيلة التي أحسنت اليه ولوالده، فجازاها باصدار الأوامر بقتل رئيسها، ومع ذلك فانه عاد اليها في أواخر حياته ومات فيها بصورة غامضة.

مدينة فاس

تقع فاس عند ملتقى طريقين رئيسيين حددتهما طبيعة الأرض، أحدهما يبدأ عند شواطىء البحر الأبيض المتوسط في طنجة أو سبتة أو باديس القديمة ويمتد الى الصحراء وما وراءها الى قلب القارة السوداء مجتازاً سهل سايس الذي تقوم فاس عند طرفه، وسلسلة الأطلس الأوسط في أقل ممراتها ارتفاعاً «٦٢٠٠ قدم» وهذا الطريق يتابع اتجاهه جنوباً محاذياً وادي زيز الى واحة تفيلالت وهو طريق يكاد يكون خطاً مستقيماً ويمكن

اجتيازه حتى في الشتاء. لأن الثلوج لا تتساقط بغزارة على المناطق الجبلية التي يخترقها، والطريق الثاني يبدأ من المحيط الأطلسي الى المغرب الأوسط أي الجزائر، وقد يختلف اتجاهه بين المحيط وفاس إلاّ أن اتجاهه بعد هذه المدينة تحدّده طبيعة الأرض.

ولموضع فاس ميزة أخرى ذات أهمية خاصة في المغرب وهي غزارة مياهها، فالمياه التي تمتصها الطبقات الكلسية في الأطلس الأوسط تكوّن منطقة من المياه الجوفية تتفجّر منها في سهل سايس ينابيع كثيرة تتجمع وتتّحد لتغذي نهر فاس أو على الأصحّ، أنهار فاس. يضاف الى ذلك الينابيع التي تتفجّر من العدوات الشديدة الانحدار التي حفرها نهر فاس مسيلاً له، ومن مميزات فاس أنها لو حوصرت وحول عنها مجرى النهر فإن سكان المدينة لا تنقطع عنهم المياه بتاتاً.

وتقع فاس في وادٍ خصيب وكأنها واسطة العقد بين التلال المحيطة بها من كل الجهات، ويستطيع الناظر إليها من علو أن يشمل المدينة بأنظاره وهي منداحة أمام عينيه بمنازلها الصغيرة المتلاصقة وشوارعها وأزقّتها الضيّقة.

وأينما سرح الناظر بصره في أرجائها فلا يرى إلاّ مساجد مبثوثة ومنائر شاهقة.. واللّون الأخضر هو الغالب على كل الألوان فيها. ولكثرة بساتين البرتقال والتين والرمان والزيتون بصورة خاصة تبدو المدينة زمردية اللون محاطة بعقود من الحدائق والبساتين، وبجبال خضراء داكنة متوّجة بشجر الأرز والصبّير وزهر عود السند.

ولم يكن البناء والتعمير في فاس مقتصراً على الملوك والأمراء والحكام بل انتقلت عدواها الحماسية الى السيدات العربيات ومنهنّ من

سجلنّ مآثر في تاريخ المدينة تناولها الدارسون وترصّعت بها الموسوعات الحضارية منوهة بمآثرهنّ الخالدة ومن هؤلاء السيدات العربيات فاطمة بنت محمد الفهري وشقيقتها مريم، وكان عميد هذه الأسرة يدعى عُذرة بن عبد الله الفهري قد عُيّن في عهد الأمويين وحكمهم في دمشق، أميراً على الأندلس ثم عزل وبقيت أسرته في القيروان.

جامع القرويين

والتاريخ المجيد يحدّثنا أن فاطمة بنت محمد الفهري يعود اليها الفضل في بناء وتأسيس «جامع القرويين»[1] الشهير في فاس في فاتح رمضان عام ٢٤٥ هجرية الموافق لـ٣٠ حزيران عام ٨٥٩ ميلادية، أي بعد تأسيس فاس بواحد وخمسين عاماً، ثم بنت أختها مريم مسجد الأندلسيين على العدوة المقابلة.

وبقي «جامع القرويين» والجامعة الدينية الثقافية الملحقة به مركزاً للنشاط الفكري والثقافي والديني قرابة الألف سنة. وبعد أن وسعه أبو يوسف يعقوب المريني صار يستوعب ٢٢ ألف مُصلٍ، كما صار يدخل اليه من ١٧ باباً منها بابان لدخول النساء.

وكان هذا الجامع الفريد في بنائه وهندسته يضاء في عصوره الأولى بـ٥٠٩ مصابيح قائمة فوق قواعد قد يزيد وزنها على ٧٠٠ كيلو غرام.

وتعتبر جامعة القرويين في العصر الحديث أقدم جامعة ثقافية في العالم فهي أقدم من جامعة بولون» «Bologne» في ايطاليا التي تأسّست عام ١١١٩ ميلادية، وجامعة اكسفورد البريطانية التي تأسَّست سنة ١٢٢٩م. وجامعة السوربون الفرنسية التي تأسّست في باريس سنة ١٢٥٧م. وهكذا

---

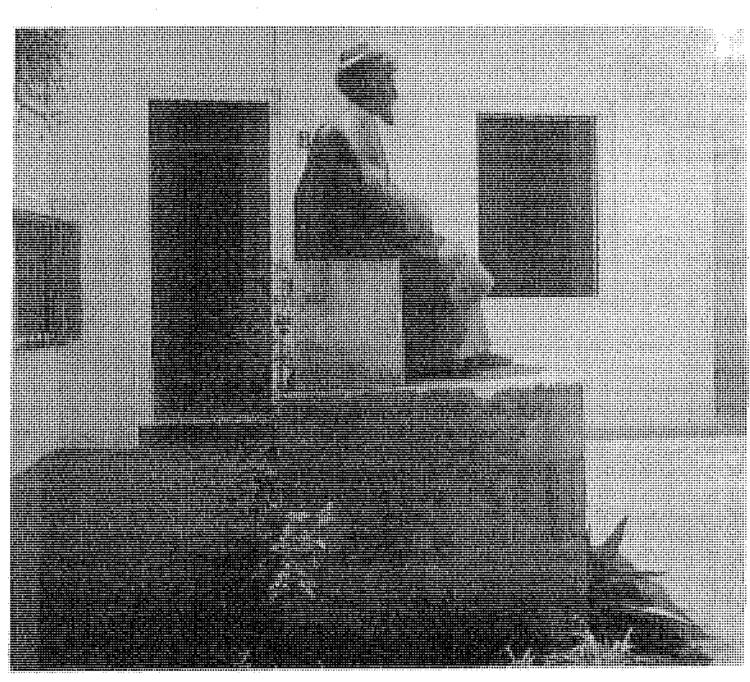
(١) جامع القرويين أي جامع القيروانيين نسبة الى القيروان وبصورة مختصرة.

تعتبر جامعة القرويين أقدم جامعة في العالم وهذه الحقيقة اعترف بها أخيراً جميع المستشرقين في أوروبا والغرب.

وكان ثمة مساجد أخرى يتلقى فيها العالم في جميع أنحاء العلم العربي ومنها مسجد الكعبة «الحرم الشريف»، ومسجد المدينة المنورة الذي كان يحدّث فيه رسول الله محمد (ص) والخلفاء من بعده، ومسجد الزيتونة في تونس والمسجد الأموي في دمشق والمسجد الجامع في البصرة وهو أقدم من مسجد الأزهر في القاهرة، والمسجد الجامع في البصرة كانت تقام فيه يومياً حلقات عديدة حول السواري والأعمدة حيث تلقى علوم الدين واللغة والحديث والرواية والنوادر، والفقه الاسلامي وغيرها.

أبرز تلامذة جامع القرويين.

ومن مسجد وجامعة القرويين تخرج معظم علماء المغرب. وفيه تلقّى



نصب تذكاري لابن ميمون في احدى ساحات قرطبة

العالم جربرت دي لوفرينه الثاني الذي أصبح فيما بعد سلفستر الثاني. وفيه تعلّم (الصفر العربي) في علم الحساب وهو الذي نشر ذلك في أوروبا. ودرس في جامع القرويين أيضاً على يد ابن الموشح الفيلسوف الرئيس موسى بن ميمون اليهودي القرطبي الذي كان من أعظم الأطباء في عصره والذي غادر الأندلس الى المشرق وعيّن طبيباً لصلاح الدين الأيوبي ثم عيّن مدرساً بالقاهرة.

وقد ضمّ المسجد بين مدرسيه عددا من مشاهير المسلمين مثل ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب صاحب الموشح المشهور:

جادك الغيث إذا الغيث هَمَى	يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلاّ حلما	في الكرى أو خُلسة المختلسِ
اذ يقود الدهر أشتات المنى	ينقلُ الخطوَ على ما يرسم
زمراً بين فرادى وثُنا	مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلّلَ الروض سنا	فثغور الزهر منه تبسم

ومنهم أيضاً إبن عربي الحكيم والفيلسوف الذائع الصيت، وإبن مرزوق.

وضمّت الجامعة الاسلامية الملحقة بالمسجد مكتبة غنية بالمخطوطات النفيسة، وقد أهداها سلطان المرينيّن ألف مخطوط، ولكنها فقدت وضاعت ولم يبق فيها سوى مخطوطات تاريخ ابن خلدون، ونسخة من مخطوطة ابن رشد.

وكان يدرس إلى جانب علوم القرآن والتفسير والأحاديث النبوية

والفقه، القانون العام وقوانين الميراث، وعلوم اللغة العربية والمنطق ومختلف العلوم الطبيعية، كالرياضيات والجغرافيا والفلك.

وسبق أن قلنا أن فاس كانت تضم ٧٨٥ مسجداً، هذه المساجد كلها أو معظمها كانت مدارس على غرار مساجد البصرة والكوفة، تدرس فيها علوم الدين وعلوم اللغة والتاريخ، وأمثالها.

ولعلّ من أكبر مدارس فاس مدرسة السلطان «بو عنان» المريني التي أسّسها عام ١٣٥٥ وكان قد ألحق بها مسجداً للصلاة يتحلّى بمنارة «مئذنه» لا مثيل لها في الجمال والأناقة.

أما أقدم مدارس فاس فهي مدرسة الصفّارين التي أمر ببنائها أبو يوسف المريني عام ١٢٨٠ وزوّدها بمكتبة ثرية وقد نقلت فيما بعد الى جامعة مسجد القرويين.

وعُدّت مدرسة العطارين أصغر مدرسة في زمانها ولكنها كانت من حيث الهندسة المعمارية من أجملها وأبهاها وكانت قائمة عند طرف سوق العطارين ومؤسّسها هو السلطان أبو سيد.

هذه المدارس كانت تُدرّس فيها العلوم الإبتدائية بدءاً من القرآن والكتابة والقراءة الى مبادىء الحساب وغيرها. ثم يلتحقون بعدها بالجامعة، وكانت مدة الدراسة في جامعة القرويين تستغرق بين خمسة أعوام و١٥ عاماً، وكان الطلاب يختارون بمحض ارادتهم أساتذتهم الاختصاصيين كل أستاذ حسب اختصاصه في مادة أو أكثر. فيجلسون حلقات حول الأستاذ المستند بظهره الى سارية من سواري المسجد.

وكان كل من السلطان أبي الحسن والسلطان أبي عنان يُعنيان بتثقيف الناشئة والحدب على المسلمين والأساتذة وقد وجها كل اهتمامهما الى

تـدريـس القـرآن الكـريـم والحـديـث، والقـانـون وعلـوم اللغـة «كـالصـرف والنحو».

لسان الخطيب الدين بن الخطيب

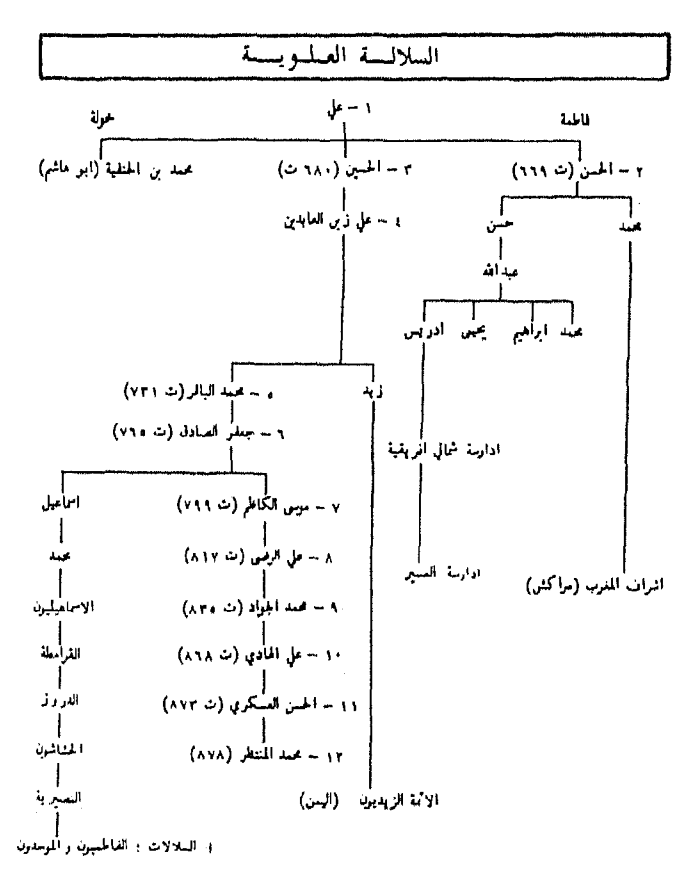
أما العلاّمة المؤرّخ ابن خلدون الذي وضع أصول علم الاجتماع فقد كان يدرّس في حلقته هذا العلم بالاضافة الى أخبار الملوك والشعوب، وقد أفسح سلاطين المرينيين صدورهم لغيره من كبار الأساتذة القادمين من الأندلس وغيرها وأغدقوا عليهم الأموال ومن هؤلاء الأديب الشاعر لسان الدين الخطيب وكان هارباً من بني الأحمر اذ كان أبوه عبد الله الخطيب وزيراً لبني الأحمر، وقد ولد في بلدة بلوشة القريبة من غرناطة، فأجاد سائر العلوم المتداولة في عصره كالنحو والفقه وعلم الكلام والخطابة والتاريخ والطب ونظم الشعر، وموشحاته تعتبر في الدرجة الأولى بين الموشحات الناجحة والتي ظلّت يغنّى بها الى عصرنا الحاضر.

وكان محبوباً يفيض الناس بالثناء عليه لعلمه وأدبه، فلمّا خلع أحد سلاطين بني الأحمر اعتقل، ولما عاد السلطان الى الحكم عاد ابن الخطيب وتقلّد الوزارة، ثم تناولته ألسن الوشاة فتغير عليه الحكّام ففرّ الى فاس في المغرب وراح يدرّس في جامعة القرويين، ولكنه اعتقل فيما بعد، وقتل..

وقد روى عنه ابن خلدون كثيراً في مقدمته. كما روى ابن بطوطة وصفاً للحياة في بلاط بني مرين، وكان السلطان أبو عنان قد كلّفه بالقيام برحلته العجيبة التي استغرقت ٢٣ عاماً.

هذا وانتشر التصوّف في جميع ربوع المغرب، واجتاحت موجته العارمة أوساط السّذج وغير المتعلمين في سائر المدن المغربية ولما استفحل أمر الشعوذة والإنحراف عن جادة الدين ـ اهتم سلاطين المرينيين بالأمر

اهتماماً شديداً فاختاروا جماعة من المثقفين العرب لتعليم العامة والسّذج من أتبـاع المتصـوّفيـن لارجـاعهـم الـى الطـريـق السـويّ، والعقيـدة الصحيحـة، والتمسّك بسُنة الرسول (ص)، وقد اختار سلاطين المرينيين مذهب الإمام مـالـك بن أنـس كمـذهـب رسـمي للـدولـة يـرجـع اليـه ويحتـذى حـذوه، ولكـن الأدارسة كانوا على خلاف ذلك لأنهم علويون.



السلالة العلوية

وبـالـرغـم من مُتـاخمـة فـاس الجـديـدة لفـاس القـديمـة إلاّ أنّهمـا كـانتـا منفصلتين من الناحية الإدارية وغير الإدارية أيضاً، فالسلطان كان يُقيم في

فاس الجديدة ونوّابُه الثلاثة في فاس القديمة.

كانت حوادث القتل والإجرام في مدينة فاس عامة لا تستحق الذكر، لأن النظام والأمن كانا مستتبّين، وهناك التقاليد العائلية التي كانت تجعل العائلات متماسكة ومتعارفة، وكان كلام الله تعالى في القرآن يحكم بين الناس أكثر من الحكّام فإذا صاح المظلوم بوجه الظالم: «يا رجل اتّقِ الله» خشع قلبه للإيمان وانفضّ المشكل.

وظلّت فاس القديمة مركزاً للنشاط الإقتصادي على عكس فاس الجديدة التي ظلّت مركزاً للحكم، وكان لفاس القديمة ثمانية أبواب تفتح من الداخل وتفضي الى الطرق والأزقة الضيقة ومن أشهر حرفها معاصر الزيتون والمدابغ وصنع الأواني الخزفية والمصنوعات الجلدية كالسروج والأعنة، وصناعة الأسلحة كالسيوف والرماح والأسنة والأقواس والدروع والتروس وأمثالها، وصناعة السلال باليد والبسط، والأنوال، وتخريم النحاس والفضة والصياغة، وصناعة الحلويات.

وبالرغم من أن الدار البيضاء فيما بعد انتزعت لواء الزعامة الإقتصادية من مدينة فاس إلاّ أن الأخيرة ظلّت محتفظة بأسبقيتها بصناعة السجاد والنسيج والصباغ ودبغ الجلود والحرف المذكورة أعلاه.

آثار فاس

وما بقي من آثار فاس القديمة حالياً السور وبواباته الثمانية، ومبانيها القديمة وقد تجدّد بعضها مع الزمن، ولكنها ظلّت محافظة على طابعها القديم، وترجع معظم هذه الآثار الى عهد المرينيّين الذين اهتموا بالبناء، والحضارة التي بلغت أوجّ ازدهارها في عهد السلطان أبي عنّان الذي اغتيل عام ١٣٥٨م/ ٧٦٠هـ وبعده تضعضعت حال أسرته وبدا نجمها بالأفول.

ومن أجمل الآثار الباقية في فاس أبواب السور بأقواسها الرائعة والنقوش والتخريم البارز فوقها. وجامع الأندلسيين وهو من التحف الخالدة في المدينة، ولكن الفن وروعته يتجلّيان في مسجد القرويين، خصوصاً سقف المصلّى وهو أثر فني خالد بجمال نقوشه، وفسيفساء نوافذه الزجاجية التي تجتمع في رسومها ألوان شتى تأسر العيون، والنجفة النحاسية المدلاّة من السقف وجمال تخريمها الذي لا يمكن تقليده في هذا العصر لأنه يحتاج الى زمن طويل.

وأبواب فاس كلّها مخرمة الأقواس، وباب أبو جلود يُفضي الى المساجد والمنائر التي أصبحت قدوة لبناء الكنائس في أوروبا.

أمّا صحن جامعة القرويين فمتحف فني خالد بهندسته المعمارية العربية المحضة وفنون النحت والتصوير على الخشب والفسيفساء والنقش المعدنيّ البارز بأروع الصور والأشكال وصناعة الخزف في فاس نوعاً ما صناعة الفخار كالجرار والأباريق والمزهريات وصناعة الخزف كالصحون والأطباق.

زي المرأة المغربية

والسيدات في فاس وغيرها من مدن المغرب ملثمات بالبرقع وهو منديل أسود يغطي قصبة الأنف ويعقد وراء الأذنين وتبقى العيون الحوراء الساحرة حرّة طليقة للنظر والمشاهدة، ولباسهنّ سابغ حتى أخمص القدمين، وكثيراً ما يكون رأس السيدة مغطّى ببُرنس من نفس القماش، والأكمام تمتد الى أسفل الرسغ، وكثيرا ما نشاهد بعض السيدات وهنّ يحملن أطفالهن وراء ظهورهنّ بكيس أو خُرج معقود طرفاه حول عنقها.

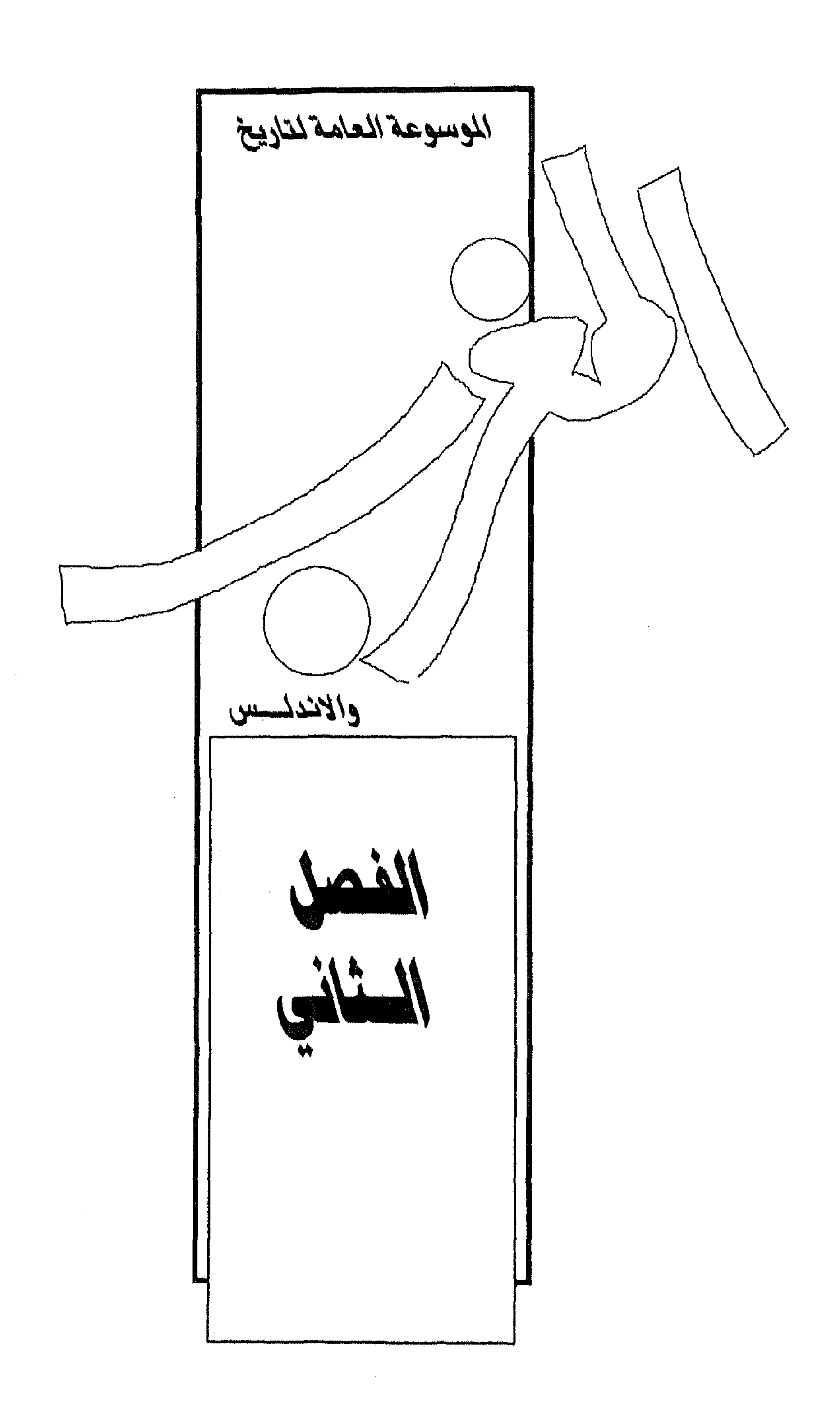
كلمة صريحة لا بدّ أن تقال وهي أن المرء عندما يكون في فاس أو

مراكش أو في غيرهما من المدن المغربية يشعر بأنه في أي بلد عربي محض، فالفروع والأصول هناك نقيّة من العناصر التركية والشركسية والفارسية والمغولية، أو قل أنها كالذهب المصفّى من المعادن الأقل جودة وقيمة.

وكل شيء ما زال محتفظاً بطابعه العربي الأبنية والمساجد، والحياة العامة والرجل والمرأة واليد واللّسان. فالثقافة الفرنسية في الصدور وليست على الألسنة كما هي الحال في غيره من بلاد الشمال الأفريقي.



ريفيات في زيهن الفولكلوري


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل
الثاني

مزايا الدولة الأدريسية

للدولة الأدريسية كما لغيرها حسنات وسيّئات، فمن حسناتها أنها بالرغم من انفصالها وانشقاقها عن الدولة العباسية فهي الدولة العربية الإسلامية. وبالرغم من اعلان استقلالها الذاتي عن الدولة الكبرى، فقد ظلّت محافظة على الطابع العربي الإسلامي مع أنها في «الواجهة» دولة عربية إسلامية ولكنها في اللباب دولة كنعانية أو بربرية يرأسها حاكم عربي من نسل فاطمة الزهراء ابنة محمد (ص) ولكنها ذات نظام عربي إسلامي خالص من الشوائب، تدين بالاسلام وتتكلم العربية، وبذلك تركت العروة التي فصلها إدريس الأول وابنه إدريس الثاني عالقة بالدولة العربية الإسلامية دون الاعتراف لها بالسيادة.

ومن فضائل ادريس الثاني أنه قضى على الخوارج ودعوتهم وإن لم يكن قضاءً نهائياً ولكنه تمكّن من شلّ حركاتهم الهدامة على الرغم من جذوات ظلّت متوهّجة تحت الرماد، تطفو مرة على السطح فتقمع وتختفي عندما تكون الظروف والمناسبات غير ملائمة، خصوصاً تلك الحركات التي كان يظهر فيها الخوارج في المغرب الأوسط.

وقد تمكّن إدريس الثاني من إخماد ثورة قبائل مصمودة المغربية في إقليم السوس «مراكش حالياً» وحملهم على الرضوخ والطاعة ولو بالظاهر، كما أنه ضرب العملة بإسمه. وكان أوّل حاكم للمغرب المستقل الذي حقّق الوحدة المغربية من الأطلنطي غرباً الى نهر شلف في منتصف الجزائر حالياً وقد توفي أو قتل وهو في ريعان الشباب وعمره ٣٦ سنة.

فالدولة الإدريسية كانت الدولة العربية الإسلامية الثانية بعد الأندلس التي فصمت عروشها عن دولة الوحدة العربية الإسلامية، مستهينة بالعواقب والمغبّات متعلّلة بقدرة استقلالية لا تلبث أن تنطفىء جذوتها عند هبوب بواكير أعاصير الخلافات الداخلية، وذلك ما حصل بالتمام.

بعد موت إدريس الثاني خلفه ابنه محمد بن إدريس عام ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، وكان أكبر أنجاله ولكنه قسم الدولة على أخوته الستة واحتفظ لنفسه بلقب الإمام وإدارة العاصمة فاس ويقال بأن جدّته «كنزة» هي التي أوحت له بذلك التقسيم وهي كما هو معروف مغربية كنعانية، وأسهم أبناء إدريس الثاني بنشر الإسلام على نطاق واسع في المغرب كدولة عربية إسلامية.

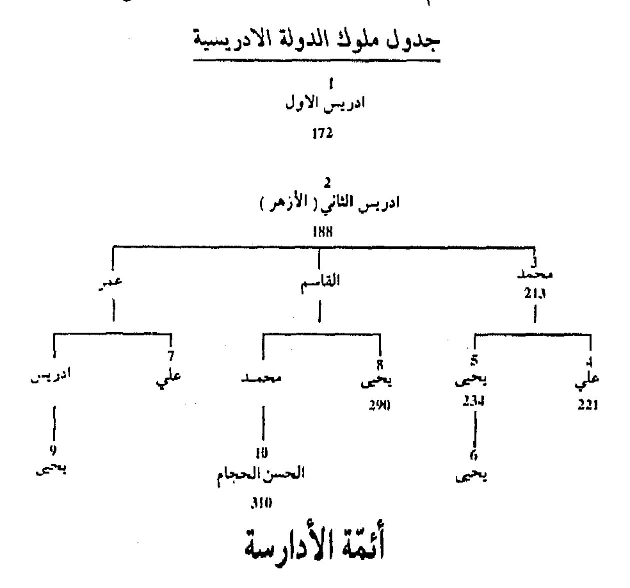
ومن مميزات الدولة الإدريسية أنها أسّست قواعد الحكم الاستقلالي المغربي ووحّدت ما بين العرب المستوطنين والكنعانيين الأصليين سكان البلاد أي البربر لما عملت على نشر العلوم والآداب وإقامة المعاهد العلمية الثقافية وفي مقدّمتها جامعة القرويين.

ويعتبر المؤرخون العرب أن انفصال المغرب عن الدولة العباسية العربية كان طعنة موجعة في جنب الدولة العربية الكبرى لأنها بقيت بدون سند من مركز الخلافة في بغداد، فلما تولّى محمد بن إدريس الأمامة من بعد

والـده قسـم البـلاد بيـن أخـوتـه السـتـة الأمـر الـذي سـاعـد علـى خلـق وتكـويـن جرثومة الفساد التي ما لبثت أن تفشّت فيما بعد في جسم الدولة الإدريسية وقضت عليها عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م.

وكان من أسباب التلاشي والاندثار، الخلافات الداخلية بين وارثي الأمامة لوقوع الدولة بين شقّي الرحى دولة الأندلسيين في المغرب ودولة الشيعة في الشرق.

وكان أول من جاهر بالعصيان ضد الدولة الإدريسية هو موسى بن أبي العافية أحد القادة فاستولى على فاس مستغلاً ضعف الدولة. وعدم وجود جيش لحمايتها، فنصب أبو العافية نفسه حاكماً على المغرب، وورثه من بعد أولاده الذين قادوا البلاد الى الفساد والدمار، وهي نهاية كانت متوقعة لحكم الأدارسة بعد أن عصفت بهم الخلافات والفتن والقلاقل.



أئمّة الأدارسة

ـ الإمام إدريس الأول بن عبد الله (١٧٢ـ١٧٧هـ)

ـ إدريس الثاني بن إدريس الأول (١٨٨ـ٢١٣هـ)

ـ محمد بن إدريس الثاني (٢١٣ـ٢٢١هـ)

ـ علي بن محمد بن إدريس الثاني (٢٢١ـ٢٣٤)

ـ يحيى بن محمد بن إدريس الثاني (٢٣٤هـ)

ـ يحيى بن يحي بن محمد بن إدريس الثاني (٢٦٨هـ)

ـ علي بن عمر بن إدريس (٢٨١هـ)

ـ يحيى بن القاسم بن إدريس (العوام) (٢٩٢هـ)

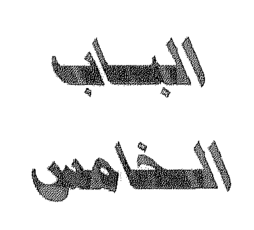
ـ يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس (٢٩٢)

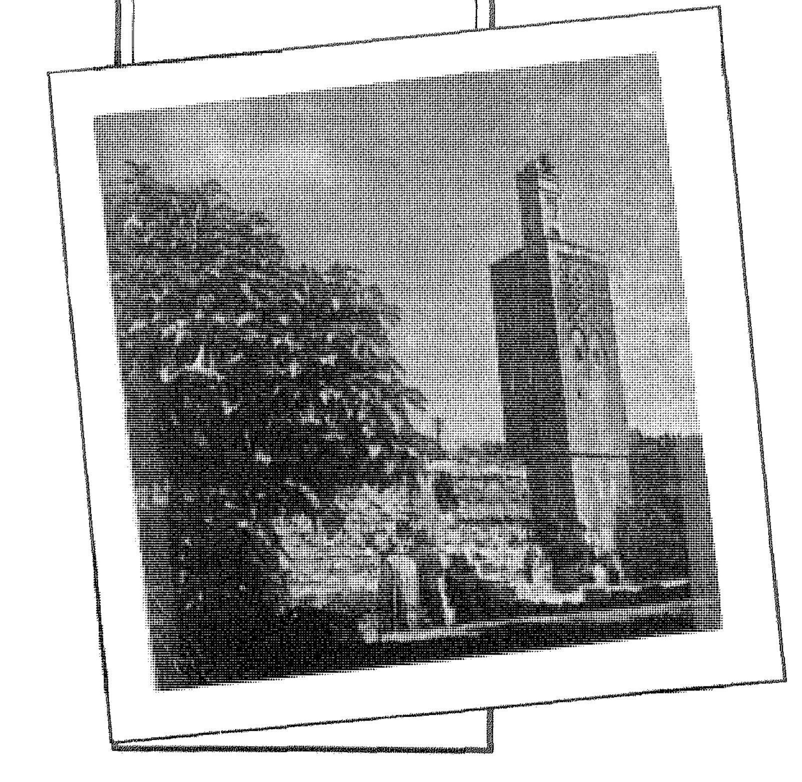
ـ الحسّ الحجام بن محمد بن القاسم بن إدريس (٣١٠هـ)

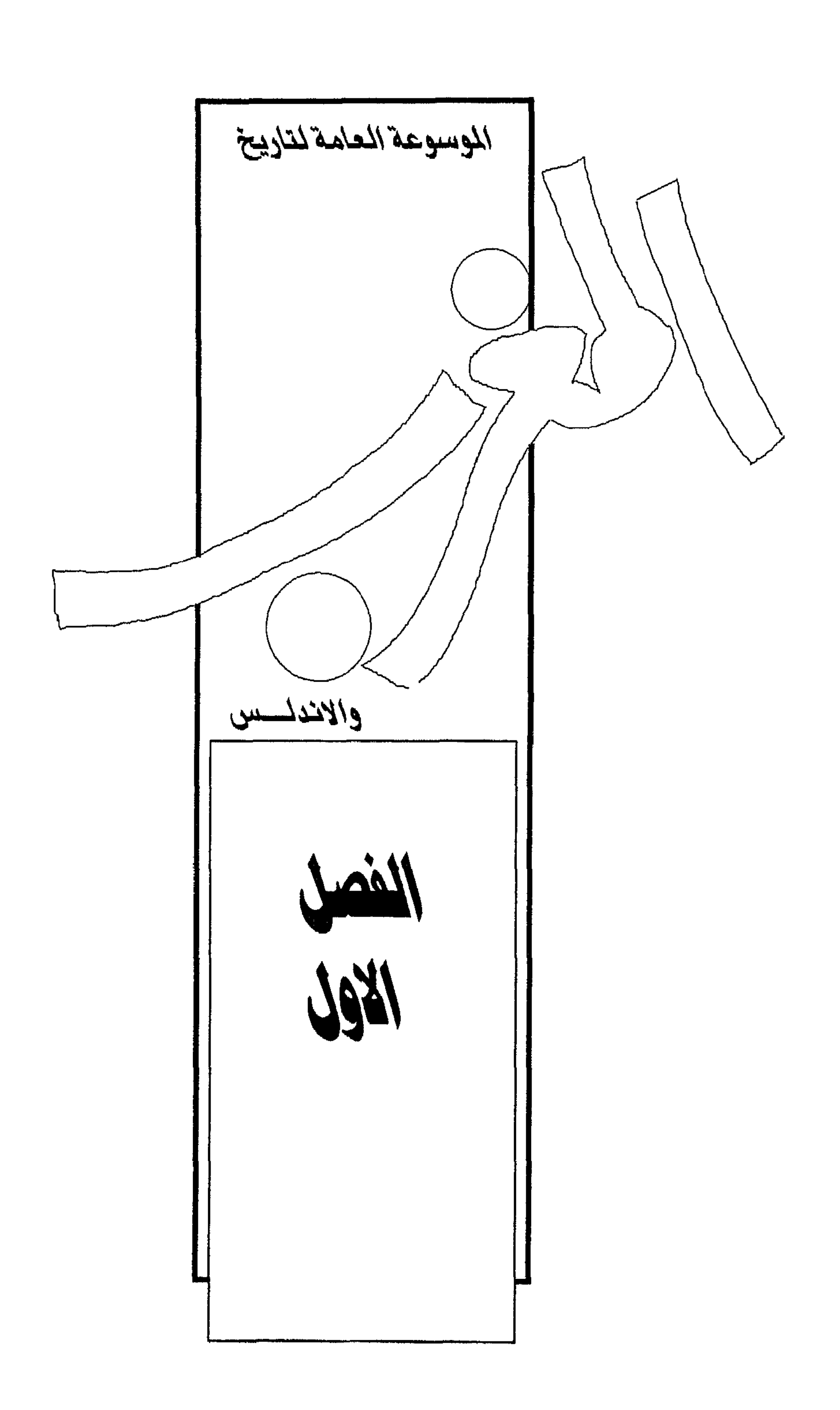
ـ القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس (٣٢٤هـ)

ـ أحمد بن القاسم بن كنون ـ أبو العيش ـ (٣٣٧هـ)

ـ الحسن بن كنون (٣٤٧هـ).


الباب
الخامس




الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل
الاول

الأغالبة في تونس
الدولة والكيان

بينما كان الأدارسة يؤسّسون دولتهم في المغرب العربي ويستقلون بها عن الدولة العربية الكبرى. عقد هارون الرشيد الخليفة العباسي الخامس، لابراهيم بن الأغلب[1] سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م على المنطقة التي سماها العرب أفريقيا «أي تونس وطرابلس» ليكون عليها والياً، كما منحه الحق بأن تكون ولايته وراثية بحيث يرثها ابناؤه وأحفاده من بعده مقابل دفع خراج سنوي

---

(١) ابراهيم بن الأغلب (١٤٠-١٩٦هـ -٧٥٧-٨١٢م) هو ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي ثاني الأغالبة ولاة أفريقيا لبني العباس. كان أبوه الأغلب قد وليها سنة ١٤٨-١٥٠هـ/ ٧٦٥-٧٦٧م وقتله ثائر. فوجه اليها عدة ولاة غلبتهم الفتن ووليها محمد بن مقاتل العكي وتغلب عليه أحد عماله سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م وكان ابراهيم عاملاً على الزاب فقام بنصرة ابن مقاتل ورده الى إمارته سنة ١٨٤ه/ ٨٠٠م فورد عهد الرشيد العباسي بعزل ابن مقاتل وتولية ابراهيم امارة أفريقيا في السنة نفسها فنهض بها وضبط أمورها وابتنى مدينة العباسية على مقربة من القيروان وانتقل اليها ونشبت ثورات في أواخر أيامه فأطفأها وكان على علم بالأدب والفقه شاعراً خطيباً استمرت امارته ١٢ سنة وأربعة أشهر. وهو أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه واستكثر من طبقاتهم واستغنى بهم عن الرعية في بعض أموره. (الاعلام).

مقداره ٨٠٠ ألف درهم أفريقي بحساب المؤرخ ابن الأثير، في حين قدرها ابن خلدون بثلاثة عشر مليون درهم و١٢٠ سجادة، ويعتقد بأن تقدير ابن الأثير كان الأصحّ. وكانت ولايته تمتد من سيرينايك وتغطي طرابلس في الشرق، الى هدنة الزاب من جهة الأوراس غرباً، وإقليم بونة في مواجهة القبائل.

هذه الولاية منحها الرشيد لابراهيم بن الأغلب حفاظاً على حدود الدولة العباسية ولحماية مصر من أي زحف يقوم به الأئمة الأدارسة الناجمون في المغرب خلال حكمهم، ويبدو أن الأدارسة اقتنعوا بالمغرب فلم يتوسّعوا نحو أفريقيا الصغرى أي تونس. ولكن الرشيد كان على حق حين فصل بين المغرب ومصر بولاية تونس التي اتّخذ الأغالبة عاصمة لهم فيها مدينة القيروان.

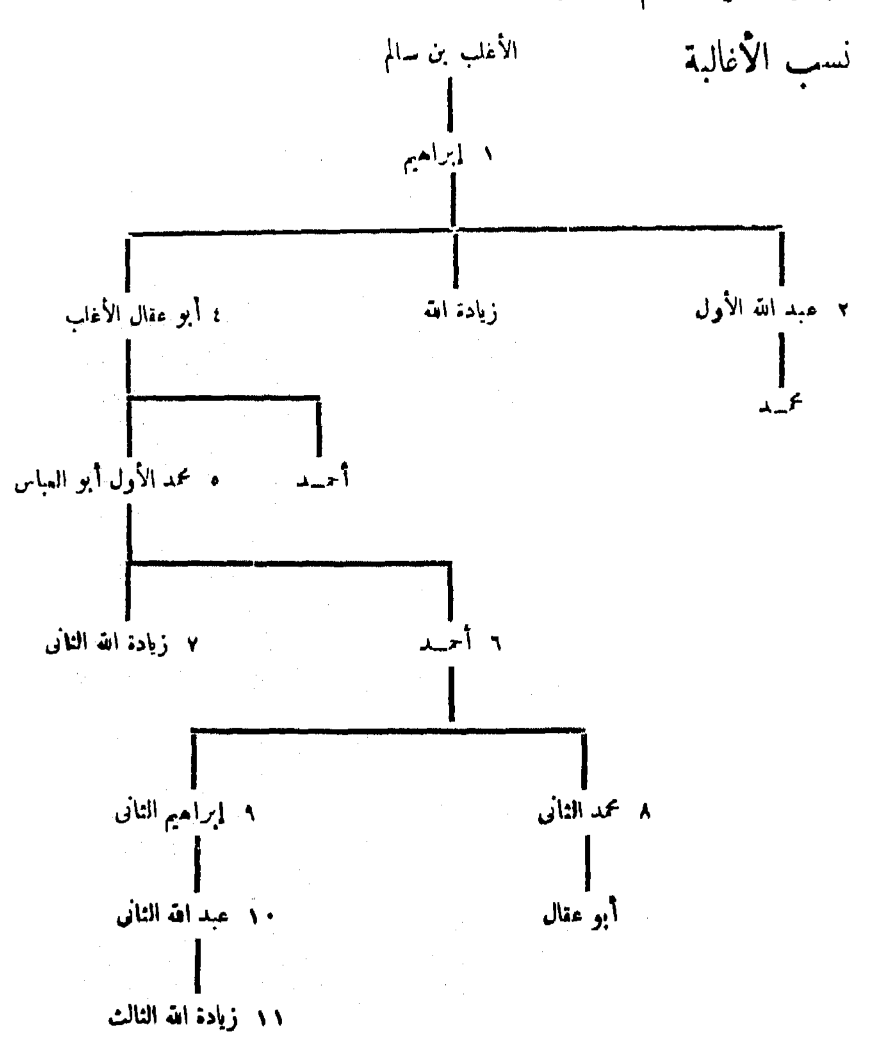
واكتفى الأغالبة باتخاذ لقب أمير لكل منهم ولم يعنوا بنفس اسم الخليفة العباسي على مسكوكاتهم وهكذا خلفت القيروان قرطاجة القديمة وأصبحت عاصمة لتلك الولاية.

وكان معظم سكان القيروان من العرب الذين قدموا مع الفتوحات العربية بينما سائر السكان من الكنعانيين. وفي عهد الأغالبة هاجر الى مدينة فاس في المغرب حوالي ٥٠٠ شخصية عربية ممن كرهوا حكم الأغالبة وسيطرتهم «كما مرّ معنا».

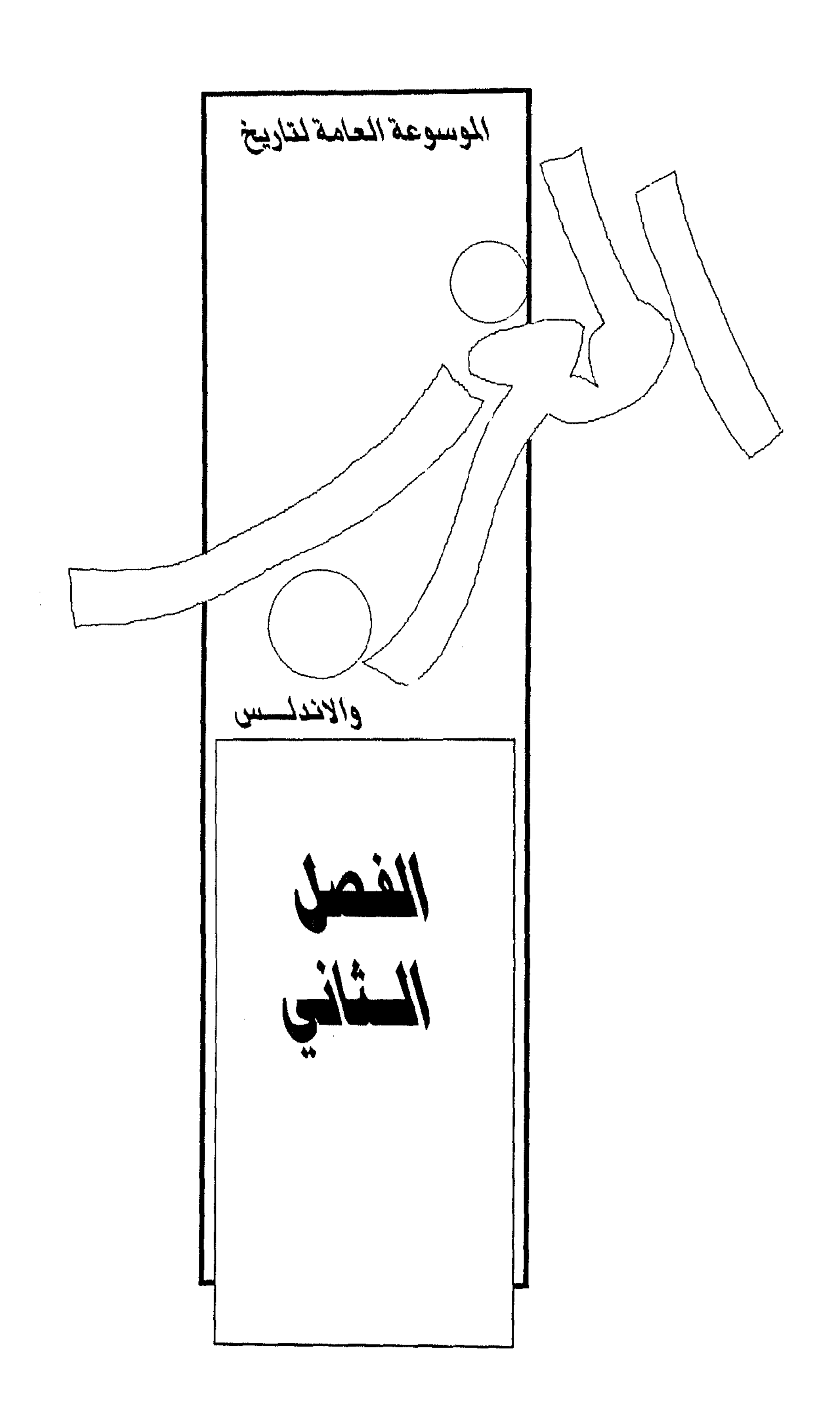
ومع أن سيادة الأغالبة على تونس دامت أكثر من قرن «٨٠٠-٩٠٩»[1] فإنها لم تخل من الخلافات والصراعات القبلية في مطالع حكم بني الأغلب

(١) استمر الحكم الأغلبي على تونس ١١٢ سنة هجرية بالتمام والكمال منذ ولاية ابراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م الى حين فرار زيادة الله الثالث أمام أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م. أو ما يعادل ١٠٨ سنوات ميلادية.

كثورة قريس «حمديس الكندي» إمام تونس مفمعة القائد عمران بن مجالد الذي ما لبث أن ثار هو بدوره على بني الأغلب فقمعت ثورته فوراً، ثم ثار بعد ذلك منصور بن نصر التنبودهي في عهد ثاني أبناء ابراهيم ـ وهو زيادة الله الأول «عام ٨٤٤م/ ٢٠٩هـ فسيطر على معظم الولاية، ولم يتمكّن الأمير الأغلبي من استرداد ولايته الاّ بعد أن استنجد بالبربر، وهكذا عاد الأمر الى نصابه واستقر الحكم للأغالبة.



الفروسية المغربية في المهرجانات الشعبية


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل
الـثاني

أسباب الحملات الأغلبية على صقلية وأهميتها

رأى الأمير زيادة الله الأغلبي بثاقب فكره أن خير وسيلة يمكن اتخاذها لمنع رؤساء القبائل العربية والبربرية الطموحين من الثورة والتمرد والعصيان هي أشغالهم بالحروب والفتوحات.

ولما كانت مجالات الحرب والفتوحات غير متيسّرة باتجاه المغرب أو الأندلس. فقد توجّه بأنظاره نحو البحر الأبيض المتوسط حيث يتّسع المجال هناك لاحتلال بعض الجزر والأراضي، فبنى أسطولاً كبيراً، كما فعل في الماضي البعيد القرطاجيون هملقار وهنيبعل ومن سبقهم من حكّام قرطاجة عندما ركبوا غوارب البحر للحد من سلطة الامبراطورية الرومانية في أوج ازدهارها وتوسعاتها.

ففي عام ٨٢٧م/ ٢١٢هـ وجّه زيادة الله الأول «٨١٧ـ٨٣٧» حملة بحرية بقيادة القاضي أسد بن الفرات على صقلية البيزنطية ـ «جاءت بعد عدة حملات على سبيل الاستكشاف» فاحتلها سنة ٩٠٢[1]، ومنذ احتلالها

---

(١) راجع ابن الأثير ٦/ ٢٣٥ وابن خلدون ٤/ ١٩٨ ـ٢٠٤.

أصبحت قاعدة بحرية متقدمة في البحر المتوسط لسائر حملات الأغالبة الأفذاذ البحرية على الشواطىء الأوروبية.

وثمة سبب آخر لحملة الأغالبة على صقلية وكان ذلك عندما استنجد: أحد ثوّار مدينة سرقوسة بالأغالبة على الحاكم البيزنطي عام ٨٢٧م فاستجاب زيادة الله الأغلبي الأول للاستغاثة اذ وجد فيها حافزاً لاحتلال بلاد جديدة.

وكان زيادة الله قد ورث الحكم سنة ٨١٧ـ٨٣٨. فجرد سبعين سفينة حربية عليها عشرة آلاف مقاتل و٧٠٠ فارس بقيادة أسد ابن الفرات[1] وكان في السبعين من عمره، ويتقلّد منصب الوزارة والقضاء عند الأغالبة.

احتلال صقلية

ونزل الجيش العربي في مآزر[2] ثم زحف على سرقوسة ولكن الطاعون تفشّى في العسكر فهلك القائد أسد بن الفرات والكثير من الجند، وجاءت الإمدادات الى الجيش من الأندلس، ولكن الجيش الزاحف ما لبث أن احتل باليرمو وهي مدينة فينيقية[3] فجعلوها قاعدة لمتابعة الفتح عام ٨٣١م واحتل الجيش الأغلبي من بعدها مسيني[4]، وفي سنة ٨٧٨ سقطت سرقوسة الحصينة بعد حصار دام تسعة أشهر، ثم هدمت في عهد ابراهيم الثاني الأغلبي ٤٧٨ـ٩٠٢ الذي شن حملة جديدة فتح خلالها الأراضي

(١) راجع البيان لابن عذاري ١/ ٩٥.
(٢) ابن الأثير ٦/ ٢٣٦.
(٣) انظر فيليب حتى تاريخ العرب ص٦٨٩.
(٤) مسيني أو مسينا: ميناء على البحر المتوسط شمال شرق صقلية وهي احد المراكز التجارية الهامة في الجزيرة. أسس الاغريق المدينة في القرن الثامن قبل الميلاد. أدى التدخل الروماني لحماية مسينا ضد سيراقوسة الى نشوب الحروب البونية سنة ٢٦٤ق.م. وكانت مدينة غنية في عهد الامبراطورية الرومانية وظلت حتى العصور الوسطى.

الواقعة بجوار جبل اتنا[1] «جبل النار» ودمّر تورمينا سنة ٩٠٢ وتوفي ابراهيم الثاني في صقلية ودفن فيها. وهكذا ظلّت صقلية تحت حكم العرب ١٨٩ سنة كولاية عربية.

وكان ابراهيم الثاني قبل وفاته قد شنّ حملات عبر مضيق مسيني الى الجنوب من ايطاليا ولما استنجدت نابولي عام ٨٣٧[2] لبّى العرب استغاثتها واحتلوها كما احتلوا من بعدها مدينة باري على البحر الأدرياتيكي فأصبحت قاعدة لهم على مدى ٣٠ عاماً. وفي خلال هذه المدة استمر الزحف الى جوار البندقية «فينيسيا» وفي عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م هدد العرب روما عندما نزلت كتائبهم في مرفئها البحري اوستيا[3]. ولكنهم عجزوا عن اختراق أسوارها الحصينة، فاستولوا على الفاتيكان وكاتدرائية القديس بطرس والقديس بولس خارج الإسوار.

ازدهار القيروان في العهد الأغلبي

ازدهرت القيروان في عهد الأغالبة أيما ازدهار، وجدد زيادة الله بناء جامع القيروان الشهير الذي بناه عقبة بن نافع ثم أتمّ بناءه ابراهيم الثاني الأغلبي ٨٧٤ـ٩٠٢ وهو الذي حصلت في عهده معظم الفتوحات.

وكان أحد الولاة الذين خلفوا عقبة قد جمّل المسجد بأعمدة من رخام استخرجها من انقاض قرطاجة، فاستعمل الأغالبة الأعمدة نفسها عند إعادة بنائه وتجديده، وكانت المئذنة المربعة في جامع القيروان هي نفسها التي

(١) راجع ابن الأثير ٦/ ٢٣٩.

(٢) ابن الأثير ٧/ ٣.

(٣) اوستيا: مدينة قديمة بايطاليا عند مصب نهر التيبر انشأت في القرن الرابع قبل الميلاد ولحماية روما ثم تطورت منذ القرن الأول ق.م. واتسع نطاقها كمدينة وميناء في عهود اوغسطس وكلوديوس الأول وتراجان وهادريان. اضمحلّت بعد القرن الثالث.

شيّدها عقبة بن نافع في العصر الأموي فبقيت على حالها في عهد الأغالبة، تمثل طابع المآذن الأموية السورية التي أصبحت فيما بعد مثالاً يحتذى به في بناء المساجد في المغرب والأندلس. وهكذا أصبحت مدينة القيروان وجامعها الشهير رابعة مدن الاسلام المقدسة بعد مكة والمدينة والقدس الشريف.

الأغالبة يسيطرون على البحر المتوسط

كان الحدث الفريد في تاريخ العرب بعد الفتوحات الكبرى في صدر الاسلام ذلك الفتح الجليل الذي تمكّن فيه الأغالبة من أن يكيلوا للرومان الشرقيين والغربيين من نفس كيلهم. بعد أن انتزعوا منهم السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وجزره المشهورة، وجنوب ايطاليا حتى وصلوا الى اسوار روما عاصمة الأباطرة الرومانيين الأوائل.

هذا الحدث الفريد هزّ أوروبا هزاً عنيفاً في القرن التاسع الميلادي كما هزّ القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية البيزنطية التي وجدت نفسها بين شقيّ الرحى الدولة العباسية في الشرق والدولة الأغلبية التي امتدّت فتوحاتها الى أقرب مكان من حدودها الا وهو اليونان وايطاليا. ناهيك عن سيطرة الأغالبة على البحر الأبيض المتوسط.

فالفتوحات الأغلبية تمّت في عهد المعتصم بن هارون الرشيد سنة ٨٣٣ وفي عهد ابنيه الخليفة الواثق «٨٤٢» والمتوكل «٨٤٧» وقبل أن يرتقي المتوكّل عرش الخلافة بسنة واحدة. كان آخر الأغالبة زياد الله الثالث ٩٠٣ـ٩٠٩ وهو الذي فرّ هارباً سنة ٩٠٩م أما أبي عبد الله الشيعي دون أن يبدي أدنى مقاومة[1].

(١) البيان المغرب لابن عذاري ١/ ١٤٢ـ١٤٦

وجاءت الضربة الثانية التي قصمت ظهور الأغالبة من الإيطاليين أنفسهم، فراحوا يبنون أسطولاً جديداً لمنازلة الأسطول الأغلبي والقضاء عليه في المياه الايطالية. ولما اتمّوا بناءه واعداده خرجوا به الى عرض البحر، ويبدو أن الطبيعة لعبت دورها فهبّت عاصفة مدمّرة قضت على الأسطول الأغلبي.

وثمة صورة من ريشة رفائيل تمثل هذه المعركة البحرية التي كانت فيها العاصفة سبباً في انقاذ روما من الاحتلال.

العرب يصلون الى أواسط أوروبا

ومع ذلك، فلم يؤثر ضياع الأسطول على سيطرة العرب على ايطاليا فقد ظلّت السيطرة قوية حتى أن البابا يوحنا الثامن «٨٧٢-٨٨٢» رأى أنه من الحكم أن يؤدي الجزية للعرب على مدى سنتين[١].

ولم يقتصر الأغالبة في أعمالهم الحربية على شواطىء ايطاليا فقد انتزعوا عام ٨٦٩ جزيرة مالطة[٢]، وفي القرن العاشر جرّدت حملات من ايطاليا المحتلة والأندلس فعبرت الجيوش العربية جبال الألب حتى أواسط أوروبا، وفي الألب اليوم عدد من القلاع والاسوار الفخمة التي يقول الأدلاء للسياح عنها أنها ترجع الى الفتح العربي، وفي سويسرا أماكن وردت أسماؤها «في دليل بركر» يُشتم منها أنها من أصل عربي مثل قلعة جابي والأجابي أي أغلبي أو الأغلبي.

وقد استرجع المسيحيون مدينة باري عام ٨٧١ وكان ذلك إيذاناً بزوال الخطر الجاثم على قلب ايطاليا.

---

(١) AMARI STORIA, ED NALLINO. P.288- 593.

(٢) راجع بن خلدون ص٤/ ٢٠١.

وكما هي العادة فقد دبّ الخلاف بين الولاة العرب في ايطاليا، فراحوا يتناحرون ففي مدينة باري الايطالية أعلن سلاطينها العرب الاستقلال عن مركز الإمارة في باليرمو التي أصبحت عربية.

وفي عام ٨٨٠ اغتنم الامبراطور البيزنطي باسيل الأول ـ فرصة الخلافات العربية فزحف على قلعة ترنتو «طارنت» وهي قلعة استراتيجية خطيرة فانتزعها من أيدي العرب وبعد بضع سنوات انهزمت القوات العربية في «قلورية» القائمة في كعب «القدم الايطالية» وما تزال الأبراج العربية على شاطىء نابولي قائمة الى يومنا هذا..



أحد الأسواق الشعبيّة في المغرب.

الأقلام الحاقدة

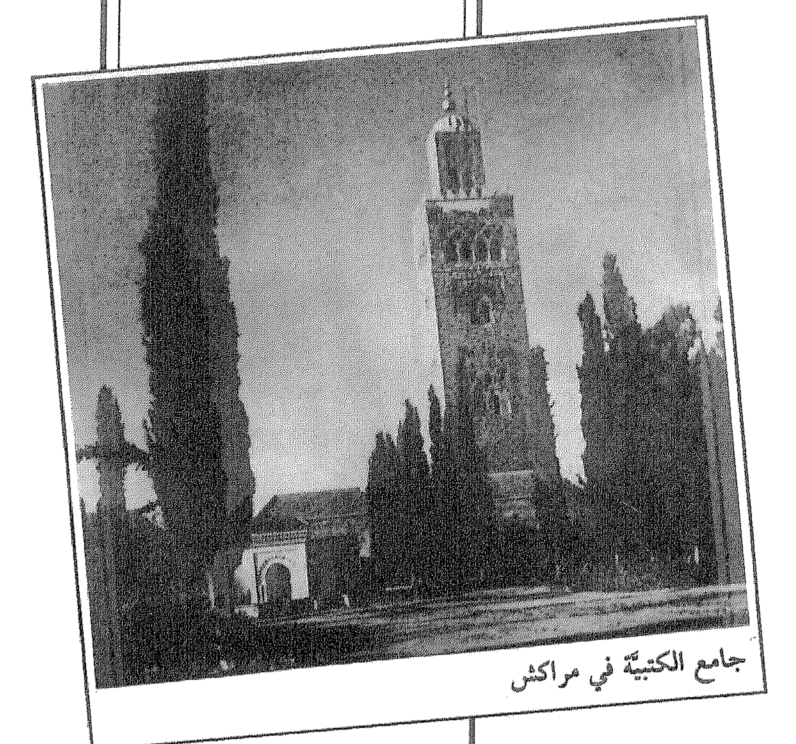
كان الأغالبة قد وصلوا الى أسوار روما وبالرغم من أن المؤرخين في الغرب قلبوا صفحات التاريخ العربي والايطالي بصورة خاصة، وتاريخ العرب والأغالبة بالذات ودقّقوا فيدراسة تاريخهم لكي يعثروا على ثغرة ينفذون من خلالها الى تشويه تاريخ الأغالبة ولكنهم بالرغم من كل دراساتهم المطولة لم يتمكنوا من العثور على تلك الثغرة، عندئذٍ عمدوا الى التشويه الذي لا بدّ منه، فقالوا بأن حملات الأغالبة البحرية كانت عملاً من أعمال القرصنة، أو ليس هذا عجيباً؟!

عندما يحتل الاسكندر المقدوني بلاد المشرق يطلقون عليه اسم الاسكندر الكبير أو الاسكندر الفاتح الكبير، وعندما زحفت قناصل روما وأباطرتهم بالتوالي فيما بعد على الشرق كانوا يطلقون على أعمالهم فتوحات الرومان ويشيدون بالقناصل الرومان والأباطرة من بعدهم ويرفعونهم الى أعلى درجات السمو والمجد والعظمة ولكن عندما يصل الأمر الى الفتوحات العربية في البر والبحر فإنهم يطلقون على العرب الفاتحين اسم القراصنة، ويأتي من بعد هؤلاء المؤلفين الغربيين ـ مؤلفون عرب متحذلقون فينقلون

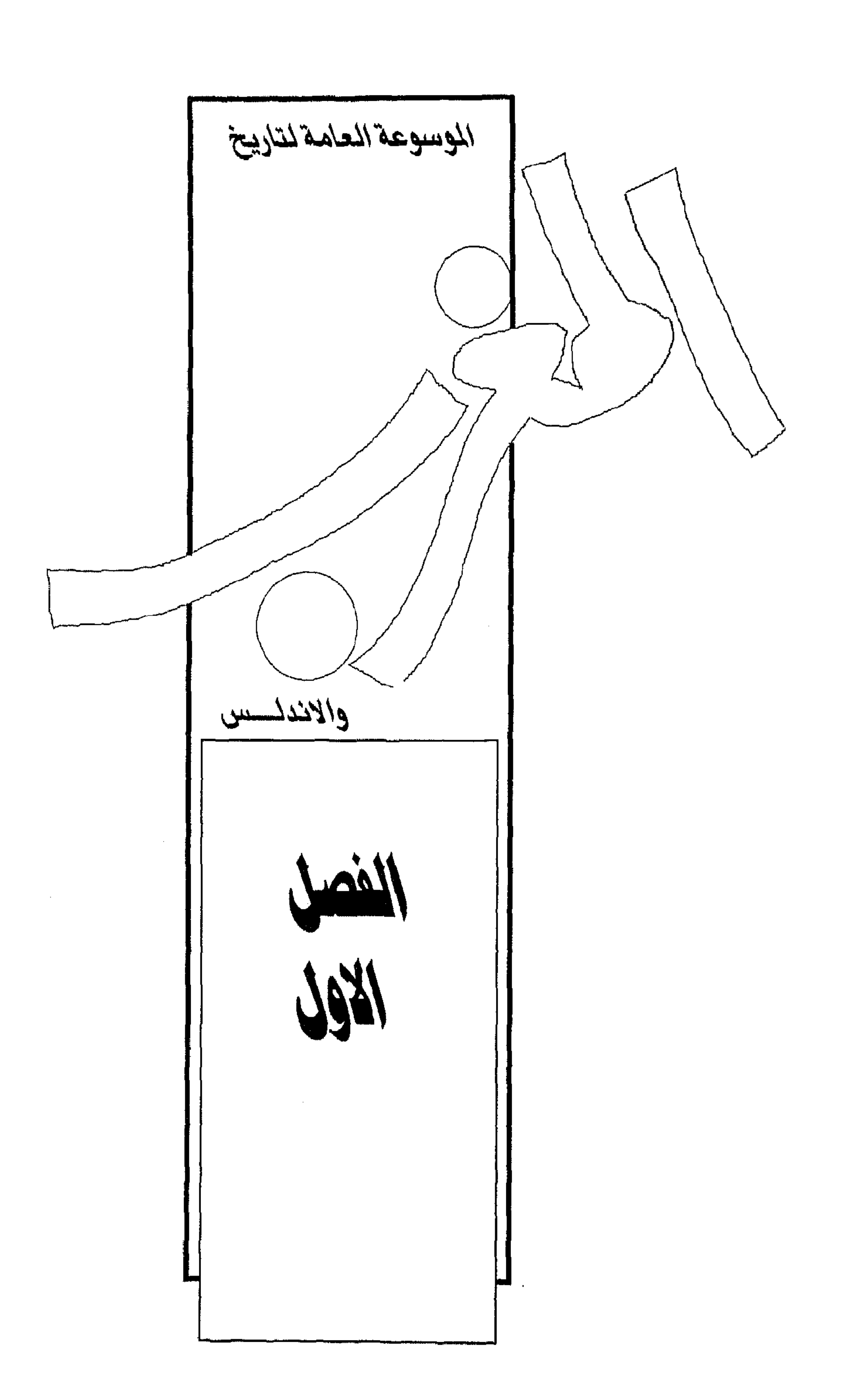
ذلك التشويه الغربي من المؤلفات الغربية «الأوروبية» حرفياً فيصفون فتوحات الأغالبة بأنها كانت من أعمال القراصنة العرب.

هؤلاء المؤلفون النّقلة المتحذلقون هم الذين يجب على الأمة العربية جمعاء أن تحذر مما ينقلون ويدبجون من تشويه وأكاذيب وأضاليل ضد الأمة العربية، كما يجب التصدي لهم بعنف ومصادرة كتبهم وتقديمهم الى المحاكم لكي ينالوا عقابهم على خيانتهم لأمتهم، وعلى تحزبهم للغرب لأنهم والحقيقة هم ألسنة الغرب وأقلامه المسموعة في بلاد العرب وهم أيضاً أصواتهم في اذاعاتهم الغربية المعروفة بتعصبها البغيض ضد العروبة والاسلام.

الباب السادس



جامع الكتبيّة في مراكش


الموسوعة العامة لتاريخ
والأنـدلــس
الفصل
الأول

التشيع في بلاد المغرب

لم يقتصر التناحر على الولاة العرب في ايطاليا من قبل الأغالبة وإنما تعدّاهم إلى الحكام الأغالبة أنفسهم. فبينما كان ابراهيم بن أحمد الأغلبي في صقلية يدبر دفّة المعارك هناك بعد أن تولىٰ ابنه أبا العباس إدارة شؤون الحكم في تونس، فولّىٰ هذا بدوره ابنه محمد المعروف بالأحوال قيادة جيش ضخم لمقاتلة أبي عبد الله الشيعي المنتصر في كتامة. وما إن زحف هذا الملاقاة الشيعي حتى كان أبو مُضَر زيادة الله الثالث (أخو الأحول) قد قام بانقلاب كبير في تونس استولىٰ بنتيجته على مقاليد السلطة فيها بعد ان قتل أباه وأعمامه ثم استدعىٰ أخاه الأحول وقتله على الفور فقضىٰ بذلك على كل أمل في استمرار هذا البيت في الحكم.

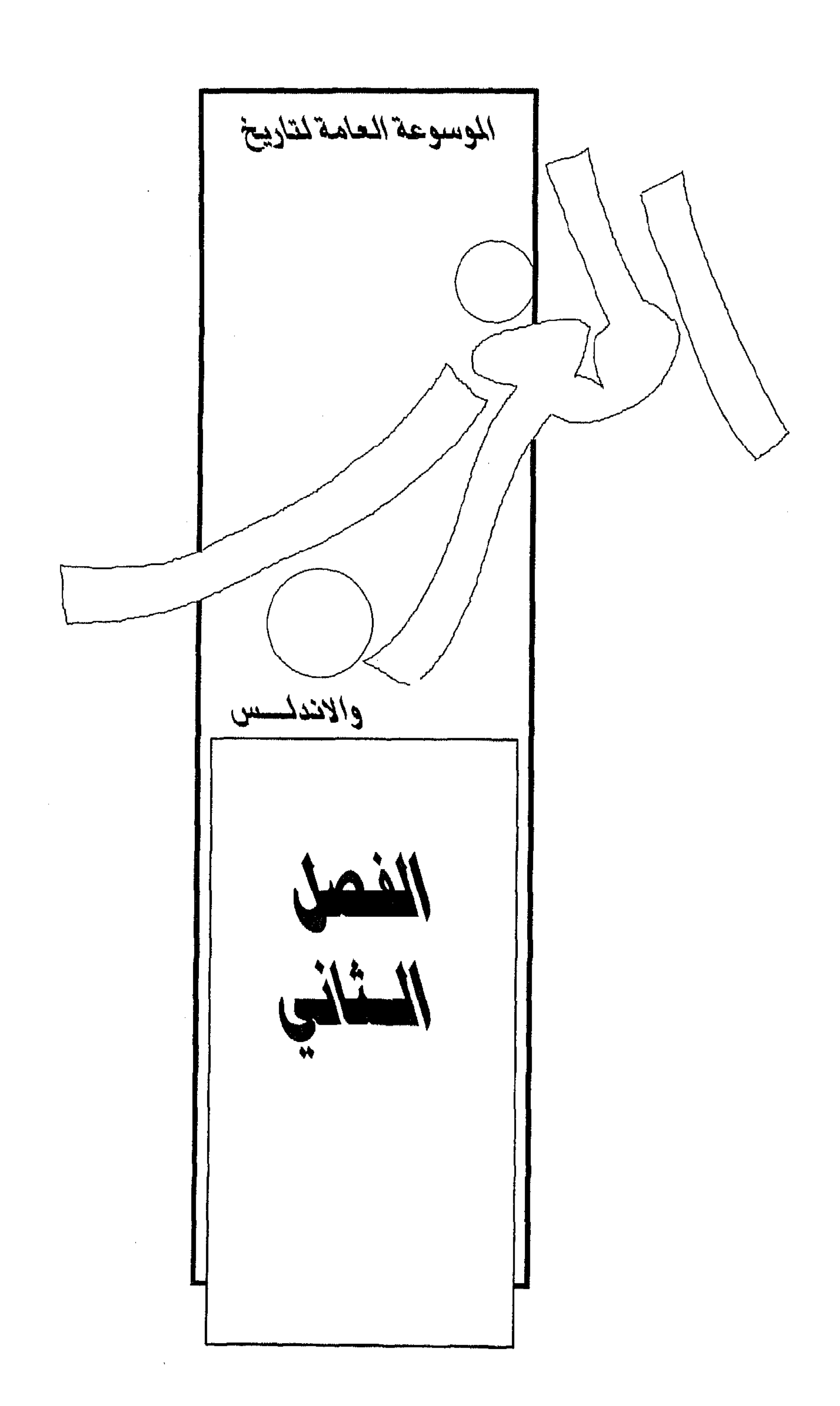
في غمرة هذه الأحداث كان أبو عبد الله الشيعي قد أسّس دولة التشيّع في بلاد كتامة وقضى على الدولة الأغلبية والرستمية ودولة بني مدرار في سجلماسة. وكانت الدعوة الاسماعيلية في بلاد المشرق تتعرض لمحنة قاسية بسبب اختلاف دعاتها على المراكز والمناصب فيها. وكان الخلاف فيما بينهم قد استحكم منذ أيام عبد الله الأكبر بن محمد بن اسماعيل وانتقاله

الى سلمية. وكان فرع الدعوة في الكوفة من أكبر الفروع تعرضاً للاضطرابات في شؤونه التنظيمية بعد أن تسلّم عبيد الله المهدي شؤون الأمامة الاسماعيلية. استفاد القرامطة من هذا الوضع المضطرب وراحوا يثيرون الفوضى والمتاعب ووجد عبيد الله المهدي نفسه أمام خطرين يتهدّدانه خطر القرامطة وخطر الخلافة العباسية[1].

وهكذا كان نجاح أبي عبد الله الشيعي حافزاً لعبيد الله المهدي فغادر مقر الاسماعيلية ببلدة «سلمية»[2] وسافر متخفياً في زيّ تاجر الى شمالي أفريقيا الغربية، فقبض عليه زيادة الله الأغلبي وزجّه في سجن سجلماسة. وكان أبو عبد الله الشيعي يومها سيد المغرب بلا منازع وقد اتّحدت تحت لوائه أفريقيا الشمالية كلها فحرك جيشه المنتشر في نواحي كتامة وأرباضها واتّجه به الى المغرب الأقصى يريد سجلماسة لينقذ عبيد الله المهدي وينظر في حقيقة أمره ففرت زناته من طريقه وراحت المدن والقرى تسقط في يده الواحدة تلو الأخرى حتى استولى على العديد منها وظلّ متابعاً سيره الى أن أطلّ على مشارفها يوم السبت في السادس من ذي الحجة سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م وهناك نزل على اليسع بن مدرار فخرج هذا اليه فقاتله أبو عبد الله ساعة من نهار فانهزم اليسع وفرّ في أهله وبني عمه ودخل أبو عبد الله سجلماسة وأخرج المهدي من سجنه ولكن هذا سرعان ما اغتاله سنة ٢٩٨هـ/ ٩١١م. نفس أسلوب أبي جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني وهكذا قطف الفاطميون ثمرة جهاد الشيعة الطويل في بلاد المغرب كما قطفها العباسيون من قبل في بلاد المشرق وأسّسوا الدولة العبيدية الاسماعيلية.

(١) راجع كتاب دولة التشيّع في بلاد المغرب (نجيب زبيب) ص٢١٩ـ٢٢١ منشورات دار الأمير ـ بيروت.

(٢) سلمية مدينة زراعية تبعد حوالي ٣٤ كلم عن حماه على ارتفاع حوالي ١٥٠٠م عن سطح البحر معظم سكانها اليوم على المذهب النزاري الاسماعيلي. نجيب زبيب المرجع السابق.



الفصل الثاني

قيام الدولة العبيدية الفاطمية في المغرب

تربّع عبيد الله على عرش الدولة وتلقب بالمهدي وتقبله الناس على أنه من ذرية فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) لذلك سمّيت الدولة العبيدة بالدولة الفاطمية[١] .

ومن أشهر القائلين بصحة نسبة الفاطمي ابن الأثير[٢] وابن خلدون[٣] والمقريزي[٤] ، أما الذين يرتابون في نسبه ويزعمون أنّه محتال فهم المؤرخون ابن خلكان[٥] ، وابن عذاري[٦] ، والسيوطي[٧] ، وابن تغرى بردى[٨] .

---

(١) راجع كتابنا دولة التشيع في بلاد المغرب ص٢٦٠ـ٣٠٢ منشورات دار الأمير ـ بيروت .

(٢) ابن الأثير ٨/ ١٧ـ٢٠ـ ابو الفداء ٢/ ٦٧ـ٦٨

(٣) ابن خلدون ٤/ ٣١.

(٤) خطط بولاق ١/ ٣٤٨ـ٤٩ .

(٥) وفيان الأعيان ١/ ٤٨٧ .

(٦) البيان ١/ ١٥٠ـ١٥٧ـ١٥٨ .

(٧) تاريخ الخلفاء ص٢١٤ .

(٨) النجوم الزاهرة ص٢/ ١١٢ نشر ببرج.

وقد نشأ الخلاف بسبب الفاطميين في عهد الخليفة العباسي القادر فكتب محضراً وقّعه أعيان السنّة والشيعة في بغداد وجاء فيه: «أن هذا الناجم بمصر المتلقب بالحاكم لا نسب له في ولد الإمام علي بن أبي طالب بل ينتسب الى ديصان ابن سعيد الخارجي[١].

عبيد الله المهدي

سكن عبيد الله «٩٠٩-٩٣٤» في الرقادة موئل الأغالبة، بضاحية القيروان، وعزّز مكانته فيها وأدار حكومته بحزم فدانت له القيروان وما حولها، وبعد أقل من سنتين قتل أبا عبد الله الشيعي وقواده. ثم شرع يوسع دولته فاحتل شمالي أفريقيا من مراكش الأدارسة حتى تخوم مصر.

وفي عام ٩١٤م/ ٣٠٢هـ زحف على الاسكندرية واحتلها وبعد ذلك بسنتين دمّر مدن الدلتا المصرية، واستولى على صقلية من بقايا الأغالبة[٢] وعيّن عليها حاكماً من أبناء قبيلة كتامة نائباً عنه، وعقد مع ابن حفصون المسيحي الثائر في الأندلس علاقات ودية. وفي أثناء ذلك تمكّن من الاستيلاء على أسطول الأغالبة فدان له البحر الأبيض المتوسط، فعظمت قوته وأصبح له صولة بحرية مرموقة شعرت بوطأتها مالطة وجزيرة سردينيا وكورسكا وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط.

وفي سنة ٩٢٠م/ ٣٠٨هـ اتخذ مدينة المهدية قاعدة له وعاصمة جديدة وهو الذي بناها على الساحل التونسي على مسافة ستة عشر ميلاً الى الجنوب الشرقي من القيروان وسماها «المهدية» على اسمه..

---

(١) راجع محضر هذه الجلسة في المختصر في اخبار البشر لأبي الفداء ص٢/ ١٥٠.
(٢) جميع المراجع المذكورة سابقاً.

أبو القاسم محمد القائم

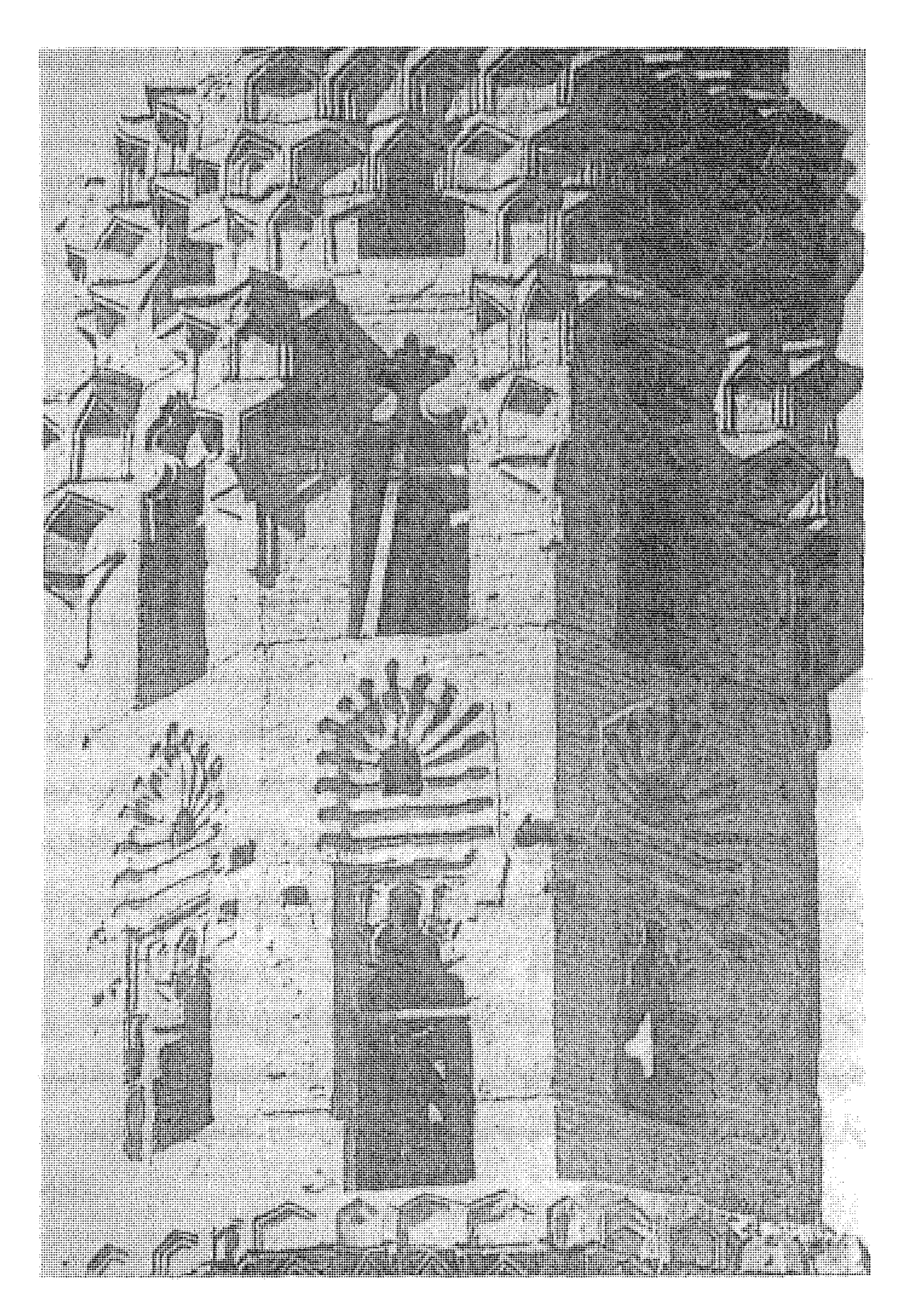
وسار خلفاء عبيد الله على أثره فتابعوا سياسة الهجوم والاحتلال والتوسع، ومنهم أبو القاسم محمد القائم «٩٣٤-٩٤٦» فوجّه الأسطول فيما بين عامي ٩٣٤و٩٣٥ الى ساحل فرنسا الجنوبي ثم استولى على مدينة جنوى، واحتكّ بمدينة كلابريا.

أبو معد ـ المعز لدين الله

وفي عهد أبي معد المعز حفيد القائم «٩٥٢-٩٥٧» بلغ الأسطول الفاطمي ذروته قوةً وانتشاراً بما أضيف اليه من سفن حربية جديدة بنيت في مدينة «مقس» ميناء القاهرة النهري القريبة من بولاق ـ فغزا في عام ٩٥٥ سواحل الأندلس في عهد الخليفة الناصر الأموي الأندلسي.

وبعد ثلاث سنوات وصل بقواته وأسطوله الى المحيط الأطلنطي على سواحل المغرب بعد أن احتلها، وهناك رتّب أمير الأسطول الفاطمي حفلة صيد بحري اصطاد خلالها كمية كبيرة من الأسماك فوضعها في جرار ملأى بمياه البحر وبعث بها الى الخليفة حية.

وامتدّ النفوذ الفاطمي من مصر الى المحيط الاطلنطي بالاضافة الى اليمن والحجاز وفلسطين ودمشق وخُطب للعزيز بالله الفاطمي في جميع الأقطار بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر وفي اليمن ودمشق حتى الموصل مرة واحدة. وفاقت خلافة مصر خلافة بغداد وأصبحت الدولة الاسلامية الكبرى في شرقي المتوسط وصارت الدولة الفاطمية أعظم منافسة للعباسيين في بغداد.



النقوش على مئذنة الجامع الذي بناه الحاكم في القاهرة

أبو منصور ـ العزيز بالله

وكان الخليفة الفاطمي ابو منصور نزار العزيز بالله معاصراً للخليفة العباسي الطائع «٩٧٤ـ٩٩١» والدولة العباسية في دور الانحطاط والانحدار لتسلط المماليك على الحكم في بغداد وكان قد مضى عليها ١٣٥ سنة بعد المعتصم ابن هارون الرشيد وابنه الواثق «٨٤٢ـ٨٤٧» وهي في تدهور مستمر في حين كانت الدولة الفاطمية في صعود متواصل.

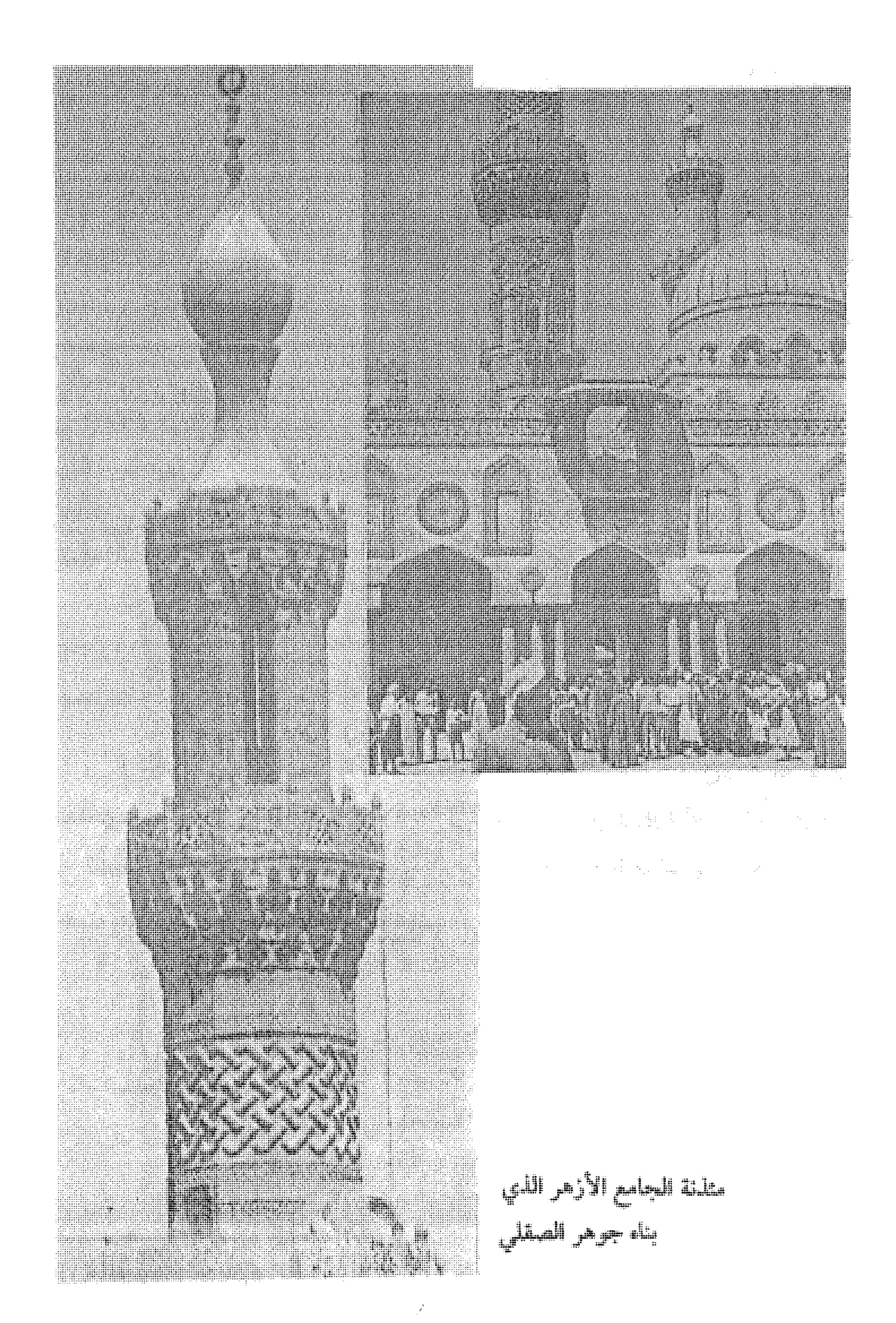
وقد بنى أبو منصور نزار الفاطمي قصراً في القاهرة انفق عليه مليوني دينار، وكان يأمل بعد احتلال بغداد أن يُسكن فيه بقايا الأسرة العباسية الحاكمة أن هي وقعت في أسره.

وبلغ من طموحه أنه كان ينوي احتلال الأندلس، فبعث الى خليفتها يهجوه ويتوعده، فأجابه الخليفة الأندلسي متهكماً «أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك»[1].

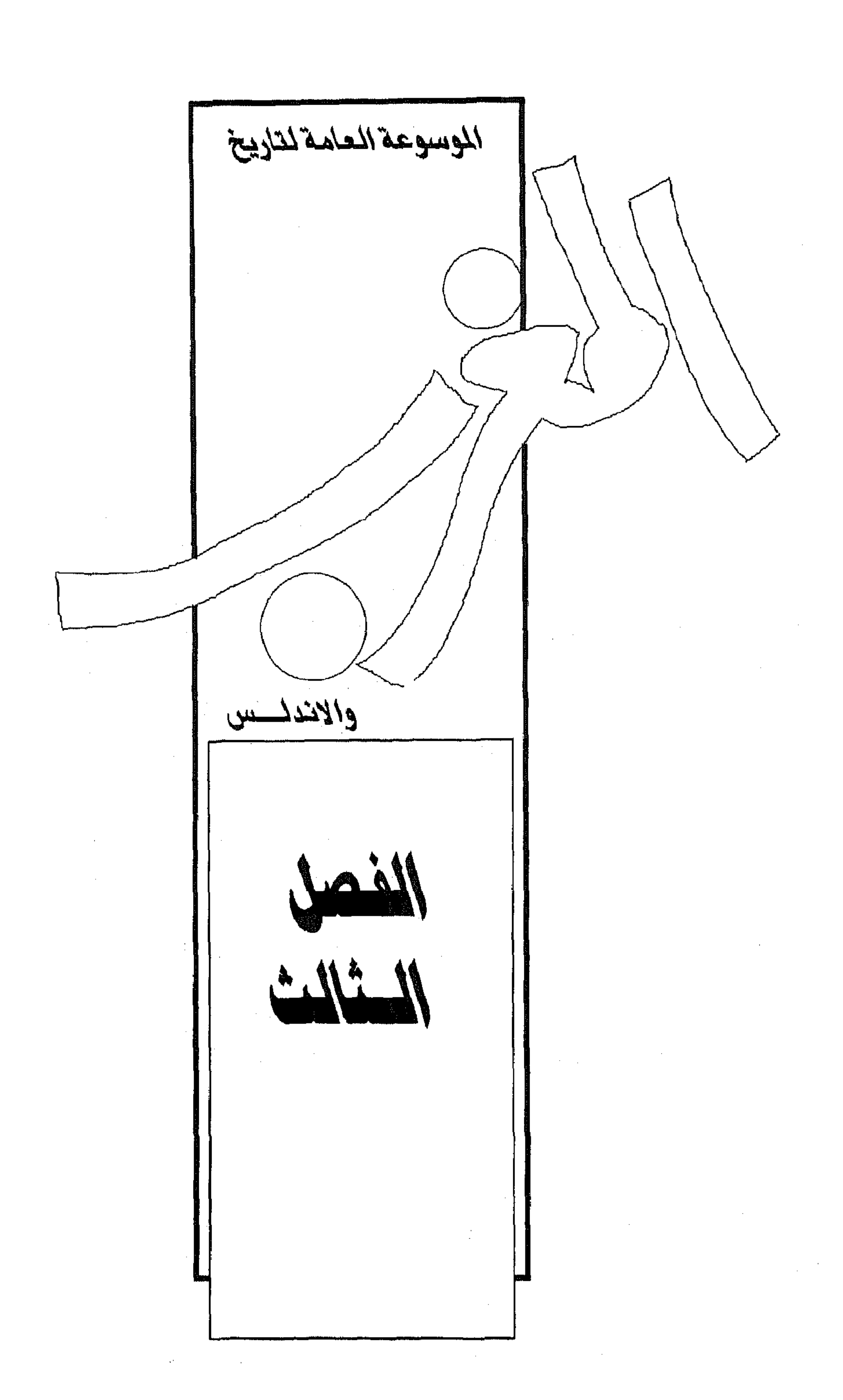
وكان الخليفة الفاطمي العزيز المذكور متسامحاً مع المسيحيين فمنحهم قسطاً وافراً من الحرية وربما كان ذلك بفضل وزيره النصراني عيسى بن نسطور أو بتأثير زوجته الروسية أم ولده وخليفته الحاكم بأمر الله، وهي أخت بطريركي الاسكندرية والقدس.

---

(١) النجوم الزاهرة لإبن ثغري يرى ص٢/ ٢ نشر ببرج.



مئذنة الجامع الأزهر الذي
بناه جوهر الصقلي

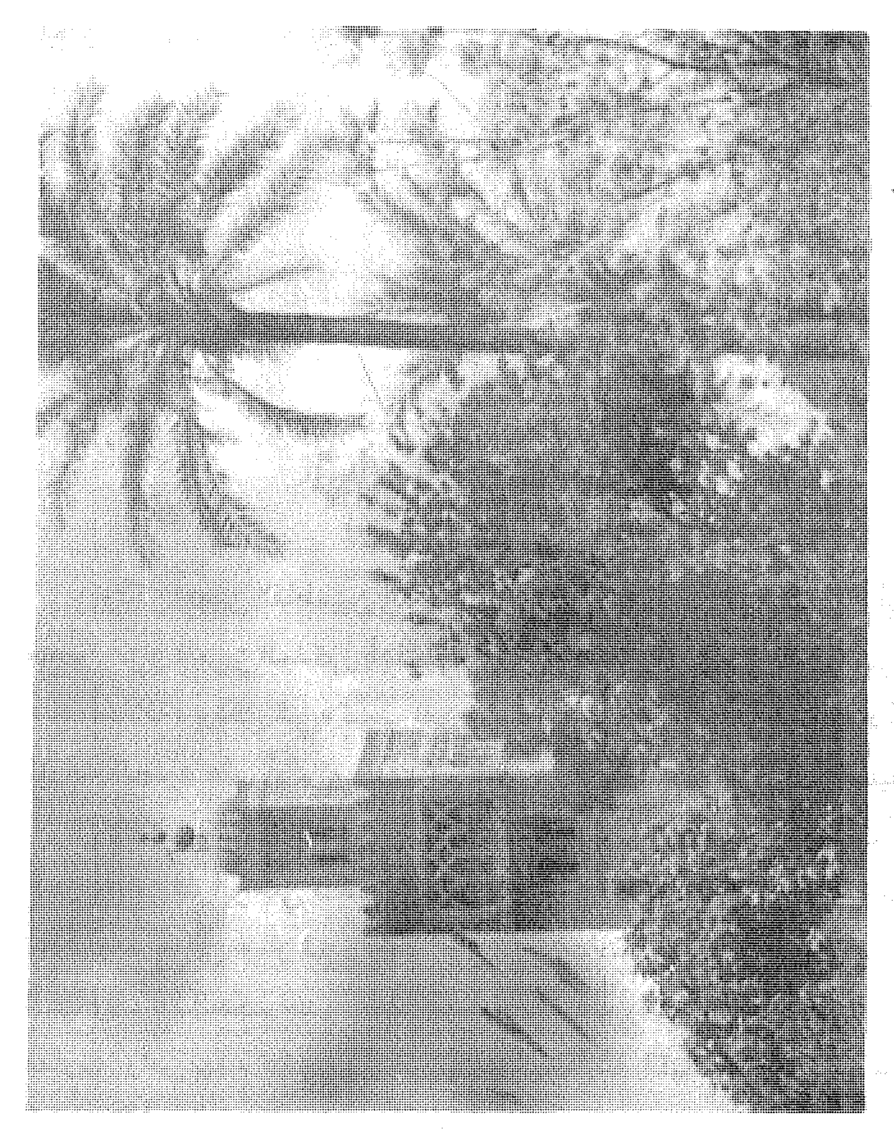


الفصل الثالث

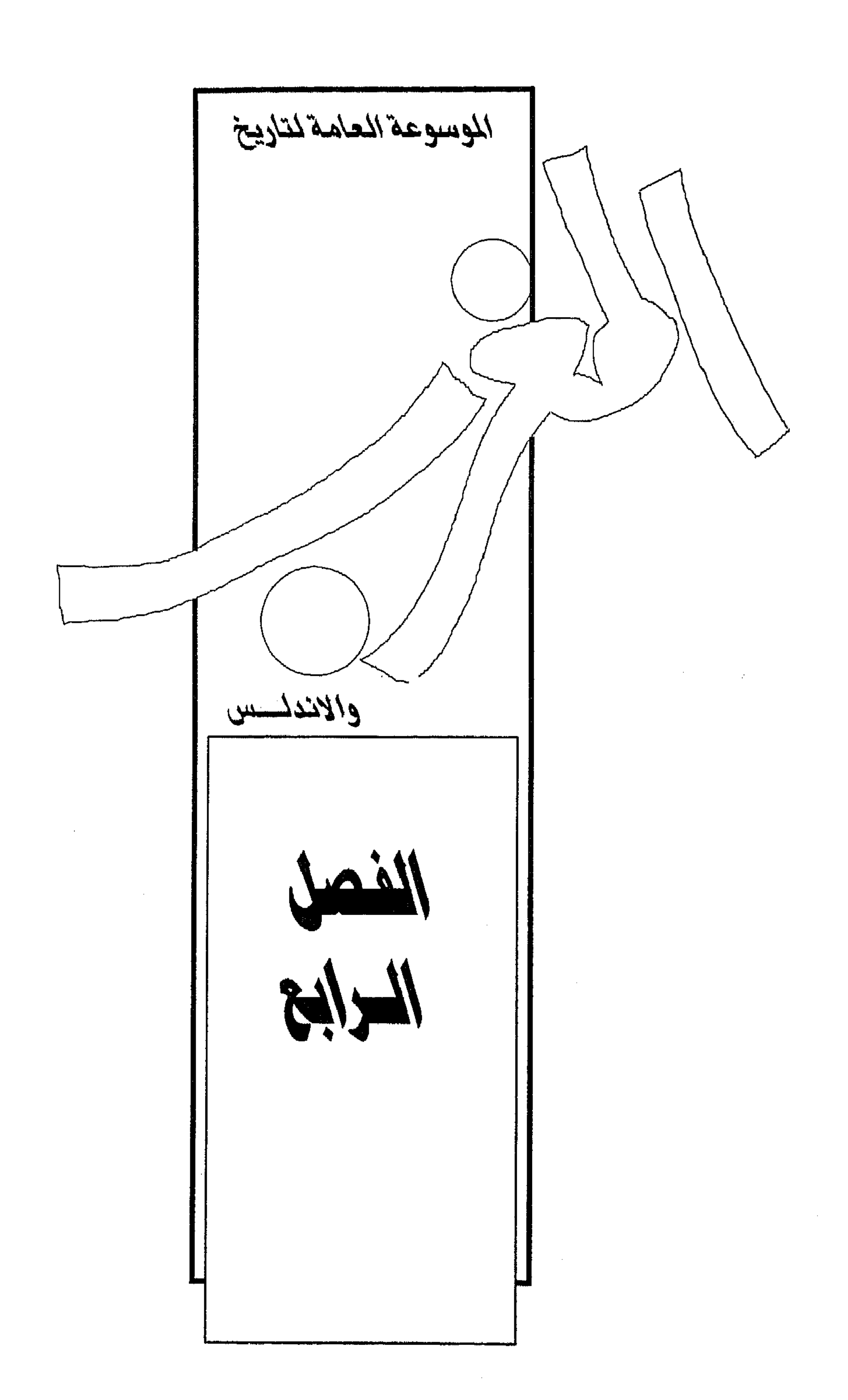
تداعي الحكم الفاطمي

ولكن عصر الفاطميين الذي كان قد بلغ ذروته في عهد الخليفة أبي منصور نزار العزيز المذكور أعلاه، شهد في الوقت نفسه بدء تداعي صرح هذه الخلافة، ولكل شيء سبب ففي عهده بذرت بذور الفتنة والشقاق إذ أن ثورات الجنود على أوليائهم وقتالهم فيما بينهم ونزاعهم مع حرس الخليفة البربر كانت من أهم العوامل التي أدّت الى انحلال الحكم. زد على ذلك أن الحاكم بأمر الله أبو علي منصور استلم الحكم وعمره احدى عشرة سنة فحكم تحت وصاية إبن عمار ثم برجوان حتى بلغ السادسة عشرة من عمره وما إن شبّ وتفرّد بالحكم حتى أظهر القسوة والعنف والبطش وقتل عدداً من معاونيه وأمر بهدم عدد من الكنائس ومنها كنيسة القيامة في القدس سنة ١٠٠٩م الأمر الذي مهّد للحروب الصليبية.

كما أن ولاته فرضوا الجزية على المسلمين الذين لا يتبعون المذهب الاسماعيلي مما أثار السخط والنقمة على الفاطميين. وفي عهد الخليفة العاشد تولّى الوزارة صلاح الدين الأيوبي الذي خلع الخليفة وأنهى حكم الفاطميين استلم الحكم بعدهم.



إيمان وعمران


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الرابع

صقلية زمن الفاطميين

أصبحت صقلية في أيام الفاطميين ولاية فاطمية. الاّ أن عرب صقلية ما لبثوا أن ثاروا بعد أربع سنوات وأعلنوا استقلالهم عن الفاطميين بزعامة أحمد بن قرهب «٩١٢ـ٩١٦» الذي حدّد اتصاله بالخليفة المقتدر العباسي وأمر أن يخطب بإسمه فوق المنابر، فقطعت خطبة المهدي(١).

ولكن المهدي استطاع إغراء البربر جند أحمد بن قرهب المذكور فتخلّوا عنه، ويبدو أنهم قبضوا عليه وأرسلوه الى المهدي سنة ٩١٧ فأمر بقتله. وبذلك تمكّن الفاطميون من استعادة سيطرتهم على صقلية واتخذوها قاعدة بحرية شنوا منها الحملات على جنوى عام ٩٣٤ـ٩٣٥.

ومع ذلك فلم يستتبّ الأمر للفاطميين في صقلية اذ سرعان ما نشب النزاع بين الأندلسيين والأفارقة من جهة وبين العرب اليمانية أهل الجنوب ومنهم بنو كلب وبين القيسية أهل الشمال.

وفي عام ٩٤٨ ولى المنصور الخليفة الفاطمي الثالث على صقلية

---

(١) ابن الأثير ٨/٥٣.

الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي المتوفي سنة ٩٦٥، فنجح باقرار الهدوء في الجزيرة وأعاد للسكان بعض الطمأنينة فأنشأ حكومة ثابتة الأركان، وفي عهده وعهود خلفائه تسنى لهذه الدولة أن تؤسس في جزيرة صقلية حضارة عربية ممتازة وثقافة أخذت بالنمو والانتشار حتى عمّت ايطاليا وما حولها(١).

صقلية في أوجّ عظمتها

وفي أيام حكم أبي الفتوح يوسف ابن عبد الله «٩٨٩ـ٩٩٨»، وهو من نسل الحسن بن علي المذكور آنفاً بلغت صقلية أوجّ المجد والحضارة وبنى الأمراء الكلبيون قصورهم الأنيقة في باليرمو، وأنشأوا فيها مجتمعاً راقياً وجعلوها مدينة مزدهرة بالثقافة العربية، وعاش فيها السكان في ترف ورخاء.

ابن حوقل في صقلية

وقد أرّخ هذه الحقبة ابن حوقل «٩٤٣ـ٩٧٧» الرحالة الجغرافي المشهور في كتابه(٢) فقدّم لنا وصفاً كشاهد عيان لما رأته عيناه من الحضارة العربية في صقلية فقال: وجد في تلك المدينة ٣٠٠ مسجد، ووصف المصلين بأنهم كانوا يقفون في ٣٦ صفاً في المسجد، كل صف يتألف من ٢٠٠ مُصَلٍ، وتحدث عن التعليم فقال بأنه علم بوجود أكثر من ٣٠٠ معلّم للصبيان، وكان سكان باليرمو يرون في هؤلاء المعلمين أنهم من الأفاضل والأجلاء الجديرين بالاحترام، كما شاهد ١٥٠ حانوتاً للقصابين.

---

(١) ابن الأثير ٨/ ٥٣ـ٥٤ و٣٥٤.

(٢) راجع ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك ص٨٢ـ٨٧.

النورمنديون يحتلون صقلية

وكما هي العادة فقد سقط حكام صقلية العرب في شرك الترف والبذخ والرخاء، فلما غزا الجزيرة النورمنديون بقيادة الكونت روجر ابن تانكرد دي هوتفيل عام ١٠٦٠ تمكّنوا من احتلال مسينا «مسيني» ثم سقطت باليرمو في أيديهم عام ١٠٧١م، وسرقوسة في عام ١٠٨٥ وتم استيلاء النورمانديين على الجزيرة بكاملها عام ١٠٩٠، ثم احتل روجر مالطة، وكان النورمانديون قد بدأوا باحتلال أجزاء كثيرة في أوروبا وثبّتوا فيها أقدامهم.

الحضارة العربية في صقلية.

وعاش العرب مع النورمانديين في صقلية، فأطلقوا العنان لمواهبهم الخصبة وأنتجوا نتاجاً قيّماً في الفن والثقافة والآداب وقد استعان روجر الذي توفي عام ١١٠١ بالعرب وجندهم في جيش مشاتة، ورعى العلوم العربية وقدّر للعرب ذكاءهم فقرب منهم في بلاطه الفلاسفة والأطباء وعلماء الفلك والتنجيم، حتى أن بلاطه كان يغلب عليه العنصر العربي كما استعان بالعرب في تنظيم شؤون الدولة فعادت الى ما كانت عليه في عهدهم الماضي وفي الوقت نفسه اسند أكثر وظائف الدولة العليا الى العرب والمسلمين.

وأدخل العرب الى صقلية زراعة القصب وصنع السكر، والقطن والزيتون وسواها من النباتات المثمرة بالاضافة الى صناعة الحرير التي شارك فيها النورمانديون بعد عام ١١٤٧، وزرع العرب فيها نبات البردي[١] الذي ازدهر في الجزيرة على حد قول ابن حوقل، وكانت تصنع من ألياف البردي

(١) بردي: نبات مائي عرفه المصريون منذ أقدم العصور وكان لديهم عنصراً من أهم عناصر الحضارة يتخذون من أعواده بيوتاً ويشيّدون منها الزوارق. يفتلون من أليافه الحبال وينسجون منها النعال ويستخرجون منه بعد ذلك ورقاً يكتبون عليه من أمور حياتهم ما غدا في تاريخ الحضارة الانسانية من أنفس الذخائر. ولقد أسدت مصر بهذه الصناعة الى العالم كله فضلاً عظيماً (الموسوعة العربية الميسرة).

حبال السفن، وقد أعجب ابن جبير في كتابه ص ٣٢٨ بالزراعة العربية في صقلية ومرافقها الغنية وأشار بنوع خاص الى زراعة الكرمة وغيرها من الأشجار المنصوبة في صفوف متناسقة.

وتعتبر أقدم وثيقة مكتوبة على الورق هي أمر اداري أصدرته الكونتيس زوجة روجر الأول باللغتين العربية واليونانية عام ١١٠٩ ويظهر أن هذه الوثيقة كتبت على ورق استورده عرب صقلية «وربما كانوا صنعوه من ورق البردي» ومن عهد الملك روجر الثاني اكتشفت أقدم نقود مكثوبة بالنقوش والأرقام العربية عام ١١٣٨.

وكان روجر الأول يصارح بحبه للغرب المتحضرين، وبزه في ذلك ابنه روجر الثاني ثم فردريك الثاني، وكان روجر الثاني يرتدي الملابس العربية فسمّاه منتقدوه «الملك الوثني» لأن نصارى أوروبا كانوا يعتبرون الاسلام «وثينة» وكانت جبّته مطرّزة بالحروف العربية، وظلّ الزيّ الاسلامي متّبعاً حتى ولاية حفيده وليَم الثاني سنة ١١٦٦ ـ ١١٨٩م وقد شاهد ابن جبير النساء النصرانيات في باليرمو في ذلك العهد خارجات في أزياء المسلمات وازدان سقف المعبد الذي بناه روجر الثاني في باليرمو عاصمته بالصور والأشكال وفيها نقوش عربية كوفية، وقد شارك العرب في بناء تلك الكاتدرائية وفي العديد من ابنية المدن في صقلية.

أما أسطول روجر الذي حلّ محل أسطول الأغالبة في تسلّم زعامة البحر الأبيض المتوسط فقد تولّى قيادته أمراء من العرب أو من مسيحيين كانوا يعملون في الأسطول العربي ومنهم جورجي الانطاكي، ـ وكان هذا قد خدم في أول عهده أحد أمراء المسلمين في المهدية في تونس، وكان أعظم منصب في الدولة يسمى باسم مشتق من العرب وهو (أميراتس أميراتورم) ـ أي أمير الأمراء.

ابن حمديس الصقلي يغادر الجزيرة

كان أوّل من غادر صقلية من الأدباء العرب بعد دخول النورمانديين هو عبد الجبار ابن حمديس الصقلي «١٠٥٥ـ١١٣٢» وكان قد ولد في سرقوسة فرحل الى الأندلس وانضمّ الى بلاط المعتمد بن عباد وقد ظلّ ابن حمديس ملازماً للمعتمد حتى في أيام أسره وبؤسه ورافقه الى سجن اغمات في مراكش. وقد نشر ديوانه «شيابرلي» في روما سنة ١٨٩٧.

الإدريسي في صقلية

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الإدريسي ألمع شخصية توّجت بلاط الملك روجر الثاني وقد ولد في مدينة سبتة على الشاطىء المغربي عام ١١٠٠ من أبوين عربيين أندلسيين، ونبغ في باليرمو في بلاط روجر وتوفي عام ١١٦٦.

أما رسالته «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»[١] المعروفة بكتاب «روجار» فقد شملت عدة مواضيع جغرافية مستقاة من بطليموس والمسعودي هذا بالاضافة الى دراساته وتجاربه الخاصة، وكان الإدريسي يرسل مساعديه الى بلدان متفرقة ليأتوه بأهمّ المعلومات الجغرافية عن تلك البلدان، وقد بحث الإدريسي في تلك المواد ونقدها وتحرّى فيها الحقائق وكشف عن قضايا جغرافية هامة كإدراكه «لكروية الأرض» وصنع لروجر «كرة سماوية» «وخريطة للعالم» على شكل قرص وكلاهما من الفضة.

(١) طبعت خلاصة هذا الكتاب مع احدى وسبعين خارطة في روما عام ١٥٩٢. فكان من أقدم الكتب العربية المطبوعة. وقد نقلها الى اللاتينية دون تدقيق عالمان لبنانيان هما جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني. كما طبعت هذه الخلاصة في باريس عام ١٦١٩ ونشرت أقسام من النص في ليون ومدريد وروما وبون.

روجر الثاني

كان روجر الثاني أحد ملكي صقلية العظام، وكان الملك الآخر حفيده فردريك الثاني الهوهنشتاوفن «١١٩٤-١٢٥٠» وهو الذي حكم صقلية والمانيا وأصبح بعد سنة ١٢٢٠ امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية «المقدسة» ثم صار ملكاً على القدس. خلال الحروب الصليبية، وبعد زواجه من ايزابيل البرينية بثلاث سنوات، جرّد حملة صليبية على الأراضي المقدسة وعاد منها وهو أكثر تأثّراً بالأفكار العربية والديانة الاسلامية.

وكان في حياته الرسمية شرقياً وقد أقام لنفسه (الحريم) على طريقة الملوك المسلمين، وكان يعزف على كمانه ألحاناً عربية، ولمع في بلاطه فلاسفة من سوريا وفلسطين وبغداد من ذوي اللّحى المستطيلة والأقبية الفضفاضة، وكان في قصره مغنّيات وراقصات أحضرهنّ معه من الشرق الى جانب ذلك كانت له اصلاحات قانونية ومالية وكان راعياً ودارساً للطب والرياضيات والفلك والشعر.

وأنشأ علاقات وديّة مع صديقه الملك الكامل محمد ملك مصر ابن أخي صلاح الدين الأيوبي الذي أعطاه في المعاهدة امتيازات كثيرة، كانت موضع نقد المؤرخين العرب، فالملك الكامل كان ضعيفاً وجباناً لذلك تنازل لفردريك في فلسطين عن أجزاء لا موجب لإعادة ذكرها.

وكان يتبادل الهدايا مع الملوك الأيوبيين، ومن مآثر هذا الامبراطور المستعرب أنه أنشأ أوّل جامعة في أوروبا عام ١٢٢٤ بعد جامعة فاس في المغرب. وقد أودع فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية، ومنها مصنفات إبن رشد التي أمر فردريك بترجمتها فوضعها بين أيدي المعلمين في الجامعة لتدريس محتوياتها، وأرسلت من ترجماته للعديد من الكتب

العربية نسخ الى باريس وبولونيا وكان من طلاب جامعة نابولي توماس الأكويني[1] . وفي القرن الرابع عشر والقرون التي تلته اشتدّ الإقبال على الدراسات العربية في جامعات أوروبا كجامعتي اكسفورد الانجليزية والسوربون الباريسية.

صقلية تنقل الحضارة العربية الى أوروبا

وليس من شك في أن صقلية كانت ملتقى ثقافتين ومن هنا تهيّأ لها أن تلعب دوراً في نقل الحضارة العربية الى أوروبا وكان سكانها العرب يتميّزون بسمو ثقافتهم ومعرفتهم للاتينية، وقد نقل كتاب كليلة ودمنة من العربية الى اليونانية على عهد العرب في صقلية. كما نُقل «كتاب الرازي في الطب» من العربية الى اللاتينية طبيب يهودي سنة ١٢٧٩ اسمه فرج بن سالم تحت رعاية شارل الأول، هذا بالاضافة الى المصنفات الأخرى في الفلك والرياضة.

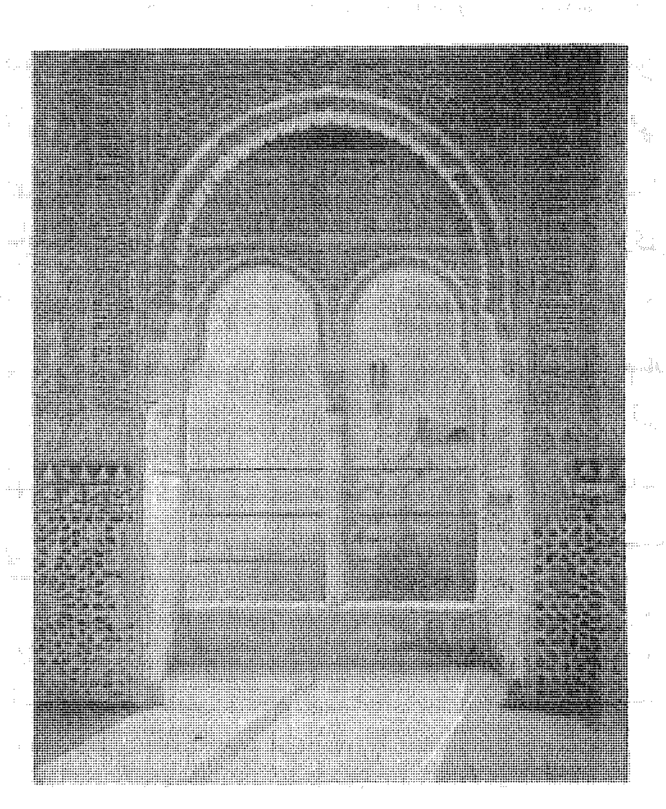
ولم يكد ينتصف القرن العاشر حتى أخذت آثار العلوم العربية تظهر في شمال جبال الألب فملحمة دانتي[2] شرقية الأصل وقد أخذت العلوم العربية تظهر بأساليب شتى في أوروبا كما تأثّرت الأبنية في ايطاليا بطراز أبنية العرب في باليرمو وسرقوسة وغيرهما من المدن وبنى المسيحيون منائر

(١) توماس أو توما الأكويني (١٢٢٥ـ١٢٧٤) فيلسوف ولاهوتي ايطالي من أشهر وأهم ممثلي الفكر الكاثوليكي يلقب باسم (الدكتور الملائكي) لصفاء ذهنه تعلم في دير مونت كسينو ثم في نابولي وانتظم في رهبته الرومينيكان ١٢٤٤ وتتلمذ لألبير الكبير في باريس وكولوني حتى أصبح من أشهر تلاميذه ناضل ضد الرشدية اللاتينية مؤلفاته كثيرة في الفلسفة واللاهوث وفسر معظم كتب ارسطو وشرح معظم الكتاب المقدس.

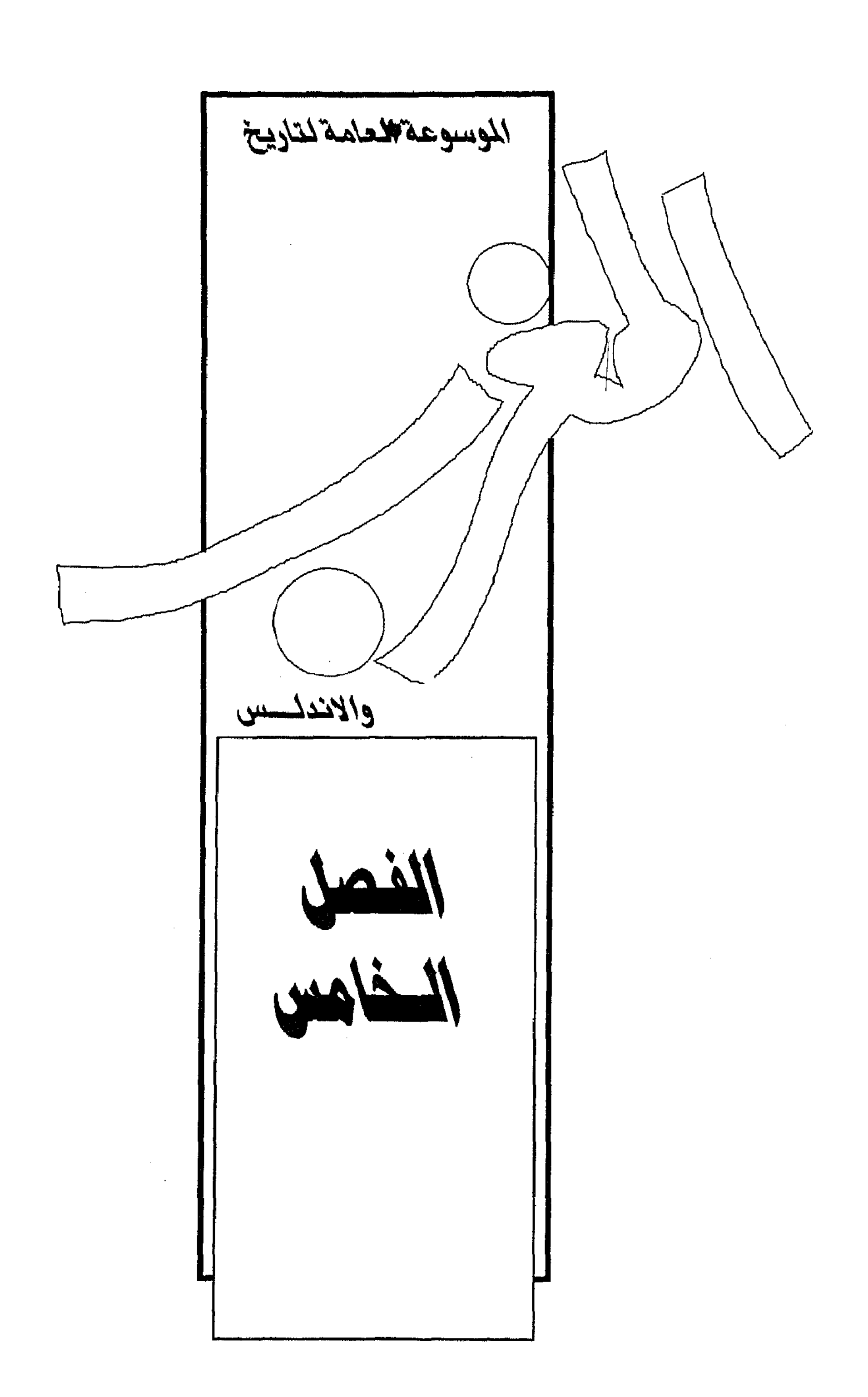
(٢) دانتي: (١٢٦٥ـ١٣٢١) شاعر ايطالي مؤلف الكوميديا الآلهية يعتبر من أعظم شعراء العالم وأشهر شعراء ايطاليا وأحسن من صور الحياة في العصور الوسطى. كان يمتاز بقدرة فائقة على الوصف والتحليل ويتفوق بموسيقى شعره وسمو أفكاره وحيويّة خياله (المرجع السابق).

كنائسهم المربعة على شكل منائر المساجد في فاس والرملة في فلسطين ومنارة المسجد الأموي في دمشق.

وفي خلال القرن الخامس عشر أخذت مدينة البندقية في تبني الأزياء الاسلامية في الفن ونشرها وتعميمها، كما اتخذت طريقة تجليد الكتب العربية في تجليد الكتب الايطالية واقتبسوا فنون الزخرفة والتوريق في الأبنية الايطالية وغيرها وفي البندقية صاروا يرصعون النحاس الأصفر بالذهب والفضة وكذلك النحاس الأحمر حسب الطريقة العربية.



قاعة السفراء في قصر الحمراء



الفصل الخامس

كيف حكم الفاطميون المغرب؟...

في أثناء وجود الفاطميين في تونس «أفريقيا» تمكّنت قواتهم من احتلال تاهرت وسجلماسة، فساعدهم ذلك على بسط سيطرتهم على التجارة المغربية، لما لهاتين المدينتين من شهرة كبيرة اكتسبتها أسواقهما لموقعها على طريق القوافل التجارية القادمة من الصحراء المغربية والشرق. وفي الوقت نفسه كانت الأندلس تسيطر على تجارة الذهب الصحراوي ومناجم الصحراء، حيث كان الذهب يسك نقوداً في سجلماسة كما يسك في اغمات المراكشية ومدينة فاس المغربية وكانت جميع هذه المدن ما تزال خاضعة لحكم الأدارسة وحلفائهم الزناتيين وكان الخلاف بين الصنهاجيين حلفاء الفاطميين والزناتيين حلفاء الأدارسة قديماً ومتوارثاً، لذلك تمكّنت زناتة من السيطرة على ممرتازة في المغرب الغربي، وهي مؤلفة من ثلاث قبائل هي مكناسة والبغرانيين والمغراويين.

الصراع القبلي المدمّر

كان أوّل من وصل من قبيلة مكناسة زعيمها مصالي بن حبوس منطلقاً

من تاهرت سنة ٩١٧م ـ٣٠٥هـ. فهزم يحيى الرابع الإدريسي وعيّن موسى بن أبي العافية والياً على الشمال المراكشي، أي بين الريف والوادي البورقراق. دون التعرض الى المدراريين في سجلماسة.

ومع ذلك فلم يتمكّن جيش مصالي بن حبوس من الإجهاز نهائياً على دولة الأدارسة، ولكنه نجح في طردهم من مدينة تلمسان، ومن مرافىء البحر الأبيض المتوسط. في حين عجز الأدارسة عن إعادة الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن ادريس «٩٢٠م ـ٣١٠هـ» الى الحكم بعد إسقاط يحيى الرابع الأدريسي، ولكن رجال قبيلة مغراوة وكانوا في ساقة مكناسة ثاروا مدفوعين بمصالحهم الشخصية وبدسائس الأمويين الأندلسيين فقتلوا مصالي بن حبوس. وعندئذٍ هرع الفاطميون بجيش يقوده ابن المهدي «أبو القاسم» فطارد المغراويين وطردهم من بلادهم ثم زحف على تلمسان «٩٢٧ـ٩٢٨».

موسى بن أبي العافية

ولكن موسى بن أبي العافية المقرّب من الأندلسيين كان قد انقلب على التحالف، فصارت مكناسة تقاتل لحساب الفاطميين ابتداءً من عام ٩٢٩م. وفي عام ٩٣١ تمت القطيعة.

وبأمر من الخليفة الفاطمي انطلقت قبيلة مكناسة بقيادة حميد بن يسليطان حفيد مصالي بن حبوس لقتال موسى بن أبي العافية، فطردوه من فاس، ولكن عبيد الله الفاطمي مات سنة ٩٣٤هـ فعاد موسى بن أبي العافية واستردّ فاس وعادت قبيلة مغراوة الى وسط المغرب.

فجهّزت على عجل حملة بقيادة ميسور الخصي سنة ٩٣٥م يعزّزها تحالف مع الأدارسة الذين عيّنوا القاسم بن جنون بن محمد بن القاسم بن

إدريس والياً وليس إماماً.

وعاد موسى بن أبي العافية فاحتل الشمال المراكشي وطرد الأدارسة، وفي الوقت نفسه استقلت قبيلة مكناسة في تاهرت.

وبعد سقوط أبي يزيد بن زيري بن مناد عاد وأرسل الى الغرب جيشاً قوياً استرد به تاهرت سنة ٩٤٧م وأخضع قبيلتي مغراوة والأفرانيين.

ولكن الفاطميين أرسلوا في هذه المرة جوهر الصقلي على رأس جيش كثيف فاسترد فاس وسجلماسة سنة ٩٥٨ـ٩٦٠ وبعد ذلك عاد جوهر ليكون في ركاب الفاطميين، قائداً من أجل احتلال مصر. . فظفر بها.

وبعد اثنتي عشرة سنة تمكّن بلكين بن زيري سنة ٩٧٠ من سحق قبيلة مغراوة وقبيلة الأفرانيين سحقاً تاماً ونهائياً، فانضمّت قبيلة مكناسة الى الأدارسة.

التضامن الزناتي الصنهاجي

هذا الصراع المتواصل يدل على أن الفاطميين استعانوا بصنهاجة للوقوف في وجه قبائل زناتة التي رفضت الخضوع الى الفاطميين هذا مع العلم بأن معظم صنهاجة ومثلها زناتة ظلّ على المذهب السنّي. ولكن المسألة تتعلّق بالمصالح. وقد فضلت صنهاجة ألفاطميين لأنهم الأقوى ولأنهم يدفعون. . دون توقّف.

ولكن هذا الصراع الدموي أضرّ بالصنهاجيين والزناتيين كما أضرّ بمصالح بلادهم التجارية ولم يستفد منه الفاطميون الذين كانوا يأملون بالاستيلاء على المدن المحورية التجارية والشواطىء المغربية أن يملؤوا خزائنهم بالأموال ـ التي ستساعدهم على اقتحام المشرق والقضاء على

الدولة العباسية.

إذن فالحرب كانت تدور في أفق المصالح الخاصة أكثر مما هي قبليّة بين صنهاجة وزناتة.

وعندما تمكّن زيري بن مناد من إنقاذ المصالح الفاطمية من أبي يزيد سمح له الخليفة القاسم بأن يؤسس لنفسه عاصمة اقليمية في عشير، وبذلك تمكّن من إعادة تعمير الجزائر وميليانا وميديا.

ثمّ سَكّ نقودا جديدة باسمه كنائب حقيقي على ثغور أفريقيا، ولما توفيَ المعز الفاطمي سنة ٩٧٢ استقرّ بلكين بن زيري في المنصورية العاصمة الداخلية التي فضلها الفاطميون على القيروان المعادية لهم. وترك زيري بن بلكين لابنه حماد منطقة عشير. وفي عام ٩٧٨ أعيدت اليه منطقة طرابلس من قبل الخليفة الفاطمي العزيز في القاهرة.

واندلعت ثورة قبل عهد باديس ٩٩٦ـ١٠١٦ الذي صار يعمل من أجل الاستقلال الذاتي ولكنه لم يتحوّل عن الفاطميين الى العباسيين..

الزيريون وبنو حماد

وفي مرافىء نوميديا القديمة «الجزائر» ترك الزيريون منطقة نفوذهم القديمة الى أولاد عمّهم حماد بن بلكين بن زيري، فأعلنوا استقلالهم، واختار حمّاد القلعة عاصمة له سنة ١٠٠٧ـ١٠٠٨، وهي الواقعة على سفح جبل «معديد» وأسكنها أهالي مصيلة التي أخليت بالقوة.

وعندما سميَ باديس الزيري عام ١٠١٤ ابنه المنصور وليّاً للعهد وأقطعة قسنطينة في الجزائر ـ التي كانت جزءاً من منطقة نفوذ حماد، ثار هذا وعصى وقطع علاقته بالسلطة الفاطمية واعترف بالخليفة العباسي فأسرع

باديس وحاصر القلعة. وهو يأمل أن تصله الإمدادات من القاهرة، ولكن الفاطميين أداروا ظهورهم لشمال أفريقيا ثم توفيَ باديس وولده في عام ١٠١٧.

في غضون هذا الصراع القبلي الذي أثاره الفاطميون في شمالي أفريقيا وأدى الى كوارث فظيعة في المغرب كان الحكم الثاني الخليفة الأندلسي يراقب ذلك الصراع عن كثب مدركاً مقاصد الفاطميين وغايتهم وطمعهم باحتلال الأندلس.

لذلك أرسل الحكم الثاني «٩٦١ـ٩٧٦» قائده غالب عام ٩٧٣ الى المغرب فأخضع فاس، وضرب الحصار على (قلعة النسر) التي كان الأدارسة معتصمين بها لمناعتها ولكن الحسن بن جنون «وهو القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس» استسلم في نهاية المطاف وباستسلامه نُفيَ ما تبقّى من الأدارسة.

عندئذٍ، قام بلكين بن زيري بهجوم مضاد عام ٩٧٩ واحتل فاس من جديد، ثم انطلق الى محاربة قبيلة البارغواتا ـ وفجأة ظهر مرة أخرى الحسن بن جنون، الذي قيل بأنه رحل إلى المشرق، فدخل فاس.

الأندلسيون يجددون هجومهم على المغرب

وفي عام ٩٨٤ مات بلكين وجدد الأندلسيون هجومهم على المغرب بقيادة أبو الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر ـ ابن عم الحاجب المنصور بن أبي عامر فاحتلوا عاصمة الشمال. وتخلّصوا من الحسن بن جنون الإدريسي.

ثم حكم شمال المغرب زيري بن عطية سنة ٩٨٨ فأرسل الأمويون في الأندلس حملة لتأديبه، ولكن ابنه المعز بن زيري عاد وحكم شمال المغرب

معترفاً بسيادة الأندلسيين.

هذه الحروب المتواصلة أوقعت أضراراً بالغة بمحور سجلماسة ـ تاهرت تلمسان ـ وأثر على تجارة المغرب، وخلف في المنطقة جواً من الاعتزال القريب من البداوة والتنسك.

وأصبحت قبيلة مغراوة ـ جنوداً مرتزقة للأندلسيين، فإذا لم يستعن بهم الأندلسيون في حروبهم تفشّت في أوساطهم المجاعة.

وفي أثناء هذا الصراع نجح آخر أئمّة الأدارسة بالاحتفاظ بمدنهم وأسواقهم في تامادالت وأغلي وماسا بمساعدة الدرئيين من قبيلة الباراغوا.

وبعد أن سقطت مدينة قرطبة استعادت الباراغوا مدينة سبتة، وعندئذٍ ظهرت قبائل الماراغوا. والافرانيين، ولكن الماراغوا بزعامة دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي، احتفظوا بسيادتهم على مدينة فاس عام ١٠٥٤، كما سيطروا على حاووز حول أغمات وسجلماسة وحكم في تلمسان ابن يعلى وفي سالي وتادلا وهكذا ثبّت الزناتيون أقدامهم في المغرب الغربي. كما قبضوا على محاور التجارة الممتدة بين سجلماسة وأغمات وفاس ووجدة.

البكري يصف الحالة الاقتصادية

وقد وصف الحالة الاقتصادية في هذه المنطقة البكري الأندلسي المتوفي عام ١٠٩١ فقال: بأن المنطقة الواقعة بين فاس ووجدة شهدت ازدحاماً كثيفاً بالسكان وتأميناً لمواصلاتها مع موانىء سبتة وطنجة وباديس. وميلار ونكور[1]، حيث تكثر الأشجار المثمرة وفي مقدمتها أشجار الكمثرى والرمان والكرمة، وشاهد أيضاً مروجاً خضراء بين تطوان وفاس

(١) نكور من بلدان المغرب تقع بين تمسامان والحسيمة.

حيث كان يزرع القطن وتحدث عن تربية الخيول في هذه المناطق، كما تحدّث عن منطقة الجنوب الممتدة على سفوح الأطلس الداخلية ومدنها الرئيسية ماسا وأغلي ووادي درعة فقال أنها كثيرة البساتين، وفيها أشجار اللوز البري الذي يستخدج منه الزيت، كما شاهد في شمال الأطلسي الكبيرة حول أغمات ونفيس بساتين للأشجار المثمرة خاصة شجر التفاح وقصب السكر، ووصف سيجيلماسة بأنها غنية بمناجم المعادن، كما هي غنية بغابات النخيل.

عود على بدء

بعد انتقال الفاطميين الى القاهرة عاصمتهم الجديدة، ظلّت الولايات الأفريقية تابعة لمصر. ولكن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أهمل شمال أفريقيا لانشغاله في تنظيم إدارة حكمه في القاهرة، واغتنم الولاة الفاطميون الفرصة فراحوا يعملون لحسابهم الخاص فانتشر الفساد في شمال أفريقيا وفي مدينة طرابلس بصورة خاصة، وكان من أشهر ولاة طرابلس عبد الله الكتامي الذي شملت ولايته طرابلس وبرقة حتى أجدابية «٣٦٧ هجرية» وفلفول بن خزرون عام ٣٩١هـ. الذي استقل بولاية طرابلس، ومحمد بن الحسن «٤٠٥هـ» وفي عهده انتشر مذهب الإمام مالك في بلاد المغرب.

وكان على ولاية أفريقيا المعز بن باديس عامل الفاطميين ولكنه بعد أن رأى عرش الخلافة ينتقل الى القاهرة وجدها مناسبة ملائمة للانقلاب على الفاطميين فثار وتمرّد عليهم، فلقيت ثورته أرضاً خصيبة بعد أن ذاق الناس ألوان العذاب على يد الفاطميين، فخطب للخليفة العباسي في بغداد فازداد التفاف الجماهير حوله واتّسع المجال أمامهم للفتك بمن تبقّى من الشيعة في

البلاد.

ولما بلغت أنباء ثورة المعز بن باديس الى القاهرة ثار الخليفة وهاج وماج واستدعى وزيره أبا محمد اليازوري[1]، وطلب اليه أن يجد مخرجاً للأزمة الجديدة، فأشار عليه باصطناع قبائل بني هلال وبني سليم وبني رياح التي نزلت مصر قادمة من نجد، على أن يولي مشايخهم ولاية أفريقيا فيصيب بحجر واحد هدفين معاً: التخلص من وجودهم في الأراضي المصرية ومن المعز بن باديس، فاستحسن الخليفة رأيه وعمل به على الفور، فأوكل الى وزيره اليازوري أمر مفاوضتهم. فانطلق اليازوري وقابل مشايخهم وراح يفاوضهم ويغريهم بالهبات من دنانير وأبعرة حتى قبلوا.. فقال لهم عندئذٍ كلمته المشهورة: «أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجي».

الزحف الهلالي على المغرب

وزحفت قبائل بني هلال وحلفائهم كالجراد الساحق على برقة فاقتحمت خصوبتها وأتلفت مزارعها وأكلت الأخضر واليابس. ثم أتمّوا زحفهم نحو طرابلس. فتصدّى لهم المعز بن باديس على رأس ثلاثين ألف مقاتل جميعهم من البربر ولكنهم هزموه فعاد الى القيروان، ليجمع أشتات قواته ثم كرّ عليهم مرة أخرى فسحقوا قواته.

وفي عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م سقطت القيروان تحت أقدامهم (ولنا عودة قريبة اليهم فيما بعد) وفرّ المعز بن باديس الى المهدية حيث أقام هناك إمارة جديدة واستقل عائد بن أبي الغيث بإمارة تونس وفي سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م توفيَ المعز بن باديس فتولّى مكانه ابنه تميم بن العز فحارب الهلاليين ولكنهم هزموه.

---

(١) من قرية يازور التي تبعد حوالي خمسين كلم شرقي مدينة يافا في فلسطين.

محنة طرابلس ونواحيها

ويبدو أن الفاطميين بعثوا بقوات تركية، أو أن تلك القوات جاءت من تلقاء نفسها وكان يقودها المدعو «شاهملك» فاستولى على طرابلس عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م فثار تميم بن المعز فأرسل جنوده البربر وحاصر طرابلس ثم فتحها عنوة وقبض على شاهملك وأخذه أسيراً، ويحكى عن تميم بن المعز بأنه كان شجاعاً في الحرب ومحباً للعفو عند المقدرة وقد توفيَ عام ٥٠١هـ/ ١١٠٧م وبوفاته ضعفت أسرة بني خزرون الصنهاجية. حتى أن سكان طرابلس رفضوا دفع الجباية لخلفه محمد بن خزرون بن خليفة، وانحلّ نظام الحكم فتشكّلت حكومات عديدة وأعلنت استقلالها وعيّنت عليها بعضاً من شيوخها، ولكن الخلافات ما لبثت أن استفحلت بين الحكام المشايخ فوقعت بينهم الحروب الماحقة فهلك العديد من سكان طرابلس، ثم حدثت مجاعة في البلاد بسبب انقراض الزرع الذي أكلته القبائل الهلالية ومواشيها. فاضطرّ العديد من سكان طرابلس الى هجرها.

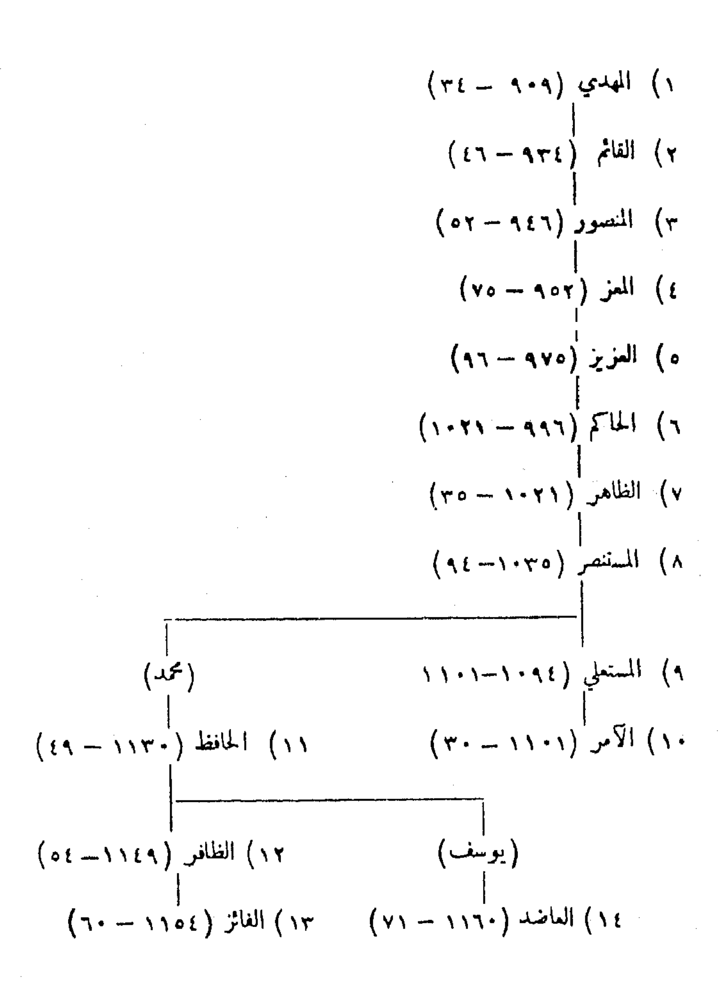
وفي هذه الأثناء كان روجر الثاني النورماندي الصقلي يستعد لغزو طرابلس فأرسل أسطولاً بقيادة جورج الإنطاكي[1] فحاصر طرابلس ثلاثة أيام ثم وضعت السلالم على أسوارها فتسلّقها جنوده وهكذا احتلت المدينة البائسة.

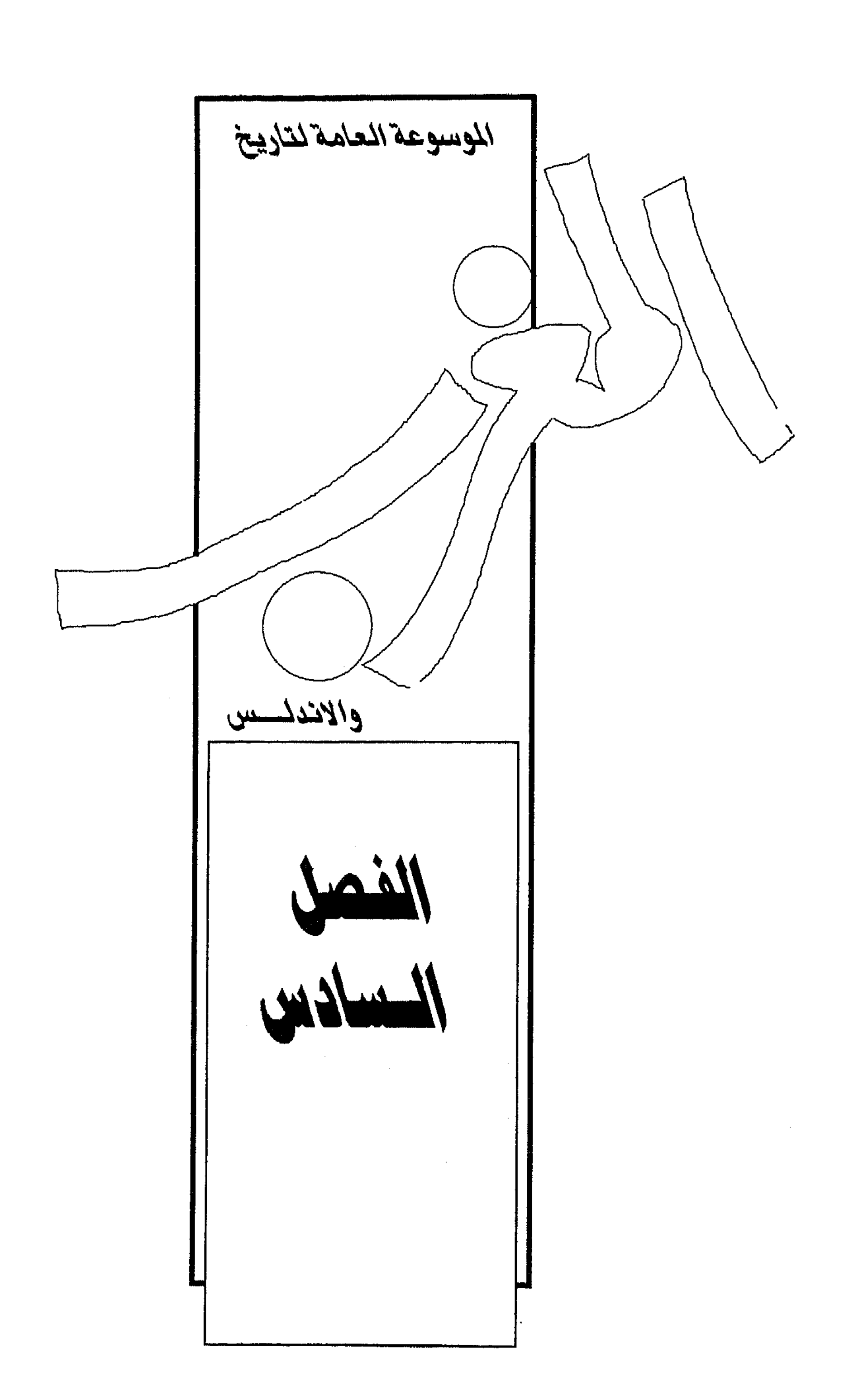
ثم تصالح الصقليون مع الطرابلسيين وسمحوا لهم بانتخاب والٍ عليهم فاختاروا يحيى بن مبروك والياً. فاستتبّ الأمن ورحل الأسطول الصقلي بعد أن ترك حامية صغيرة في المدينة.

---

(١) جورج الأنطاكي: ويعرف أيضاً باسم جورج ميكائيل.

نسب الخلفاء الفاطميين





الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الســادس

حكم الطوائف في الأندلس

ليس ثمة من شك في أن الفاطميين ساهموا مساهمة كبرى في تقويض صرح الدولة الأموية في الأندلس فسقطت قرطبة في زمنين متقاربين: ١٠٠٨و١٠١٦م، ٣٩٩ـ٤٠٧ هجرية فالفاطميون اجتذبوها جذباً الى الحروب القبلية في المغرب، لذلك أسرع الأمويون الى خوض تلك الحروب لئلا تنتقل الى الأندلس، وبهذه الوسيلة استطاع الفاطميون انهاك الجيوش الأموية الأندلسية واضعافها عن مقاومة القوط الأسبان الذين كانوا يتربصون بها ويستعدون للانقضاض على الحكم العربي عندما تلوح الفرص المناسبة. يضاف الى ذلك تفكك الحكم الداخلي في الأندلس وتربصّ المتربّصين من الوزراء للانقضاض على أسيادهم آخر خلفاء الأمويين، وقد أسهمت بعض نساء الخلفاء الأمويين ومنهن «صُبُح» أم الخليفة هشام ابن زوجها الحكم، فاستبدّ بشؤون الدولة وزير الحكم المتوفي، وهو محمد بن أبي عامر، وكانت «صُبُح» تهواه، في حين كان ابنها هشام صغير السن قاصراً.

محمد بن أبي عامر والدولة العامرية

فسكَّ الوزير محمد بن أبي عامر النقود بلقبه الجديد الحاجب المنصور

ودعي له على المنابر. ولولا خوفه من المسلمين لخلع الغلام هشاماً ونصب نفسه مكانه خليفة للمسلمين.

وكان الحاجب المنصور ظالماً مستبدّاً وحقوداً، بطش بأصدقائه قبل أعدائه، وسمّيت دولته المنقبلة على الدولة الأموية، باسم الدولة العامرية. ولما مات عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م خلفه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقّب بالظافر. فسار على سنّة والده في الحجر على الخليفة هشام فقضى مدة حكمه يتخبّط بالسياسة الفاسدة وقتال خصومه الى أن مات عام ٣٩٩هـ/ ١٠٨م وقيل عام ٣٩٨ بعد أن حكم سبع سنوات، فخلفه أخوه عبد الرحمن الملقّب بالناصر لدين الله. وقال ابن خلدون «وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام، ثم ما لبث أن ضغط على هشام الشاب فحمله على أن يوليه عهده فأجابه الى ذلك، فأثار هذا التنازل ضغائن الأمويين وهم من المضريين وساءهم أن يتولّى العرش القرطبي اليمانيون فخلعوا هشاماً وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ولقبوه بالمهدي[1] وكان عبد الرحمن الملقّب بالناصر غائباً في بعض غزواته في بلاد الجلالقة. فلما علم بالانقلاب الجديد قفل عائداً، ولكن جنده ووجوه البربر تخلّوا عنه ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي. ثم قتل عبد الرحمن وقضى بموته على الدولة العامرية.

البربر يبايعون المستعين

ولما أساء محمد بن هشام التصرّف وأساء الى البربر بصورة خاصة تخلفوا عنه وبايعوا سليمان بن الحكم الملقّب بالمستعين، فنشب القتال بين

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ٤/ ٦٣.

المهدي والمستعين، وراح المهدي يستنجد بالقوط الاسبان ليساعدوه على المستعين، وكان ذلك ما يريده الاسبان، فأسرعوا الى نجدته وأعادوه الى عرشه. وكان ذلك حلقة من حلقات التدخل الاسباني في شؤون قرطبة، ومع ذلك فإن الغلبة الأخيرة كانت للمستعين فقبض البربر على زمام الحكم.. وهكذا دواليك.

الدولة الحمودية في قرطبة

في أعقاب هذه الخلافات جاء من المغرب على بن حمود والحموديون هم من الأدارسة وينسبون الى حمود بن ميمون بن حمود الذي يعود بنسبه الى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب. وعلى هذا فهو أوّل الملوك الشيعة في الأندلس فاستمال البربر الى جانبه فساعدوه على قلب المستعين وقتله وبويع له بقرطبة سنة ٤٠٧هـ/ وتلقّب بالناصر لدين الله واستمر مع أهل قرطبة مدة وكان صارماً في حكمه يقيم الحدود بنفسه فقمع البربر وقهرهم فانقلبوا عليه وندموا على تأييده وخافوا عواقب تمكّنه وقدرته ودسّوا عليه بعض الصقالبة فقتلوه غيلة في حمام قصره سنة ٤٠٨هـ/ فتولّى بعده أخوه القاسم وتلقّب بالمأمون، وبعد حين ثار سكان قرطبة على القاسم بن حمود وأعادوا الملك الى الأمويين ثم أعيد الملك ثانية الى الحموديين مع يحيى بن علي بن حمود ثم اضطرب الأمر بعد ذلك بين مدّ وجزر وظلّ ملك الحموديين يتقلّب بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء الى أن شملهم الزوال فدام حكمهم من سنة ٤٠٧ الى ٤٥٠هـ/ ١٠١٦ـ١٠٥٨م وتولّى الحكم في تلك الفترة ارستقراطيو قرطبة.

وقد أسفرت تلك الانقلابات والحروب عن قيام عهد الطوائف من العرب والبربر في الأندلس.

الدولة الزيرية في غرناطة

في غرناطة وفي عهد خلافة المرتضى قامت الدولة الزيرية وهي دولة بربرية تنتسب الى زاوي بن زيري وقد دام ملكها من سنة ١٠١٢ الى ١٠٩٠م/ ٤٠٣ـ٤٨٣هـ/ .

الدولة الهودية في سرقسطة

وقامت في سرقسطة الدولة العربية الهودية وهي من قبيلة جذامى فدام حكمها من سنة ١٠١٩ـ١١٤١ وأشهر ملوكها المقتدر بالله وإبنه المؤتمن وكان هذا الأخير عالماً في العلوم الرياضية وله فيها تآليف .

والمقتدر هذا ١٠٤٦م انضوى تحت لواء فرديناند الأول ملك قشتالة «قسطلة» اتقاءً لهجمات البوشكنس والأرغونيين الاسبان، فصار يدفع الجزية لملك قشتالة .

الدولة العامرية في بلنسية

وفي بلنسية قامت الدولة العامرية من سنة ١٠٢١ الى ١٠٨٥م/ ٤١٢ـ٤٧٨م وأمراؤها من موالي بني عامر القرطبيين .

الدولة العبادية في أشبيلية

وفي أشبيلية قامت الدولة العبَّادية بزعامة اسماعيل بن عباد اللخمي وهو من نسل النعمان بن المنذر وقد لعب بنو عباد دوراً هاماً في التحالف مع جيرانهم والانتقاض عليهم حتى أصبح أمير أشبيلية بدهائه وليس بشجاعته من أقوى ملوك الطوائف .

دولة بني الأفطس في بطليوس

واستولى على بطليوس سابور العامري وهو مولى الخليفة الحكم الثاني «المستنصر» وكان قد عهد بولاية ماردة الى عبد الله بن مسلمة بن الأفطس التجيبي وهو من قبيلة مكناسة البربرية وتولّى الحكم من بعده في بطليوس وما جاورها من أقاليم جنوب غربي الأندلس ابنه أبو بكر محمد الملقّب بالمظفر ثم خلفه أبنه عمر الملقّب بالمتوكّل ثم قتل مع ولديه الفضل والعباس عند ظهور يوسف بن تاشفين ملك المغرب وهو من المرابطين وهكذا تكون دولة بني الأفطس قد دامت من سنة ١٠٣٠ الى سنة ١٠٩٤م/ ٤٢٢ـ٤٨٧هـ.

دولة بني جهور في قرطبة

وفي قرطبة وبعد فرار هشام الثالث آخر خلفاء بني أمية استولىٰ أبو الحزم جمهور بن محمد بن جمهور على الحكم وهو من الأرستقراطيين في قرطبة، وقد تمكّن خلال حكمه من إنشاء حكم ارستقراطي قائم على التحالف مع الأسر الأرستقراطية في البلاد، ووصف بأنه كان مصلحاً ومجدداً، فأصلح النظام القضائي الذي انهارت قواعده في أواخر الدولة الأموية بسبب انتشار التجسّس والرشوات، وفي عهده نعم السكان بالسلام والرخاء فازدهرت العلوم والفنون كما ازدهرت التجارة والصناعة، حتى سمّيَ بأبي الأندلس والمدافع عن الدولة.

ولما توفي عام ١٠٤٣ خلفه ابنه الوليد محمد بن جهور وكان ضعيفاً مريضاً لم يقو على تحمّل أعباء الملك، فدارت بينه وبين حكّام طليطلة حروب ضروس كانت عاقبتها وبالاً عليه.

وكان فرديناند الأول ملك قشتاله وليون قد غزا طليطلة وأرغم ابن ذي النون على عقد هدنة مع قرطبة. وقد دامت دولة بني جهور من سنة «١٠٣٠

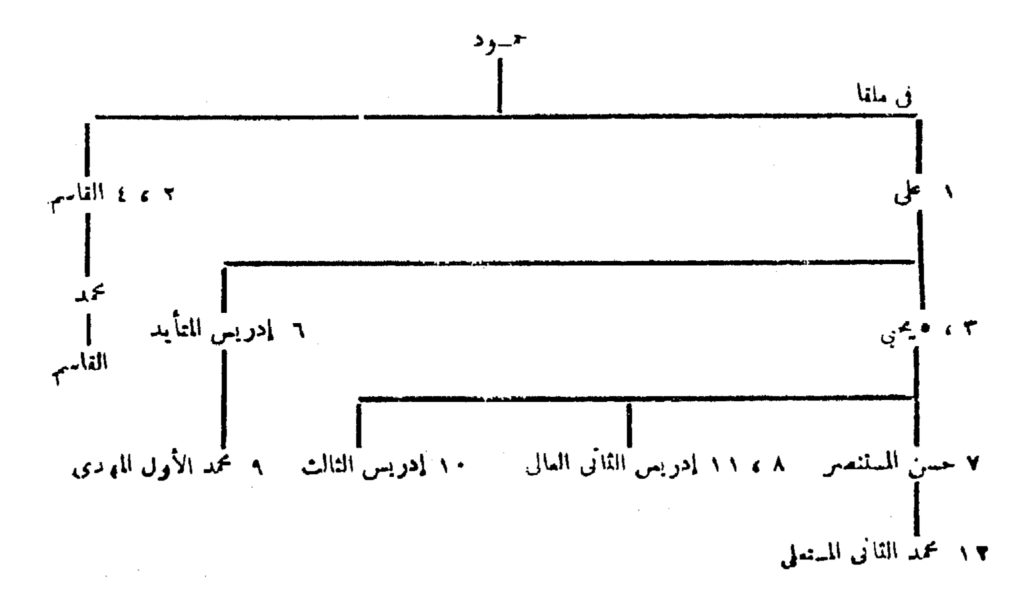
الى ١٠٦٨م/ ٤٢١ـ٤٦١هـ».

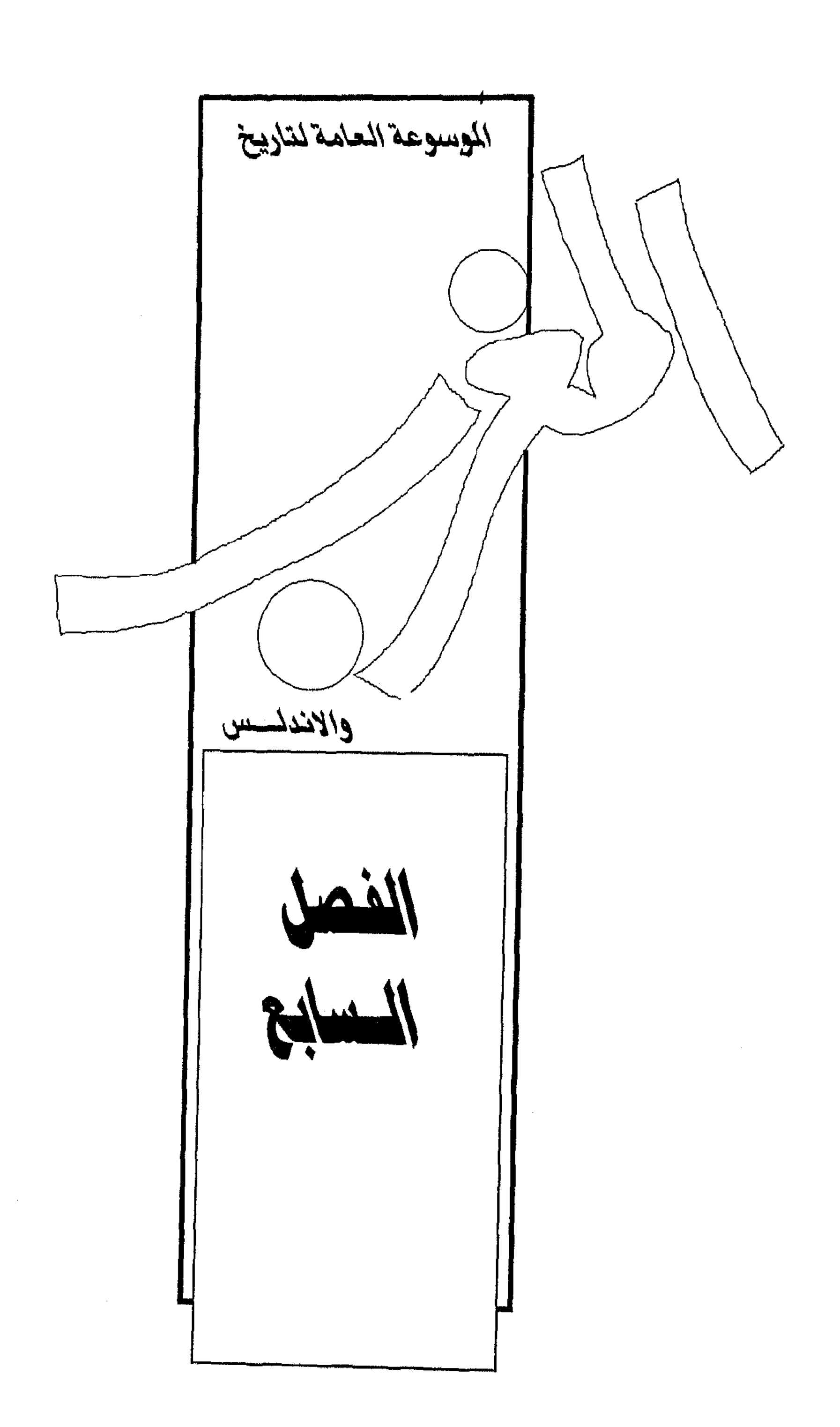
دولة بني ذي النون في طليطلة

وقامت في طليطلة دولة بني ذي النون، قال المؤرّخ الالماني يوسف أشباخ: «كانت طليطلة ـ في أواسط الأندلس ـ أقوى دولة اسلامية، ويقال بأن أوّل من حكمها بعد انهيار الدولة الأموية كان ابن يعيش. ثم حكمها اسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر من بني ذي النون وهم من الكنعانيين البربر ودامت دولتهم من سنة ١٠٣٥ الى ١٠٨٥/ ٤٢٧ـ٤٧٨هـ.

وهكذا نلاحظ أن معظم المقاطعات الأندلسية كان قد استولى عليها بعد زوال الحكم الأموي زعماء الكنعانيين البربر فاقتطعوا لأنفسهم إمارات: زيري في غرناطة والفيرا والمرية والمغراوا في الشمال وبنو عفران في جيان «Jean» . وبنو دمر في صيدونيا الأندلسية.

تسلسل نسب بني حمود




الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الســابع

قبائل بني هلال تجتاح أفريقيا

أما في المغرب فإن قبائل بني هلال التي أرسلها الفاطميون الى أفريقيا لمقاومة أعدائهم أصبح وجودها خطراً على الجميع يحسب حسابه كل حاكم أواسرلآ مغربية حاكمه في المغرب.

هذا مع العلم بأنهم نجحوا في السيطرة على بعض المناطق المغربية، كما انخرطت بعض قبائلهم في جيوش حكام المغرب أيضاً.

ولما تراخت السلطات الحاكمة في تونس قبل قيام عهد المرابطين أبيد جيش الزيريين في حيدران بين قابس وسفاقص، واستطاعت القيروان أن تصمد أمام جحافل الهلاليين ـ البالغ عددها ما يزيد على ٢٠٠ ألف هلالي من قبائل عربية شتى أبرزها بنو سليم وبنو رياح وبنو هلال ـ لغاية عام ١٠٥٧ ثم استولى عليها الهلاليون فنهبوها. تماماً كما كانوا يفعلون في عهود الجاهلية قبل الاسلام. . فوا حزناه على الحضارة العربية الاسلامية!

الاستيطان الهلالي في بلاد المغرب

وهكذا استسلم سكان تونس للهلاليين فأقام بنو خراسان في تونس

وبنوجامع في قابس وبنو مليل في سفاقص وبنو الورد في بنزرت.

ثم استقرّ بعض الهلاليين في قسنطينة الجزائرية، فبنى الناصر أحد أمراء الحماديين مدينة الناصرية وهي بوجي في الجزائر فأصبحت عاصمة للحماديين سنة ١١٠٤، وهكذا أصبح إقليم قسنطينة الجزائرية خاضعاً للهلاليين، وانطلقت قبائل معقل الهلالية نحو الغرب المغربي.. وصعد قسم منهم نحو الشمال، وقسم آخر نحو تافيلالت.

أما آخر أمراء الحماديين في الجزائر فقد اعتمدوا على قبائل زناتة في اورانيا «وهران» لصدّ هجمات الهلاليين في تغريبتهم نحو الجهة الغربية في المغرب.

وقد كتب عن «التغريبة الهلالية» كل من ابن خلدون وابن شرف وابن الأدهري ورواها ج. مارسية واستخدمها غوتية وغيره من بعدهم.

وهكذا امتزج الهلاليون بسكان ليبيا وتونس والمغرب، وقد اضطرت بعض قبائل المغرب الى الاندفاع نحو المراعي مثل الزناتية في المغرب الأوسط. فرحل بعضهم نحو الغرب المغربي اي الى ما وراء (المولويّة) وبذلك تكون الحياة قد دخلها طابع جديد مؤثر.. القبائل ترحل في طلب المراعي، وتهرباً من الهلاليين والمدن الليبية والتونسية قلّ عدد سكانها بسبب الحروب والقتل والسلب والنهب، وبدأت الحياة تستيقظ من جديد في جنوب تونس حيث المراعي الزراعية وفي منطقة التلّ في شرقي مراكش، وتأثّرت من غزوة الهلاليين القيروان والقلعة وتاهرت وسجلماسة بعد أن شهدت ازدهاراً كثيراً في عصر الفتوح العربية.

وفرض الهلاليون على سكان ليبيا وتونس والجزائر وأجزاء من المغرب الجزية من محاصيل القمح والتمور والزيتون، وأصبحت التجارة

لحد ما خاضعة للتسلط الهلالي، وصارت المدن تدفع الأتاوات للهلاليين لضمان حمايتها.

ومع مرور الزمن أصبح الهلاليون يمتلكون مزارع كبيرة ثم صاروا اقطاعيين وتجاراً وتخلّصوا رويداً من بداوتهم ولكنهم لم يعتنقوا الأنظمة الحضارية الا بعد وقت طويل أي عندما بدأ الأمن يستتبّ في ربوع المغرب. وبعد عودة النظام والحكم الى المغرب الكبير.

وكنا قد ذكرنا أن الدولة الفاطمية تأسّست في منطقة تونس بمساعدة قبيلة صنهاجة الكنعانية البربرية فهم الذين وفّروا الحماية للدعاة الفاطميين وسيوفهم ساعدتهم على تأسيس دولتهم في «المهدية».

الصحراء المغربية موطن قبائل صنهاجة

كانت قبائل صنهاجة كبيرة جداً ومنتشرة انتشاراً واسعاً في تونس والجزائر والصحراء المغربية.

وهذه الصحراء المغربية ظلّت وطناً لقبائل صنهاجة الموغلة بالاسفار والرحلات في أفريقيا الوسطى، وقد أهّلتهم أسفارهم ورحلاتهم تلك على ظهور الإبل لأن يصبحوا أسياد الأعمال التجارية بين المغرب وصحرائه المغربية وأواسط القارة الأفريقية.

وعلى هذا الأساس تشكل اتحاد تجاري صنهاجي يشمل فيما يشمل منطقة غانا وأسمها الأصلي «كانا» حيث ابتنوا لأنفسهم عاصمة جديدة هي أوداغوست ومارسوا خلال القرنين التاسع والعاشر أعمالهم التجارية في جنوب الصحراء المغربية ممارسة تامة، وفي ذلك التاريخ البعيد لم يكن بين المغرب وأواسط أفريقيا أسوار وحدود لذلك اتّسع المجال أمام القبائل الصنهاجية للعمل والتجارة على نطاق واسع.

وقبل أن ننتقل الى دولة المرابطين الصنهاجية يفرض علينا الواجب التاريخي والأدبي أن نسجل الكلمة التالية :

لقد اعتنق الكنعانيون سكان أفريقيا الشمالية الاسلام من الحدود المصرية الى المحيط الأطلنطي وساعدوا على نشره في الأندلس وأواسط أفريقيا تقديساً للدين الاسلامي وعقيدته السمحاء.

ويعود الفضل في اعتناقهم للدين الاسلامي الى الفاتحين الأوائل وأبرزهم تديّناً وبطولة عقبة بن نافع وقد شارك في ذلك كبار الأئمة المسلمين من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر بن العاص، وعبد الله بن الزبير وغيرهم ممن رافقوا الفاتحين الأوائل.

الخوارج في المغرب

وبعد أن انتشر الاسلام في الربوع الأفريقية المغربية، ظهر فجأة أبو الخطاب الأباضي في بعض نواحي طرابلس بحركة خارجية تدعو الى الانفصال عن الدولة العباسية، وراح يصول ويجول بمعتقدات خارجية بدأت في عهد التحكيم بين الامام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

وكان الإباضيون المنتسبون الى عبد الله بن أباض ـ وهو من أهل النصف الثاني من القرن الأول للهجرة ـ من الخارجين على «نتيجة التحكيم، ومع ذلك فقد كانوا أكثر تساهلاً.

جاء هؤلاء الخوارج «حسب تسميتهم» الى شمالي المغرب ليتحدّثوا بالتحكيم وتكفير الذين رضوا بالتحكيم وقبلوا به وقالوا «لا حكم إلا لله» وراحوا يكفرون كل من لا يرىٰ رأيهم وأوغلوا في الجدل الديني والتأويل واندست بينهم عناصر غريبة ثم انقسموا طوائف تراوحت آراؤها بين

الاعتدال والغلوّ.

ثم ما شأن هؤلاء الكنعانيين البربر هنا فيما اختلف عليه العرب هناك بعد مقتل عثمان بن عفان وما هي علاقتهم بالخلافات الكثيرة المتعددة الأسباب والأهداف التي وقعت بين المسلمين في المشرق بعد التحكيم وطموح معاوية بن أبي سفيان الى الخلافة واستبداده بالحكم ثم استبداد مروان بن الحكم من بعده والتطاحن المضري ـ اليمني الذي شقّ العرب والمسلمين.

هؤلاء البربر الأماجد آمنوا بأن لا إلّه إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله واتّخذوا من القرآن هدى ونوراً لارشادهم في الحياة الدنيا الى كل ما من شأنه أن يقرّب الناس الى خالقهم والى مناهج الحق واليقين ونبذ الضلالة والبدع.

ولكن الخوارج كان لهم رأي آخر قائم على الضلال والفساد وحب السيطرة والتفرّد بالحكم.

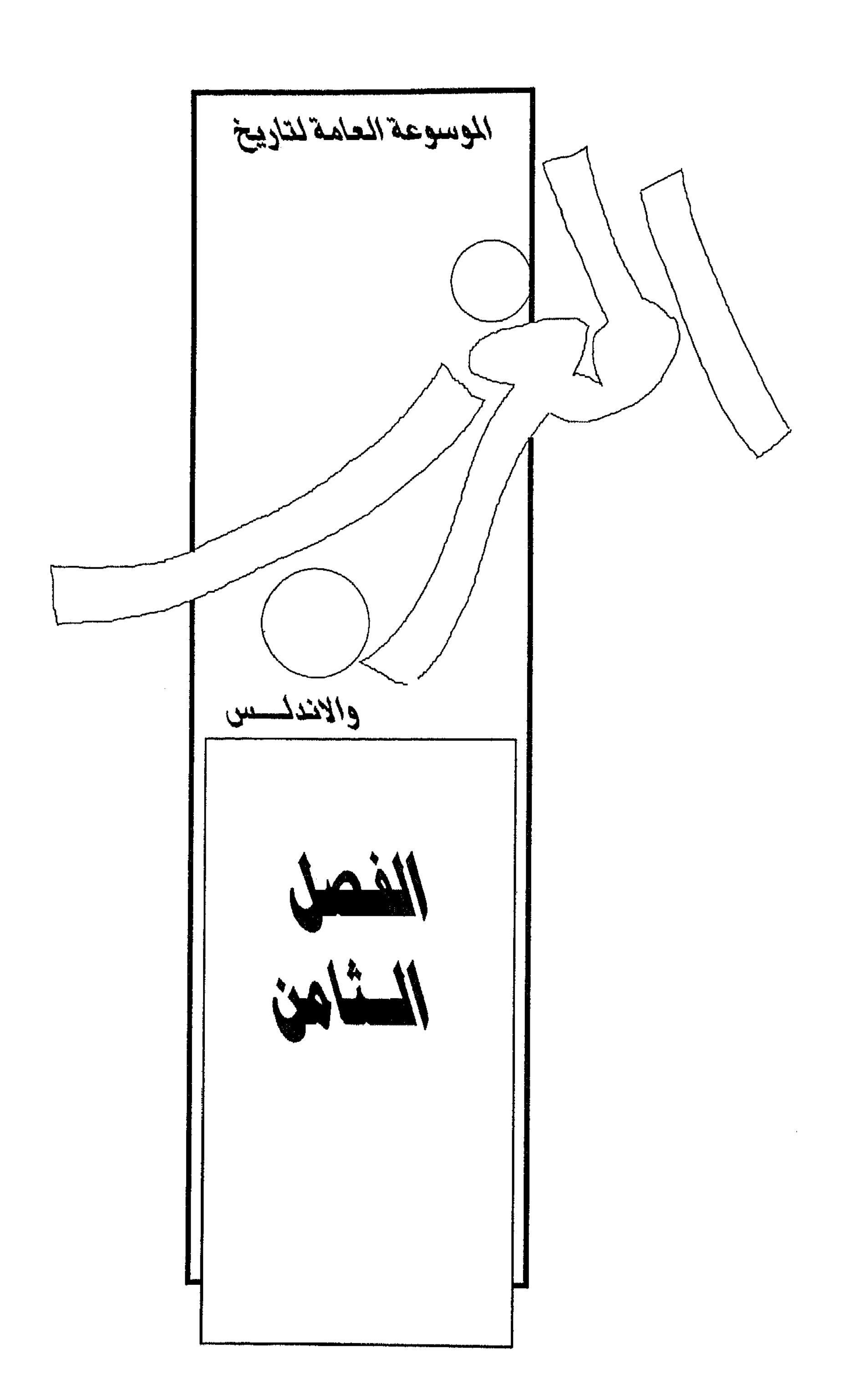
فلما جاء ادريس بن عبد الله وهو من أحفاد الحسن سبط النبي من فاطمة بنت الرسول، نصبه المغاربة إماماً عليهم وخليفة بعد أن توسّموا فيه الهداية والصلاح، فكان عند حسن ظنّهم، فلم يكن في حكمه مذهبياً متعصباً ولم يمنع الناس عن ممارسة مذاهبهم، ولا أمرهم بأن يعتنقوا مذهبه ولا حدثهم عن التحكيم وبقية الحكاية الطويلة.

وفجأة ظهرت الشيعة في بلاد المغرب وأقام أبو عبد الله الشيعي دولة التشيع فيها بعد أن قضى على الخوارج الصفرية والأباضية وأزال دولة الأغالبة من الوجود ولكن سرعان ما انقلب عليه عبيد الله المهدي فاغتاله وأصحابه في مجزرة رهيبة ونقل البلاد الى الحكم العبيدي الفاطمي. وراح

العبيديون بعد ذلك ينشرون الذهب والفضة لكي يستميلوا اليهم البربر، فأحدثوا بذلك بلبلة في أذهان القوم وتشويشاً، واحتار الناس ماذا يفعلون.. ومن يصدّقون..

ومع ذلك فقد سايروا الأمور فلم يغيّروا معتقداتهم وظلّوا متمسّكين بشهادة أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله. وقبضوا الذهب والفضة وحاربوا مع الشيعة، وشاركوا في نشر دعوتهم الى آخر القضية.

ولما رأى الفاطميون أن القوم يفضلون قبض الذهب والفضة على المسائل المذهبية التي لا تعنيهم شرعوا ببذر بذور التفرقة وضرب القبائل بعضها ببعض وبذلك نجحوا كما نجحوا بتقويض الدولة الإدريسية، مع أنها من سبط الحسن بن علي ولكن الفاطميين الذين انتسبوا الى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب لم يراعوا لما بين الحسن والحسين من أخوة حقيقية بل كان كل همهم أن يقضوا على دولة الأدارسة ليحلّوا محلّها.. كوسيلة ضرورية للوصول الى الأندلس لتقويض الدولة الأموية الثانية هناك.. فلما عجزوا رحلوا واتّجهوا نحو مصر فاحتلّوها واحتلّوا فلسطين ودمشق ثم بعد ذلك انقرضوا.



الفصل الثامن

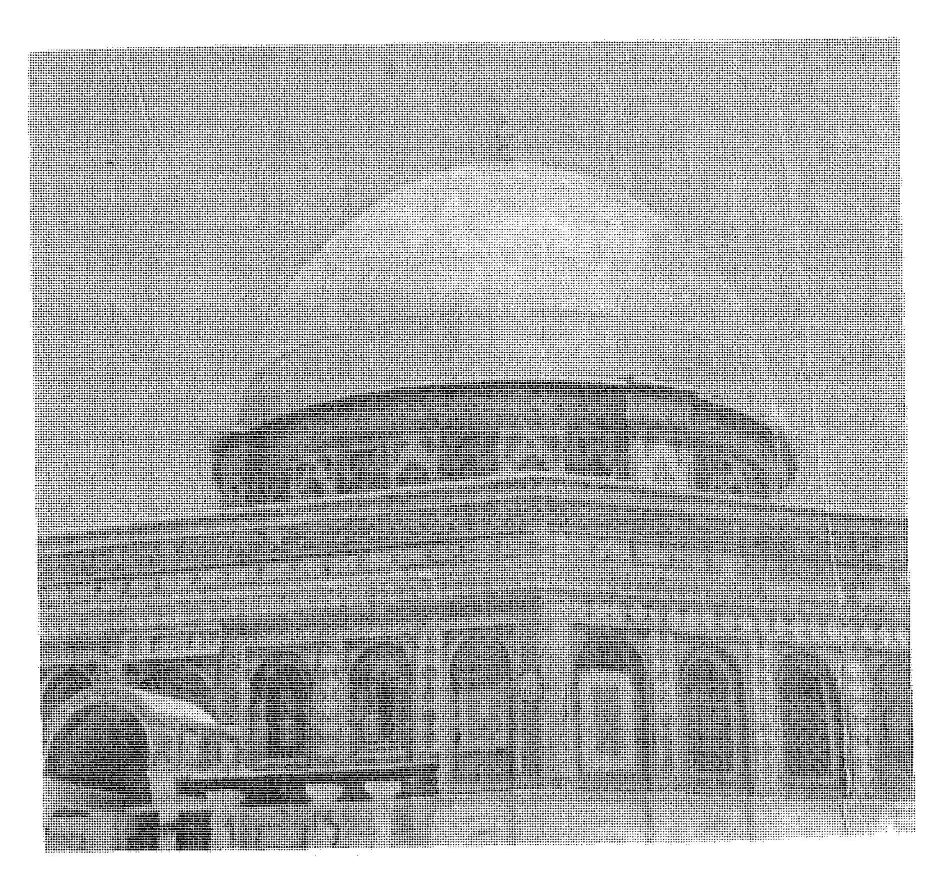
أسباب انهيار الدولة الفاطمية

بالاضافة الى ما ذكرناه سابقاً نودّ أن نشير الى ما يلي: إنّه يعزى سبب التداعي والانحدار الى أن الخليفة نزار العزيز عمد الى تقليد الخلفاء العباسيين في عهد هارون الرشيد، فراح ينفق ويبذر عن سعة ويغدق الأموال دون حساب على جنوده الأتراك والمرتزقة من الجنود الزنوج. فدبّ التنافس بين الأتراك والزنوج وغيرهم من المرتزقة، وعقب ذلك تمرّد الجنود من كل جنس على قادتهم وقوادهم ثم صاروا يتحرّشون بحرس الخليفة وهم من المغاربة البربر، ثم ما لبث الجنود الشراكسة والترك والمماليك الأرقاء أن عمدوا الى اغتصاب السيادة العليا فراحوا ينشؤون دويلات صغيرة مستقلة.

ثم جاءت الطامة الكبرى في عهد أبي علي منصور الحاكم بأمر الله ٩٩٦ـ١٠٢١ وكان قد ولّي الخلافة وعمره أحد عشر سنة كما ذكرنا. وقد وصف المؤرّخون حكمه بالشدة والقسوة وسفك الدماء، فقتل عدداً من وزرائه ومنهم المسيحيون، وحمل حملة شعواء على المسيحيين في مصر وفلسطين وأجزاء من سوريا، ثم أمر بهدم الكنائس، وكان منها كنيسة القيامة في القدس عام ١٠٠٩م/ ٤٠٠هـ وارتكب كل الأعمال الشريرة الفاسدة التي

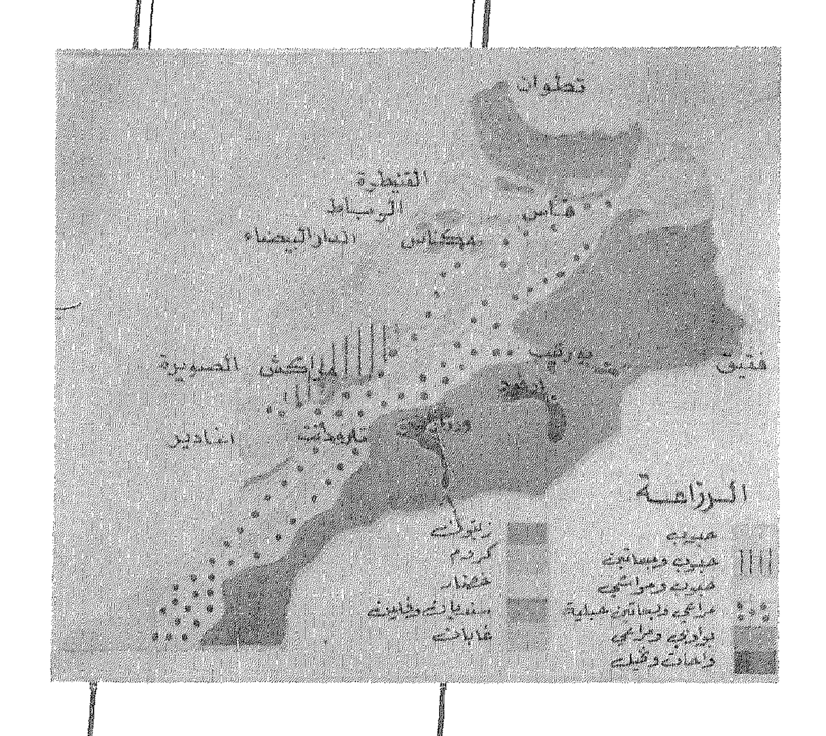
كان من أسبابها اندلاع نيران الحروب الصليبية ونزول الصليبيين في سوريا «انطاكية» وفلسطين وما نتج عنها من ذبح سكان القدس نساء ورجالاً كباراً وصغاراً في المسجد الأقصى في القدس المباركة .

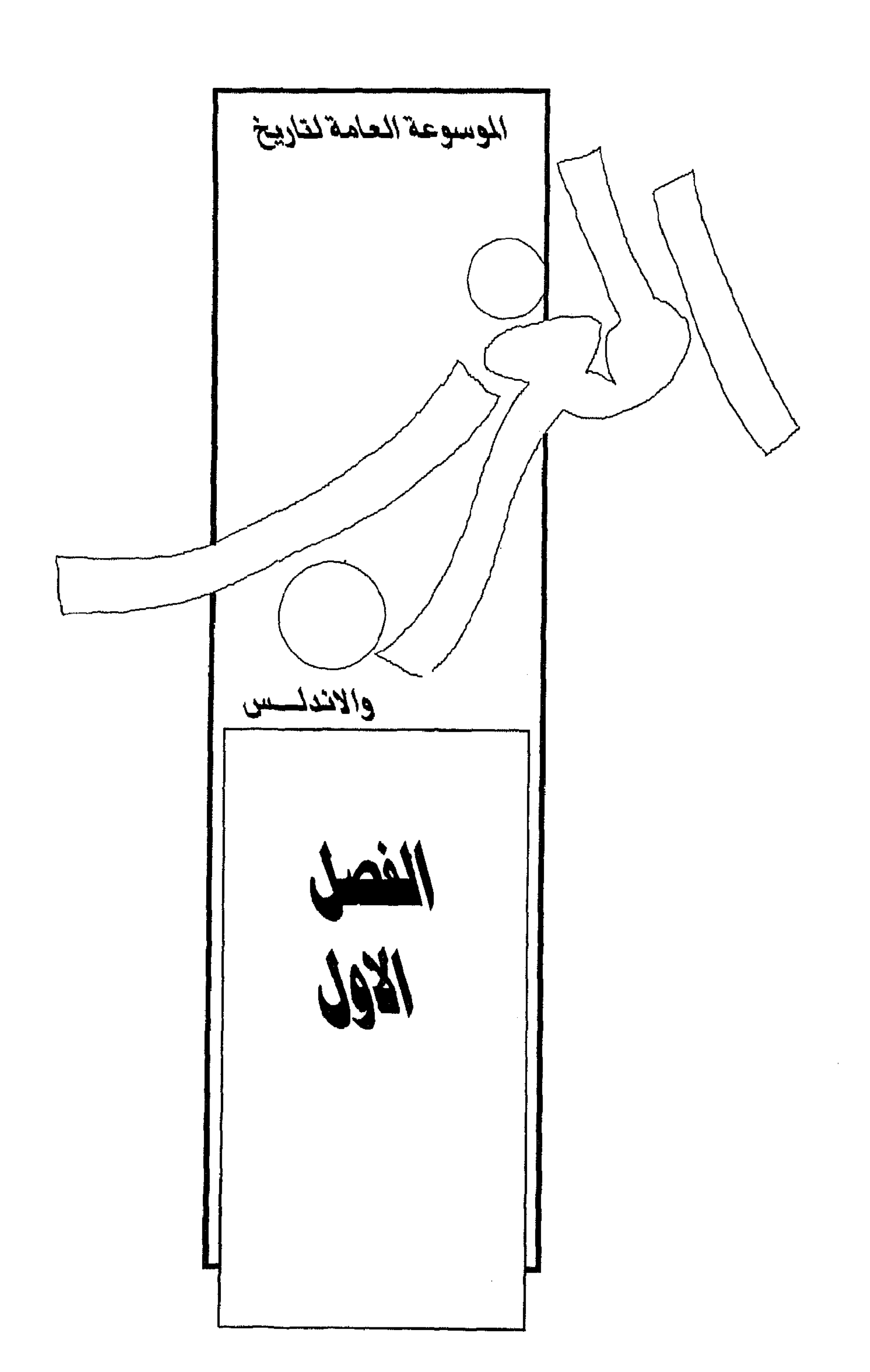
ثم استمر التدهور والانحطاط في عهد خلفائه الى أن تمكّن صلاح الدين الأيوبي من القضاء عليهم .



مسجد الصخرة في القدس

الباب السابع




الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل
الاول

عهد المرابطين الصنهاجيين

كانت قبائل صنهاجة في جنوب المغرب من أشدّ القبائل البربرية الثلاث الكبرى ـ صنهاجة ـ زناتة ومصمودة، تمسكاً واعتناقاً للدين الاسلامي الحنيف، فقد ذادت عن الدين الاسلامي وحمته ودافعت عنه، وظلّت متمسّكة بالعقيدة الاسلامية على مر العصور والأزمان وما زادتها المصائب والكوارث والمحن وتقلّبات الحكام الا تشبّثاً بالاسلام وانعطافاً نحو أئمته الصادقين. لدرجة أن رجال هذه القبيلة أصبحوا فيما بعد الفاتحين العرب الأوائل يحملون عقيدة الاسلام ويبشرون بها في الأندلس وفي أفريقيا الغربية والوسطى وغير ذلك من البلاد، فالدين الاسلامي ما دخل السنغال والسودان القديم وما صار يدعى (مالي والنيجر وغانا وغينا وغيرها) الاّ بواسطة قبائل صنهاجة وفي مقدّمتها قبيلة لمتونة العظيمة. فأي عمل أعظم مما عملوا وأي جهد يزيد عما بذلوا. فهم دعاة الاسلام وحماته ورباطه وسيوفه منذ أن اعتنقوا الدين الاسلامي والى يومنا هذا.

لقد ظهر الانفتاح الاسلامي ـ بعد الهداة الفاتحين الأوائل ـ في المغرب في عهد الأدارسة، وفي أفريقيا الغربية في ابان عهد المرابطين

واستمر . .

وأقيم الاتحاد اللمتوني الصنهاجي في الصحراء المغربية وهم أبناؤها وسكانها الأوائل، فكان منهم تجار القوافل بين المغرب الكبير وأفريقيا الغربية، وكان منهم المرابطون المتنسّكون دعاة الاسلام في أفريقيا الغربية أيضاً، وبالتحديد في السنغال. وكان منهم أيضاً الوجّاج أحد زعماء لمتونة في سجلماسة الداعي بصورة مستديمة الى اتحاد صنهاجة ـ وكانت صنهاجة في غالبيتها على المذهب المالكي .

وبعد أن استولى الصنهاجيون على مناجم الملح راحوا يقايضون الملح بالتبر مع القبائل الأفريقية السوداء، وعلى أساس هذه التجارة سيطروا على غانا والسنغال ثم انتشروا الى أبعد من ذلك .

وكانت قبائل صنهاجة قد اعتنقت الدين الاسلامي منذ سنوات الفتح الأولى، والقبائل التي لم تكن قد اعتنقت الدين الاسلامي بادرت الى اعتناقه في عهد الأدارسة، وبذلك يكون الاسلام قد عمّ المغرب سهلاً وجبلاً وصحارى بعيدة. وأنه لأمر يدعو الى الدهشة والاعجاب الشديد أن نعلم بأن مسلمي الصحراء المغربية أصبحوا أشد اسلاماً وأكثر تمسّكاً بالعقيدة الاسلامية من العرب المسلمين أنفسهم.

كيف تأسّست حركة المرابطين في المغرب

بدأت حركة المرابطين في الأصل أخوة دينية حربية أنشأها في القرن الحادي عشر أحد الأتقياء وهو عبد الله بن ياسين الصنهاجي في رباط ومعنى رباط صومعة أو مسلحة بناحية من جزيرة في نهر السنغال، ومن كلمة رباط «اشتقّ اسم المرابطين بمعنى سكان الصوامع الدينية المسلحة. وكان من أوائل المنتسبين الى هذه الأخوة الدينية قبيلة لمتونة وهي فخذ من أفخاذ

قبيلة صنهاجة الكبرى التي عاش قسم من أبنائها في الصحراء المغربية عيشة البدو ـ كما مرّ معنا ـ.

والجدير بالذكر أن الفاتح العربي عقبة بن نافع لما بسط حكمه على وادي درعة وهو في طريقه الى الساقية الحمراء تزوّج فتاة من إحدى أسر الساقية الحمراء وما زال أحفاده هناك الى يومنا هذا، ومن بعده تزوّج القائد العربي حبيب بن أبي عبيدة وهو في طريقه الى السنغال فتاة من قبيلة كنتة.

وكان رجال قبيلة لمتونة الصنهاجية يضعون اللّثام على وجوههم، وهذا ما فعله أيضاً أحفادهم المعروفون اليوم باسم الطوارق.

وتألّف جيشهم الأول من زهاء ألف مجاهد[1] حملوا العقيدة الاسلامية الى جميع القبائل المحيطة بهم بما في ذلك القبائل الزنجية. ولم تنقض بضع سنوات حتى أصبح المرابطون أسياداً لأفريقيا الغربية ثم للأندلس فيما بعد وفي سيرتهم مثال رائع لما يستطاع الأتيان به في الاسلام اذا اقترنت صولة السيف بحمية الدين.

خلفيتان لا بدّ من ذكرهما

ولكي ندرك الخلفيات الكامنة وراء حركة المرابطين فلا بدّ لنا من ذكر خلفيتين هامتين: إحداهما هي أن المغرب الأقصى وجد نفسه بعد سقوط دولة الأدارسة في القرن العاشر الميلادي محاطاً بدولتين اسلاميتين متنازعتين، تحاول كل واحدة منهما التأثير على الأخرى أو التدخّل في شؤونها، أولاهما إمارة قرطبة في الأندلس، والثانية الخلافة الفاطمية التي انطلقت من تونس بعد أن حلّت محل الأغالبة وهذه الأخيرة كانت تسعى لفرض سيطرتها على المغرب الأقصى سيطرة كاملة. وبالفعل فقد احتلّت

---

(١) راجع تاريخ العرب لفيليب حتى ص٦٢٣.

الدولة الفاطمية إمارة مغربية صغيرة في «الحسيمة» بعد أن أخضعت آخر حكام الأدارسة لنفوذها. مما أثار الحذر في نفس خليفة قرطبة الأموي عبد الرحمن الثالث فأسرع الى احتلال سبتة ومليلة وطنجة على ساحل المغرب المطلّ على البحر الأبيض المتوسط.

ولكن سرعان ما تحوّل الفاطميون عن اتجاههم نحو الغرب فاتجهوا شرقاً في عام ٩٦٩م/ ٩٥٩ واحتلوا مصر وبنوا مدينة القاهرة ونقلوا اليها مقرّهم وجعلوها عاصمتهم الجديدة.

وبعد ذلك بستين سنة سقطت قرطبة في يد القوط النصارى، وبذلك انفتح المجال واسعاً أمام المغرب فثار ضد المتسلطين عليه وأخذ يقوى ويتعاظم، فانطلقت دعوته الى الجزائر فضمّها اليه ثم انطلقت حركة المرابطين الى الأندلس فيما بعد فضمّت اليها أجزاء كبيرة من إماراتها المبعثرة.

أما الخلفيّة الثانية، فهي تتمثل في القبائل البربرية الكبرى الثلاث. وهي صنهاجة ومصمودة وزناتة، فقبائل صنهاجة لاذ بعضها بالجبال ولاذ البعض الآخر بالصحراء المغربية. والقبائل التي لاذت بالجبال استقرت فيها بينما ظلّت قبائل صنهاجة الأخرى التي لاذت بالصحراء تتنقل على عادة البدو من الشمال الى الجنوب وفقاً للمراعي ولأعمالها التجارية المتصلة بأفريقيا الغربية.

عبد الله بن ياسين يبدأ نشاطاته

في حوالي النصف الأول من القرن الحادي عشر وفد على قبيلة لمتونة فقيه من فقهائها هو عبد الله بن ياسين وكان هذا الفقيه يؤثر العيش في الصحراء المغربية فأقام له رباطاً على نهر السنغال ـ صار يؤمن رجال دعوته

من القبائل الصنهاجية فاشتهر رباطه كما اشتهر أصحابه باسم المرابطين.

والمهم هنا هو ان هذه الحركة الدينية الاصلاحية التي وفدت من أقصى الصحراء المغربية على حدود السنغال والنيجر ـ الى المغرب تفاعلت مع المجتمع ومخضته وأخرجت منه دولة المرابطين، بقيادة صاحب الدعوة الفقيه الصنهاجي عبد الله بن ياسين وقيادة يحيى بن عمر أحد رجاله البارزين.

من هنا كانت قبيلة لمتونة هي أساس دعوة المرابطين. فاحتل المرابطون مدينة سجلماسة عاصمة الصحراء المغربية الأولى عام ١٠٥٣م/ ٤٤٥هـ ثم اتّجهوا نحو الجنوب فأعادوا احتلال اوداغوست مدينتهم التي كانت قد سقطت في أيدي الغزاة الغانيين السود «نسبة الى غانا» عام ١٠٤٠م/ ٤٣٢هـ وهكذا أعادوا سيطرتهم على تجارتهم الصحراوية.

ولما جدّدوا حملتهم احتلوا تاغانت في غانا جنوبي الصحراء وذلك عام ١٠٥٤م/ ٤٤٦هـ.

هذه الأخوة الدينية كانت تشكل اتحاداً مؤلفاً من قبائل لمتونة وغودالاّ ولامتا، ثم ضمّت اليها قبائل جزولة ومصمودة وبعض الزناتيين.

وفي العام ١٠٥٧م/ ٤٤٩هـ استشهد الفقيه ابن يوسف وهو يقاتل قبائل برغواطة في السهل الساحلي. بعد أن أمضى واحداً وعشرين عاماً في تأسيس حركة المرابطين وإقامة دولتهم الكبيرة، فخلفه أبو بكر بن عمر اللمتوني، بينما أسندت قيادة الجيش لإبن عمّه يوسف ابن تاشفين فتعاون الأمير والقائد معاً على توطيد أركان الدولة، وتطبيق أركان الشريعة الاسلامية ـ وكان المرابطون وفقهاؤهم على المذهب المالكي. فطبّقت الشريعة الاسلامية على أقاليم الحوز وتادلة وتامستا من أقاليم المغرب وفق هذا المذهب.

وبعد عام تقريباً سارع أبو بكر الى الصحراء لقمع بعض الفتن التي ظهرت بين القبائل وأناب عنه ابن عمّه يوسف بن تاشفين فاتّخذ له مقراً في «أغمات» وتزوّج من زينب التي طلّقها أبو بكر قبل سفره الى الصحراء رحمة بها من تحمّل شظف العيش في تلك الفيافي القاسية.

الخليفة يوسف بن تاشفين

كان يوسف بن تاشفين بطلاً في الحرب، وداهية في السياسة، ومخلصاً في دينه وعبادته، هذا الى جانب مواهبه الاجتماعية والعمرانية وبعد نظره في التخطيط الحربي، فالتفت حوله القبائل، ولما عاد أبو بكر من الصحراء، ورأى التفاف القبائل على ابن أخيه يوسف بن تاشفين تنازل له عن الحكم، وعاد الى الصحراء لينقطع الى الجهاد ونشر الاسلام في البلدان المجاورة، وهذه تضحية لها قيمة دينية وأدبية عليا تدلّ على سموّ نفس أبي بكر وشدَّة إيمانه وولوعه بنشر الدين الاسلامي وفي ذلك درس وعظة عظيمة للذين لم يفهموا حقيقة المرابطين ولا طبيعة سكان الصحراء المغربية ذلك أن المرابطين هم الذين أنشؤا أول دولة مستقلة في المغرب بعد زوال حكم الأدارسة. وهي دولة اسلامية، تمكّنت من توحيد المغرب وضمّت اليه الكثير من الولايات في أفريقيا الشمالية والغربية والأندلس. وفي عهدهم أصبح المغرب امبراطورية كبيرة وليس مجرّد مملكة صغيرة.

وقد استطاع أبو بكر بعد تنازله لابن أخيه يوسف بن تاشفين أن ينشر الاسلام في السودان القديم فامتدّت حدود الدولة الى نهري النيجر والسنغال وغانا ومالي.



الملك منسسا موسى ملك مالي سنة ١٣٣٠م

وفي عهد يوسف بن تاشفين امتدّت دولة المغرب شرقاً لتشمل الجزائر، ثم امتدّت شمالاً حتى شملت الأندلس بكامله وامتدّت غرباً على طول شاطىء الأطلنطي والشاطىء المغربي المطلّ على البحر المتوسط.

ولم تكن مواهب يوسف بن تاشفين مقتصرة على أعماله العسكرية والسياسية والدينية بل كانت له مواهب عمرانية فذّة مكّنَتْهُ من بناء مدينة مراكش عام ١٠٦٢م/ ٤٥٤هـ في السوس على كتف الصحراء المغربية. وقد أسهم هو شخصياً في أعمال البناء.

وأصبحت مدينة مراكش من أجمل المدن المغربية كما جعل منارة الكتبية طرازاً فذّاً لبناء العديد من المنارات في الأندلس كمنارة لاجيرالدا التي ما تزال قائمة الى يومنا هذا في إشبيلية والعديد من المنائر في فرنسا

والمانيا.

كان المرابطون صحراويين فهم أسياد الصحراء المغربية وكان حبّهم وولعهم بالصحراء المغربية لا يضارعه شيء. لذلك انتقل يوسف بن تاشفين من أغمات المحاطة بأحراج الزيتون الى الموضع الصحراوي الذي بنى وأسّس فيه عاصمته مراكش، ولما كان سكان الصحاري مولعين بشجر النخيل فقد أمر بزراعة واحة للنخيل الى جانب عاصمته مدّ اليها أقنية المياه من سفوح الجبال المحيطة بها لإبقائها في خضرة دائمة. وما زالت واحة النخيل موجودة الى يومنا هذا. وهكذا حلّت مراكش محلّ سجلماسة كسوق للذهب في تلك المنطقة المتاخمة للصحراء. وكانت مدينة فاس عاصمة الأدارسة حتى ذلك الوقت ممتنعة عن الاعتراف بسيادة المرابطين، وهي التي بناها الإمام إدريس الثاني وربما كان الأب والإبن قد بنى كل منهما على حدة عدوةً من عدويتها، وفاس تعتزّ بأن بانيها حفيد من أحفاد الرسول محمّد (ص). فلما زحف عليها ابن تاشفين عام ١٠٦٣م أي بعد سنة من بناء مراكش استعصى عليه فتحها فضرب عليها الحصار وانشغل عنها باحتلال سائر المدن الشمالية. وأفسح المجال لفقهاء المرابطين لإعداد أذهان سكان فاس بقبول الفاتح المغربي الأصيل أحد أبناء المغرب الأقحاح بتولّي إمرتها، ودام الأمر على هذا الحال من الحصار حتى عام ١٠٦٩م/ ٤٦٢هـ، وعندئذٍ فتحت المدينة أبوابها للفاتح الجديد.

وبين عامي ١٠٧٠م و١٠٨٠م فتح يوسف بن تاشفين المغرب الأوسط مبتدئاً بتازا Taza وغرسف Guercif ووجدةOujda وتلمسان ووهران في الجزائر. ومن المعلوم أن سكان الجزائر كانوا من قبائل صنهاجة وغيرها الذين سكنوا الجبال كما ذكرنا من قبل. . وكانت البطون من هذه القبائل الجبلية مؤلفة من قبائل الحماديين والزيريين. ثم احتلّ أعمال شلف حتى

مدينة الجزائر وبذلك ألحق الجزائر بدولة المرابطين المغربية. فالتقى بهذا الفتح المبين صنهاجيّو الغرب بصنهاجيّي الشرق من حماديين وزيريين، ولم تكن عملية الفتح موجّهة للزناتيين كما زعم تيراس نقلاً عن ابن خلدون، فالمسألة في نظر يوسف بن تاشفين كانت توحيد المغرب الكبير ولملمة أجزائه المبعثرة التي كانت مفككة ممزقة.

المغرب الموحّد

وللمرة الثانية توحّد المغرب في نهاية القرن الحادي عشر، نهاية القرن الخامس الهجري من الصحراء المغربية الى البحر الأبيض المتوسط من طنجة الى الجزائر.

وقد قام هذا التوحيد على أساس إسلامي ووفق المذهب المالكي وحسب. وساعد على ترسيخه جيش مكوّن من عناصر اتحاد قبائل لمتونة وغودالاّ ولمتة الصنهاجية في أوّل الأمر ثم ألحقت به وحدات من سكان مراكش الجنوبية «السوس» من قبيلتي جزولة ومصمودة، ثم انضمّ اليه أمراء الزناتيين فيما بعد. كذلك فقد ألحقت بهذا الجيش كتائب من مرتزقة الترك «الغز» ومن المسيحيين كما ذكر ذلك ابن خلدون حيث قال: «مئة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة ومصمودة وزناتة والغز الأتراك رماة السهام».

ومع أن الغربيين وجدوا مجالاً للتشكيك بالجيش فقالوا أنه كان جيشاً قبلياً، ولكن الحقيقة هي أن هذا الجيش كان من سكان المغرب لولا عنصرا الغز الأتراك والمسيحيين الذين لم تحدّد هويّتهم فإذا كانوا مغاربة، نفي الجزء الثاني من التشكيك ولأن من حق المسيحيين المغاربة أن ينخرطوا بجيشهم باعتبارهم مواطنين مغاربة أما إذا كانوا من القوط الإسبان فالأمر يختلف لأن العديد من المسيحيين الأندلسيين كانوا قد طردوا من ضواحي

أما عنصرا الغز الأتراك فقد أستعين بهم لأنهم يحسنون الرمي بالسهام، ويجب ألا يغرب عن البال أن سكان المغرب وسكان شبه جزيرة ايبيرية وفرنسا وجرمانيا كانوا مجموعات من القبائل الغزاة الذين داهموا الامبراطورية الرومانية كالغاليين والقوط والنورمانديين والكلت والتوتونيين، وهؤلاء جميعاً جاؤوا من أوروبا الشرقية التي هاجروا اليها في عصور أقدم عهدًا. فلما كثرت مع العصور أجيالهم وتعدّدت قبائلهم غزوا الامبراطورية الرومانية وحاربوا مئات السنين حتى نجحوا في القضاء عليها. ومن هنا ينتفي الشك من أساسه القائل ان الجيش المغربي المرايطي كان قبلياً بل يجب ان يقال كان مغربياً لأنه في معظمه كان مؤلفاً من سكان المغرب الأصليين وليس من الغزاة.

سياسة يوسف بن تاشفين

كانت سياسة يوسف بن تاشفين بناءة من جهة التنظيم المدني، وذلك بتعيينه ولاة على المناطق المحتلة تسندهم حاميات لمنع العصيان والتمرّد، إلّا أن تلك الحاميات كانت تُفرد لها أماكن خاصة بعيدة عن السكان للحفاظ على سلامة الجيش من الإنغماس في اللّهو والترف..

أما السلطة الدينية فكان يمثلها علماء أفذاء على المذهب المالكي، لهم مكانتهم الدينية في مجلس شورى الملك يوسف بن تاشفين يمارسون حق الرقابة على أحكام القضاة المحليين وفي الوقت نفسه يستشيرهم الملك في كل كبيرة وصغيرة. فمهمّتهم إذن كانت لإحقاق الحقّ ونشر العدالة. فهم مصلحون في مجالات الاصلاح ومرشدون في كل ما يتعلق بالمسائل الدينية والاخلاقية، وزهاد ومتنسّكون وهذه الصفة كانت من أهمّ خصائصهم على

اعتبار أن حركة المرابطين قام بها في الأساس الزهّاد والمتنسّكون. لذلك كان من واجب هؤلاء العلماء المتفهّقين حماية الدولة وصونها ونشر العقيدة الإسلامية بين الناس ليبقوا كتلة متماسكة متراصة قائمة على الدين والفضيلة والأخلاق السليمة.

وقد أبطل إبن تاشفين كل الضرائب التي فرضت على المغرب الكبير في سنوات الفوضى الماضية، واستبقيت الزكاة لأنها من فروض الاسلام والجزية والخراج من أهل الذمّة وخمس غنيمة الحرب. فاطمأن السكان الى أن الحكم القائم حكم مدني وليس قبلياً فتشجّع المزارعون وأقبلوا على أعمالهم الزراعية بنشاط وتشجّع التجار فأقبلوا على ممارسة أعمالهم التجارية في حدود الواجبات التنظيمية والدينية منعاً للاستغلال والاحتكار والغلاء وأعمال الربا.

وأنه لمن المضحك أن نجد فيما يكتبه الغربيون عن النظام المرابطي في المغرب من نقد وتشويش أنهم يقيسون ذلك النظام بالقرن العشرين ناسين أو متناسين أن نظام المرابطين في كل مرافقه السياسية والاجتماعية والضرائبية كان أفضل كثيراً من أنظمة القوط والغاليين والجرمان الذين كانوا يمارسون في بلادهم أنظمة إقطاعية متطرفة قائمة على استعباد الطبقة الفقيرة في بلادهم وتسخير أبنائها في مزارعهم ومصانعهم تسخيراً مشيناً برز بروزاً مشيناً في عصر الحروب الصليبية حيث ساقت طبقة النبلاء الشعوب الأوروبية لغزو الشرق تخلصاً من الثورات الطبقية المندلعة في بلادها. .

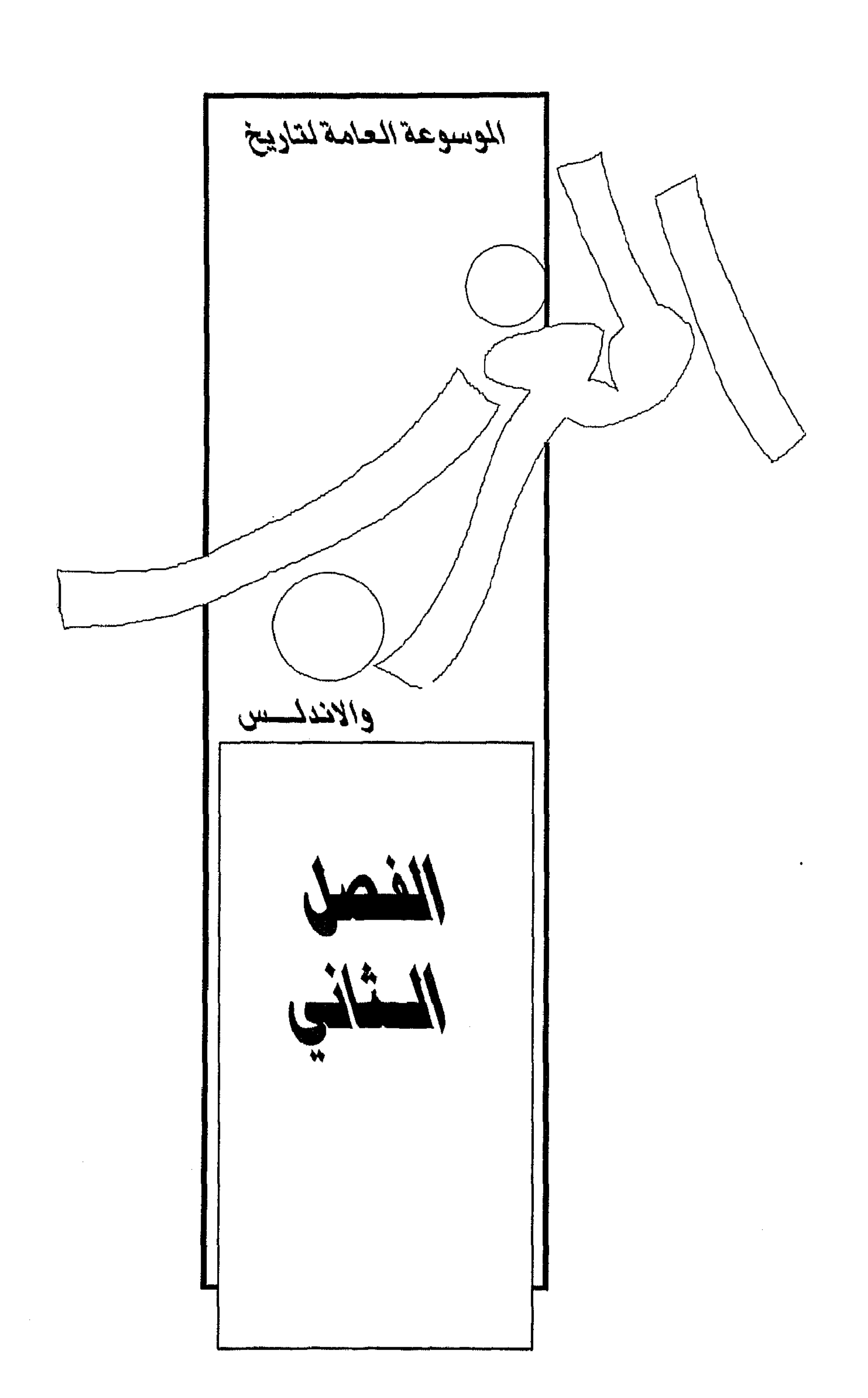
وقد اعترف المؤرخون الأوروبيون أنفسهم بأن الحروب الصليبية التي بدأت بحركة دينية متحمّسة، إنما كانت مجرد مظهر ديني لا أكثر في حين كانت دوافعها الخلفية ترمي الى سلب الشعوب الشرقية من ثرواتها ونهب كل ما في المستطاع نهبه بقوة السلاح.

وكانت جيوش المرتزقة المسيحيين ترسل عملاءها الى المغرب لمفاوضة ملوكه وحكامه آنذاك على استئجار تلك الجيوش أو الفرق أو الكتائب من المرتزقة. وكان في مقدمة هذه الشعوب الجنوييون والبندقيون واليونانيون، «والصقليون في جيش الفاطميين» وأمثالهم. فالجيوش الأوروبية من المرتزقة كانت تملأ المشرق والمغرب منذ القرن السادس قبل الميلاد، وكان ملوك الفرس يستعينون بالمرتزقة ـ خصوصاً اليونانيين ـ في حروبهم المتواصلة. لقد استعمل المرابطون في جيوشهم بعض المرتزقة وهذا ليس عيباً فقد سبقهم الى ذلك كثير من الدول كما ذكرنا ولكن الأمرة كانت لهم والقوة الضاربة كانت منهم ففرضوا هيبة الدولة ووطّد الأمن والاستقرار في ربوع البلاد.

وعندما زحف ابن تاشفين على المغرب الأوسط «الجزائر» واحتلّ تلمسان ووهران ووصل حتى مدينة الجزائر استعان بعبقرية الأندلسيين في تنظيم نظام جهاز الحكم ونقل الى المغرب كثيراً من التقدم الأندلسي.

وفيما كان يوسف بن تاشفين يُعيد تأسيس دولة المغرب من جديد كانت أحوال العرب والمسلمين الأندلسيين تنذر بالخطر الشديد بعد أن سقطت قرطبة بأيدي القوط الاسبان، وكانت عاصمة للخلافة الأموية في الأندلس، وذلك بعد سقوط الدولة الأموية وقيام «دول الطوائف» مما سهّل على القوط الاسبان مناجزة كل طائفة حاكمة على حدة.

وكان قد بلغ عدد تلك الطوائف المنشقّة المتمردة على دولة الوحدة الأموية ٢٦ دويلة بزيادة ست دول على دول الطوائف المعروفة بعصرنا هذا «بالجامعة العربية» وكأن هزيمة الطوائف الأندلسية لم تكن كافية لوعظ العرب وإعادتهم الى الصواب!


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الثاني

بنو عباد في أشبيلية

وسنضرب مثلاً عن حكم الطوائف في الأندلس بما جرى لبني عباد في أشبيلية، وكانوا قد أسّسوا دولتهم عام ١٠٢٣ ودامت حتى سنة ١٠٩١م. ويعود نسبهم الى الملوك اللخميين القدماء وقد جاء جدّهم من المشرق الى الأندلس فنزل في عرب حمص المستوطنين بعد الفتح. وثمة ظاهرة عربية لم يفطن اليها المؤرخون وهي أن كلا من الأندلس وشمال أفريقيا وبصورة خاصة المغرب، كان كل منهما يعتبر متحفاً للأنساب والقبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية واشتركت مع جيوش الفتوحات الأولى في مصر وأفريقيا والأندلس.

اسماعيل بن عباد

أما مؤسّس الأسرة العبادية فهو اسماعيل بن عباد اللخمي من أحفاد النعمان بن المنذر، عرق ملكي نبيل، ومحتد أصيل. وكان مشهوراً بالثراء وعزة النفس وسخاء الكف ونبل السجايا، فكثر أتباعه ومحبّوه، فقرّبه اليه القاسم بن حمود وهو من ملوك الطوائف واتّخذه صديقاً. ولما توفي

اسماعيل بن عباد، عيّن القاسم بن حمود أمير اشبيلية أبا القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد حاجباً له وهي الوظيفة التي منحت من قبل لأبيه اسماعيل وجدّه عباد.

وفي أثناء فوضى الحروب الأهلية عمل محمد بن اسماعيل على تثبيت نفسه أميراً على اشبيلية فتم له الأمر سنة ١٠٢٢م/ ٤١٣هـ.

وبعد وقت قصير تنكّر محمد بن اسماعيل للخليفة يحيى بن حمود فانفصل عنه ثم ما لبث أن حاربه في معركة قرب اشبيلية قتل في أثنائها الخليفة يحيى بن حمود، وهكذا استتبّ له الحكم في اشبيلية، ثم أشاع أن هشام بن الحكم المعروف بالمؤيّد ما يزال حيّاً وهو يقيم عنده في اشبيلية وكتب الى ممالك الأندلس في ذلك يدعوهم الى طاعته وتجديد بيعته على اعتبار أنه آخر ملوك الأمويين فلبّاه بنو عامر أصحاب بلنسية ومرسية أما الباقون فقد استقبلوا دعوته بالسخرية، وكان غرض ابن عباد من تلك الأكذوبة بسط سلطاته على جميع ممالك الأندلس.

المعتضد بن عباد

وبعد موت محمد بن اسماعيل بن عباد سنة ١٠٤٢ خلفه في الحكم ابنه عمرو بن محمد وتلقّب بالمعتضد بالله. وكان ظالماً مستهتراً مصاحباً للكؤوس والمحظيّات حتى قال عنه المؤرّخ الالماني يوسف أشباخ بأنه كان يحتفظ بقصره بسرب من المحظيّات يضمّ أكثر من سبعمائة محظية، وكان كثير الإنفاق على الأبنية الشامخة كالقصور والقلاع ومنها «القصر» الذي عرف فيما بعد باسم «الكازار.

ومع ذلك فقد كان المعتضد شاعراً ومحباً للأدب ومجالسه ففتح أبواب قصره المشهور، للشعراء والمداحين ورجال الأدب، وخصّص جوائز

مالية قيّمة للشعراء المبرزين في المطارحات الشعرية .

المعتمد بن عباد

ولما توفي المعتضد تولّى ابنه المعتمد، وكان أندى راحة وأرحب ملوك الطوائف ساحة حتى أنه بز والده المعتضد في مضامير الأدب والشعر وحبّ الجمال والفنون وأصبح بلاطه ميداناً للشعراء، ولم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء والأدباء مثل ما كان يجتمع ببابه[1] .

وكان المعتمد شاعراً موهوباً يشاد بسرعة خاطره وقوة بداهته، ولم يستوزر وزيراً إلّا اذا كان شاعراً وأديباً وكان من جملة وزرائه ابن عمار الشاعر الكبير[2] .

ابن زيدون

ثم استوزر ابن زيدون «١٠٠٣ـ١٠٧١» الذي عدّ من فحول الشعراء في الأندلس وكان قرشياً من بني مخزوم[3] وقد عمل في بلاط ابن جهور رئيس حكومة قرطبة، وفيها أحب ابن زيدون الأميرة ولّادة بنت الخليفة المستكفي المتوفاة سنة ١٠٨٧ . فنافسه في حبّها ابن عبدوس وزير ابن جهور فراح يوغر صدره ضد ابن زيدون بسبب غرامه بولاده، وغزله الوجداني فيها فسجنه ابن جهور مدة طويلة الى أن تمكّن من الهرب، فالتحق بالمعتضد والد المعتمد، فانتدبه هذا لرئاسة الوزارة وإمارة الجيش فعزّ عنده وأطلق عليه لقب ذي الوزارتين أي وزارة السيف ووزارة القلم.

ويبدو أنه لم ينجح بإغراء المعتضد لاحتلال قرطبة وتخليصها من ابن

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٤١٢

(٢) عبد الواحد المراكشي ص٧٧ـ٨٥ـ٩٠ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٧٥ـ٧٧ .

جهور ولكنه نجح بحثه المتواصل مع ابنه المعتمد فأرسل جيشاً سنة ١٠٦٨ الى قرطبة فانتزعها من بني جهور. فنقل المعتمد بلاطة الى قرطبة، وفيها نشأ النزاع بين ابن زيدون وابن عمار، فلما غضب المعتمد على ابن عمار أمر بقتله وكان ذلك في عام ١٠٨٦. واشتهر ابن زيدون بكتابة الرسائل وله رسالة يذم فيها منافسه في حبّ ولاده ابن عبدوس. ومن أجمل قصائده قصيدته (النونية) في ولادة يتشوّق اليها بعد أن هجرته وجرحت كبرياءه. وتعتبر هذه القصيدة من عيون الشعر العربي مشرقيّه ومغربيّه على مدى التاريخ. كما تعتبر الينبوع الصافي الزلال المتفجّر بالمعاني والعواطف والأساليب والألفاظ والموسيقى والإيقاع والنفس الطويل العذب والغوص العميق الصعب. لقد استجمع ابن زيدون كل شاعريته وفجّر كوامن عواطفه ونثر الدر من معانيه واستعرض سحر قوافيه لتكون قصيدته عبرة لكل محبّ وسلوى لكل صبّ وكنزاً لكل أديب ومثلاً لكل شاعر ومعرضاً للعواطف والأحاسيس في كل حالاتها من عشق وغزل ويأس وأمل وشكوى وحنين وتوسّل وحسرة وتأس وأسى وصدق ووفاء وعتاب وتقريع[1] والقصيدة هي:

أضحى التّنائي بديلاً من تَدَانينا ... ونـاب عن طيب لُقْيانا تَجَافينا

ألا! وقد حان صبح البين صَبَّحَنا ... حَيْنٌ، فقام بِنا للْبَيْن ناعينا[2]

مَنْ مُبْلِغُ المُلْبسينا بانْتزاحِهِمُ ... حُزْناً مع الدهرِ لا يَبْلَى ويُبْلينا

أنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضْحِكُنَا ... أنساً بِقُرْبِهِمُ قَدْ عادَ يُبْكينا

غيظَ العدى مِنْ تَسَاقِينا الهوى فَدَعَوْا ... بأَنْ نُغَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينا

(١) الدكتور مصطفى الشكعة ـ الأدب الأندلسي ص٢٠٠ ـ دار النهضة العربية ١٩٧٢.
(٢) الحَيْن: الهلاك.

فـانْحَـلَّ مـا كـانَ معْقُـوداً بـأَنْفُسنـا | وانبَتَّ ما كـان مـوصـولاً بـأَيْدِينـا[1]
وقـد نكـونُ ومـا يُخْشـى تَفَـرُّقُنَـا | فـاليـومَ نَحْـنُ ومـا يُـرْجـى تَـلاَقِينـا
يـا ليتَ شِعْـري ولَـمْ نُعْتِبْ أَعَـادِيكُـمْ | هَـلْ نـالَ حَظّاً مِنَ العُتْبَى أَعَادينا؟[2]
لـم نَعْتَقِـدْ بَعْـدَكُـمُ الاَّ الـوَفـاءَ لَكُـمْ | رأيـاً وَلَـمْ نَتَقَلَّـدْ غَيْـرَه دِينـاً
مـا حَقَّنَـا أَنْ تُقِـرّوا عيـن ذي حَسَـدٍ | بِنَـا، ولا أن تَسُـرُّوا كـاشحـاً فينـا[3]
كُنَّـا نـرى اليـأْسَ تُسْلِينَـا عَـوارِضُـه | وَقَـدْ يَئِسنَـا فَمَـا لليَـأْس يُغْـرِينـا
بِنْتُـمْ وبِنّـا فمـا ابتَلَّـتْ جَـوَانِحُنَـا | شَـوْقـاً إِلَيْكُـمْ ولا جَفَّـتْ مَـآقِينَـا
يكَـادُ حيـنَ تُنَـاجيكُـمْ ضَمَـائِـرُنـا | يَقْضي عَلَيْنـا الأَسَـى لَـوْلاَ تَـأَسِّينـا[4]
حَـالَـتْ لِفَقْـدِكُـمُ أَيَّـامُنـا فَغَـدَتْ | سُوداً، وكانَتْ بِكُمْ بيضاً لَيَالِينا[5][6]
إِذْ جَـانِـبُ العَيْـش طَلْـقٌ مِـنْ تَـأَلُّفِنا | ومَـرْبَـعُ اللّهْـوِ صَـافٍ مـن تَصَـافينـا
وَإِذْ هَصَـرْنـا فُنُـونَ الـوَصْـلِ دَانِيَـةً | قطَـافُهـا فَجَنَيْنـا مِنْهـا مـاشِينـا[7]
لِيُسْـقَ عَهْـدُكُـمُ عَهْـدُ السُّـرورِ فَمَـا | كُنْتُـمْ لأرواحنـا إلاّ ريـاحَيْنَـا
واللهِ مـا طَلَبَـتْ أَهْـواؤُنَـا بَـدَلاً | مِنْكُـمْ، وَلاَ انْصَـرَفَـتْ عَنْكُـمَ أَمَـانِينـا
يـا سَـارِيَ البَـرْقِ غَـادِ القَصْـرَ وَاسْـقِ بِـه | مَنْ كانَ صِرْفَ الهَوَى والوُدِّ يَسْقِينا[8]
واسْـأَلْ هُنَـالِـكَ: هَـلْ عَنّـى تَـذَكُّـرُنَـا | إِلْفـاً، تَـذَكُّـرُه أَمسَـى يُعَنِّيَنَـا[9]
ويـا نَسِيـمَ الصَّبَـا بَلِّـغْ تَحِيّتنـا | مَـنْ لَـوْ عَلَـى البُعْـدِ حَيّـاً كـان يُحْيينـا

---

(١) انبتّ: انقطع.
(٢) من العتبى: أي من عتابكم بمعنى رضاكم
(٣) الكاشح: المبغض.
(٤) نرى: نظن ـ يغرينا: يولعنا.
(٥) الأسى: الحزن ـ التأسي ـ التعزي.
(٦) حالت: تغيرت.
(٧) هصر الغصن: جذبة وأماله.
(٨) غاد القصر: أي أمطره غدوةً.
(٩) عناه: أهَمَّه.

فَهَلْ أرَى الدّهْرَ يَقْضِينا مُسَاعَفَةً ... مِنْهُ، وإن لم يَكُن غِبّاً تَقَاضِينا[1]

رَبِيبُ ملكٍ كأنَّ الله أنشَأهُ ... مِسْكاً وقَدَّرَ إنْشاءَ الوَرَى طِينا

أَوْصَاغَهُ وَرَقاً مَحْضاً وتَوَّجَهُ ... مِنْ ناصِعِ التِّبْرِ أبْدَاعاً وتَحْسِينا[2]

إذا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَةً ... تُومُ العُقُوَدِ وَأَدْمَتْهُ البُرَى لِيناً[3]

كانت له الشّمْسُ ظِئْراً في أَكِلَّتِهِ ... بَلْ ما تَجَلَّى لَهَا إلاّ أَحَايِينَا[4]

كأنَّمَا أُثْبِتَتْ في صَحْنِ وجْنَتِهِ ... زُهْرُ الكَواكِبِ تَعْوِيذاً وتَزْيِينَا[5]

ما ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أكْفَاءَهُ شَرَفاً ... وفي المودَّةِ كافٍ مِنْ تَكَافينا

يا رَوْضَةً طالما أَجْنَتْ لواحظنا ... وَرْداً جَلاَهُ الصِّبَا غَضّاً وَنَسْرِينا[6]

وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِهَا ... مُنًى ضروباً، وَلَذَّاتٍ أَفَانِينا[7]

وَيَا نَعيماً خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ ... في وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينا

لَسْنَا نُسَمِّيك إجْلالاً وَتَكْرِمَةً ... وَقَدْرُكِ المُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

إذا انْفَرَدْتِ ومَا شُورِكْتِ في صِفَةٍ ... فَحَسْبُنَا الوَصْفُ إيضَاحاً وتَبْيينا

يا جَنَّةَ الخُلْدِ أُبْدِ لَنَا بِسِدْرَتِها ... والكَوْثَرِ العَذْبِ زقوماً وَغِسْلينا[8]

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ والوَصْلُ ثَالِثُنَا ... والسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ واشِينَا

إنْ كان قَدْ عَزَّ في الدُّنْيَا اللِّقَاءُ بِكُمْ ... في مَوْقِفِ الحَشْرِ نَلْقاكُمْ وتَلْقُونَا

سِرَّانِ في خاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا ... حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

---

(١) الغب: الزيارة بعد أيام وهنا بمعنى القليل ـ يقضينا مساعفة أي يقدر لنا أيام الوصال.

(٢) الورْق بكسر الراء: الفضة.

(٣) تأوّدَ: تثنّى ـ التوم: حبوب من الفضة تشبه الدرر واحدتها تومة ـ البرى: الخلاخيل.

(٤) الظئر: المرضعة ـ الآكلة مفردها كله وهي (الناموسية) للوقاية من البعوض.

(٥) التعويذ: أي علق العوذة. وهي الرقية لتقية في زعمهم من الجنون والعين.

(٦) أجنت لواحظنا: جعلتها تجني تقطف. النسرين: الورد الأبيض.

(٧) تملينا: تمتعنا. . أفانين: أنواع.

(٨) سرريتها: أي سررة المنتهى وهي شجرة نبق عن يمين العرش. الكوثر نهر في الجنة: الزقوم شجرة في جهنم منها طعام أهل النار ـ الغسلين: ما يسيل من جلود أهل النار.

لا غَرْوَ في أنْ ذَكَرْنَا الحُزْنَ حِينَ نَهَتْ عَنْـهُ النُّهَـى، وتَـرَكْنَـا الصَّبْـرَ نَـاسِينَـا
إنَّـا قَـرَأْنَـا الأَسَـى يـوم النَّـوَى، سُـوَراً مَكْتُـوبَـةً، وَأَخَـذْنَـا الصَّبْـرَ تَلْقِينـا
أَمَّـا هَـوَاكِ، فَلَـمْ نَعْـدِلْ بِمَنْهَلِـهِ شُـرْبـاً وَإِنْ كـانَ يُـرْوينـا فَيُظْمينَـا
لَـمْ نَجْـفُ أُفْـقَ جَمَـالٍ أَنْـتِ كَـوْكَبُـهُ سَـالِيـنَ عَنْـهُ؛ وَلَـمْ نَهْجُـرْهُ قَـالِينَـا
ولا اخْتِيَـاراً تَجَنَّبْنـاهُ عَـنْ كَثَـبٍ لكِـنْ عَـدَتْنَـا، على كُـرْهٍ عَـوَادينـا[1]
نـأْسَـى عَلَيْـكِ إذا حُثَّـتْ مُشَعْشَعَـةً فِينَـا الشَّمُـولُ وغنّـانـا مُغَنّينَـا[2]
لا أكْـؤسُ الـرّاح تُبْـدي مـن شَمَـائِلِنـا سِيمـا ارْتِيَـاح ولا الأوتـارُ تُلْهِينَـا
دُومـي عَلَـى العَهْـدِ مـا دُمْنَـا مُحَـافِظَـةً فـالحُـرُّ مَـنْ دانَ انْصَـافـاً كمـا دِينَـا
فمـا اسْتَعَضْنَـا خَلِيـلاً مِنْـكِ يَحْبِسنَـا ولا استَفَـدْنَـا حَبِيبـاً عَنْـكِ يَثْنِينـا
وَلَـوْ صَبَـا نَحْـوَنَـا مِـنْ عُلْـوِ مَطْلَعِـهِ بَـدْرُ الـدُّجَى لـم يَكُـنْ حَاشَـاكِ يُصبينَا
أبْكِـي وَفَـاءً، وإنْ لـمْ تَبْـذُلـي صِلَـةً فَـالطَّيْـفُ يُقْنِعُنَـا، والـذِّكْـرُ يَكْفِينَـا
وفـي الجـواب مَتَـاعٌ إن شفعـتِ بِـهِ بيـضَ الأيَـادي التـي مـا زالـتِ تُـولِينَـا
عَلَيْـكِ مِنَّـا سـلام الله مـا بَقِيَـتْ صَبَـابَـةٌ بِـكِ نُخْفِيهـا فَتُخْفِينـا[3]

ومع أن المعتمد تمكّن من ضمّ العاصمة الكبرى قرطبة وما حولها من الارباضي والقرى والمزارع اليه فإنه لم يستنكف عن مصالحة ملك جليقية القوطي وتأدية الجزية له، كذلك موقفه مع الفونس السادس خلفه[4].

وكتب الأدب حافلة بمطارحات المعتمد الشعرية والأدبية وكان كثيراً ما يغشى مجالس الأدب متنكراً كما كان يفعل هارون الرشيد في ليالي بغداد الزاهرة.

---

(١) العوادي: أشد الأشغال التي تصرف الانسان عن أموره.

(٢) المشعشعة: الممزوجة بالماء.

(٣) نخفيها: نسترها. تخفينا: تظهرنا أي تفضحنا.

(٤) وفيات الأعيان ٢/ ٤١٢ ـ الاحاطة في اخبار غرناطة ـ ٢/ ٧٧.

أما أحب زوجاته فكانت جارية بارعة الجمال وشاعرة أيضاً وتدعى رُمَيْكا وكان سبب لقائه بها هو أنه خرج مع ابن عمار[1] الى «برج الفضة» على ضفة الوادي الكبير فجلسا في ذلك المنفسح العريض من الخضرة وقد حق به نهر صاف يكمل الجمال الذي يشيع في ذلك الروض. والتفت المعتمد الى ابن عمار وهو ينظر الى النهر وقد هبّ النسيم على صفحة الماء فجعدها حتى بدت مثل الزرد متموّجة فقال أكمل يا ابن عمار:

ترقرقَ الماء بهفهاف النسيم وأطرد

يا لوحةً أبدعها بفنّه الفردُ الصمدْ...

وغرق ابن عمار بصمته وخشوعه وهمّ أن يقول شيئاً ولكن صوتاً رقيقاً عذباً انساب من قرب. والتفت الشاعران الى مصدر الصوت وإذا بها إمرأة

---

(١) ابن عمار ـ محمد (١٠٣١ـ١٠٨٤) شاعر اندلسي عاش على التكسب بشعره اتصل بالأمير المعتمد بن عباد فأحبه واصطفاه صديقاً ولما تولّى المعتمد عرش اشبيلة بعد ابيه المعتضد استوزره وبعثه لفتح مرسية. فخرج عليه واعلن استقلاله بها ولكنه لم يفلح وأسره المعتمد وحبسه. كان شاعراً فذاً اشهرت قصائده في الاستعطاف في اثناء حبسه فقال:

أدرك أخـــاك ولـــو بقـــافيـــة	كـــالظـــل يـــوقـــظ نـــائـــم الـــزهـــر
فلقـــد تقـــاذفـــت الـــركـــاب بـــه	فـــي غيـــر مـــومـــاة ولا بحـــر
طـــاحـــت صحـــابتـــه بـــلا سنـــةٍ	وتســـاقطـــوا سكـــراً بـــلا خمـــر
بمعـــــارج أدت الـــــى جـــردٍ	حتـــى مـــن الأنـــواء والقطـــر
عـــالٍ كـــأن الجـــن اذ مـــردت	جعلتـــه مـــرقـــاةً الـــى النســـر
وقال: سجاياك ان عافيت اندى وأسمح	وعـــذرك ان عـــاقبـــت أجلـــى وأوضـــح
وإن كـــان بيـــن الخطتيـــن مـــزيّـــة	فـــأنـــت الـــى الأدنـــى مـــن الله أجنـــح
حنـــانيـــك فـــي أخـــذي بـــرأيـــك لا تطـــع	عـــداتـــي وان أثنـــوا علـــيّ وأفصحـــوا

ولكن الأعداء دسوا له فغضب عليه المعتمد وبلغ منه الغيظ أقصاه فأمسك بقطعة من حديد ذات مقبض وأهوى بها على رأس ابن عمار ثم ما زال يضربه ويضربه حتى مات بيده بعد صداقة بينهما دامت خمسة وعشرين عاماً.

على جانب عظيم من الجمال والفتنة: تقول:

أجْمِلْ بها يومَ الوغى لو أنّ ذا الماءَ جَمَدْ

تخالها منسوجةً من حلق ومن زَرَدْ.

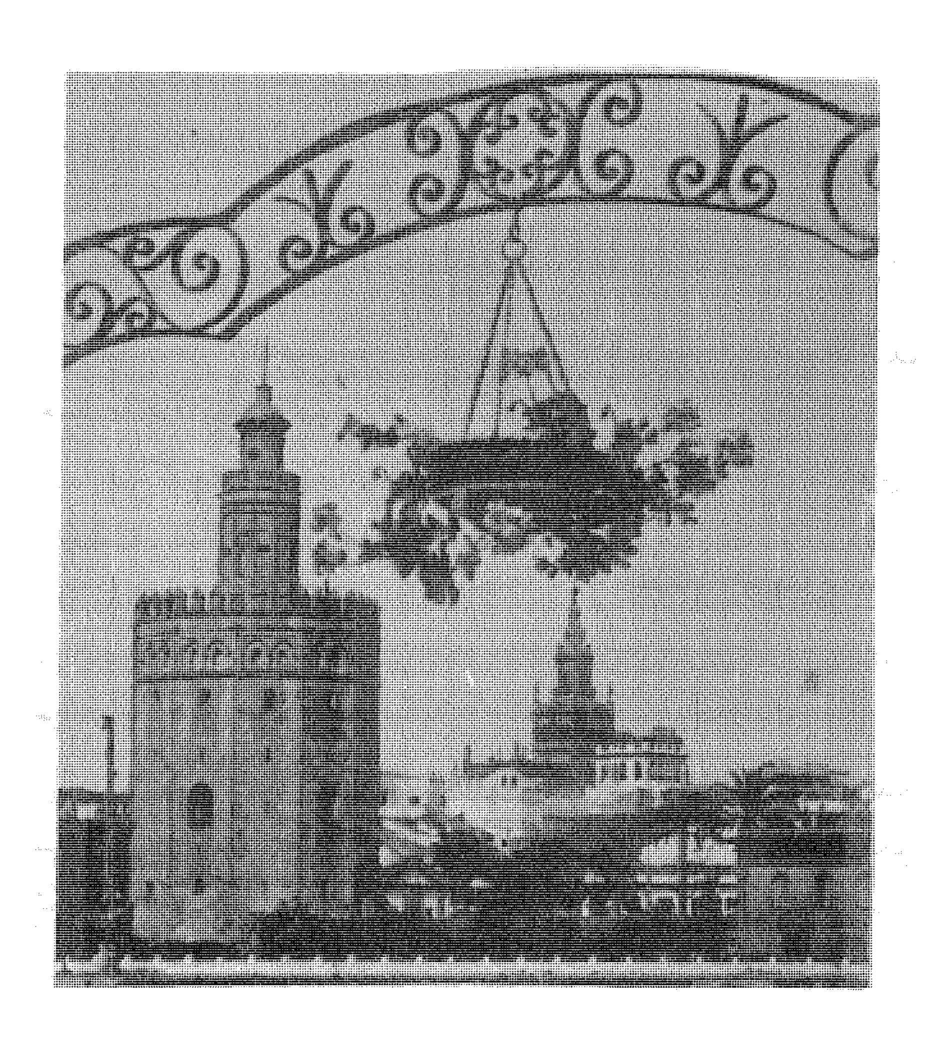
عندها قفز الشاعران من مكانيهما وأسرع المعتمد اليها مفتوناً بذلك الجمال مأخوذاً بسرعة البديهة فقال لها:

ـ من أنت؟.. قالت أنا رُمَيْكا!... قال: أشاعرة أنْتِ؟... قالت: بل جارية. فقال لها بل أميرة! دونك والقصر ثم اشتراها من صاحبها وتزوجها فبدأ منذ ذلك الوقت حب طاغٍ عنيف في قصر المعتمد وهو ان لم يكن الحب الأول عنده الا انه كان الحبُ الأخير. وغير أسمها فصارت اعتماد وعرفت فيما بعد باسم اعتماد الرميكية [1] وأصبحت ملكة وأما لأبنائه.

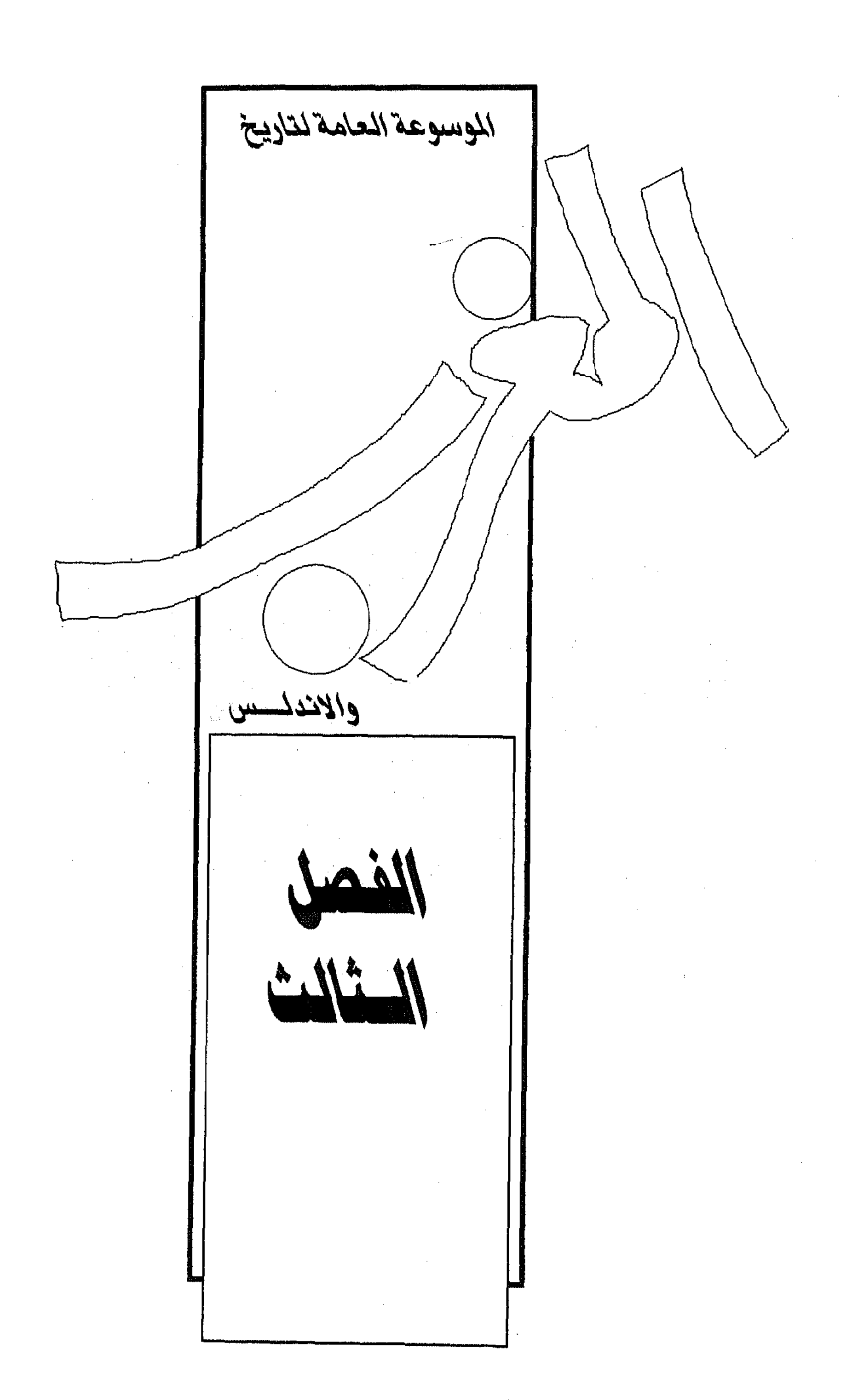
وكانت كثيرة الدلال واسعة الخيال. ويحكى انها رأت يوماً الثلج يتساقط في قرطبة فتمنت على المعتمد ان يهيى لها مثل ذلك الثلج بشكل دائم، فأمر بأن تُزرع غابة من شجر اللوز فوق هضاب قرطبة المقابلة لقصرها حتى تشاهد تفتيح براعم اللوز البيضاء في أول الربيع وحتى تستديم منظر النوّار الأبيض بعد انقطاع الثلج.

---

(١) اعتماد: وتدعى اعتماد الرميكيّة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م شاعرة اندلسية كانت جارية لرميك بن حجاج فنسبت اليه وآلت الى المعتمد بن عباد فتزوجها وولد له منها عباد الملقب بالمأمون وعبيد الله الملقب بالرشيد ويزيد الملقب بالراضي والمؤتمن وبثينة الشاعرة وهي صاحبة يوم الطين وقد رأت بعض نساء البادية باشبيلية يبعن اللبن في القِرَب وهن ماشيات في الطين فاشتهت أن تفعل فعلهنّ فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصيّرها جميعاً طيناً في قصره وجعل لها قرباً وحبالاً من ابرسيم فخاضت هي وبناتها وجواريها في ذلك الطين. وأغار يوسف بن تاشفين على اشبيلة فأسر المعتمد والرميكية وأرسلهما الى (اغمات) بالقرب من مراكش معتقلين بعد أن قتل ولديهما المأمون والراضي. وماتت الرميكية في أغمات قبل المعتمد بأيام.

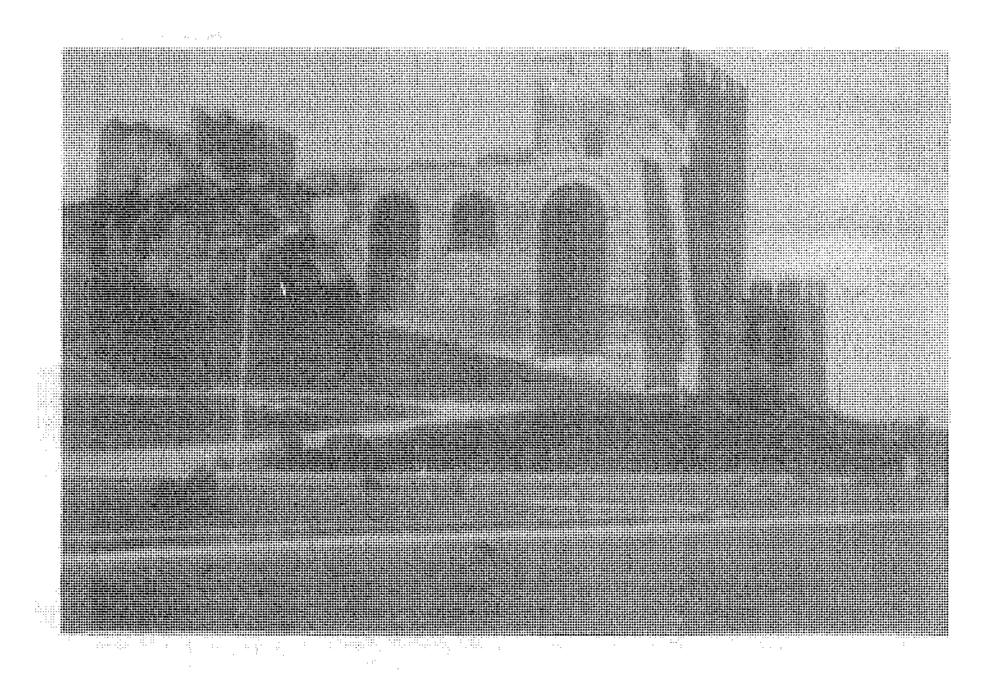


برج الذهب والخيرالدا ـ اشبيلية


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلس
الفصل
الثالث

روائع الفن المعماري في القصر العظيم «الكازار»

أصبحت كلمة القصر «الكازار» الذي بناه المعتضد علماً يطلق على جميع القصور الاسلامية فيما بعد، وموقعه على مقربة من الكاتدرائية العظمى من الجهة الجنوبية الشرقية .



الكازار أو القصر من آثار العرب في اشبيلية

ولما سقطت اشبيلية نهائياً في أيدي الاسبان أعيد بناء القصر من جديد على أسسه القديمة واحتفظ ببعض أجزائه الجميلة، حتى البناء الجديد الذي أقامه الاسبان ظل محتفظاً بطابع البناء الأندلسي، فمدخل «الكازار» الحالي يفضي الى ثلاثة عقود قديمة من عقود الصرح العربي، ثم يليها ساحة واسعة تقوم عقودها الجانبية على أعمدة رشيقة من الرخام الأبيض ويبدو طرازها أندلسياً واضحاً.

أما من الداخل فالطابع الأندلسي يسيطر على العقود ومشرفياته وزخارفه العربية في ذروة روعتها وجمالها، وهو مؤلف من طبقتين كبيرتين: الطبقة الأولى وتبدو في معظمها أندلسية وإن كانت قد أضيفت اليها ابنية حديثة من انشاء ملوك اسبانيا والطبقة العليا وهي من صنع اسباني شيّدت على الطراز الأندلسي.

وتحتوي الطبقة الأولى على عدة أقنية وأبهاءف لكل منها اسمه الخاص مثل بهو العدل وفناء الصيد وساحة العذارى، وبهو كارلوس الخامس، وبهو السفراء، وجناح فيليب الثاني، وفناء العرائس وجناح الملوك المسلمين، وجناح الملوك الكاثوليك، وأجمل تلك الأبهاء بهو السفراء، وهو بهو شاسع فخم تظلله قبة عالية جداً معقودة على عمد ومقرنصات عربية بديعة الزخرفة، وجدرانها مكسوّة بالقاشاني المزين برسوم وخطوط هندسية رائعة، وتتخللها نقوش عربية مقلدة في الغالب وفي دائرة الجدران الوسطى نقشت عبارة عربية مكررة في الدائرة كلها وهي: «الغبطة المتصلة» بمعنى السعادة الدائمة، والى جانبها رسوم أسود صغيرة وفي هذه الطبقة السفلى يبدو الطابع الأندلسي المحض وفي أفنيتها وأبهائها عدة أبواب كبيرة وصغيرة أندلسية الأصل وعليها نقوش عربية.

أما الطبقة العليا فكلها من انشاء الملوك الاسبان ولكن على الطراز

الأنـدلسـي العـربي وهـي تحتـوي علـى الأمـاكـن التـاليـة: مصلى الملـوك الكاثوليك، بهو الملوك، وجناح الملك بيدرو وفيه عدة غرف ومشرفيات عربية بديعة، وقد فرشت جميعاً بالأثاث والرياش الفخمة وغطيت جدرانها بالقيشاني الملوّن ونقشت فوقها نقوش عربية مقلّدة.

وقد ذكر أحمد بن مهدي الغزّال سفير سلطان المغرب مولاي محمد بن عبد الله الى ملك اسبانيا كارلوس الثالث سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م في رحلته أنه عندما زار اشبيلية أنزل في قصبة قيل أنها كانت قصر المعتمد بن عباد، وكانت ما تزال على جدّتها، ثم يصف المكان بما لا يدع شكاً في أنه هو القصر بعينه، وكان يحيط بالقصر في أيام الموحدين أسوار وأبراج منيعة بقي منها الى اليوم برج واحد قائم على النهر وهو البرج المثمن أو المسمى «البرج الذهبي» TORRE DE ORO وموقعه جنوب شرقي القصر.



منظر أخذ من ساحة كويا وقد ظهر برج الذهب إلى اليسار والخيرالدا في أعلا الصورة

وقد جدد بعض أجزاء القصر ملك اسبانيا بيدرو الأول خلال القرن الرابع عشر وأُحدثت فيه تغييرات كثيرة على عهود كل من كارلوس الخامس، وفيليب الثالث وفيليب الخامس، وقد بذلت بعد ذلك جهود كبيرة لاعادة القصر ونقوشه الى ما كانت عليه في عهد الملوك العرب، ليظل محتفظاً بشكله كنموذج بديع للفن الأندلسي أو الفن المُدَجّن النصراني الاسلامي.

واشبيلية بعد غرناطة هي أشد المدن احتفاظاً بالطابع الأندلسي، فما زالت فيها أحياء كاملة على نسقها الأندلسي القديم من حيث الطرق الضيقة والمنازل ذات الأبواب المزدوجة والأفنية الأندلسية.

وما زال الطابع الأندلسي بارزاً في حي «سانتاكروث» أحد أحيائها الشعبية القديمة وهو قريب الشبه بحي البيازين الشهير في غرناطة.

والطابع الأندلسي أكثر بروزاً في منازل وفنادق اشبيلية وأفنيتها الأندلسية الرائعة والنوافير والخضرة وقد أطلّت عليها المشرفيات والمشربيات الأندلسية البديعة الصنع الجميلة التخريم والألوان.

وأول شيء يلمسه الزائر العربي في اشبيلية هو شعور الإلفة والمرح والوجوه المألوفة والعيون السوداء المظللة بأهداب سود، والغناء الذي لا يفترق عن الألحان العربية الاّ باللّفظ، ولا يدهش الزائر العربي اذا سمع مغنياً أو مغنيةً يغنيان موالاً عربياً تتخَلله الآهات الطويلة المرتفعة وقراراتها الشجية، أما الرقص الاسبانيولي الحالي فهو رقص عربي فالراقصة ترقص بالصنوج العربية الملبسة بأصبعين في كل يد. ولهذه الرقصة حكاية:

حكاية في رقصة

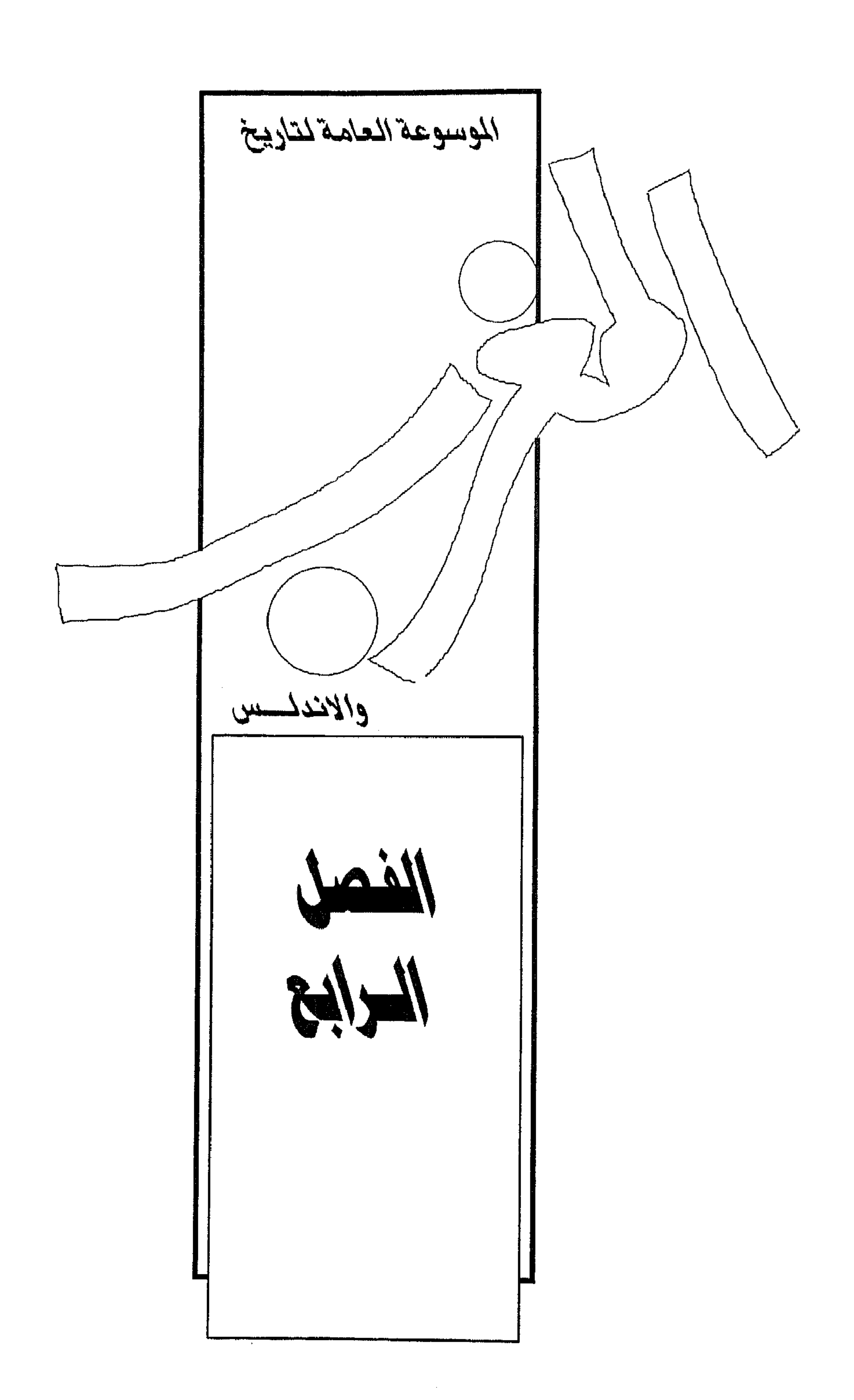
بعد أن احتل الاسبان المدن الأندلسية كان الملوك والحاشية يرغمون الأميرات العربيات وبنات الأسر العربية على الرقص في حفلاتهم الخاصة، فكانت الفتاة العربية ترقص مرغمة ولكن في كبرياء خصوصاً عندما تشاهد وهي تنظر بكبرياء وازدراء الى مُراقصها وترفع برأسها عالياً في عزة وأباء، ففي كل حركة والتفاتة من الراقصة صرخة عزّ ممتهن وكرامة مهدورة وأنوثة مستباحة.







احدى الرقصات الفولكلورية الأندلسية


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلس
الفصل
الرابع

معركة الزلاقة[1]

كان ملوك القوط وأمراؤهم في أواخر الدولة الأموية في الأندلس غارقين بالمنازعات والخلافات الناشبة فيما بين الأسر القوطية الحاكمة. ولكنهم سرعان ما استيقظوا على صوت المجد ـ والمجد لا وطن له لأنه حليف البطولات والاعلام الخفاقة ـ وقد شعروا ـ بعد قيام عهود الطوائف العربية الاسلامية، بأنه قد حان لهم أن يتخلصوا من منازعاتهم وخلافاتهم وأن يعدوا أنفسهم لاسترداد مستوطناتهم القديمة، التي أخذها العرب منهم وسموها الأندلس، فأقبل بعضهم على بعض يجتمعون ويتفاهمون، فتوحّدت مملكتا ليون وكاستيل «قِشْتَالة» تحت لوائي فردناند الأول وولده الفونس السادس، وبهذا الاتحاد بدا الخطر ماثلاً أمام دول الطوائف لكل ذي عينين وقلب وبصيرة وضمير..

---

(١) الزلاقة: موضع في إسبانيا بالقرب من بطليوس: (بداخوث اليوم) هزمت فيه جيوش السلطان يوسف بن تاشفين المرابطي قوات الملك الفونس السادس القشتالي في يوم الجمعة ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦. وتعرف الآن ساحة هذه المعركة المشهورة باسم سجرجاس على ضفاف نهر ريو حريري.

أما الفونسو فقد أصبح طاغية النصارى، فلم يعد له من أمل سوى تقويض عروش ملوك وأمراء الطوائف المسلمين، فانقض على شمال الأندلس، اذ كان الأضعف في محيط الضعفاء المتخاذلين فاستولى على جليقية ونافار، وتسابق امراء النصارى وأمراء المسلمين على السواء في الرضوخ لأوامره والسعي الى اكتساب مرضاته.

وكان أول تحوّل عن المجد الى السير في ركاب الأعداء لأن المجد حليف العظائم كما قال الشاعر العربي المتنبي:

فما المجد الاّ السيف والفتكة البكرُ[1]

ورأى الفونسو أن المسلمين تحت حكم الطوائف أصبحوا سائبة فهم «غنماً» كما قال الشاعر:

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولّى رعيها الأسد

وكان الأسد في ذلك الوقت الفونسو السادس في الأندلس فعزّ وساد وصال وجال بين قطعان الغنم، وانتحل لنفسه لقب امبراطور.

وظهر في الفترة نفسها فارس لاكالفرسان وهو رودريكو ديازدي بيفار الملقّب بالسيد (CID) وهو اللّقب الذي اسبغه عليه المسلمون في الأندلس

---

(١) من قصيدة للمتنبي يمدح فيها علي بن أحمد بن عامر الانطاكي والبيت هو:
ولا تسحبن المجد زقاً وقينة فما المجد الاّ السيف والفتكة البكر

الزق هو دعاء الخمر والقينة هنا هي المغنية والفتكة هي المرّة من الفتك وهو البطش والبكر من كل شيء هو الذي لم يسبقه نظير ومعنى البيت:
لا تظنّن المجد والشرف أن تلهو بشرب الخمر وسماع القيان لا ـ فليس المجد الأضرب السيف والبطش بالأعداء بطشاً لم يسمع بمثله: (راجع ديوان المتنبي ص٢/ ٢٥٣).

وكان مشهوراً بالمبارزة مع أمثاله من فرسان السيف من أهل كاستيل «قشتالة» التي كانت عربية قبل سنوات. ولكن أمراءها كانوا يومها فرسان كؤوس وخيالة نساء[1] . وهي تابعة لإمارة بلنسية التي كانت تدعى الدولة العامرية. وراح الفونسو السادس من جهة ورودريكو (السيد) من جهة أخرى يهاجمون دولة المعتمد بن عباد ويثخنانها بالجراح. وفي إحدى صحواته قرّر المعتمد أن يستنجد بليث المغرب الشجاع يوسف بن تاشفين لأن الفونسو المستأسد لا يمكن أن يبارزه الأليث الصحراء المغربية أسد مراكش فوجه المعتمد اليه كتاباً يستغيث به ويستنصره الى الجهاد يقول فيه:

نص رسالة المعتمد بن عباد ليوسف بن تاشفين

«لما كان نور الهدى أيدك الله دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك ووقفت على الجهاد عزائمك وصحّ العلم بأنك لدعوة الاسلام أعزّ ناصر وعلى غزو الشرك أقدر قادر وجب أن تستدعى، لما أعضل الداء وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها (أهلكهم الله) عند إفراط تسلطها واعتدائها

---

(١) لقد أورد المقري في النفح وصفاً مخزياً لأهل الأندلس بسبب أنغماسهم في اللهو وغفلتهم عن عدوهم حتى أضاعوا الأندلس فقال:

...وذكر بعد ذلك كلاماً في ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل وان من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية نبيهم وغفلتهم عن سد ثغورهم حتى أطل عدوهم الساعي لاطفاء نورهم يجوس خلال ديارهم ويستقري بسائط بقاعهم ويقطع كل يوم طرفاً ويبيد أمة ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم لهاة عن بثّهم ما إن سمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مُذَكِّر لهم أوداع؛ فضلاً عن نافر اليهم أو ماش لهم حتى كأنهم ليسوا منا أو كأن بثقهم ليس بمفض الينا وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء عجائب فاتت التقدير وعرضت للتغيير ولله عاقبة الأمور واليه المصير (النفح ٤/ ٤٥٢)

وشدة كلبها واستشرائها تلاطف بالاحتيال وتستنزل بالأموال ويخرج لها عن كل ذخيرة وتسترضي بكل خطيرة. ولم يزل دأبها التشطط والعناد ودأبنا الإذعان والانقياد حتى نفذ الطارف والتلاد وأتى على الظاهر والباطن النفاد وأيقنوا الآن بضعف المنن وقويت أطماعهم في افتتاح المدن واضطرمت في كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم. ومن أخطأه القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا وقد هموا بما أرادوه من التوثب وأشرفوا على ما أملوه من التغلب فيالله ويا للمسلمين. أيسطو هكذا بالحق الأفك ويغلب التوحيد الشرك ويظهر على الايمان الكفر ولا يكشف هذه البلية النصر. ألا ناصر لهذا الدين المهتضم! الا حامي لما استبيح من الحرم؟... وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزّه من ذل. فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء والبلية التي ليس مثلها بلاء. ومن قبل هذا كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال ذلك التخاذل يتزايد والتدابر يتساند حتى تخلّصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سُرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة وواسطة «القلادة» تدركها من جميع نواحيها ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها. وما هو الا نفس خافت وزمر داهق استولى عليه عدوٌّ مُشرك وطاغية منافق إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً وتتداركوها ركباناً ورجالاً وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً. وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتْلى ولا بما فيه حديث رسول الله (ص) فإنكم الى معرفته أهدى. وكتابي اليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها ومشتمل على نكتة هو يبينها ويوضحها فإنه لما توجه نحوك احتساباً وتكلف المشقة اليك طالباً ثواباً عولت على بيانه

ووثقت بفصاحة لسانه والسلام[1] .

وراحت الحوادث تجري بسرعة مدهشة خصوصاً بعد ان سقطت طليطلة بيد الفونسو السادس في صفر ٤٧٨هـ/ مايو ١٠٨٥م وتضعضع وجود المسلمين في الأندلس من الأنباء المتداولة عن انتصارات القوط في شبه الجزيرة. وانطلاقاً من هذه الأحداث المفجعة كان لا بد من تدخل المرابطين لانقاذ ما بقي للمسلمين من وجود. ذلك أن أمراء الطوائف فوّتوا على أنفسهم كل فرصة للاتحاد والوقوف صفاً واحداً في وجه العدو المشرك وجنوده المدربين أحسن تدريب وأصبح الاتحاد بينهم أمراً مستحيلاً بعد أن أخذ الأمراء يحارب بعضهم بعضاً ويكيد بعضهم لبعض فنفرت القلوب وتفشّت الضغائن وحلّ الشك محل اليقين في الصدور فهيهات أن تصفو النفوس وتتّحد هذا مع العلم بأن الأندلس لم تكن تقل بامكاناتها البشرية عن المغرب حتى أنها تفوقت عليه بامكاناتها المادية وخيراتها الوافرة.

ابن حزم يصف حالة الأندلس في زمن أمرائها

هذا وقد صوّر لنا ابن حزم تلك الحياة اللاأخلاقية التي عاشها الأندلسيون في ظل حكم أمراء الطوائف بكثير من المرارة عندما قال: «... وليس على الناس ان يبحثوا عن أصول ما يحتاجون اليه في أقواتهم ومكاسبهم اذ كان الأغلب هو الحلال وكان الحرام مغموراً وأما في زماننا هذا وبلادنا هذه فإنما هو باب أغلق عينيك وأضرب بيديك ولك ما تخرجه أما ثمرة وإما جمرة وإنما فرقت بين زماننا هذا والزمان الذي قبله لأنه الغارات في أيام الهدنة لم تكن غالبة ظاهرة كما هي اليوم والمغارم التي كان يقبضها السلاطين فإنما كانت على الأرضين خاصة فكانت تقرب مما فرض

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس ض٢/ ٩٢ ـ٩٣ (نقلاً عن البيان المغرب في الأوراق المخطوطة).

عُمر على الأرض. وأما اليوم فإنما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة ويؤدونها مشاهرة وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل يرسم على كل رأس وعلى كل خليّة شيء ما، وقبالات ما يؤدي على كل ما يباع في الأسواق وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد. هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم وهذا هو هتك الأستار ونقض شرائع الاسلام. وحلّ عراه عروة عروة وإحداث دين جديد والتخلي عن الله عزّ وجلّ. . . . والله لو علموا[1] أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا اليها. فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى الى بلادهم. وربما يحمونهم عن حريم الأرض ويحشرونهم معهم أمنين. وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلّوها من الاسلام وعمروها بالنواقيس لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه[2].

وكان المرابطون قد حلّوا محل الزناتيين في المغرب على عهد الأدارسة لذلك لم يعد لديهم أي خيار بالتدخل في الأندلس حتى ولو لم يستنجدوا بهم.

فالأندلس تقع في شمالي المغرب، ومن يستولي على الأندلس يصبح من السهل عليه أن يستولي على المغرب. وكان المعتمد بن عباد أوّل من فكّر بالاستنجاد بالمرابطين، وأيّده في ذلك رجال بلاطه، لذلك أنيطت دعوة المرابطين لنجدة الأندلس بالمعتمد لمجابهة مشاريع الفونس الحربية. وحذّر بعض القادة المنتفعين والمتعاونين مع الفونس المعتمد من مغبة هذا التصرف وبينوا له سوء العاقبة قائلين له: إذا ربح يوسف بن تاشفين المعركة

---

(١) يعني بهم أمراء الأندلس.

(٢) أقوال ابن حزم نشر Asin Palacios مجلة (الأندلس) ص٣٧ سنة ١٩٣٤.

فسيأخذ البلاد منك ويضمها اليه ولن يترك لك العرش لتتمتع بثمرة الانتصار ساعتئذٍ قال لهم قولته المشهورة. «أفضل ألف مرّة أن أرعى الجمال لدى ابن تاشفين على أن أرعى الخنازير لدى الفونس.

ولما حاصر الفونس السادس سرقسطة، ورفض فك الحصار عنها بعد أن وعده أميرها بجزية مغرية، تَشَكّل وفدٌ من سكان الأندلس قوامه قضاة قرطبة وغرناطة وبطليوس ترأسهم الوزير ابن زيدون، الشاعر المشهور وصاحب ولّادة، وخوّل المعتمد وزيره ابن زيدون عقد أي اتفاق مع يوسف بن تاشفين(١).

وتلقّى يوسف بن تاشفين(٢) وفد قضاة الأندلس بترحاب واستمع الى

---

(١) جاء في النفح ما يلي: . . . لما أظهر ابن عباد من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو استشير الناس وفرحوا بذلك وفتحت لهم أبواب الآمال وأما ملوك الطوائف فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك اهتموا منه ومنهم من كاتبه ومنهم من كلمه مواجهة وحذره عاقبة ذلك. ولما عزم أمر صاحب بطليوس المتوكل عمر بن محمد وعبد الله بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة أن يبعث اليه كل منهما قاضي حضرته ففعلا واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه فلما اجتمع عنده القضاة بأشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون وعرفهم أربعتهم أنهم رسله الى يوسف بن تاشفين واسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد واسند الى وزيره ما لا بد منه في تلك السفارة من ابرام العقود السلطانية. وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين الله والاسلام مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته فيسمع اليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم (النفح ٤/ ٣٦٠)

(٢) يقول المقري في النفخ في استقبال ابن عباد وليوسف بن تاشفين ما يلي:
فلما عبر يوسف وجميع جيوشه الى الجزيرة الخضراء انزعج الى اشبيلية على أحسن الهيئات جيشاً بعد جيش وأميراً بعد أمير وقبيلاً بعد قبيل وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه. وتواردت الجيوش مع أمرائها على اشبيلية وخرج المعتمد الى لقاء يوسف من أشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم وركضوا

شكواهم، فطلب اعطاءه قاعدة عسكرية ثابتة تمكنه من القيام بحملته العسكرية وكان يعني بطلبه هذا «الجزيرة الخضراء» وهي قاعدة بحرية واقعة على الشاطىء الأندلسي.

ولم يكن أمراء الأندلس أقوياء حتى يرفضوا طلبه فمنحوه ما أراد، فعبر بجيشه المضيق عام ١٠٨٦م/ ٤٧٩هـ في حين كان الأندلسيون قد اعلنوا النفير العام، واستقبل المعتمد يوسف بن تاشفين خارج اشبيلية استقبالاً يليق بأمير المسلمين في المغرب، وقدم له هدايا ثمينة جداً، كما قدم لكل جندي مرابطي هدية لائقة[1].

الزحف المرابطي نحو الشمال

وزحفت قوات يوسف بن تاشفين نحو الشمال، وشعر ملك قشتالة بالخطر الذي يتهدده فرفع الحصار عن سرقسطة الذي دام شهوراً، واستدعى من بلده كل شاب قادر على حمل السلاح، وراح رهبان دولته يحثون النصارى على التطوع وحمل السلاح، ووصل الى جيش الفونس المتطوعون من فرنسا وايطاليا، واشترك بعض المسلمين ممن احتلت بلادهم سابقاً في جيش العدو الصليبي.

وأخيراً عسكر الجيشان في سهل الزلاقة. ولم يكن يفصل بينهما الآ مسافة قليلة.

نحوه فبرز اليه يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله تعالى وتواصيا بالصبر والرحمة وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر. (النفح ص٤/ ٣٦٢ نقلاً عن الروض المعطار للحميري).

(١) الحلل الموشية ٣٥-٣٨- نفح الطيب المذكور أعلاه - ابن الأثير ١٠/ ٥٢.

مراسلة بين الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين

وأرسل يوسف بن تاشفين رسولاً الى الفونسو السادس يخيّره إما بدخول الاسلام أو بدفع الجزية أو الحرب، ومما جاء في تلك الرسالة: «بلغنا يا أذفونش أنك دعوت الى الاجتماع بنا وتمنّيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا. فقد عبرنا إليك. وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك. وسترى عاقبة دعائك. وما دعاء الكافرين الا في ضلال»[1]. فغضب الفونسو لتلك الرسالة غضباً شديداً وشعر بأنه أهين وردّ على يوسف بن تاشفين رافضاً العرض ووجّه اليه كتاباً غليظاً ذا كلمات ناريّة نابية مهدداً متوعّداً قائلاً: «أبمثل هذا يخاطبني وأنا وأبي من قبلي فرضنا الجزية على أهل ملته منذ ثمانين سنة والله لانهضت من مكاني. فليزحف اذا شاء.» فما كان من يوسف الاّ أن ردّ اليه كتابه ذلك بعد أن كتب عليه عبارته المشهورة (الذي يكون سَتَراه).

ونظر الفونس حوله فلم يقدر أن يتمالك نفسه من العجب لدى رؤيته أعداده الضخمة فصاح بحشوده قائلاً: وقد تملّكه الغرور «برجال كهؤلاء أقاتل الشياطين والملائكة والأشباح والإنس والجنّ» وبالرغم من حماسته المصطنعة فقد أضمر في نفسه الخدعة والغدر. واقترح على خصمه يوسف بن تاشفين أن يكون اللقاء الحاسم يوم الاثنين ١٤ رجب سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م.

وفطن قادة المعتمد الذين مارسوا الحرب مع الفونس من قبل، وأصبحت لديهم الخبرة الكافية بأساليبه الخداعة، فطنوا الى أنه ينوي أن يغدر بهم، فعمد المعتمد الى مضاعفة رجال الحراسة في الليل، ورقد جنوده وعيونهم مفتحة وأيديهم على مقابض سيوفهم في تعبئة كاملة.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥٠

كيف كانت استعدادات المسلمين للحرب

كانت أسلحة القشتاليين أكثر تطوراً من أسلحة الأندلسيين والمغاربة، فدروعهم الحديدية أثقل وجيادهم أقوى تفوق جياد المسلمين، لأنها جياد جبلية فهي أشد احتمالاً للبرد والصقيع. وكان الرهبان يخبرون الجنود بأن مهمتهم موكولة اليهم من السماء لذلك كانت حماستهم أشد.

وكان معسكر المسلمين تنقصه الوحدة والانسجام، والأمراء الأندلسيين لا يثق بعضهم ببعض، وكان الأندلسيون ينظرون الى حلفائهم البربر بخوف ورهبة وحذر، وقد تجلّى الفرق بين استعداد الطرفين للحرب، فالمغاربة «البربر» كانوا أشد حماسة وأكثر تقشّفاً، في حين كان الأندلسيون أكثر ترفاً وأقلّ حماسة واستعداداً، ويقال أن أمراء الطوائف كانوا يرفلون بالألبسة الحريرية التي يعتبرها المرابطون من ملابس النساء. وكان المعتمد على شجاعته كعربي محارب لا ينفك يستعين بالمنجمين ليستطلعوا من النجوم له بعض النبوءات.

المعتمد بن عباد يخوض المعركة

وقبل أن يلوح فجر يوم ١٢ رجب ٤٧٩هـ ـ ٢٣ اكتوبر سنة ١٠٨٦ تحوّلت شكوك المعتمد الى ما يشبه اليقين والوقائع الثابتة، فموقع الأندلسيين في المقدمة كان في منتهى الحرج. خصوصاً عندما هاجمهم جيش العدو وغشيهم فرسان الفونس، ففرّ الجنود الأندلسيون فراراً مخزياً من الميدان، فوقع ثقل الهجوم على جيش المعتمد بن عباد وهو في وسطهم يصول ويجول كالأسد المزمجر، ويحثّ قواده على الثبات والصبر، فثبّتوا أقدامهم في أرض الميدان، والتفّ الفرسان بالمعتمد، وراحوا يهاجمون بسيوفهم الأعداء صفاً واحداً. حتى اثّخن المعتمد بالجراح وقتل تحته ثلاثة

أفراس، وكان لا يفتأ يصيح ويحرّض أبطاله طالباً اليهم أن يحرصوا على الموت لكي ينالوا الشهادة في عزّ وأباء، ولم يبقَ في المقدمة سوى المعتمد وأبطاله بعد أن فرّ أمراء الأندلس بعساكرهم الجبانة وشعر المعتمد بالخطر، فأرسل الى يوسف بن تاشفين رسلاً يستعجله بمباشرة القتال ويعلمه بالخطر المحدق بهم.

الخطة الحربية التي اعتمدها يوسف بن تاشفين

كان يوسف ما يزال وسط جيشه يقلب عينيه كالنسر المحلّق في الميدان، وقد عزم على تنفيذ خطته التي أعدّها حتى تلوح له الفرصة المناسبة، وقال المؤرخون في تردّده كثيراً من الأقوال.

وكانت خطة يوسف بن تاشفين جليّة واضحة لقد أراد أن ينهك جيش القشتاليين بالفرسان العرب، الى أن تنكشف أمام عينيه مواقعه، فلما لاحت له الفرصة المناسبة أصدر أوامره الى قائديه داود بن عائشة، وسير بن أبي بكر أن يهاجما القشتاليين من اليمين والشمال وأن يحدقا بهم. فانطلق فرسان المغرب ومن خلفهم المشاة وأحاطوا بجيش القشتاليين وانهالوا عليهم ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح. فتنفّس المعتمد ورجاله الصعداء.

ولما صار يوسف بن تاشفين وجيشه المؤلف من لمتونة وصنهاجة في مؤخرة القشتاليين انقضّ فجأة على مؤخرتهم فمزّقها شر ممزق، وحوصر القشتاليون وأحرقت خيامهم، وأغلقت الطرق عليهم فذعروا، واشتدّ ذعرهم من قرع الطبول الأفريقية وأرعبتهم جعجعة الجمال اللمتونية فطاشت عقولهم، وفي أثناء ذلك عاد أمراء الأندلسيين الفارين واقتحموا المعركة، وهكذا لم يعد أمام القشتاليين أي منفذ يهربون منه، وأي أمل لهم في النجاح في معركتهم الخاسرة.

وشاهدوا الموت ممثلاً بهجمات يوسف بن تاشفين ومن حوله فرسان لمتونة الملثمون بحيث لم يكن يظهر من وجوههم السمر سوى أعين تقدح بالشرر.

وبدا يوسف كالأسد الهائج وهو يصيح مزبداً: يا معشر المسلمين أصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأمر العظيم والغنيمة الكبيرة.

وقاتل جنود قشتالة ببسالة، وكانوا منذ ساعات قليلة يعتقدون أنهم ظفروا بجيش المعتمد وكسبوا، ولكن المغاربة قلبوا الظفر الى هزيمة والكسب الى خسارة منكرة[1].

---

(١) يقول ابن خلكان نقلاً عن كتاب (تذكير العاقل وتنبيه الغافل) للبياسي في وصف هذه المعركة أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت فغدر الفونس ومكر فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد والروم في أثرها والناس على طمأنينة فبادر ابن عباد للركوب وبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها ووقع البهت ورجفت الأرض وصار الناس فوضى على غير تعبية ولا أهمية ودهمتهم خيل العدو فأحاطت بابن عباد وحطمت ما تعرض وتركت الأرض حصيداً خلفها وجرح ابن عباد جرحاً أشواه وفرّ رؤساء الأندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها وظنوا أنه وهي لا يرقع ونازلة لا تدفع وظن الفونس أن السلطان يوسف في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين فركب أمير المسلمين وأحدق به أنجاد خيله ورجله من صنهاجة رؤساء القبائل وقصدوا محلة الفونس فاقتحموها ودخلوها وفتكوا فيها وقتلوا وضربت الطبول وزعقت البوقات فاهتزت الأرض وتجاوبت الجبال والآفاق وتراجع الروم الى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فصدموا أمير المسلمين فأفرج لهم عنها ثم كرّ عليهم فخرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى الى ان أمر أمير المسلمين حَشَمَهُ السودان فترجّل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الران فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الفونس بأسود نفدت مزاريقه فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على عنانه وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به فأثبته في فخذه فهتك حلق درعه وهبت ريح النصر فأنزل الله سكنيته على

وهكذا توحّد العرب والبربر في هذه المعركة وأبدى حرس يوسف بن تاشفين فنوناً عجيبة في القتال، وجسارة منقطعة النظير، فتحمّس الأندلسيون، وقاتلوا في هذه المرة قتالاً ضارياً للذود عن أوطانهم وتخلّوا عن جبنهم وترفهم وصدقوا الله في المعركة وبيّضوا وجه أوطانهم.

الفونسو السادس يفرّ من المعركة

وهلك في هذه المعركة زهرة فرسان القشتاليين وأصيب الفونس بطعنة خنجر من أحد فرسان يوسف بن تاشفين، ولكنه نجح في الهرب معتمداً على الظلام مع ٥٠٠ من جنوده فقط، وظل المسلمون يطاردون العدو معظم الليل.

وفي اليوم التالي تلقّى يوسف بن تاشفين نبأ موت أبنه في مدينة «سبتة» المغربية، ويقال بأن هذا هو سبب إحجامه عن مطاردة الفونس الهارب فأرسل قائده «مزدلي» الى المغرب لضبط الأمور، لضمان عدم قيام ثورة ضده.

وقام المعتمد بوداع يوسف بن تاشفين الى حدود الأندلس بعد أن قدّم اليه هدايا لا تعدّ ولا تحصى معترفاً بجميله شاكراً أياديه، حامداً له نَخْوَتَهُ ونجدته له وذوده عن العروبة والاسلام في تلك الديار.

عبد الجليل بن وهبون يخلّد الانتصار العظيم

عاد المعتمد الى قصره في أشبيلية لتلقي التهاني. ومن الشعراء الذين أنشدوه في تلك المناسبة مهنئين عبد الجليل بن وهبون المرسي فقال من

المسلمين ونصر دينه القويم... النفح ٤/ ٣٦٧.

قصيدة:

فثار إلى الطعان حليف صدقٍ تثور به الحفيظة والذمام
نمي في حمير ونمتك لخم وتلك وشائج فيها التحام
فيوسف يوسف إذ أنت منه كيامن لا وهى لكما نظام[1]
نهجت لسيله نهجاً فوافى وفي أذيّة الطامي عرام
فهيل به كثيب الكفر هيلا وكل رفيغةٍ منه ركام[2]
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضاً كأن وهادها منهم أكام
عديد لا يشارفه حساب ولا يحوي جماعته زمام
تألّفت الوحوش عليه شتى فما نقص الشراب ولا الطعام
فإن ينج اللّعين فلا كحرٍّ ولكن مثلما ينجو اللّئام
ولم يثبت من الأشياع إلاّ شقيقك، وهو صارمك الحسام
تبثّ به ثبات القطب لما أدار رحاه خطب لا يرام
فأين العجب يا أذفونش هلاّ تجنّبت المشيخة يا غلام
ستسألك النساء ولا رجال فتخبر ما وراءك يا عصام[3]
أقمت لدى الوغى سوقاً فخذها مناجزة، وهون ما تشام
فإن شئت اللّجين فثمّ سام وإن شئت النضار فثمّ حام
رأيت الضرب تصليباً فصلب فأنت على صليبك لا تلام
أنام رجالك الأشقون؟ كلا وهل يحلو بلا رأسٍ منام

---

(١) كيامن: مثل يا من (يعني بنيامين أخا يوسف الصديق).
(٢) رفيغة: الرفيغة، التراب اللين.
(٣) ما وراءك يا عصام مثل أنظر جمهرة العسكري ٢/ ٢٥٥ تحقيق أبي الفضل ابراهيم (الذخيرة).

رفعنـــا هـــامَهُـــم فـــي كـــل جـــذع ... كمـــا ارتفعـــت علـــى الأيـــك الحمـــام
سيعبـــد بعـــدهـــا الظلمـــاء لمّـــا ... أتيـــح لـــه بجـــانبهـــا اكتتـــام
ولا ينفـــك كـــالخفّـــاش يُغضـــي ... إذا مـــا لـــم يبـــاشـــره الظـــلام
نضـــا أدراعـــه واجتـــاب ليـــلاً ... يـــودّ لـــو أنّ طـــول الليـــل عـــام
وليـــس أوان لـــلأيـــم انســـلاخ ... ولكـــن فـــي ضمـــائـــره احتـــدام[1]

هذا الانتصار العظيم الذي حققه جيش المسلمين المتحد كان ينبغي متابعته للقضاء على الفونس واحتلال معاقله لقطع دابره الى أبد الأبدين ولكن يوسف بن تاشفين غادر البلاد وترك وراءه للمؤرخين ألف علامة استفهام.

هذا التصرف من ملك المغرب لم يحمده جميع المؤرخين في الماضي والحاضر، لأن الفرصة كانت سانحة للقضاء على الفونس السادس وفلوله، على اعتبار أنه كان من أشد المتحمسين لابادة العرب والمسلمين والاستيلاء على بلادهم الأندلس. ولكن تصرف ابن تاشفين أعطى الفرصة لألفونس لكي ينهض من كبوته فيجمع فلوله من جديد ويعود مرة أخرى الى الميدان كجريح عاد ليأخذ بثأره[2].

---

(١) لما رجع ابن عباد الى اشبيلية جلس للناس وهنىء بالفتح وقرأت القرُّاء وقام على رأسه الشعراء فأنشدوه. قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه فقرأ القارىء: (إلاَّ تَنْصُروه فقد نَصَرَه الله ـ التوبة ٤٠) فقلت: بعداً لي ولشعري! والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به. (النفح٤/ ٣٧٠).

(٢) يقول ابن عذاري: لما انحاز الطاغية بشرمذته جعل ابن عباد يحرّض على أتباع الطاغية وقطع دابره فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال: لو اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين فيهلكهم، بل نصير بقية يومنا حتى يرجع الينا أصحابنا ويحتموا بنا ثم نرجع اليه ونحسم داءه، وابن عباد يرغب في استعجال أهلاكه ويقول: إن فرّ أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه. ويوسف مصر على الامتناع من ذلك. ولما جاء الليل تسلل الفونس وهو لا يلوي على شيء

ومهما يكن من أمر فقد اقتنع يوسف بن تاشفين بهذا القدر من النصر فتفرق الجيش الاسلامي بعد أن وضع في تصرّف المعتمد بن عباد مجموعة من الجنود تقدر بحوالي ثلاثة آلاف جندي تقريباً. هذا وقد قيلت في تصرف يوسف هذا أقوال كثيرة:

منها انه تلقّى في هذا اليوم بالذات نبأ وفاة ولده الأمير أبي بكر الذي كان قد تركه مريضاً في مراكش ومنها أن سبب رجوعه بهذه السرعة الى مراكش يعود الى استيائه من وضع أمراء الأندلس الفاسد وخلافاتهم المستحكمة فيما بينهم من جهة وبينهم وبين شعوبهم من جهة أخرى. ويعلّق العلامة المستشرق الأستاذ كوديرا Codera على ذلك بقوله:

«أنه كان من حسن الطالع بالنسبة للنصارى أن يوسف الظافر في الزلاقة قد تلقى عقب نصره نبأ وفاة ولده الأمير أبي بكر سير واضطران يعود الى مراكش تاركاً فكرة مطاردة الجيش المنهزم واجتناء الثمرة التي يمكن أن تجنى من مثل هذا النصر العظيم وهي الاستيلاء على طليطلة. وهي فكرة كانت تبدو طبيعية ولكنها لم تكن قد استقرت في ذهنه بصورة عملية. وذلك بالرغم مما يقوله لنا المؤرخون العرب من أنه لولا موت ابنه لما غادر الأندلس بهذه السرعة. وبالرغم من أن المؤرخين يؤكدون أن هزيمة الفونسو السادس كانت مروعة وأنه استطاع الفرار بمنتهى المشقّة مع نفر قليل من صحبه، فإن قواته لم تتضعضع كما يتصور بدليل أنه لم يمضِ سوى قليل حتى غدا في ظروف تسمح له بالهجوم ولكن الحظّ كان ضدّه دائماً»[1].

واحتفل البطل ابن تاشفين بإرسال أربعين ألف رأس من ضحايا معركة

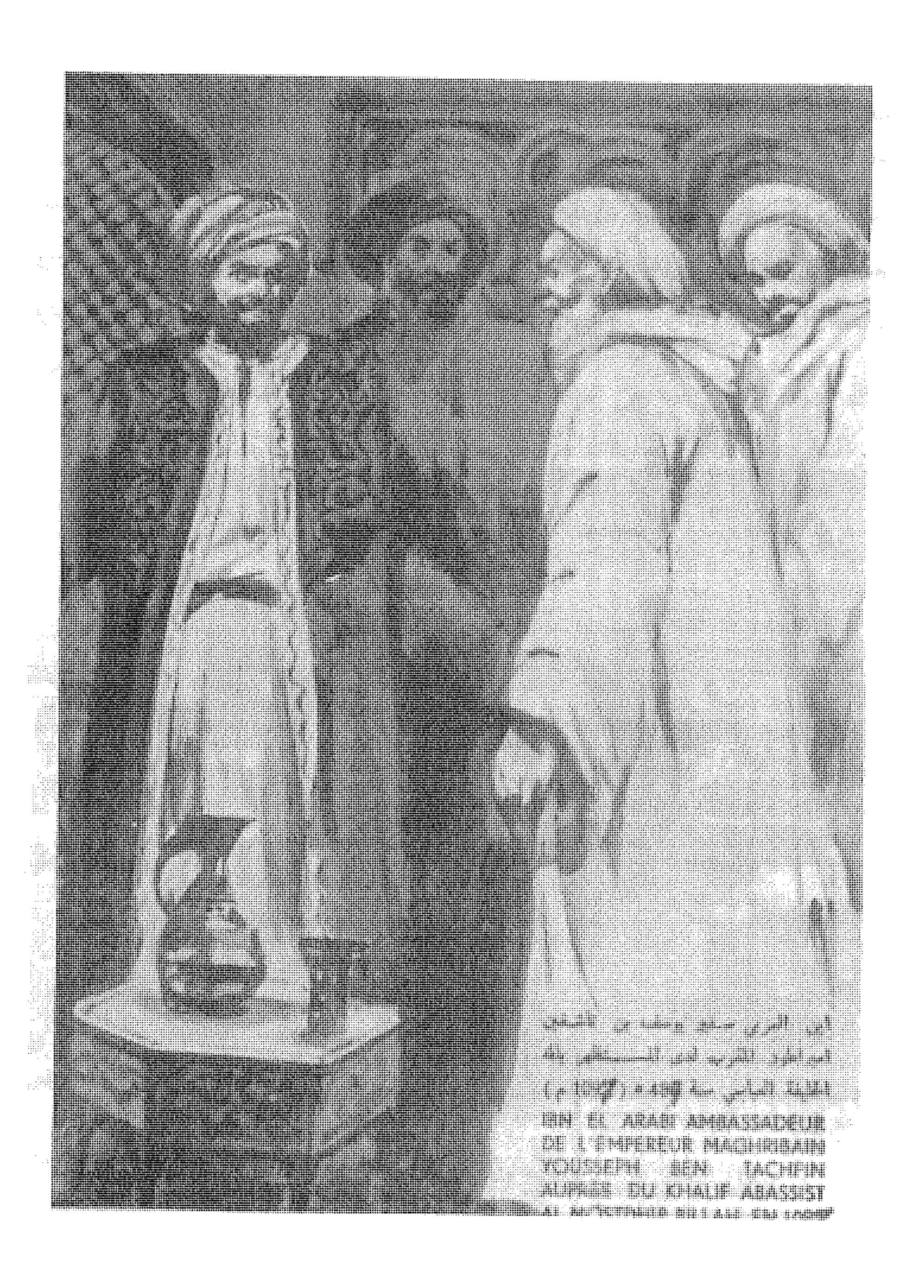
وأصحابه يتساقطون في الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهم فلم يدخل طليطلة الا في دون المائة. (البيان المغرب ٢/ ١٣٨).

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس ص٣٣٠ نقلاً عن: F. Codera.

الـزّلاقـة القـريبـة مـن بطليـوس الـى العـدوة المغـربيـة كشهـادة لا تنكـر على انتصاره. وسر مسلمو الأندلس بذلك الانتصار واحتفلوا به وسارع شعراء أشبيلية بمدائحهم للأسد المراكشي. ثم عاد ملوك الطوائف الى كؤوسهم وجواريهم ولم يتعظوا ولم يستفيدوا من تلك المحنة القاسية التي مرت بهم ولم يتخذوا منها حافزاً لتجديد أنفسهم وتجديد قواتهم، والعودة الى الاتحاد لتجنّب الخطوب العظمى..

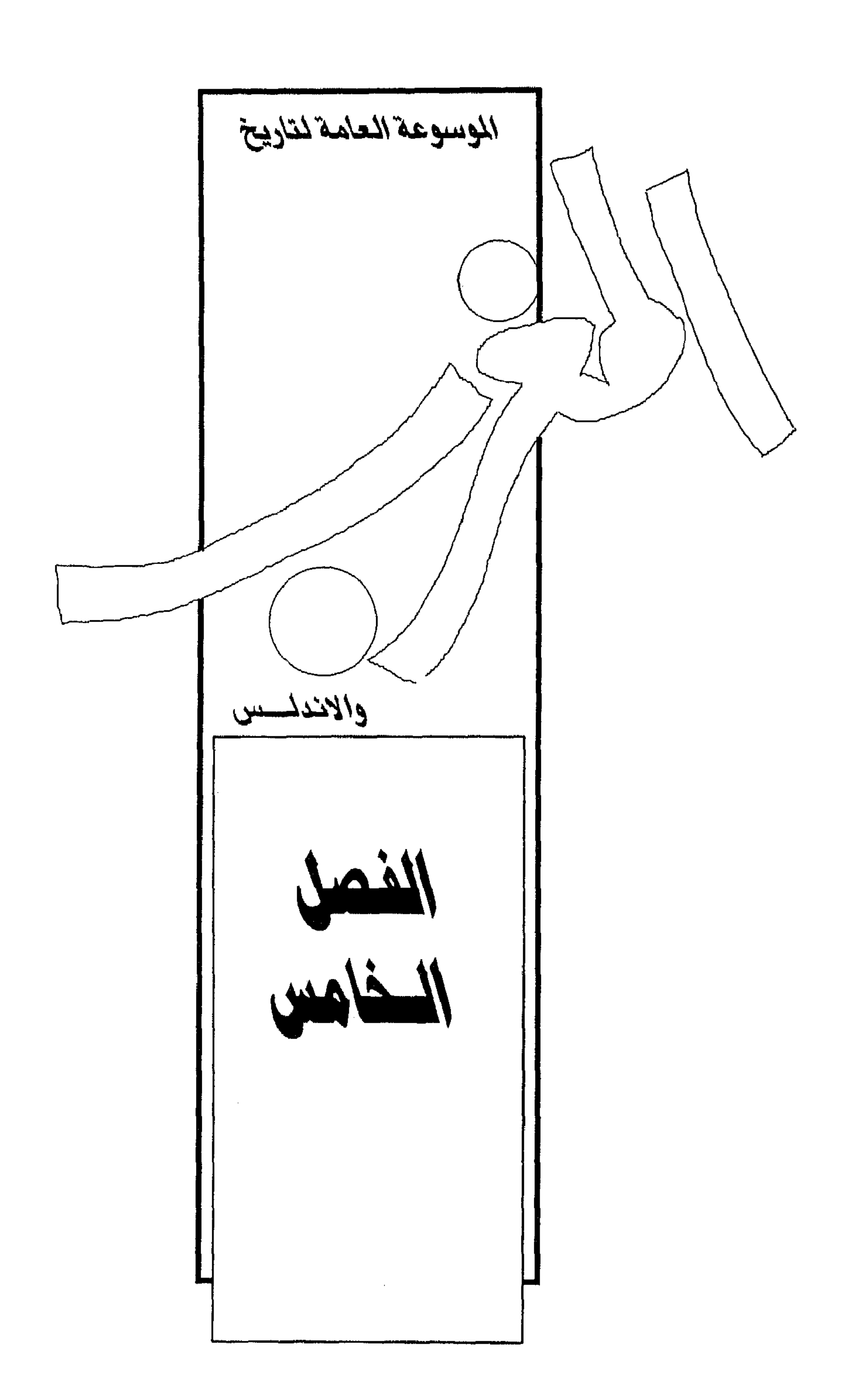


الجزيرة الخضراء ـ باب العبور الى اسبانيا



ابن العربي سفير يوسف بن تاشفين
امبراطور المغرب لدى المستظهر بالله
الخليفة العباسي سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م)

IBN EL ARABI AMBASSADEUR
DE L'EMPEREUR MAGHRIBAIN
YOUSSEPH BEN TACHFIN
AUPRÈS DU KHALIF ABASSIST


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلـــس
الفصل
الخامس

عودة التحرك القوطي والخلافات العربية المستحكمة

لما بدأ الزحف القوطي من جديد سارع ابن عباد الى مقابلة ابن تاشفين مستنجداً بمروءته ونخوته لنصرة إخوانه المسلمين في الأندلس . .

الهجوم المرابطي الثاني على الأندلس

ومرة أخرى استجاب ابن تاشفين في العام ٤٨١هـ/ لدعوة المستغيثين وتقدم نحو لييط وهي مدينة «اليدو» الاسبانية ومعه حلفاؤه أمراء أشبيلية وغرناطة والمريَّة ومرسية وجيوشهم الصغيرة ولكنَّ خلافاً حاداً تشب بين المعتمد وأمير مرسية، واختير ابن تاشفين ليكون حكماً بين المتخاصمين، وكان الحق مع إبن عباد، فآزره ابن تاشفين عندئذٍ توقف أمير مرسية عن متابعة التعاون مع الحملة[1] . وفي أثناء ذلك الخلاف وصلت نجدة من

(١) أمير مرسية هذا هو ابن رشيق الثائر بها على المعتمد بن عباد فعندما شكا ابن عباد بإبن رشيق أمر يوسف بن تاشفين بالقبض على ابن رشيق واسلامه في يد ابن عباد ونهاه عن قتله فثقفه ابن عباد فهرب للحين أصحاب ابن رشيق وقرابته وجميع محلته الى مرسية وانتزوا بها ومنعوا الميرة عن المحلة فاختلت أمورها ووقع الغلاء بها وارتفع السعر فيها فضاقت بالناس الأموال وفي أثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم فأخذ في الحشد ويمم الحصن في أمم لا تحصى (البيان ٤/١٤٢).

القوط الى القوات القوطية المهيأة للنزال. وفجأة إنسحب معظم أمراء الأندلس من الحملة فاضطر ابن تاشفين الى الانسحاب والعودة الى بلاده.. بعد أن اختمرت في رأسه فكرة ملحة بأن إنقاذ الأندلس لا يمكن أن يتحقق الاّ بإنقاذها من أمراء الطوائف:

وكنا قد قلنا في بعض فصول هذا الكتاب أن العرب عندما إنتقلوا بقبائلهم اليمنية والقيسية المُضرية الى الأندلس حملت كل قبيلة معها جعبة خلافاتها مع القبائل العربية الأخرى: وهكذا حملوا معهم كل خلافاتهم وتناقضاتهم وعصبياتهم في الجاهلية والاسلام، وعنجهياتهم وعداواتهم وحزازاتهم القديمة والمستجدة، الى الأندلس، فعملوا أول ما عملوا على التخلص من الخلافة الأموية التي وحدت الأندلس تحت أمرتها.. ثم إنطلقوا يزرعون البلاد بالفتن والحروب حتى شكلوا ٢٦ دويلة هزيلة حلّت محل الدولة الأموية الأندلسية المتحدة سابقا. وهم الآن متفرقون ضعفاء هَزْلى كلما داهمتهم الأخطار استنجدوا بيوسف بن تاشفين، فإذا استجاب لاستغاثتهم اختلفوا أمام عينيه ثم ينفضّون من حوله وكأنّهم مدعوون الى وليمة والعدو قريب يتربّص بهم الدوائر.

عاد ابن تاشفين غاضباً بعد فشل الحملة التي لبّى فيها الاستغاثة ليخوض مع أمراء الطوائف غمارها ـ عاد وهو يفكر بأولئك الضعاف الهزلى الذين لا بد له من الخلاص منهم لانقاذ سكان الأندلس الواقعين بين شقي الرحى: القوط الأعداء، وأمراء الطوائف.

الهجوم المرابطي الثالث على الأندلس

ما لبث ابن تاشفين أن وصلت اليه الاستغاثة الثالثة سنة ٤٨٣هـ/ لنجدة الأندلس، ولكنها جاءت في هذه المرة من فقهاء الأندلس الذين طلبوا

إنقاذهم من أمراء الأندلس العاجزين عن محاربة الأعداء القوط الاسبانيين. كما وصلته استغاثة من النساء والحرائر في الأندلس.

فرأى ابن تاشفين أن يستشير فقهاء البلاد وأهل الرأي لا في المغرب فحسب بل وفي بلاد المشرق الاسلامي أيضاً، فأفتى علماء الاسلام وفقهاءهم في المشرق وفي مقدمتهم الامام الغزالي «بأن من حق يوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف والتخلي عن نصرتهم وعن العهود التي قطعها لهم، ثم ورد في فتواهم حكم يلزمه بتنفيذه يقول: «أن إنتزاع الأمر من أيديهم ليس حقاً بل واجب يترتب على أمير المسلمين».

وكان إبن تاشفين يلقّب بإجماع فقهاء المغرب بلقب «أمير المسلمين».

وبموجب الفتوى المحلية التي أفتى بها فقهاء المرابطين، والفتوى الواردة من علماء العرب والمسلمين في المشرق زحف جيش ابن تاشفين على الأندلس فطلب قائده[1] من الأمراء والملوك في الأندلس اعتزال عروشهم، ومغادرة الأندلس الى المغرب، وكان نصيب من استجاب الاكرام والحفاوة أما من رفض وكان منهم المعتمد بن عباد أمير اشبيلية، فكان له حساب آخر وكان المعتمد قد تحالف مع الفونسو ملك الاسبان عندما إنسحب ابن تاشفين في المرة الثانية من الأندلس. فلما رفض طلب قائد ابن تاشفين، هاجمه جيش المرابطين وأخذه أسيراً سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، ومع ذلك فلم يقتله ابن تاشفين بل وضعه في سجن أغمات. أما نجدة العدو فقد اصطدمت بالمرابطين بالقرب من حصن المدور فهزمها القائد ابراهيم بن اسحاق.

---

(١) قائد جيش المرابطين يومذاك هو سير بن أبي بكر.

وفي تشرين الثاني سنة ١٠٩١ دخل يوسف بن تاشفين غرناطة ثم استولى على أشبيلية - كما أشرنا لذلك - وهكذا يكون قد استولى على كل الأندلس ما عدا طليطلة التي ظلّت في حوزة القوط - وسرقسطة التي أبقاها لبني هود.

أما ابن عباد فقد بقي في سجن أغمات ومعه زوجته اعتماد وأمّا بناته فكن يغزلن الصوف للناس بالأجرة، وتوفي المعتمد آخر ملوك بني عباد في أغمات سنة ١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ.

الكنبيطور - السيّد

وفي أول حكم المرابطين ظهر، رودريغو دياز دي بيفار الملقّب «بالكنبيطور» أي الفارس وكان من أعظم فرسان زمانه وألمعهم في ميادين البطولة والفروسية، وهو متحدر من أسرة كاستيلية، وانخرط في أول عهده في خدمة الفونس السادس بعد أن احتل كاستيل «قشتالة» ولقبه العرب بالسيد «Cid» فكان تارة يحارب مع القوط وتارة أخرى يحارب مع المسلمين وهو في طريقته التي إنتهجها مسلم مثله نصراني لا يستطيع المؤرخ التحقق من شخصيته أما لقبه بالسيد «الكنبيطور» فقد أحرزه في خدمة بني هود المسلمين في سرقسطة حيث نال صيتاً واسعاً في حروبه لصالحهم.

ولما سقطت طليطلة في أيدي القوط لجأ أميرها القادر بن ذي النون الى بلنسية وفي هذه الأثناء، كان «السيد» رودريغو دياز دي بيفار، يقود كتائب من المرتزقة القوط، ويؤجر نفسه لمن يريد.. من أمراء القوط وأمراء المسلمين معاً، وراح يتجول بكتائبه في شرقي الأندلس باحثاً عن إمارة كي يغتصبها وينصب نفسه أميراً عليها[1].

(١) الذخيرة لابن بسام - ابن عذاري ٣/ ٣٠٥-٣٠٦ - نفح الطيب ٢/ ٧٥٤.

وكانت مقاطعة بلنسية قد مزّقتها الفتن الداخلية منذ عام ١٠٨٠، وفي سنة ١٠٩٤ هاجم «السيد» وتغلّب على قوات المرابطين فيها وأجلاهم عنها واتخذها إمارة له فسمّيت على عهده «بلنسية السيد» وبعد وفاته عام ١٠٩٩ تولّت زوجته «شيمان» حكم المدينة، وقيادة جيش المرتزقة.

عندئذٍ: أمر يوسف بن تاشفين جيشه بالزحف على بلنسية فلم تقو «شيمان» على رد جيش المرابطين، فحملت «رفاة» زوجها وغادرت المدينة بعد أن أشعلت فيها النيران عام ١١٠١ فاحتلها المرابطون عام ١١٠٢.

قال الحميري في كتابه الروض المعطار: تقع بلنسية شرقي الأندلس بينها وبين قرطبة عن طريق بجانة ١٣ يوماً، وهي مدينة سهلية عامرة، بينها وبين البحر ثلاثة أميال، وبجانبها نهر توريا وقد سماه العرب النهر أو الوادي الأبيض، دخلها الرومان عام ١٢٩ ق.م. وكانت مدينة كنعانية، ودمر بعض أحيائها القائد بومبي الروماني، وعادت الى رونقها وجمالها في عهد القيصر أغسطس، واحتلها القوط الغربيون عام ٧١٣ ميلادية، ثم أخذها العرب عام ٧١٤م ـ ٦٩ هجرية وذلك بعد أن فتحها طارق بن زياد هي والمدن التي تجاورها مثل ساقونية وشاطبة ودانية، وقد سكنتها القيسية وفي عام ١٠٢١ أصبحت عاصمة لمقاطعة تحمل اسمها بلنسية بعد أن إنفرط عقد الدولة الأموية في الأندلس.

ومن أشهر حكامها الأمراء مظفر ومبارك من الأسرة العامرية ثم حكمها عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور وأنشأ فيها ضاحية المُنية التي اتخذها منتزهاً رائعاً وخلفه أميراً عليها ابنه أبو بكر بن عبد العزيز، وفيها منتزه الرصافة الذي تغنّى فيه شاعر بلنسية ابن

خفاجة[1] وغيره من شعرائها الذين أبدعوا في وصف حدائقها وحقولها وبحيراتها واعتبروها جنّة من الجنان.

وفي نفس الوقت قامت الى جانب بلنسية مملكة «دانية» البحرية الشهيرة وعلى حكمها مجاهد العامري أعظم بحار أندلسي في عصره وسيطر منها على جزائر البليار ولبثت أساطيله عصراً تسيطر على مياه المحيط الأطلسي، وخلّفه في رياستها ولده علي ثم إنتزعها منه صهره المقتدر بن هود أمير سرقسطة. ولما سقطت طليطلة لجأ أميرها القادر بن ذي النون الى بلنسية، وفي تلك الأثناء زحف يوسف بن تاشفين على الأندلس واستنقذها من أيدي الفونس السادس ملك «قشتالة» ثم احتلها «السيد» كما ذكرنا ومات فيها ثم جلت زوجته عنها واحتلها المرابطون.

وقد حول العرب بلنسية الى بستان حقيقي بعد أن استفادوا من مياه نهر توريا فأنشأوا السواقي العديدة لري الأراضي القاحلة فتحولت الى جنان، والسواقي التي أنشأها العرب ما تزال الى يومنا هذا، وهي تشكل عملاً هندسياً رائعاً.

قال الدكتور روزيه رئيس جامعة لوزان في سويسرا مشيداً بهندسة الري العربية في بلنسية: «لقد، طوفت بلاد الأندلس، ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب، فأعجبت بها كل الاعجاب، ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم في ولاية بلنسية، وسكان هذه الولاية يعيشون اليوم بفضل هندسة مهندسي العرب لهذه السدود، ولم يتيسّر لمدنيّة القرن العشرين أن تقيم

---

(١) ابن خفاجة: ابراهيم بن أبي الفتح ٤٥٠هـ/١٠٥٨م - ٥٣٣هـ/١١٣٨م شاعر ولد بجزيرة «شقر» بين بلنسية وشاطبة كان كلفاً بالجمال فوصف الأنهار والأزهار واللهو والخمر. وقد وصفه ابن سعيد بقوله: (شاعر الأندلس في وصف الأزهار والأنهار وما أشبه) وقد لقّبه الناس بالجنّان لكثرة ما وصف الرياض.

أرقى مما أنشأ أبناء العرب في بلنسية. ولولا هذه السدود لمات الاقليم عطشاً، ومن الأسف أن مَدَنِيَّةً هذه آثارها يقضى عليها ولا من يبكيها فقُبِّح من قضوا عليها»[1].

تنظيم الحياة الأندلسية في عهد المرابطين

صار للمغرب في عهد يوسف بن تاشفين عاصمتان، مراكش وأشبيلية، بعد أن دانت الأندلس لحكم المرابطين، واستردّت بلنسية عام ١١٠٢ ومدينة سرقسطة عام ١١١٠. وانتظمت حياة الأندلسيين إنتظاماً تاماً بعد أن أمّنوا على حياتهم ووجودهم في ربوعهم ومدنهم الزاهرة وارتفع عن كواهلهم كابوس أمراء الطوائف الذين كانوا يرهقونهم بالضرائب، والكابوس المخيف المسلط فوق رؤوسهم دائماً وهو الخوف من الاحتلال القوطي وما كان يرافقه عادة من تقتيل وسبي وسلب ونهب وهجرات متواصلة.

وراح يوسف بن تاشفين أثناء حياته يوزع مناصب الولاية على ولاة حقيقيين يخافون الله ومتدينين في الوقت نفسه فعيّن سير بن أبي بكر على أشبيلية وابنه تميم على غرناطة أما الولاة ومعظمهم من اللمتونيين وهي قبيلة ابن تاشفين فقد عيّنوا في الأندلس والمغرب على حد سواء.

ولكن عدد المتعلمين في الأندلس كان كثيراً جداً ويفوق الحاجة اليهم في الدوائر الأندلسية لذلك استعين بهم في مكاتب الادارات في المدن المغربية وقد أعطى هذا الترابط نتائج طيبة جداً.

وهكذا أصبح المغرب امبراطورية واسعة الأرجاء تضمّ المغرب والجزائر والأندلس، وكان لا بد لهذه الامبراطورية من أن يكون لها جيش

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق الجزء السابع من المجلّد الثاني تموز/يوليو ١٩٢٢.

قويّ وحصون منيعة تقام في كل مكان لحمايتها ـ في الأندلس من غزوات القوط وفي المغرب من التحركات القبلية التي تحركها أما الأطماع أو الأيادي الشريرة من خارج المغرب والأندلس. في أول الأمر ـ أما فيما بعد فإن الدسائس أخذت تحاك في بلاطات القوط وتنفذ في المغرب.

وقد بُنِيَت سلسلة من القلاع وأعيد بناء القلاع المخربة في المواقع الاستراتيجية ولكن المسألة التي ظلّت عالقة دون حل هي مسألة التجنيد الاجباري لخدمة الامبراطورية المرابطية.

التجنيد الاجباري في الجيش المرابطي

ولعدم وجود احتياطي من المغاربة والأندلسيين فقد اقتصر الأمر على استخدام الجنود المرتزقة وهذه من أكبر الأغلاط الشنيعة التي ارتكبت في عهد يوسف بن تاشفين وخلفائه. ويقال بأنه استخدم الجنود النصارى. الذين كانوا يخدمون ملوك الطوائف في المغرب لتعذر استخدامهم في الأندلس.

ومع أن دخل الدولة المغربية قد تضاعف مراراً بعد ضمّ الأندلس الى المغرب، على اعتبار. أن معظم أراضي الأندلس زراعية مروية أو زراعية بعلية وليست صحراوية قاحلة. كما هي الحال في المغرب ولكن يبدو أن وسائل الجباية كانت ضعيفة، أو أنه لم يحسن استخدام الأموال في مرافق الدولة، كما لم يحسن استخدام الشعب الأندلسي في الخدمة العسكرية.

واعتقد أن مجالس المستشارين التي كانت تحيط بيوسف بن تاشفين ومعظمها من الفقهاء والنساك المتزمتين والمتسلطين بآرائهم الفقهية واجتهاداتهم الصارمة كانت سبباً في هذه الأمور التي ذكرتها.

ابن تاشفين يعترف بالخلافة العباسية

كان ابن تاشفين حقاً من أفذاذ الرجال؛ مسلماً مؤمناً ومتقشّفاً الى أبعد حدود التقشّف، وقد أقام علاقات طيبة مع الخليفة العباسي المستظهر بالله «١٠٩٤ـ١١١٨». وهو من الخلفاء العباسيين الذين عاصروا التسلط السلجوقي على بغداد. واعترف ابن تاشفين بالخلافة العباسية ولقب الخليفة العباس «أمير المؤمنين» مقابل اعترافه بإبن تاشفين «أميراً للمسلمين» لذلك صك ابن تاشفين نقوده الجديدة. وهي تحمل اسمه ولقبه على وجه، واسم الخليفة العباسي ولقبه على الوجه الآخر. ومعنى ذلك أن الامبراطورية المغربية المستقلة كانت تعتبر نفسها جزءاً من الامبراطورية العربية الكبرى وأن مصيرها مرتبط بمصير الأمة العربية.

هذا واتخذ يوسف بن تاشفين لقب امير المسلمين مع اعترافه بخلافة أمير المؤمنين في بغداد كما قلنا وكان معاصراً للخليفة العباسي القائم ابن الخليفة القادر ١٠٣١ـ١٠٧٥م تحت حكم السلاجقة وأبرزهم طغرل بك «١٠٣٧ـ١٠٦٣» وابن أخيه ألب أرسلان «١٠٦٣ـ١٠٧٢»، للخليفة العباسي على منابر الأندلس والمغرب بعد إنقطاع ذلك الدعاء منذ زمن عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس.

يوسف بن تاشفين يكرّم مدينة فاس

كان من أروع ما قام به من أعمال إنسانية واجتماعية في مدينة فاس التي رفض سكانها أن يفتحوا أبوابها أمام جيشه في أول الأمر، أن عمد الى تضميد جراحها ومؤاساتها معترفاً بنبوغها وتقدمها في مجالات الحضارة والرقي فلم يفرض عليها أحكاماً متعسفة حتى لا يتهم بالعنصرية، على اعتبار أن العديد من سكان فاس عرب اقحاح سواء كانوا من عرب الفتح أو من المهاجرين من القيروان منذ عهد الأغالبة أو من بعض المهاجرين

الأندلسيين. وقد استهل اصلاحاته فيها بوصل عُدوتيها حتى يقضي على التنافس القائم بين سكان العدوتين، وأنشأ فيها مساجد جديدة وشيّد العديد من الحمامات الشعبية، والفنادق والطواحين، وشبكات المياه التي أجراها الى داخل المنازل والحدائق، وكان له الفضل في إنشاء ما سمي «بالحدائق الأندلسية» بسبب توفير مياه الشرب والريّ.

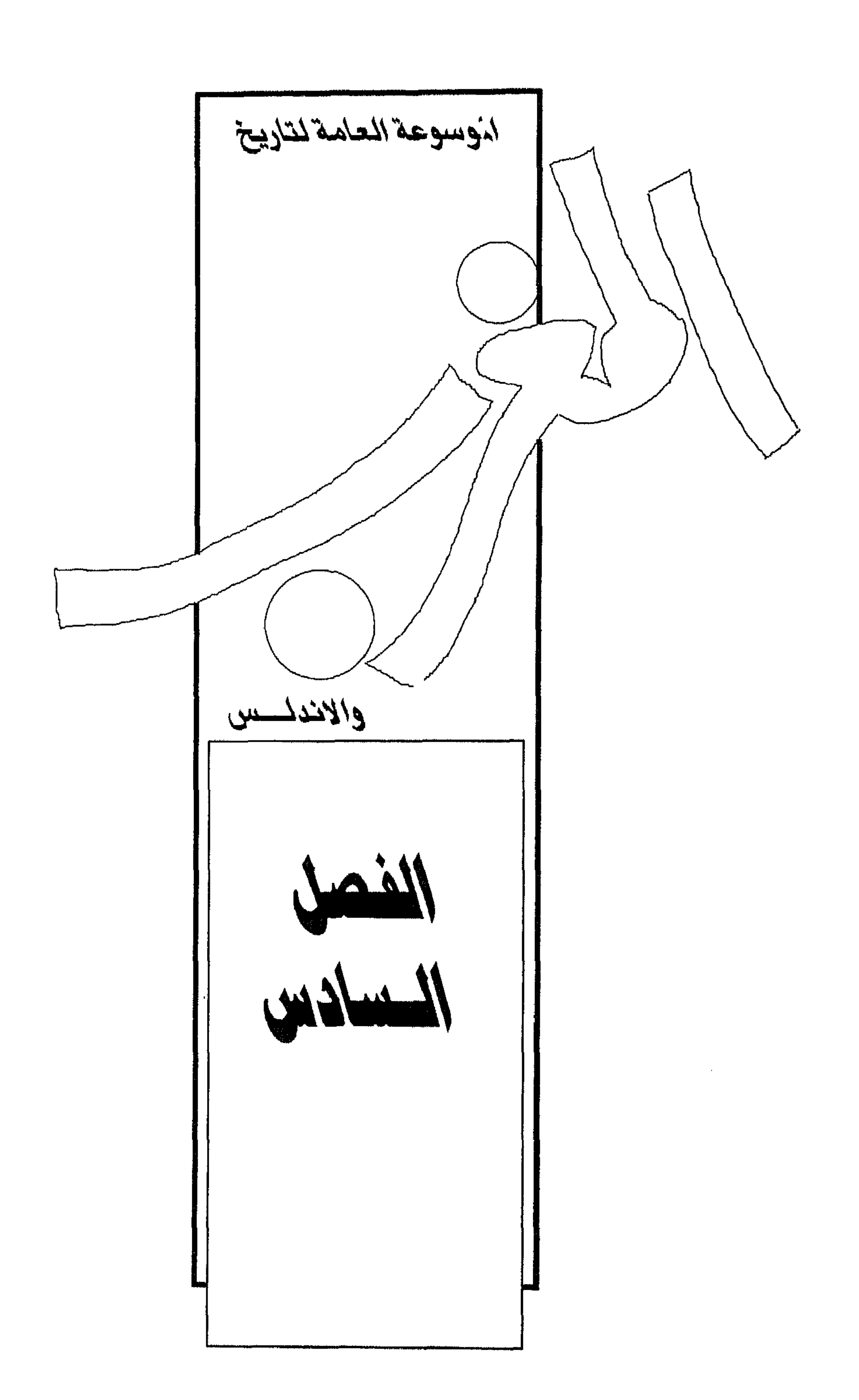
وفي عهد يوسف بن تاشفين جرى توسيع جامع القرويين، فضمّت الى قسمه الجنوبي مساحة من الأرض اشتريت ودفعت أثمانها لأصحابها، كما ضمّت إليه مساحات أخرى من الجهتين الشرقية والغربية وبلغت مساحات هذه الزيادات ٥٨٤٨ متراً. وأنشىء في المسجد منبر جديد، وأدخلت عليه إصلاحات عديدة لتجميله وتزيينه بالنقوش والألوان.

والجدير ذكره أن الفونسو ثامن ملك كاستيل ١١٥٨ـ٦٢١٤ قلد طراز النقود المغربية فاحتفظ بالكتابة العربية الا أنه استبدل العقيدة الاسلامية بالعقيدة النصرانية كتابة فأورد لقبه هكذا: أمير «الكاثولكيين» وجاء اسم بابا روما هكذا: «امام البيعة المسيحية» وقد صدرت نقوده باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد، بدلاً من «الشهادة الاسلامية» كذلك استعملت الآية القائلة: «فمن آمن واعتمد يخلص» بدلاً من الآية القائلة: ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»[1].

وكانت وفاة يوسف بن تاشفين عام ١١٠٧. وفي عهده امتدت حدود المغرب من الأطلنطي الى أفريقيا «تونس» ومن الأندلس الى أقصى جنوب الصحراء المغربية.

---

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.


الموسوعة العامة لتاريخ
والأندلـــس
الفصل
الســادس

علي بن يوسف بن تاشفين

تولّى الحكم بعد والده المؤسس العظيم لدولة المرابطين ولقّب بالورع عام «١١٠٦-١١٤٣» وسار على سُنَّتِه، فظلّت راية الاسلام مرفوعة عالياً في المغرب والأندلس، ولم يأل جهداً في توطيد دعائم الامبراطورية وأضاف اليها مقاطعات جديدة إنتزعها من القوط والبرتغاليين، ففي الأندلس ضمّ «طلايوت» ومجريط «مدريد» ووادي الحجارة، وحصوناً كثيرة حول طليطلة التي بقيت في أيدي القوط، ثم أضاف لشبونة عاصمة البرتغال حالياً الى الامبراطورية المرابطية وعدداً من المدن البرتغالية الأخرى.

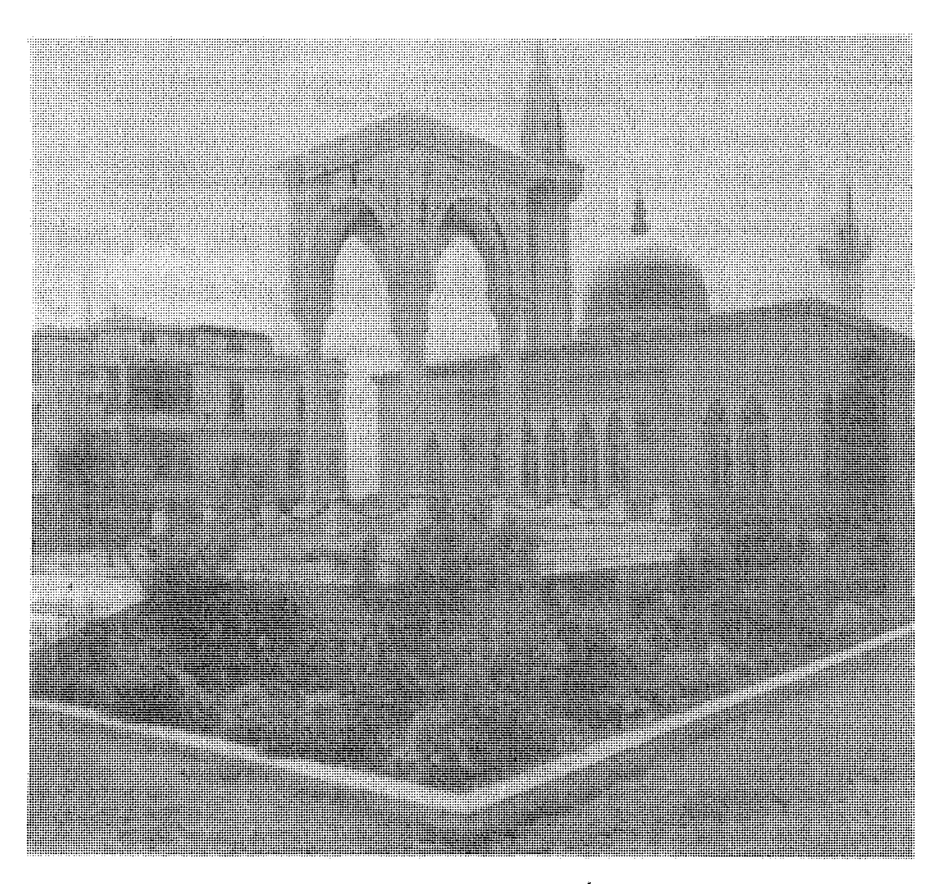
قضى الخليفة علي بن يوسف بن تاشفين معظم خلافته في حرب مستمرة مع القوط. وعلى الأخص ضد الملك الفونس السابع الملقّب بالمحارب الذي شنّ حملات طاغية على بلنسية من أجل احتلالها، وظل الصراع متواصلاً الى أن إنتهت الحرب بانتصار ساحق ناله المرابطون في معركة «افراغه» سنة ١١٣٤ وفي هذه المعركة قتل الفونس السابع.

وكان من الطبيعي على دولة المرابطين التي نشأت نشأة دينية محضة أن

ترفض علم الكلام والمنطق، وعلوم أبي حامد الغزالي، ولسنا ندري كيف وصلت الى قرطبة، ولكن أمير المؤمنين استشار علماء لمتونة وفقهاءهم، فأشاروا عليه بإحراقها فأمر بإحراقها في قرطبة مما جعل الغزالي يجهر بلعنهم، وهذا أمر تجاوز فيه حدوده واجتهاده وقد قيل أن الفقهاء لم يستطيبوا ما ظنّ أنه جاء في كتاب الأحياء من تسفيه قدر الفقهاء في المغرب ومعظمهم على مذهب مالك.

الامام مالك والموطأ

أن مدرسة الشرع في مدينة يثرب أسّسها مالك بن أنس «٧١٥ـ٧٩٥» وهو من أقرب المتشرعين من فقهاء المدينة لفهم حياة النبي صلوات الله عليه ـ وله مصنفه المعروف «بالموطأ» وهو أقدم مجموعة للشريعة الاسلامية، وقد حوى الموطأ ١٧٠٠ حديثاً دوّنت ألسنَّة المحمدية، فأصبح مالك وكتابه المرجع الأعلى للمذهب المالكي ثم إنتشر هذا المذهب في المغرب والأندلس وحل محل المذهبين الناشئين هناك مذهب الأوزاعي المتوفي سنة ٧٧٤ ومذهب الظاهري «٨١٥ـ٨٨٣» وهو داود بن خلف الأصبهاني، وسمي بالظاهري لقوله بوجوب أخذ معنى القرآن والحديث الظاهر دون الباطن، وكان إبن جزم القرطبي «٩٩٤ـ١٠٦٤» من دعاة الظاهرية، وما زال مذهب مالك معمولاً به في أنحاء أفريقيا الشمالية. لأنه مذهب يدعو الى التنظيم الاجتماعي، ومن أهدافه تأسيس معتقد صحيح قوامه الحرية في الرأي دون تشبّث وتصلّب. ويبدو أن فقهاء المرابطين كانوا يحافظون على المذهب المالكي التقليدي المحافظ على أصالته كمذهب فقهي متشدّد وفقاً للمجالس القيروانية التي كانت تدرسه على هذا لنحو.. وهذا ما يفسّر تحريم أعمال الغزالي في عام ١١٠٩ أيّ في عهد علي الورع بن يوسف بن تاشفين.



ضريح الامام الأوزاعي في الضاحية الجنوبية من بيروت

المرابطون والمذهب المالكي

ثمة نقطة أخرى تستحق الاهتمام وهي أن فقهاء لمتونة لم يكونوا منفتحين على سائر العلماء في الدولة وعلى الأخص علماء جامعة القرويين في فاس، لذلك كانوا مغلقين على أنفسهم فلم يتّسع من حولهم نطاق الأخذ والعطاء في المسائل الفقهية، ولم يعد لسياسة التسامح وجود، ولكن مالكية المرابطين التقليدية ظلت دائماً هي المحور الذي يدور من حوله المؤرخون.

ولكن المذهب المالكي لم يكن هو السبب المباشر لابتعاد الفقهاء الآخرين وبعض الطوائف المغربية «كالصوفيين» وسكان الأندلس المتزمتين عن التمسك بدولة المرابطين.

الحرب تأكل أبناءها

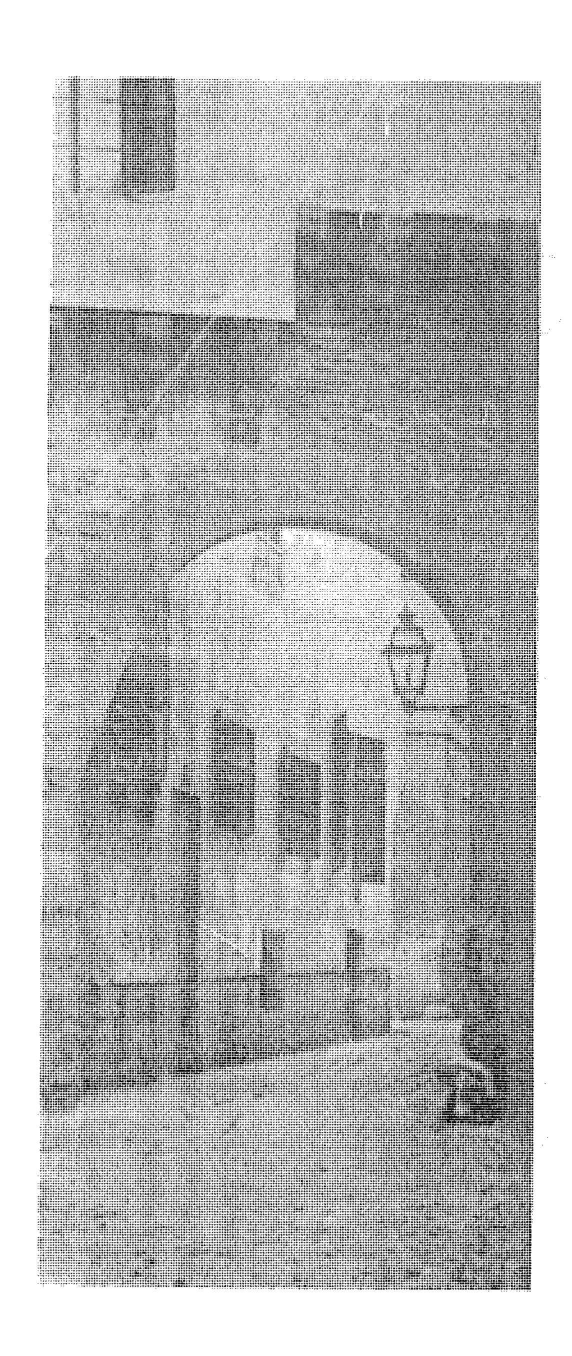
وهناك أسباب أخرى من أهمها: أن الحركة المرابطية إنطلقت من الصحراء المغربية معززة بأموال تجار الصحراء، وبمحاربين من رجال الصحراء ـ ولما نضب المعين من الرجال والأموال التفت المرابطون فلم يجدوا بين أيديهم سوى أموال الزكاة والجباية لأن التنظيم في هذا المجال كان ناقصاً، ولما كان سكان الصحراء قد أرسلوا أبناءهم في حروب يوسف بن تاشفين، فإن هذه الحروب أكلتهم ـ والحروب تأكل أبناءها مثل النيران تماماً ـ فلم يبق أمام الملك سوى الاعتماد على المرتزقة، وصار عليه بعد أن قلّت أعدادهم أن يبحث عن مرتزقة جدد بين المسيحيين والقوط أنفسهم، وهذا يتطلب إعادة النظر في النظام الضرائبي. واذا ما أراد الملك أن يدعو المغاربة والأندلسيين الى الانخراط في الجيش المغربي، فإن عليه أن يطرح مسألة الدفاع المشترك والحكم المشترك بمعنى أن يوسع الملك نطاق الدواوين لاشراك المجتمعين المغربي والأندلسي في الحكم وحتى الآن

كانت الدولة قائمة على الاتحاد اللمتوني فمنهم الفقهاء والمستشارون والحكام والموظفون.

تذمر الناس من حياة التقشف

كان يوسف بن تاشفين قد انهمك في الحروب فلم يتسع أمامه المجال، ولكن المجال متّسع الآن أمام خليفته عليّ الورع الذي دام حكمه ٣٧ سنة ولكن هذا الملك كان يلقى عنتا من أهله وذويه وأخوته، فمع إنّه كان كأبيه ورعاً متتبعاً لآراء الفقهاء، شديد الاحترام لهم ولكن أهله وأخوته كانوا يحملون عليه لأنه لم يكن يمنحهم الكثير مما يطلبون لكي يقلّدوا حياة الأمراء الأندلسيين المنفيين، الذين خلعهم والده عن عروشهم وأسكنهم مدائن المغرب. ويقال أيضاً وأيضاً أن الناس سئموا حياة التقشّف، في عهد الملك الورع ووالده الذي كان يأكل لحوم الجمال والخبز الأسوَد ويلبس الملابس الصوفية السميكة. وقيل أن أبناء المرابطين الذين الفوا حياة الشظف والبداوة في الصحراء المغربية قد أفسدهم إنتقالهم فجأة الى ربوع الترف في فاس وأشبيلية وقرطبة وغيرها من المدن الأندلسية، في زمن انصرف فيه الأندلسيون عن حب الحرب والمغامرات، وازداد تعلقهم باللذائذ الفكرية من شعر وموسيقى زرياب وتلامذته، وغناء القيان وسماع صنوج الراقصات البارعات، فأصابتهم عدوى الترف الأندلسي فأنغمسوا فيه فعاموا على سطح الملذات والرذائل المدنية فالتهوا عن الدولة وتركوا لفقهاء مصمودة أن يعدوا العدة للانقضاض على دولتهم الفتية.

واندلعت الثورة في الأندلس ضد حكم المرابطين وعلى الأخص في مدينة بلنسية حيث تمكن سكانها من طرد ابن غانية أحد ولاة المرابطين وعهدوا برياستها الى قاضيها مروان بن عبد العزيز، فلجأ بنو غانية الى جزائر البليار وسيطروا عليها، وأقاموا فيها دولة صغيرة يحميها جيش من المرابطين



أحد العقود الأثرية الباقية
من الآثار التي خلفها العرب
في مداخل مدينة «بالما»
عاصمة جزيرة (ماجوركا)
وأهم مدينة في جزر البليار

وأسطول صغير وقد استطاعوا فيما بعد أن يحتلوا أفريقيا، كما سنفصل ذلك في حينه. وبعد موت علي بن يوسف بن تاشفين بدأت شمس المرابطين تميل نحو الغروب.

لقد عاش المغرب من بعد المرابطين دولة مستقلة عزيزة مرهوبة الجانب من أعدائها ولكن في ظلال أسرة مالكة جديدة اشتهرت باسم الموحدين.

الأسباب التي أدت الى زوال حكم المرابطين

خمسة أمور كبار عجلت في زوال عهد المرابطين والقضاء على حكمهم.

الأول: أن عهدهم كان عهداً دينياً محضاً، خاضعاً لتسلط الفقهاء الذين لم تكن أذهانهم منفتحة على العلوم والحضارة، وكان الفقهاء وهم مستشارو الدولة، متقوقعين يجترون علوم الفقه التي وصلت اليهم من دمشق وبغداد والبصرة ومكة والمدينة، ومتنافسين على التقشّف والزّهد والتنسّك. فلم يحاولوا أن يجددوا ما اقتبسوا ولا أن يتوسّعوا بما أخذوا، ولم تتعدَّ مطارحاتهم الدينية ما كان يجري في المشرق من مطارحات مذهبية متعددة ولم يكن لهم فلسفة خاصة مستمدة من واقعهم ومن مفكرين يعيشون ذلك الواقعط.

وكان الفرق ظاهراً وكبيراً بينهم وبين علماء وفقهاء المشرق من عدة وجوه فالإمام مالك الذي اعتنقوا مذهبه كان منفتحاً على العلوم والحضارة والموسيقى وكان غير متزمّت، ومحمد بن إدريس الشافعي المولود في غزة «فلسطين» سنة ٧٦٧ كان من تلامذة الامام مالك، وثمة حقيقة لا يمكن

إنكارها وهي أن فقهاء المرابطين كانوا على مذهب الامام مالك، ولكنهم في الواقع كانوا على مذهب الأشعري، لأنه كان من أصحاب الحديث المتشددين، وقد عرفت الأشعرية بشدة المحافظة، وطالما وقفوا سداً منيعاً في وجه تيار الحركات التجددية التي نظمها المعتزلة في بغداد، كما وقف المرابطون ضد هذا التيار من الحركات التجددية التي نظّمها المعتزلة له، وبلغ من تعنّتهم أن أمروا بحرق كتب المعتزلة في المغرب.

الشافعي والجماعة الاسلامية

ولنضرب مثلاً عن الامام الشافعي وهو تلميذ الامام مالك، هذا الامام الشافعي أوضح مبدأ الاجماع لدرجة أنه جعل في حيّز الجماعة الاسلامية أداة يسهل بها تكييف السنن والمعتقدات طبقاً لمتطلبات الزمن، فمبدأ الاجماع المتوسع سمح للمسلمين في جمع القرآن واقراره رسمياً، كما جمعت كتب الحديث الستة واقرارها، وبالمبدأ نفسه قبلت المعجزات المنسوبة الى النبي (ص) وسمح بطبع القرآن على الحجر، وقرّ الرأي على أنه ليس من المحتَّم أن يكون الخليفة قرشياً.

أبو حنيفة النعمان والمدرسة العراقية

ولكن الامام الأعظم من هؤلاء هو الامام أبو حنيفة الذي قضى سنتين، يتتلمذ على الإمام جعفر الصادق بن محمد، قال في نهايتهما «لولا السنتان لهلك النعمان». ثم تخرّج على الشعبي. لأنه كان من أبرز المعتدلين وهو الذي وضع الأساس الأول لمدارس الشرع الأربع في الاسلام.

وكان أبو حنيفة النعمان بن ثابت والمتوفي عام ٧٦٧م/ ١٥٠هـ، يترأس المدرسة العراقية التي تحثّ على وجوب إعمال الرأي والتفكير والاستنباط في الأمور الفقهية مناقضة بذلك مدرسة المدينة «يثرب» التي

تعتمد الحديث[1] ، وكان قد احترف التجارة ثم توجّه نحو الفقه فأصبح من أعظم علماء الاسلام، وكان من تلامذته العالم أبو يوسف المتوفي عام ٧٩٨ وهو الذي دوّن «كتاب الخراج» وجمع فيه زبدة آراء أبي حنيفة، وهو الذي أقرّ العدول عن القياس حتى اقتضت العدالة ذلك، وكان أبو حنيفة مهندساً خبيراً بهندسة المدن وتخطيطها وهندسة أقنية الري وخبيراً في المسائل الزراعية وأمثال ذلك.

هل كان العهد المرابطي عهداً لمتونياً؟...

وقد سُقنا هذه المعلومات لنبيّن بأن تعاليم الاسلام لم تكن مغلقة على نفسها إغلاقاً تاماً.. بل كانت منفتحة على الحياة لدرجة أن خلفاء المسلمين في بغداد كانوا يستشيرون الأئمة في المسائل العامة والخاصة ويسترشدون بآرائهم..

ثانياً: كان عهد المرابطين عهد إنكماش اقتصر على اللمتونيين الصنهاجيين وحلفائهم المقربين لذلك كان عهداً «لمتونياً» وليس عهدا مغربياً ـ أندلسياً جامعاً، فلم يوسعوا آفاق المشاركة بينهم وبين سائر الطوائف والسكان من عرب وكنعانيين فخلا عهدهم من التطعيم والترصيع بالمواهب والعبقريات. وكان أوّل من ثار على هذا الانكماش المغلق قبائل مصمودة الكنعانية.

ثالثاً: إنعدام الأنظمة والتجديد في الدولة فنظام الضرائب كان سيئاً، ونظاماً الادارة والجيش كانا أسوأ بكثير، فالأمن استتبّ خوفاً من البطش والقمع وليس احتراماً وتوقيراً للقانون والنظام، والأنظمة الادارية كانت مفقودة، والحكم كانت تسيّره فتاوى الفقهاء واجتهاداتهم.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ١٦٠ـ١٦١ ـ مقدمة إبن خلدون ص٣٧٢.

رابعاً: وفي عهد المرابطين ضعفت الحركة الثقافية في المغرب فلم يظهر في عهدهم علماء في الطبّ في الطب والفلسفة وعلم الاجتماع وإن كانت لهذه العلوم أصول وفروع منتشرة في الأندلس.

خامساً: لم يستفد عهد المرابطين ولم يقتبس شيئاً من علماء جيرانهم الأندلسيين في جميع مجالات العلوم والأدب، ولم يأخذ من حضارتهم سوى القشور والتقليد، مع أنهم كانوا يحكمون الأندلس البلد المتحضّر الذي فاقت حضارته كل حضارة في عصره، ولو ظلّت دولة الأندلس متّحدة لما سقطت ذلك السقوط المزري في عهد ملوك الطوائف ولما جرفت المغرب معها أثناء سقوطها.

مآثر المرابطين الحميدة

ترك لنا المرابطون مادة تاريخية قيّمة، في المجال العسكري وفي مجال نشر الدين الإسلامي في أفريقيا الغربية فلولا نجدات المرابطين لسقطت الأندلس في أيدي القوط، ولولا احتلالهم لها وقضاؤهم على حكم ملوك الطوائف في الأندلس لعجل ذلك بسقوط الأندلس، وهذا الفضل لا يمكن جحوده ونكرانه ولكنه كان ناقصاً، فهم أنقذوا الأندلس من الاحتلال القوطي، ولكنهم لم يجتثوا شأفة القوط ولم يجهروا عليهم، فظلّ القوط معتصمين في قلاعهم وحصونهم ومدنهم ومنها طليطلة، وسيوفهم في أيديهم ينتظرون سنوح الفرص لإعادة الكرة والزحف والانقضاض.

أما مأثرتهم الثانية فهي مأثرة خالدة فقد استطاعوا بها توحيد المغرب وضمّ الجزائر الى حظيرة الدولة، وكانت الجزائر تشكو من تسلّط حكام الطوائف العديدة التي كانت تعيث فيها فساداً.

وأما مأثرتهم الثالثة فإنّها تتجلى بنشر الاسلام في السنغال والنيجر -

وما يدعي الآن. «مالي» وغانا وغربي السودان وهو الذي كان يدعى في زمن الاحتلال الفرنسي بالسودان الفرنسي.

المرابطون ينشرون الاسلام في القارة الأفريقية والأندلس

جمع المرابطون بين الجهاد ونشر الاسلام في مهمة واحدة ويرجع الفضل في نشر الاسلام في أفريقيا الغربية - أي في تلك الصحراء الواسعة الأطراف وفي حوض نهر السنغال، الى عبد الله بن ياسين كما روى ذلك المؤرّخ إبن أبي زرع حيث قال: أن يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة جدالة إحدى بطون صنهاجة استعان بعبد الله بن ياسين الصنهاجي الذي اشتهر بالتقوى والفقه الإسلامي. ولما مات يحيى بن ابراهيم خلفه على زعامة صنهاجة يحيى بن عمر اللمتوني، وقد ذكر المؤرّخ إبن خلدون أن جدالة ولمتونة قبيلتان تنحدران من صنهاجة القبيلة الأم.

وقد دعا عبد الله بن ياسين قبائل صنهاجة المتجمّعة حوله إلى الإسلام وأطلق على تلك الطائفة إسم المرابطين.

وذكر صاحب روض القرطاس أنّ من معاني إسم الرباط الخلوة أو الزاوية استناداً إلى الزاوية التي اتّخذها عبد الله بن ياسين في جزيرته بنهر السنغال.

أما إبن عذاري وهو من مؤرّخي المغرب فقد ذكر أن تسمية المرابطين بهذا الإسم مرجعها إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية، فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين، إسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم. ويعتقد أن تلك المعركة كانت ضد زنوج غانا والصحيح أن استعمال كلمة رباط تعود إلى زمن أبعد من هذا لأن معنى المرابطين الأتقياء «المجاهدون في سبيل الله» كما قال تعالى: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**

ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوّكم . .﴾ في سورة الانفال. «أي الذين رابطوا وحموا الديار».

وقد كان للمرابطين فضائل مجلية بنشر الاسلام في الأندلس والقارة الأفريقية.

لهجات أفريقية مشتقّة من البربرية

كتب الباحث ريتشارد مولار في كتابه أفريقيا الغربية ص٥٨ بالفرنسية، أن في أفريقيا الغربية ١٥٠ لهجة مشتقة من البربرية يقال بأن أصولها من اللغة الكنعانية السودانية ثم صنّف القبائل في أفريقيا الغربية حسب لهجاتها فكان منها:

سكان السنغال وهم يتكلمون بلهجات تدعى البوهل وألولوف والتكرو والسيرير وهم يشكلون خمسة ملايين نسمة.

والزمرة النيجيرية السنغالية وهي تتكلم بحوالي ثلاثين لهجة أهمها الديالونة، والمالانكة، والساراكوله، والسوسو، والسفاري ويقال لها الغلا.

والزمرة النيجيرية التشادية التي تتكلم بهذه اللهجات: الهاووسا والكانوري. وفي الفولتا السودانية وفي شمال شاطيء العاج يتكلمون بالموسى والسنونو والكابرة.

هذا الى جانب لهجة التاماشك «البربرية» وهي اللهجة التي يتكلم بها سكان مالي والنيجر.

ويقول الأستاذ نعيم قداح في كتابه «أفريقيا الغربية في ظل الاسلام» بأن المرابطين نشروا الاسلام في القرنين العاشر والحادي عشر بعد الميلاد

بين قبائل السنغال وقد حملت قبائل التكرود والسراكوله راية الإسلام في ذينك العصرين حتى انتشر في مالي «حالياً» والنيجر وغانا وغينيا. في ذلك الوقت ومن بعده قام الرّحالة العرب ومن بعدهم الرحالة الأوروبيون باكتشاف ممالك كثيرة - أثناء القرون الوسطى - في القارة الأفريقية تتمتع بحضارة إنسانية تمتاز بطابعها الأصيل وبنظامها البديع مما يثبت أن تلك الحضارة كانت وليدة الحضارة الكنعانية والحضارة الاسلامية اللتين قدّمتا للشعوب الأفريقية عطاءات إنسانية مجدية.

ملوك دولة المرابطين:

تاشفين - مؤسس الأسرة:

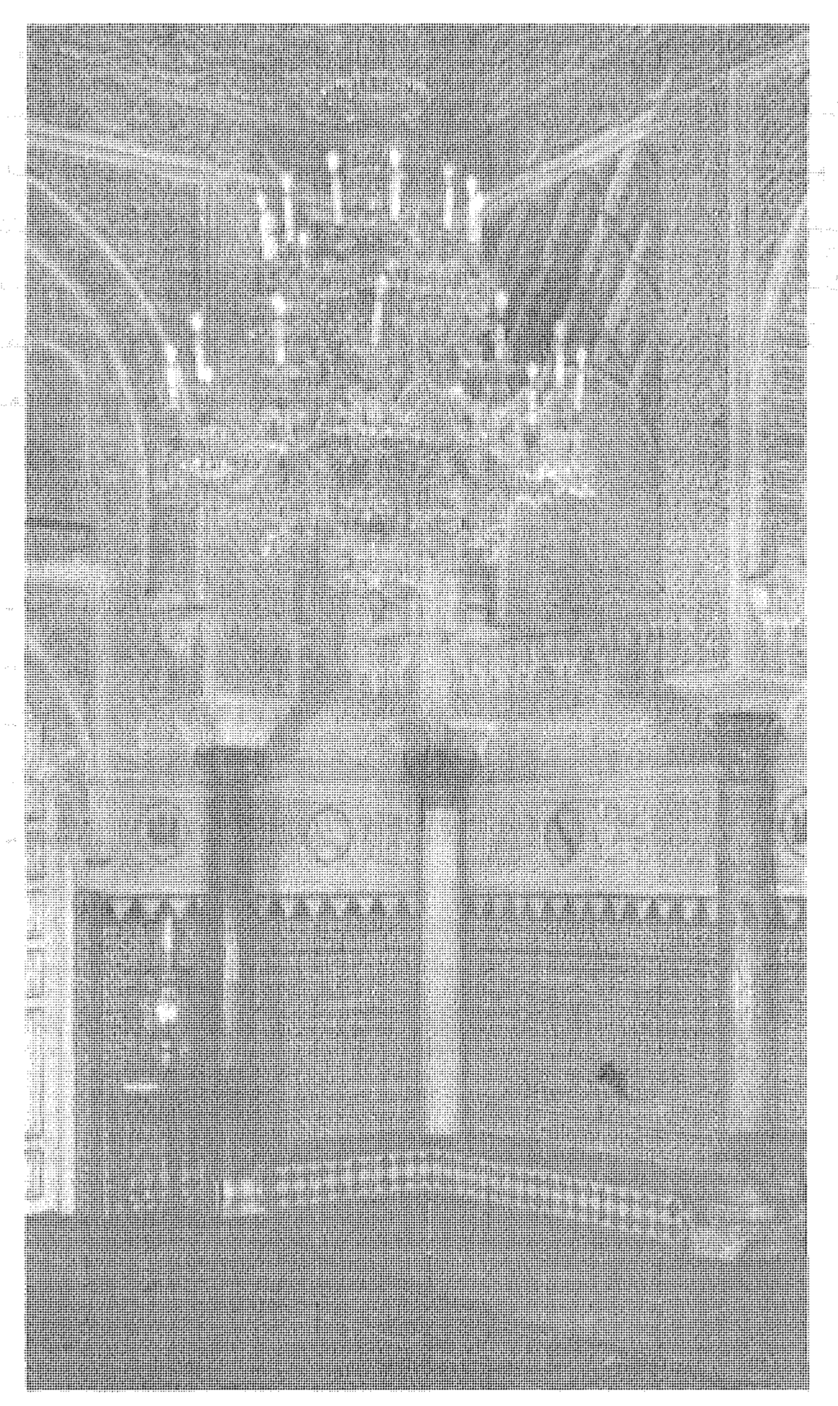
١) - يوسف (١٠٩٠-١١٠٦)

٢) - علي (١١٠٦ -١١٤٣)

٣) - تاشفين (١١٤٣-١١٤٦)

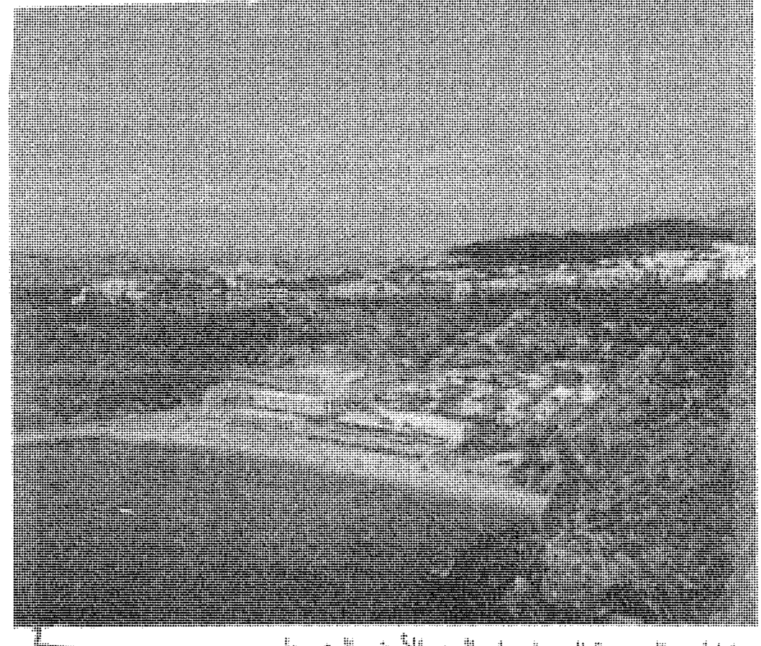
٤) - ابراهيم (١١٤٦)

٥) - إسحاق (١١٤٦-١١٤٧).

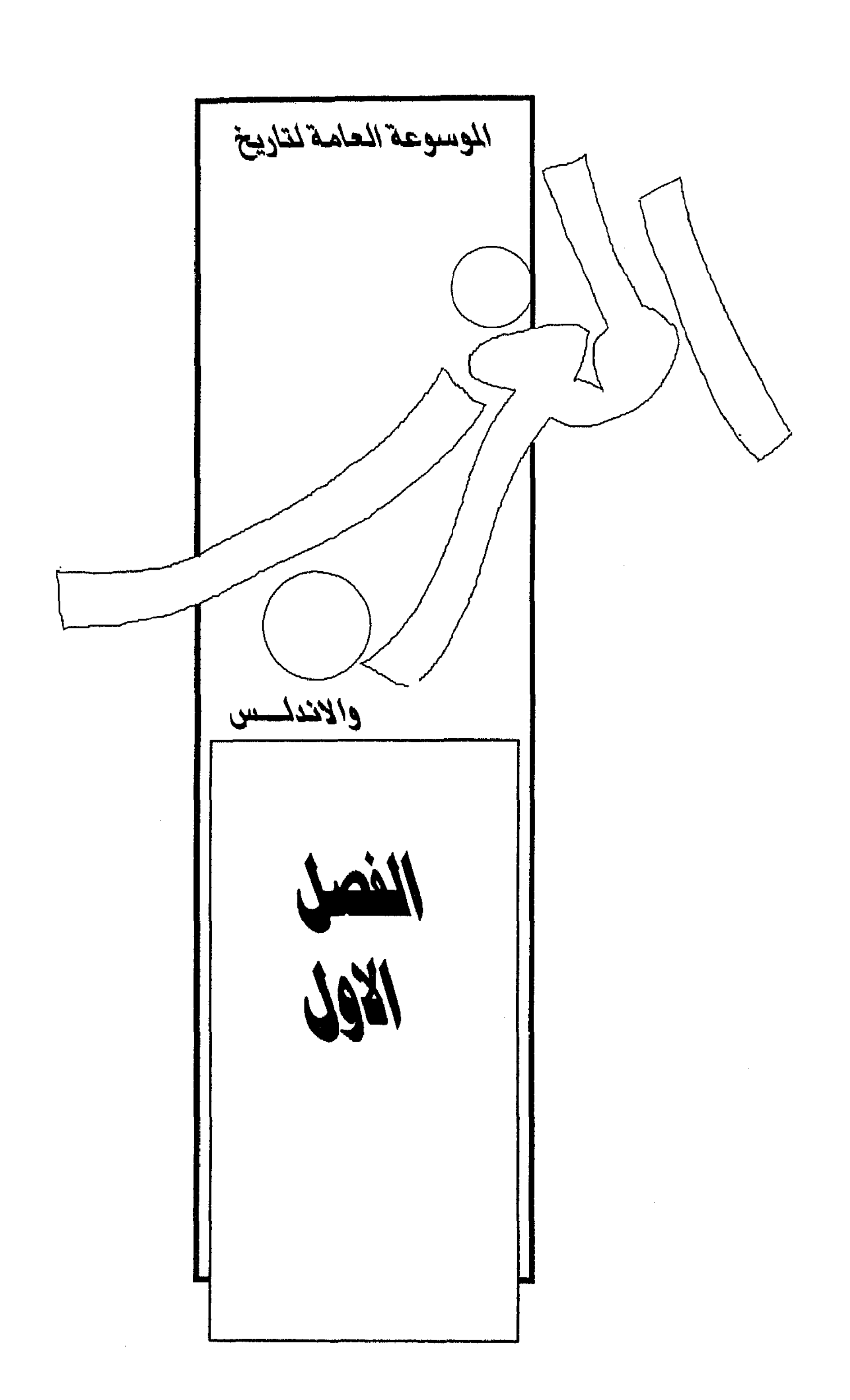


أحد صالونات الكازار في اشبيلية





شاطئ الحسيمة الجميل على البحر الأبيض المتوسط


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــس
الفصل
الاول

عهد الموحدين

لم يكن من السهل تقويض امبراطورية المرابطين بأعمال عسكرية أو سياسية دون الاستعانة بحركة دينية مذهبية قوية ومماثلة للمبادىء الدينية التي قامت عليها حركة المرابطين، وكانت أسواق المذاهب الدينية في المشرق حافلة بالنشاطات والمبادىء الشيعيَّة والاسماعيلية الباطنية ومنها الفاطمية، ومذاهب السنة الأربعة وهي: المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية، بالاضافة الى مذاهب أخرى شديدة المحافظة كالأشعرية وأخرى منفتحة كمذهب المعتزلة[1]، وقد سمع واصل بن عطاء من الحسن البصري ـ الذي عاصر سبعين رجلاً ممن شهدوا موقعة بدر، وكان مصدراً لكثير من الحركات الفكرية في الاسلام. قلت أن واصل سمع من الحسن البصري الذي كان يتحدث في أول عهده ويقول «بحرية الارادة» فأصبح هذا القول ركناً أساسياً في عقيدة المعتزلة وهي لم تتمسك به ولم تتخذه مبدأً لنشاطها الفكري الا بعد أن استوعبه واصل من الحسن البصري، وكان القول «بحريّة الإرادة» يعتبر تجاوباً في ذلك الزمن مع القدرية،

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢/ ٢٢ـ الملل والنحل للشهرستاني ص٣٣

القائلين بقدرة الانسان التي أهّلهم بها الله تعالى بخلاف الجبرية .

القدرية

والقدرية تمثل رد فعل لما يقال من تسليم ليد القضاء والقدر الناجم عن الإذعان لمشيئة الله[1] ، والقدرية من أقدم مدارس الفكر في الإسلام وكان من أتباعها معاوية الثاني ويزيد الثالث[2] .

من أراء المعتزلة

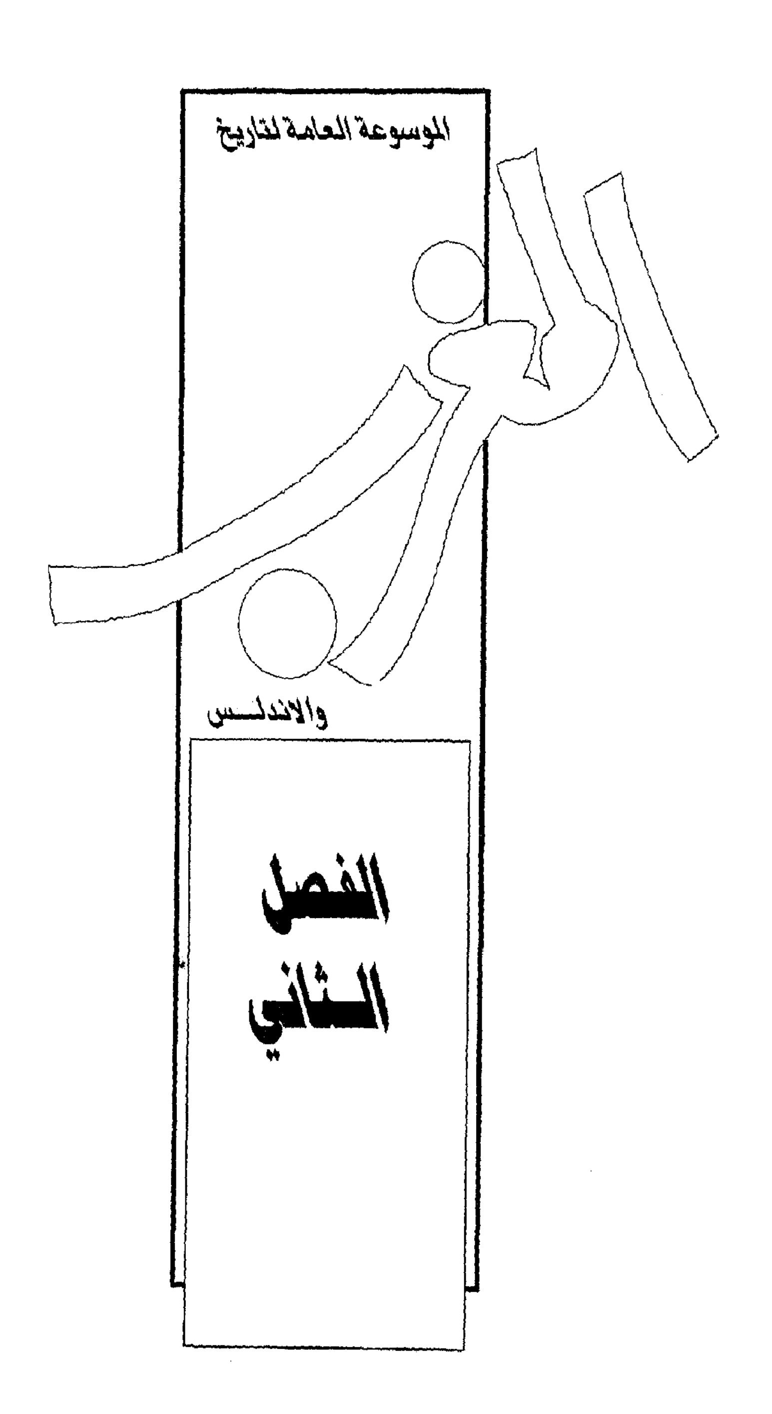
وقد أضافت المعتزلة الى الاعتقاد بحرية الفكر والإرادة مبدأ نفي وجود هذه الصفات يناقض وحدة الله، وهذا هو السر في اتباع مذهب الاعتزال، والمعتزلة يطلقون على أنفسهم لقب أهل العدل والتوحيد، وقد أدركت هذه النزعة الفكرية التي ترمي الى تحكيم العقل وإحلاله مقاماً سامياً في عهد المأمون العباسي «٨١٣ـ٨٣٣» .

وكان ثمة فقه إبن حزم الأندلسي المتوفي عام ١٠٦٤م .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٥ـ٢٦ـ سورة الحجر الآية ٢١ـ الشورى ٢٦ ـ الزخرف ١٠ـ القمر ٤٩ .

(٢) ابن العبري ص١٩٠ ـ اليعقوبي ٢/ ٤٠٢ .



الفصل الثاني

إبن تومرت مؤسس الدولة

في هذا المحيط الخضم المتماوج بالفقهاء والدعاة ظهر محمد بن تومرت من قبيلة مصمودة الكنعانية وهي القبيلة المناوئة لقبيلة صنهاجة الكنعانية أيضاً ولكنها من سبط كنعاني آخر، وكان قبل ظهوره قد أعد نفسه ليكون إماماً جديداً في المغرب على مذهب ما . . قبل أن يبدأ رحلته الطويلة للدرس والتحصيل والغربلة والتخزين لاختيار المذهب أو الطريقة التي يريد اتباعها والظهور بها.

وقد وصف محمد بن تومرت «١٠٧٨ـ١١٣٠» بأنه كان أسمر اللون، فظيع الهيئة مخيفاً، احترف والده إسراج القناديل في المساجد ويستخلص من ذلك أنه كان في صباه يلازم المساجد التي كان يعمل فيها والده ويساعده في عمله وفي الوقت نفسه كان يتلقى العلم من مشايخ وعلماء تلك المساجد.

ولعل الخلاف القديم المتأصّل بين قبيلته مصمودة، وقبيلة صنهاجة قد حفزه حفزاً على تلقي الفقه ـ في مجال المنافسة ـ بعد أن تقدمت صنهاجة

على قبيلته مصمودة، لذلك قرر أن ينتشل قبيلته من القعر ليدفع بها الى واجهة الأحداث.

وبدأ إبن تومرت رحلته من سوس في بلاد الهارغة الواقعة على السفح الشمالي لجبال الأطلس الداخلية، فذهب الى قرطبة، وفي مسجدها الكبير الذي هو من أجمل مساجد المسلمين في المشرق والمغرب حيث يزيد عدد أعمدته المرمرية على ألف عمود توزعت على بهو المسجد الفسيح والأقواس المزدوجة. وهناك قطف زهور الفقه من شجرة إبن حزم وأخذ عنه الشيء الكثير

إبن تومرت والغزالي

ثم انتقل الى العراق حيث التقى بالغزالي، وكان المرابطون قد أحرقوا كتابه أحياء العلوم في مراكش لأنهم وجدوا فيه نكهة فلسفية تغاير أصول الاسلام والمذهب الأشعري وغيره من المذاهب الإسلامية الأربعة.

ويبدو أنه وجد عند الغزالي الحكم التي هي ضالة المؤمن والعلوم التي جاء بطلبها. وقرأ أثناء ذلك كتاب أحياء علوم الدين للغزالي وتأثّر به كثيراً فملأ صدره وعقله من كل ما قرأ ومن كل ما سمع، ثم أضافه الى ما أخذه عن إبن حزم ليستخرج منهما عقيدة التوحيد التي أصبحت دعوته الجديدة في المغرب.

وفي حوالي عام ١١١٦ قفل عائداً الى بلاده بعد أن قضى تسع سنوات في بلاد الشرق على اعتبار أنه بدأ رحلته في عام ١١٠٧ وهو نفس العام الذي توفي فيه يوسف بن تاشفين، فسلك في عودته طريق الإسكندرية وتونس وبوجي وتلمسان وفاس ومكناس واستقر موقتاً في مراكش، فأحاط علماً بمجريات الحوادث وشاهد بعينه بدء تدهور عهد المرابطين.

التمهيد للدعوة

وقد سلك إبن تومرت هذه الطريق البرية الطويلة معتمداً على فكرة خطرت له أثناء عودته وهو أن يمهد لدعوته في المدن التي يمر عليها في رحلة العودة، فراح يساجل في كل مسجد انداده من العلماء ويحاضر ويستشهد بمحاضراته بمن لقي في العراق وبمن استمع اليهم من فقهاء الدين المشهورين أحياءً أو أمواتاً فبرهن بذلك عن إطلاع واسع واستيعاب للمعلومات والاستشهادات التي ذكرها، كما عقد هنا وهناك صداقات لتكون له عوناً في المستقبل وقد ساعده على ذلك لسان فصيح في اللغة العربية وجعبة ملأى بالمعلومات وقلب جريء، وإحساس داخلي بأن دعوة التوحيد التي راح يبشر بها في حذر شديد سوف تلقى آذاناً صاغية.

والأكثر من ذلك أن زياراته كانت تستقبل بترحاب على اعتبار أنه قابل الامام الغزالي وأخذ عنه الكثير..

إذن، لقد كان الهدف الأول من رحلته مقابلة الغزالي وهو الذي لعن المرابطين الذين احرقوا كتابه «الأحياء» ويبدو أن لعنة الغزالي للمرابطين كان لها صدى واسع في المغرب الكبير، خصوصاً في مساجد القيروان وبوجي وتلمسان وفاس، مما يدل على أن الطريقة الدينية التي كان فقهاء المرابطين يعالجون بها المسائل الاجتماعية لم تكن مقبولة في أوساط علماء شمالي أفريقيا بصورة عامة، وعلماء المغرب بصورة خاصة ومنهم علماء جامعة فاس.

وفي لقائه مع الغزالي، استفسر منه الغزالي عن الأسباب التي جعلت الفقهاء المرابطين يحرقون كتابه «الأحياء» ويمنعون الناس من قراءته. وكان الغزالي متألماً وغير راضٍ عن المرابطين، لذلك وجد في ابن تومرت عقلاً

واعياً لكل العلوم التي بثّها في أذنه، على أمل أنه سيكون داعية له في المغرب والأندلس، وحسبه ذلك لأنه يكون قد بلغ مناه وثَأَرَ من المرابطين وكان ابن تومرت عند حسن ظنه في كل ما أراد.

عودة إبن تومرت الى المغرب

عاد إبن تومرت الى المغرب حوالي ١١١٦م ـ ٥١٠هـ بجعبة مفعمة بتعاليم المعتزلة والأشعرية وتعاليم الشيعة وحسبه ذلك من زاد لدعوته في المستقبل. ولكن عقله ظلّ يدور حول فكرة «المحور» الذي يريد أن يتخذه للمنصب الذي يريده لنفسه في المستقبل.. فاختار من تعاليم الشيعة فكرة «المهدي» على أساس أنه اذا أطلق على نفسه اسم «المهدي» فإن ذلك الإسم سيكون المحور الذي سيدور حوله أتباعه ومعتنقو طريقته ومذهبه الجديد الذي جاء به من العراق. فهو يريد أن يكون إماماً هادياً ومصلحاً وهذا سيؤدي به في النهاية إلى أن يقود حركةً سياسيَّة يكون اصلاح الدين من أهم خصائصها، لذلك سميّ دعوته التوحيد واتباعه الموحدين.

ابن تومرت ـ المهدي

وكان لا بدّ له ـ بعد أن بلور فكرته واتخذ لنفسه لقب «المهدي» ـ من أن يحيط هذا اللقب بهالة من التقديس كما هو مفروض وذلك لا يتم الاّ إذا ألحق نَسَبَهُ بنسب الإمام علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول (ص) فاصطنع لنفسه نسباً ـ وربما ساعده في ذلك بعض أهل العراق وهم أكثر خبرة من سواهم بمعرفة أبناء الإمام علي وأحفاد أولئك الأبناء فاختار غصناً من تلك الغصون الزاكية، العاطرة من شجرة الحَسَنَيْن نجلي الإمام علي بن أبي طالب. وقد أطلق على نفسه إسم «المهدي» نسبة الى الإمام الثاني عشر من أحفاد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ـ وهو

الحجة المنتظر أو المهدي المنتظر وكان قد أختفى عام ٨٧٨م/ ٢٦٥هـ وتعتقد الشيعة بأنه سيعود الى الظهور باسم المهدي استناداً الى أحاديث عن الرسول (ص) وردت في ذلك وأنه سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجواراً والاعتقاد بالإمام المهدي أمر جوهري عند الشيعة وهو ركن من أركان المذهب وهو الى اليوم أهم فارق بينها وبين السنّة، ومع أن أهل السنّة ينتظرون مجيء «منتظر» آخر يعيد مجد الدين والأمة الاسلامية، ولكنهم لا يشدّدون على ذلك ولا يسمون الإمام المنتظر مهدياً[1] . ولما شعر إبن تومرت أن كل شيء أصبح على ما يرام أعلن أمامته في ١٥ رمضان ٥١٥هـ/ ديسمبر ١١٢١م حيث قام خطيباً في أصحابه وألقى فيهم خطبة قصيرة هذا نصّها: «الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاء، لاراد لأمره ولا معقب لحكمه وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالامام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. يبعثه الله إذا نُسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور. مكانه المغرب الأقصى

---

(١) الخلفاء الشرعيون للامام علي هم الوارثون لمكانته السامية وعلومه ومناقبه الروحية الخاصة وهم جميعاً من ذريته المباشرة من زوجته فاطمة الزهراء وهم اذا حفيد الرسول (ص) الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم موسى الكاظم ثم علي الرضا ثم محمد الجواد ثم علي الهادي ثم الحسن العسكري ثم محمد بن الحسن وهو المهدي المنتظر. وكل واحد من هؤلاء وصي سلفه يُعيَّن بالنص عليه بتكليف من الله ويوصي بأن يكون خليفته الشرعي في أمامة المسلمين. وكل نظام آخر يعد عند الشيعة اغتصاباً وانتهاكاً لسلامة الهداية الدينية للأمة الاسلامية لأن الامام في كل عصر هو وحده بما له من عصمة وحق الهي صاحب الحق في هداية الأمة وتوجيهها في كل أمورها الدينية. وإذن فمن مقتضيات العدل الالهي أن لا يحرم اي جيل من هذه الهداية ولا غنى عن وجود إمام في كل عصر. وإذن فالأمامة عند الشيعة لا تتعلق كما هي الحال عند السنّة بزعيم دنيوي للأمة الاسلامية بل بإمام روحي معصوم هادٍ مهتدٍ بالحق الالهي.

(راجع الفرق الاسلامية في الشمال الأفريقي لألفرد بل منشورات دار الغرب الاسلامي).

منبته وزمانه آخر الزمان واسمه إسم النبي (ص) ونسبه نسب النبي صلى الله عليه تعالي وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم، وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل»[1].

آراء ابن تومرت ومعتقداته

استهل ابن تومرت عمله بالتبشير كمصلح لأخلاق المجتمع ثم كعالم لاهوتي خلال مطارحاته مع فقهاء مراكش، ثم أعلن نفسه كمؤسس مدرسة عقائدية في أغمات، ثم صرّح بأنه زعيم حزب جديد في بلدة تينمال في المرتفعات الجبلية. أي عندما أصبح في منطقة مصمودة الجبلية تأمينا لحياته.

إذن، فقد اتخذ مذهب الاعتزال الذي استمده من العالم الغزالي كأساس لحركته التأسيسية، أما اللاهوت فأخذه من جوهر تعاليم الأشعري، لأنه مبني على تمثل عقلي للتعريف بصفات الله، باستخدام الاستدلال القياسي، والتفسير المجازي للقرآن، ومن بين هذين الاختيارين الأشعرية والمعتزلة تمخّض اسم ـ الموحد ـ لأن المعتزلة كانوا يطلقون على أنفسهم إسم أهل العدل والتوحيد، ولكي يجعل استدلالاته مقبولة كزعيم مذهب أعطى نفسه حق تفسير القرآن تفسيراً شخصياً، وحق تفسير الأحاديث النبوية مستعيناً بزاهرية «ابن حزم» وعلى هذا الأساس اصطنع لنفسه أو صنعت له شجرة نسب فألحق نفسه بالأسرة الإدريسية في الجنوب المراكشي، وتسمى بالمهدي.

---

(١) ابن القطان في نظم الجمان نقلاً عن ابن الراعي لوحة ٣٣/١ ـ راجع دولة الاسلام في الأندلس ص ١٧٣ العصر الثالث.

الإمامة كما يراها إبن تومرت

. . . هذا باب في العلم وهو وجوب اعتقاد الأمامة على الكافة وهي ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا الا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان الى أن تقوم الساعة وما من زمان الا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من عاد الى نوح ومن بعده الى ابراهيم ولا يكون الإمام الا معصوماً من الباطل ليهدم الباطل لأن الباطل لا يهدم الباطل وأن يكون معصوماً من الظلال لأن الضلال لا يهدم الضلال وان يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته . وأن يكون معصوماً من البدع لأن المبتدع لا يهدم الكذب بل يثبته . وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل لأن الجاهل لا يهدم الجهل وان يكون معصوماً من الباطل لأن المبطل لا يهدم الباطل كما لا تدفع النجاسة ـ بالنجاسة وكما لا تدفع الظلمة بالظلمة كذلك لا يدفع الفساد بالفساد ولا يدفع الباطل بالباطل وانما يدفع بضده الذي هو الحق. والامامة هي عمدة الدين وعموده على الاطلاق في سائر الأزمان وهو دين السلف الصالح والأمم السالفة الى ابراهيم وما قبله فاعتقادها دين والعمل بها دين والتزامها دين ومعناها الإتباع والاقتداء والسمع والطاعة والتسليم وامتثال الأمر واجتناب النهي والأخذ بسنة الامام في القليل والكثير».

عصر إبن تومرت

كان العصر الذي ظهر فيه ابن تومرت عصر المذاهب المتجددة لحدٍ ما. فالغزالي كان فيلسوف عصر السلجوقيين في العراق وهم من الأتراك وفهمهم للدين الاسلامي محدود والدولة العربية الصحيحة لم يعد لها وجود. والخلفاء العباسيون خشب مسندة على كراسيها ليس لها في الحكم

والارشاد والتنظيم قلامة ظفر فالحكم كلّه بأيدي السلاجقة ووزرائهم من العرب أو من الفرس.

وبين عامي ١١٢١-١١٢٤م - ٥١٥-٥١٨ هـ، عاد ابن تومرت الى مسقط رأسه في سوس، ملقّباً نفسه بالإمام وراح يحرّك لسانه على عادة الهداة والمهديين بالكلام المنمّق المتّزن والموزون في أحكام الدين وراح يناظر كل من يدعوه للمناظرة، ويهدي كل من يريد الهدى والدين الصحيح. وتحلق حوله الكثيرون من قبيلة مصمودة المشرئبّة للسؤود والمعالي لمنافسة عدوّتها صنهاجة - التي استطاعت أن تشكّل امبراطورية عظمى تضمّ المغرب والأندلس والجزائر.

الرّتب العسكرية في جيش ابن تومرت وقوّاد حركته

وفي عام ١١٢٤م ٥١٨ هجرية اختار مدينة تينمال الجبلية لتكون مركزاً عاماً لدعوته لما تتمتّع به من حصانة جبلية ساحقة ووعورة وأنشأ حزباً مقاتلاً منظماً وفقاً للمراتب التالية:

- أهل الدار: وهؤلاء صحبه المقربون.

- وأهل العَشَرة: وهم الذين كانوا أوّل من آمن به على أنه المهدي. وبعضهم كان قد تبعه في رحلة الإياب من الشرق[1] وكان أبرزهم شخصيةً عبد المؤمن بن علي - (وهو الذي خلفه بعد موته) وكان قد اصطحبه من «بوجي» في أوّل رحلته الى المشرق الونشاريسي الملقّب بالبشير وهو من المغرب الأوسط. وقد لعب دوراً هاماً في تأصيل الحركة السياسية، وأبو حفص عمر الهنتاني وهو زعيم محلي ضمّه الى العشرة من أهل العزم والفكر

---

(١) ابن الكتاني ص٥ - ٧٧ لا سيما رسالة عبد الرحمن بن طاهر الى عبد المؤمن بن علي.

المتوقّد الذين اعتبروا رؤساء حركة الموحّدين:

ـ وأهل الخمسين: وهم القادة أو المناقشون لأهم المسائل العسكرية والسياسية.

ـ وأهل الساقة: وهو مجلس مؤلّف من سبعين شخصية للممارسات التنظيمية، واتّخذ المهدي شعاراً لجيوشه علماً أبيض كتب على أحد وجهيه: **«الواحد الله محمد رسول الله. المهدي خليفة الله»** وكتب على الوجه الثاني **«وما من اله الاّ الله وما توفيقي الاّ بالله وأفوّض أمري الى الله»**[١].

وهكذا أعدّ ابن تومرت عدته ليكون «مهدياً» ومؤسساً لدولة جديدة تقوم على انقاض دولة المرابطين بعد أن مهّد لذلك بدعوته القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ظهور الدعوة وانتشارها

ألّف ابن تومرت لأتباعه كتباً في عقيدته التوحيدية التي شرحها باللغة الكنعانية «البربرية»[٢].

وذكر مؤلّف كتاب الاستبصار. أن دعوة التوحيد امتدت من طرابلس شرقاً حتى غانا والى قلب القارة الأفريقية. وتجدر الإشارة هنا الى أن دولة الموحّدين أسّستها قبيلة مصمودة وكانت مساكنها في الأطلس الكبير، والريف الغربي، وكانت الجزائر ضمن دولة الموحدين المصمودية الاسلامية، وكذلك تونس الى مدينة طرابلس الغرب عاصمة ليبيا حالياً، وقد

---

(١) ابن القطان في نظم الجمان لوحة ٤٣ ب ـ راجع دولة الاسلام في الأندلس ص ١٩٦ العصر الثالث القسم الأول.

(٢) أن مذهب ابن تومرت وارد في مؤلفاته المجموعة في (أعز ما يطلب) وخصوصاً في (العقيدة) وهو يضع مبدءاً أن العبادات لا قيمة لها بدون الايمان والاخلاص وهما يقتضيان بالضرورة العلم بالله. ومعرفة وجود الله تتم ضرورة بالعقل.

ضمت اليها كما فعل المرابطون من قبل الأندلس، وجزر البليار واحتفظت بمدينة مراكش عاصمة لها. . وكانت دولتهم على المذهب المالكي.

وكان ابن تومرت جريئاً وقد مارس شجاعته هذه في أوّل الدعوة عندما كان في فاس فتعرّض لأخت الإمام المرابطي علي الورع بن يوسف بن تاشفين، وكانت سافرةً عن وجهها فوبّخها وجذبها عن بغلتها وأسقطها أرضاً استنكاراً لسفورها وتبرّجها، ثم ذهب الى مسجد مراكش وانتهر «أمير المؤمنين» علي الورع نفسه لأنه كان يجلس على عباءة سوداء، محتجاً بأن السواد يأتي من الصباغ والصباغ تدخله مادة غير طاهرة شرعاً!

وكان الاحتجاج صارماً وشديداً واستحى «أمير المؤمنين» ولكنه لم ينهره ولم يزجره على وقاحته، فسحب العباءة من تحته وأعطاها الى صاحبها. وشعر كبار المرابطين بخطر إبن تومرت، فحرّضوا عليه أمير المسلمين وحثّوه على أن يبطش به وأن ينكل بجماعته قبل اشتداد خطرهم ولكنه اكتفى بطرده من مراكش وخيّره في الذهاب الى أي مكان يريد. .

وكان من قبل قد هاجم السوق التي تباع فيها الآلات الموسيقية وطلب من اتباعه ان يحطموها بحجة أنها بدعة، وكل بدعة ضلاله وكل ضلالة في النار. وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. وان الغناء يلهي الناس ويصرفهم عن الصلاة والعبادة والالتفات الى الأمور الجدية في الحياة.

وفي اعتقادي أن هذا تزمت خارج عن الأصول لأن الآلات الموسيقية والغناء فن من الفنون الجميلة يُعد من مقومات الحضارة، ولكن ابن تومرت كان له رأيه الخاص في ذلك.

فلما اعتكف في «تينمال» الجبلية وتحصن فيها ونظم جماعته وأتباعه على الأشكال التي أوردناها آنفاً أمر عبد الله الونشارسي الملقب بالبشير بأن

يطهر بلدة تينمال من المنافقين والمعارضين الهازئين بدعوته، فجرى تطهيرهم بقسوة بالغة.

تقشّف ابن تومرت

كان ابن تومرت يعلم بأن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين كان متقشّفاً في حياته فأحبّ أن ينافسه في ذلك فصار يرتدي الأسمال ولا يتناول من الطعام الاّ أقلّه مبتعداً ما أمكن عن النساء، حاثا أتباعه على التقيّد بتعاليمه، واتّباع ارشاداته مهما بلغت قوّتها - حتى لو أمرهم بقتل أهلهم أو ذويهم. وهو في عمله هذا قد جمع بين الاسماعيلية القديمة والنازية الحديثة.

وكتب ابن تومرت تعاليم دعوته بالعربية والبربرية وأمر بأن توزع في طول البلاد وعرضها، موحياً للناس بأنه «المهدي المنتظر» وكانت ثمة أخبار كثيرة تتحدث في الشرق والغرب عن «المهدي المنتظر» الذي سيملأ الأرض عدلاً كما مخلئت ظلماً وجورا. . فكان الناس يستقبلونه على أنه المهدي المنتظر بصياحٍ عالٍ سائلين: أأنتَ المهدي المنتظر القادم من السماء؟ فيجيبهم قائلاً: قل إنما أنا بشر مثلكم[1] .

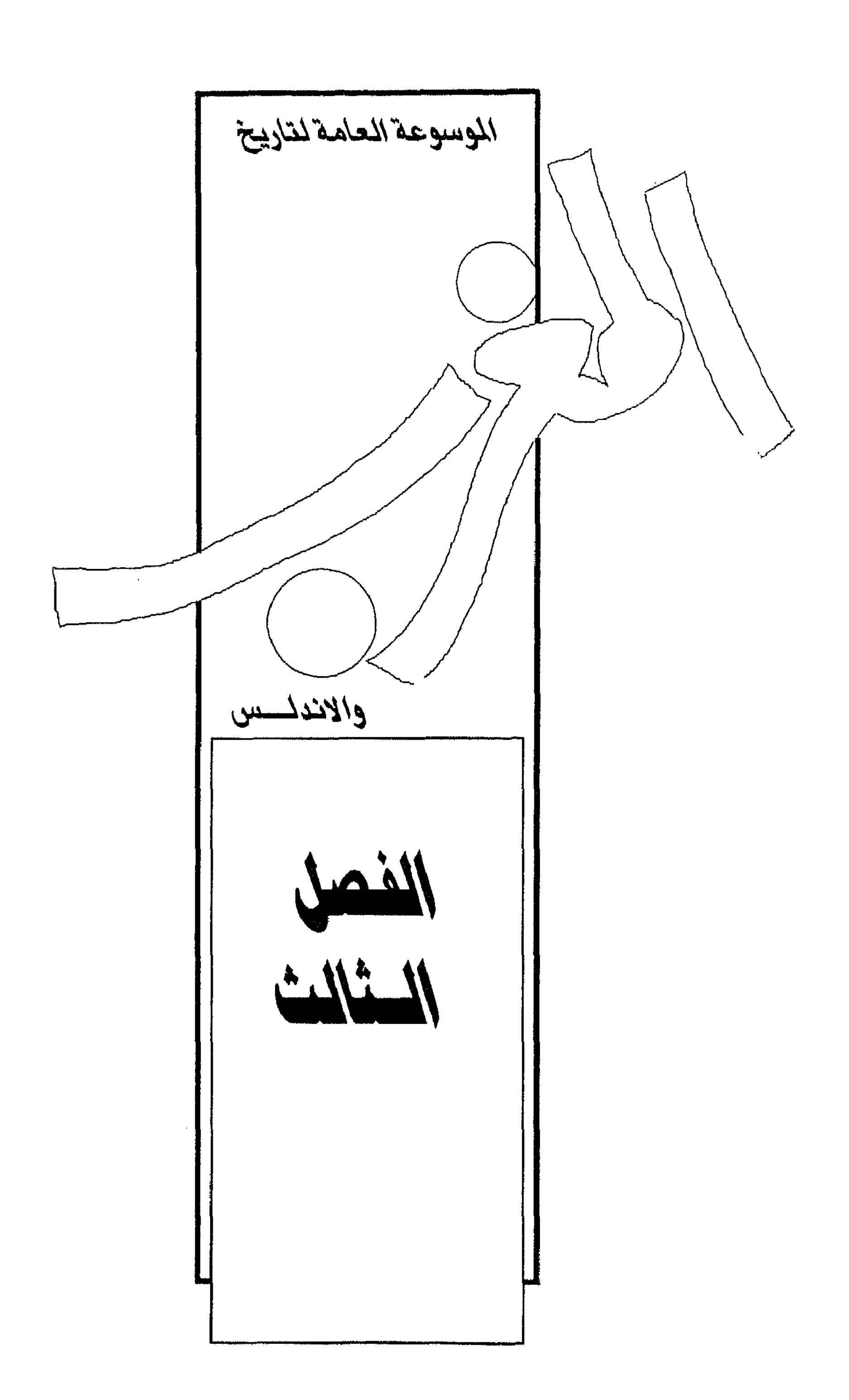
وبدأ ابن تومرت ينشر دعوته بين القبائل في جبال الأطلس فطهر سكانه حسب زعمه من المنافقين المكذبين، ثم بدأ يهاجم في السهل، ففشل في حملته الأولى وهزم عام ١١٢٨ وفي هذه المعركة قُتل عبد الله الونشريسي البشير. ومات على أثره ابن تومرت بعد هزيمته بعام واحد ١١٣٠م - ٥٢٤ هجرية، ولكن دعوته لم تتأثّر بموته لأنه كان قد أَعد لكل حالة ما يناسبها من الصبر والاحتمال وكتم خبر وفاته.

---

(١) جزء من الآية ١١٠ من سورة الكهف والآية ٦ من سورة فصلت.



جمال الفن اليدوي في المغرب الحديث



الفصل الثالث

عبد المؤمن بن علي
الباني لدولة الموحدين

بما أنَّ الكهدي بن تومرت لم يعيّن خلفاً له أو وريثاً فقد جرت الأمور بتسوية بين قائديه عبد المؤمن وأبي حفص عمر ـ دامت سنتين ـ ثمَّ تم الاعتراف بعبد المؤمن خليفة للموحدين في عام ١١٣٢م ـ ٥٢٦ هجرية، وهو الذي وطد أركان الدعوة وحولها من دعوة دينية الى دعوة سياسية عسكرية، وبعد انتخابه أعلن عن وفاة «المهدي».

وكان عبد المؤمن بن علي من قرية قرب مدينة تلمسان ليس من بربر مصمودة وإنما من بربر جبال الريف أي من قبيلة زناتة وكان أبوه يدعى علياً ويعمل خزافاً.

بدأ عبد المؤمن حربه مع المرابطين بالتخلي عن الحرب في السهول واتّباع طريق القمم فوق الجبال «وكان هذا الطريق تجارياً من قبل.. يربط سجلماسة بفاس مروراً بسفرو» وجرت المعركة الفاصلة في الأورينتال بين تازا وتلمسان، إذ انضمّ السكان المحليون الى جيش الموحدين في حين

انفصلت أثناء المعركة بعض الوحدات عن جيش المرابطين ومنها وحدات «مصوفا» فعمّ الاضطراب جيش المرابطين فحاقت بهم الهزيمة وانتصر الموحدون انتصاراً حاسماً عام ١١٣٩م.

وبعد هذه المعركة سقطت تلمسان، ثم جريش عام ١١٤٤ في أيدي الموحدين وتبعتهما فاس عام ١١٤٥ وأخيراً سقطت العاصمة مراكش في عام ١١٤٦م - ٥٤١ هجرية. وكان آخر ملوك المرابطين اسحاق بن علي حفيد مؤسس دولة المرابطين، وكان شيوخ المرابطين الملثمين يديرون شؤون دولته لصغر سنّه فلم يحجم خليفة الموحدين عن ضرب عنقه بالرغم من بكائه وانتحابه[1].

مراكش عاصمة الموحدين

ولما فتح عبد المؤمن مراكش أقام فيها واستقر ملكه وأصبحت عاصمة للموحدين، وأمر عبد المؤمن بالغارة على الأندلس سنة ١١٤٥، قبل احتلال مراكش بعد أن عمّتها الفوضى السياسية وتعالت شكوى سكانها فاستطاع جيشه احتلال الأندلس كافة في خلال خمس سنين ولم يبق في أيدي ممثلي دولة المرابطين المنقرضة الآ جزائر البليار الشرقية، لبضع سنين فقط.

وتذكر بعض كتب التاريخ أن مدناً أخرى في المغرب والأندلس كانت تبحث عن زعيم لكي تثور تحت لوائه فلما تهيّأ لمدينة «ماسا» زعيم هو محمد بن هود ثارت وراءه وفعلت مثلها سبتة التي ثارت بزعامة القاضي إياد عام ١١٤٧.

وفي عام ١١٥١م - ٥٤٦ هجرية استقبل عبد المؤمن وفداً من مدينة «سالي» قادماً من الأندلس يرجو عبور المضيق لقتال القشتاليين الذين

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ ص ١٠/ ٤١٢-٤١٣.

هاجموا قرطبة .

وهنا وجد عبد المؤمن نفسه بين واجبين ودافعين مؤثرين ، إما الاتجاه نحو الأندلس لمنازلة القشتاليين أو الزحف براً وبحراً لاحتلال أفريقيا ، وكان النورمانديون قد احتلوا كلاً من تونس وطرابلس بقيادة جورج ميخائيل الأنطاكي عام ١١٤٦ . ودام احتلالهم لطرابلس ـ وكان قد احتلها قبل تونس ـ باثنتي عشرة سنة .

الموحدون يجتاحون المغرب الأوسط

ولكن عبد المؤمن وجد من الأنسب لدولته أن يسارع الى انقاذ تونس وطرابلس من سيطرة النورمانديين ، فزحف على المغرب الأوسط «الجزائر» عام ١١٥١ـ١١٥٢ فضمّه مرة أخرى واضعاً نهاية للحماديين الذين ثاروا في عهد المرابطين واستعادوا سيطرتهم على بوجي وغيرها وكان آخر أمرائهم : المنصور والعزيز ويحيى الحمادي . وكان هؤلاء الأمراء قد توصلوا الى تسوية مع الهلاليين الذين كانوا يحتلون المرتفعات واتّفق الطرفان على تشجيع التجارة وتنميتها .

فلما وصل عبد المؤمن استولى على مدينة بوجي بسهوله ففرّ يحيى الى قسنطينة ، واتجهت فرقة أخرى من جيش الموحدين نحو القلعة العاصمة القديمة فاحتلها ، ولما كانت القوة الحربية ما زالت في أيدي الهلاليين ، فقد زحف عليهم جيش الموحدين وسحق قوتهم في معركة سطيف سنة ١١٥٣م ـ ٥٤٨هجرية ، وبعد خمس سنوات ، أعد خلالها عبد المؤمن أسطولاً اسلامياً قوياً قوامه سبعون سفينة أنيطت قيادته الى علي بن أحمد بن خراسان ، فأبحر من شمال المغرب واسترد تونس من النورمانديين في مطلع عام ١١٥٩م ، ٥٥٤ هجرية وظل حسن بن علي الزيري والياً عليها تحت

مراقبة الموحدين ثم استرد عبد المؤمن سفاقص وسوس وقابس والمهدية في عام ١١٦٠ .

ولما أبحر الى طرابلس وجد في استقباله الوالي وأعيان المدينة، فعلم منهم أن سكانها ما أن علموا باقتراب أسطول الموحدين حتى هاجموا الصقليين في الليل وذبحوهم عن آخرهم وبذلك أبقي يحيى بن مبروك والياً على طرابلس.

وفي عام ١١٦١م ٥٥٦ هجرية، عاد عبد المؤمن الى عاصمته مراكش بعد أن أتمّ توحيد المغرب. واسند ظهره الى دولة موحّدة قوية وكان عبد المؤمن قد أعلن نفسه أميراً للمؤمنين على خلاف المرابطين الذين كان الخليفة منهم يُلقب بأمير المسلمين وهنا يقول الدكتور فيليب حتى في كتابه «تاريخ العرب» ما يلي: وبعدما دانت لعبد المؤمن مراكش والأندلس سيّر جيوشه سنة ١١٥٢ الى الجزائر وفي سنة ١١٥٨ الى تونس وفي سنة ١١٦٠ احتلت طرابلس وهكذا فقد توحّد ولأول مرة في التاريخ الاسلامي الساحل الأفريقي قاطبة من المحيط الأطلسي الى حدود مصر مع الأندلس تحت صولجان واحد ـ هو صولجان الموحدين ـ وأمر عبد المؤمن بن علي سنة ١١٤٥ بالغارة على اسبانيا وقد عمّتها الفوضى السياسية فاستطاع جيشه تدويخ كافة الأندلس الاسلامي في خلال خمس سنين ولم يبقَ في أيدي ممثلي دولة المرابطين المنقرضة الاّ الجزائر الشرقية (البليار) وذلك لسنين قليلة فقط(١).

وقد نجح عبد المؤمن في توطيد مركزه في المغرب الأوسط، حيث توجد قبيلته «الغوميّة» التي أمدته بأربعين ألف مقاتل في عام ١١٦١ وبعد أن

(١) فيليب حتي: تاريخ العرب المطوّل الجزء الثاني ص٦٥٠ دار الكشاف بيروت.

سحق الهلاليين في معركة سطيف، أدمج الهلالية في جيشه، وهم الذين حثّوه على تعيين ابنه البكر محمد ولياً للعهد ووريثاً للعرش ولما ثار عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي السابق أعدما.

وبما أنه لم يقوض تنظيم «جماعة الأنصار» الا أن الضعف تطرّق اليه، وبقيت جماعتان من الطبقة الحاكمة أسرة الخليفة الذين لقّبوا بالسادة الموحدين، وأسرة أبي حفص عمر الهنتاني الذين لقّبوا بالشيوخ.

الأسطول المغربي الكبير في عهد الموحدين

وفي عام ١١٦٣ جمع من أجل الحملة ـ التي كان ينوي بها استرداد قرطبة من القشتاليين، والقضاء على نفوذهم الذي تجدّد واستشرى أثناء حملته على أفريقيا ـ أربعمائة سفينة من موانىء المغرب وهي: المعمورة وطنجة وباديس وحنين ووهران الجزائرية، ثم عيّن على قيادة هذا الأسطول الضخم روجر الثاني الذي كان ملكاً لصقلية وهو من النورمانديين، ثم تولّى قيادة الأسطول فيما بعد غانم بن مردانيش الذي سنعود للحديث عنه بعد أن تمرّد..

ولكن عام ١١٦٣ كان العام الأخير في حياة الخليفة عبد المؤمن وفيه توفي، بعد أن شهد الأمن والاستقرار يستتبّان في الربوع المغربية شرقاً وغرباً. وقد دام هذا الاستقرار الى عام ١٢١٣ ميلادية ـ ٦١٠ هجرية.

ثم بدأت متاعب الدولة منذ عام ١٢١٣ واستمرت الى عام ١٢٦٩م ـ ٦٦٩ هجرية.

في حياة هذا الخليفة المصلح البناء ظهرت بحرية جديدة في البحر الأبيض المتوسط، منها أسطول جنوى التجاري، فوقع عبد المؤمن في سنة ١١٥٣م ـ ٥٤٨هـ مع الجَنَويّين معاهدة للتصدير والاستيراد. ثم جددت في

عام ١١٦١م ـ ٥٥٦هـ.

وفي عام ١١٥٣ تخلص عبد المؤمن من أسرة ابن تومرت وشخص من الأقارب يدعى ايسليتين في العام التالي، كما ذكرنا آنفاً تخلص من أخوي ابن تومرت، وفي عام ١١٥٨ أعدم الأخوين ابني عطية، وكانا في أول عهدهما وزيرين لدى المرابطين، فاستخدمها عبد الواحد، وأحدهما يدعى جعفر بن عطية الذي أصبح أميناً في ديوان الختم ثم مستشاراً، ولم يذكر اسم الثاني فلما أعدم أحل محله عبد السلام الغومي وهو من قبيلته لمدة سنتين ثم أعدمه بعد أن فقد الثقة به.

بعض مزايا عبد المؤمن بن علي

كان عبد المؤمن بن علي شخصاً رفيع المستوى، يتحلى بمواهب قيادية رائعة وبعبقرية تنظيمية مكنتة من تأسيس دولة الموحدين وضم أطرافها المقطوعة وتوحيدها، وهذه الأعمال والانتصارات الباهرة لا تتأتى الا لرجل قائد يعرف تماماً ماذا يريد. ومن هذه الارادة النيّرة استطاع أن يجعل مراكش عاصمة لشمال أفريقيا كما كانت قرطاجة في عصور ازدهارها عاصمة البحر الأبيض المتوسط بحراً وبراً.

وهو بالاضافة الى حنكته ونبوغه في القيادة الحربية كان مصلحاً اجتماعياً من الدرجة الأولى ومؤسساً لحضارة مغربية كاملة على انقاض الحضارات المغربية القديمة والأجد عهداً. وقد شهدت الحركة التعليمية والثقافية نهضة مباركة في عهده.

وقد أكّد على متابعة دراسة القرآن والحديث، ولكنه الى جانب ذلك استنبط قوانين وأنظمة تتفق مع حاجات العصر والمجتمع المغربي الجديد المتطور، فلم يعد المغرب في زمنه متقوقعاً حول التعاليم القديمة، ولكنه

جدد الأفكار والأحكام وأصلح القضاء لا بل وألحّ على رجال القضاء والمعلمين أن يستعملوا خيالهم وان يبتكروا الى جانب اجتهاداتهم أنظمة وقوانين جديدة لإصلاح الحياة العامة.

من أعماله الاصلاحية

وكان من أعماله الاصلاحية أن أمر بمسح أراضي «المغرب الكبير» على سعته، وترقيم طرقات الدولة بعلامات الفراسخ والأميال، ونظم الخراج من ملاكي الأراضي، وألزم القبائل بإداء واجباتها والدفع عن أراضيها لتحسين موارد الخراج.

وصحيح أيضاً أنه بنى أسطولاً كبيراً اعتبر في زمنه أكبر أسطول في البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي.. الاّ أنه أخطأ في تعيين ربابنةٍ أجانب للأسطول كروجير الثاني الذي احتلت أسرته بدءاً من روجيه الأول صقلية بعد أن تغلّب الجيش النورماندي على حكام صقلية العرب.

وفي عهده شيّدت دور لصناعة السلاح والذخيرة كالسيوف والرماح والدروع والخوذ وقيل أن مصانع السهام كانت تنتج عشرة قناطير من السهام يومياً. وكانت تلك هي أسلحة العصر. أما الفرسان فكانت الخيول مطاياهم، ولا بد أنه كان يستعمل النياق والجمال في صحاري الجنوب وخطب على المنابر في دولة الموحدين الواسعة للمهدي في أول الأمر ثم لخليفته عبد المؤمن من بعده عوضاً عن الخليفة العباسي.

وكان للموحدين عملة قوية راسخة تميزت بالدينار اليوسفي واسم الخليفة الثاني عبد المؤمن منقوش عليها، وقد اشتهر هذا الدينار في عالم البحر المتوسط، وقد أتاح نظام الضرائب المعمول به تمويل الجيش والبحرية.

وقد ذكر المؤرخون أن جيش الموحدين لم يكن موحداً بل كان مؤلفاً من العرب الهلاليين والغوميين الصنهاجيين (قوم عبد المؤمن) والزناتيين، هذا بالاضافة الى المرتزقة الأجانب من البحارة النورمانديين والقوط، وأصبح بعض العرب الهلاليين جُبَاةً للضرائب في عهد الموحدين.

في زمن المرابطين كانت الزعامات الدينية والسياسية والفكرية والعسكرية مقتصرة على الصنهاجيين الصحراويين أما في زمن الموحدين فقد انتقلت هذه الزعامات الى ذوي المواهب والمفكرين وذوي الثقافة العربية.

وعندما استولى عبد المؤمن على فاس تولّى خطبة الجمعة في مسجد القرويين، وكان يتولاها أينما حلّ في أي مدينة: خصوصاً في أيام الجمع ـ وكان يتكلم العربية والكنعانية بطلاقة وفصاحة كما يقول صاحب روض القرطاس.

أما في ميدان الهندسة المعمارية والزخرفة الابداعية الاسلامية، فقد عمل في أول عهده على إخفاء زخارف مسجد القرويين تحت طبقة من الجص متأثراً بتعاليم أستاذه الخليفة المهدي. ولكنه ما لبث أن تراجع عن ذلك وسمح للهندسة المعمارية والزخرفة أن تحلاّ محل ذلك التزمّت المصطنع، فلما بنى مسجده على الطراز الأندلسي في بلدة تينمال منطلق دعوة الموحدين جعله آية من آيات الفن المعماري والزخرفة الأندلسية والمغربية على حد سواء. فبنى قبّةً فوق قبر المهدي، جعل منها تحفه فنية خالدة وتفنّن في زخرفتها وجعلها مزاراً ولما مات دفن فيه مع أستاذه المهدي.

وتجدر الإشارة الى أن مسجد تينمال ما زال موجوداً الى يومنا هذا

ولكن عاديات العصور والتَّرْك والاهمال عدت عليه خصوصاً في أيام الحماية الفرنسية، الا أن «بستان المسرة» الذي أنشأه عبد المؤمن في مراكش ما زال على حاله الى يومنا هذا ويبلغ طوله وعرضه خمسة كيلو مترات وقد أصبح منتزهاً عاماً في مراكش، وقد حوى ما لذّ وطاب من الأشجار المثمرة والازهار العطرية، وتصل اليه المياه من بلدة اغمات، كما تزوّد بحيرته الرائعة.

ويروى أن عبد المؤمن أقام احتفالاً كبيراً يوم أن وصل اليه مصحف عثمان تعظيماً للقرآن الكريم، فوضعه في خزانة طعمت بالذهب والفضة ورصعت بالياقوت والأحجار الكريمة، وأسدل عليها ستار مطرّزة بالخيطان الذهبية.

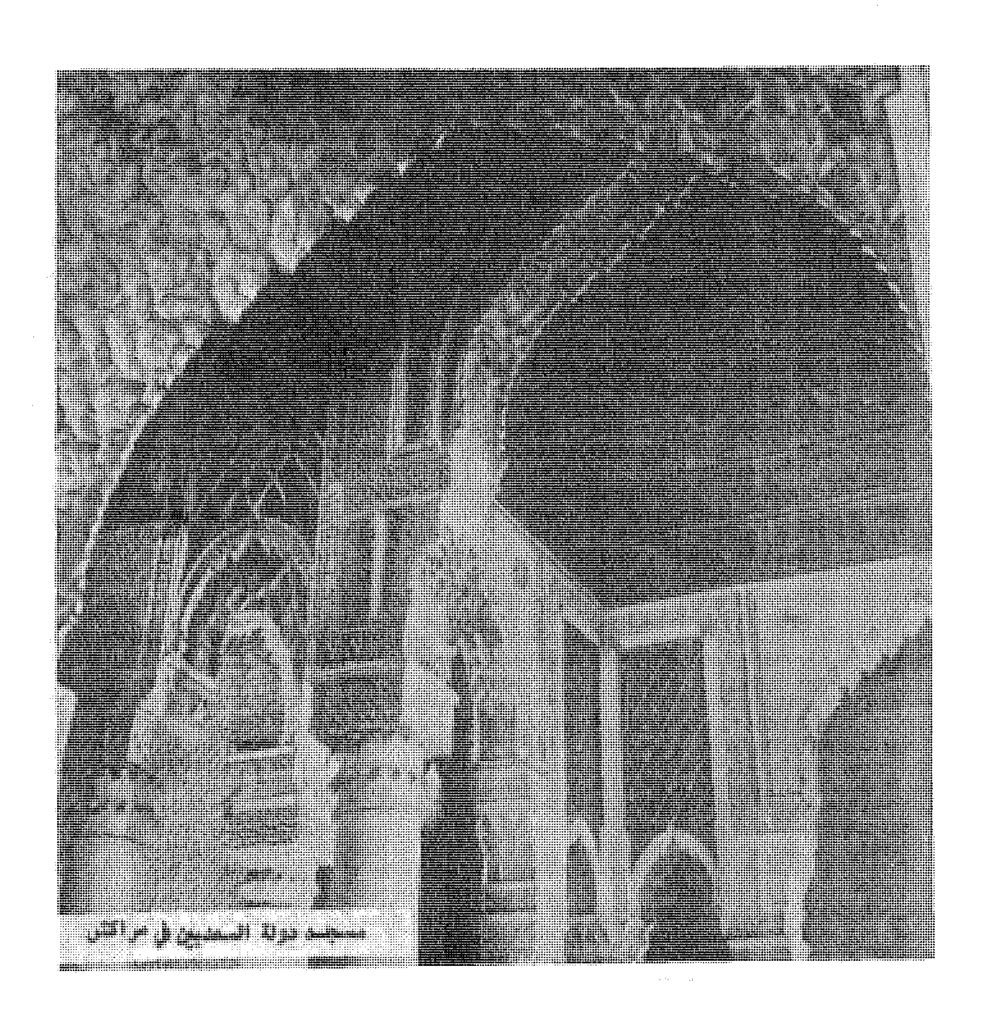
ومن مآثره أنه جعل نظام الشورى هادياً ومرشداً لحكمه، فبعد عودته من الأندلس ـ أي قبل وفاته بثلاثة أعوام عقد مؤتمراً في جبل طارق حضره وجهاء وقادة دولة الموحدين وأمراء الأندلس والمغرب الأوسط وتونس وطرابلس وعرض على الحاضرين نظام دولة الموحدين الجديد، واسترشد بآرائهم، وبذلك يكون قد نقل نظام الدولة من تسلّط «المهدي» عليه بأفكاره المتزمّتة وتفرّده بالرأي الى منطلق الشورى والأخذ بآراء الجماعة

نظام الحكومة في عهد عبد المؤمن بن علي

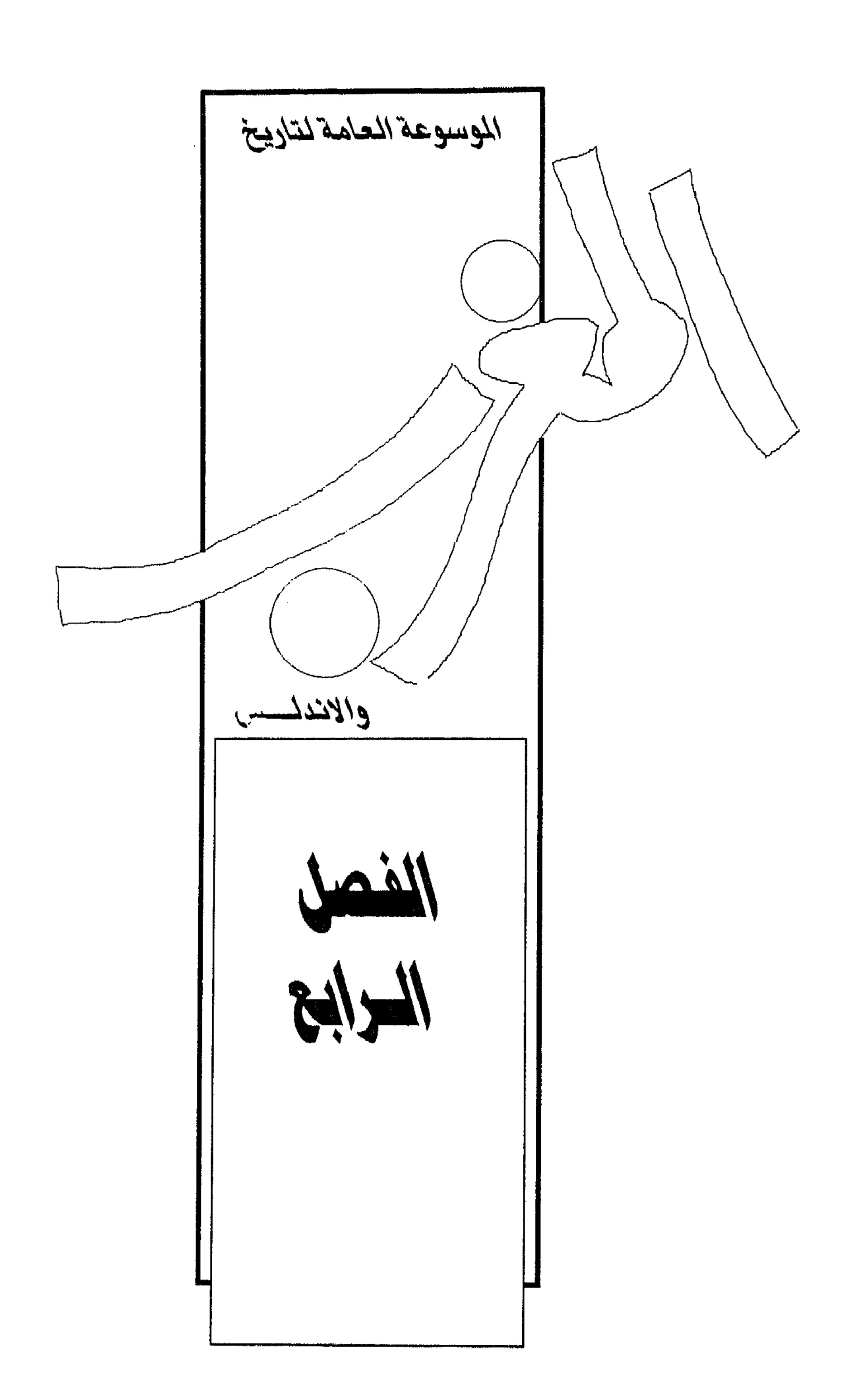
كانت حكومة عبد المؤمن تتألّف من وزير وهو المستشار الأول ويؤخذ عادة من الشيوخ أي من بني حفص وربما من غيرهم وعدد من الكتّاب من الأندلسيين والمغاربة، يكلفون بكتابة الرسائل والوقائع اليومية. وكان هناك قاضٍ في كل مدينة، ووزير للمال كان يلقّب بصاحب الأشغال، ولما عاد عبد المؤمن من المغرب الأوسط عيّن أولاده على الولايات

الرئيسية، ووضع على كل منهم شيخاً لمراقبة تصرفاته وإرشاده إذا زاغ عن الحق.

توفي عبد المؤمن عام ١١٦٣ بعد أن أمضى ٣٣ عاماً أميراً للمؤمنين قضى منها ١٥ سنة في جهاد متواصل.



مسجد دولة الموحدين في مراكش


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلس
الفصل
الرابع

الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

١١٦٤ ـ ١١٨٤

أوصى الخليفة عبد المؤمن بن علي من بعده لابنه البكر محمد بن عبد المؤمن، ولكنه خلع لعدم لياقته للحكم. فاعتلى العرش ابنه الثاني يوسف، دون أن ينال موافقة المشايخ وفي مقدمتهم أبو حفص عمر الهنتاني شيخ المشايخ ورفيق عبد المؤمن بالجهاد وقد ظلّ معلقاً على هذه الحال مدة سنتين ١١٦٤ـ١١٦٥، قبل أن يعترف به.

وتجدر الإشارة الى أن المؤرخين لم يحفلوا كثيراً بتدوين أهم الأحداث التي وقعت في عهد الخليفة يوسف الجديد، واكتفوا بأقلها. فقد كان عهده حافلاً بالعلم والعلماء.

أبو القاسم المجريطي

وكان العالم أبو القاسم مسلمة المجريطي أول علماء الأندلس من ذوي الشأن وقد حرر زيج الخوارزمي ونقحه وهو أول زيج ألّفه مسلم، ولعل أصول هذا الزيج مأخوذة من التقويم القديم الذي يعود الى عهد يزدجرد

الفارسي، وقد بناها على التقويم الهجري، فبدل خط الطول الآريني بخط طول قرطبة، وكان من ألقاب المجريطي «الحاسب» لأنه كان يعدّ إماماً في العلوم الرياضية ومنها علم القياس، وكان المجريطي أو تلميذه القرطبي أبو الحكم عمر الكرماني المتوفي سنة ١٠٦٦ أول من أدخل الى الأندلس رسائل إخوان الصفا.

أحمد محمد الغافقي

وفي عهد الخليفة يوسف توفي الطبيب أبو جعفر أحمد محمد الغافقي[١] سنة ١١٦٥ والمشهور عنه أنه جمع نباتات إسبانية وأفريقية وسمّى كلاً منها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية، ووصف تلك النباتات بأوفى وأدقّ ما في اللغة العربية في هذا الموضوع ومن أشهر مؤلفاته «الأدوية المفردة وقد أخذ جانباً كبيراً منه زميله ابن البيطار الذي ظهر في الطبّ بعد وفاته.

ابن باجة

وقد استهل القرن الثاني عشر بظهور أبي بكر محمد ابن باجة الفيلسوف والعالم والطبيب والموسيقى وشارح أرسطو «فلمع في غرناطة وسرقسطة وتوفي في مدينة فاس سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م، وألّف عدة رسائل في الفلك انتقد فيها افتراضات بطليموس فمهّد بذلك السبيل لابن طفيل والبطروجي، كما ألّف رسائل أخرى في المواد والعقاقير الطبية اقتبس عنها فيما بعد إبن البيطار، ووضع رسائل في الطب تأثّر بها إبن رشد»[٢]، كذلك يعتبر إبن باجة أوّل من ألّف في فلسفة الشرق وعليه تخرّج كثيرون من أئمة

(١) راجع نفح الطيب للمقري ٢/ ٦٩١ و٣/ ١٨٥ .
(٢) راجع ابن أبي أصيبعة ٢/ ٦٣ وهو يجعل إبن رشد المولود سنة ١١٢٦ تلميذاً لإبن باجة.

الفكر والفلسفة وفي مقدمتهم إبن طفيل وإبن رشد اللذان أقرا له بالفضل وقد مدحه إبن طفيل معترفاً له بتفوقه على أهل عصره مشيداً بتآليفه مُثْنِياً عليها متمنياً لو أمهله الأجل كذلك فإن إبن رشد امتدح كتابه «تدبير المتوحد» الذي كتبه إبن باجة في أواخر حياته ولم يتمه فقال فيه: «أراد أبو بكر بن الصائغ أن يختطّ خطة لتدبير المتوحّد في هذه الأمة ولكنه لم ينجزها وكثير منها غامض وسنحاول في غير هذا المكان شرح غاية المؤلف من هذه الرسالة.» ولكننا لم نقرأ مع الأسف هذا الشرح وقد أثبت له المؤرخون ستة وعشرين كتاباً كما نسبت اليه كتب أخرى كما وضع خمسة شروح لتعاليم أرسطو وبحث في فلسفة الفارابي. أشهر كتبه كما ذكرنا كتاب «تدبير المتوحّد» وقد كان قصد ابن باجة من وضعه هو أن يثبت أن باستطاعة الانسان أن يتّحد بالعقل الفعّال دون معونة، وأن تطهير النفس التدريجي بواسطة الاتحاد بالله هو مطلب الفلسفة.

وقد تعرّض ابن باجة الى الأذى من قبل فقهاء الأندلس فقضى معظم حياته طريداً ينتقل من بلد الى آخر حتى استقرّ نهائياً في مدينة فاس المغربية.

ابن طفيل

أما إبن طفيل وهو أبو بكر عبد الملك بن طفيل الطبيب والفيلسوف، فلم يتعرّض للأذى فعاش محاطاً بهالة من التقدير والإجلال بين معاصريه.

نشأ إبن طفيل في مدينة وادي آش[1] القريب موقعها من غرناطة، وهو من أسرةٍ قيسية عربية. بمعنى أنه من مُضر. وقد قضى الشطر الأول من حداثته في وادي آش مسقط رأسه وتلقّى العلم في غرناطة، قبل أن يبني يوسف أبو الحجاج جامعة غرناطة وهو سابع سلاطين بني نصر «١٣٣٣-١٣٥٤».

(١) وادي آش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة على ضفة نهر شلير.

واشتهرت مدينة وادي آش في تاريخ الأدب الأندلسي بكثرة شعرائها وشاعراتها لموقعها في سهل خصب تحيط به الجبال الشامخة. ونظم ابن طفيل الشعر ولكن لم يصلنا منه الا القليل. ويؤكد لنا بعض المؤرخين كابن خلكان وإبن الخطيب وهذا عاش طويلاً في غرناطة، أن إبن طفيل كان بارعاً في جميع العلوم والفنون المعروفة في عصره. وهو لم يتتلمذ على ابن باجة بل تأثّر بفلسفته والتأثير ظاهر في رسالة «حي بن يقظان».

وفي أثناء مقام إبن طفيل بغرناطة عمل كاتباً لعامل المدينة وفي سنة ٥٤٩ هـ ـ ١١٤٨ ميلادية غادر الأندلس متوجهاً الى المغرب الأقصى فعيّن أميناً لسرّ أحد أبناء عبد المؤمن الأمير أبي سعيد، وكان والده قد عيّنه عاملاً على مدينتي سبتة وطنجة، وبهذا التعيين أصبح قريباً من بلاط الموحدين في مراكش، فاستدعاه أبو يعقوب يوسف ثاني ملوك هذه الأسرة واستوزره واتّخذه طبيباً له ولحاشيته فصار من قرنائة المقربين. ولما لمس من الخليفة يوسف المذكور ميلاً للعلم والفلسفة والعلماء والفلاسفة، راح يستدعي معارفه وأصدقاءه منهم.

ويذكر المؤرخون أن أبا يعقوب يوسف الخليفة الموحدي أحبّ أن تشرح له فلسفة أرسطو، لشدة ميله إلى مطالعة كتب الفلسفة والأبحاث العلمية، فطلب من وزيره إبن طفيل أن يقوم بشرح فلسفة أرسطو والتعليق عليها فاعتذر إبن طفيل لكبر سنّه غير أنه أوعز الى إبن رشد بدرس فلسفة أرسطو وتأليف شرح وافٍ واضح لفلسفته وقد اعترف المستشرقون لابن طفيل بهذه المأثرة.

واشتهرت دولة الموحدين بميولها الدينية السلفية المحافظة، ولكنها رعت الفلسفة وعزّزتها وكرّمت أصحابها.

وقد اتّبع أبو يعقوب يوسف خطة والده الراحل عبد المؤمن فوقع على صك امتياز تجاري منحه الى البحارة البيزيين سنة ١١٦٨ «نسبة الى مدينة بيزا الايطالية» مدّته عشرون سنة، ولا ندري ما اذا كان البحارة البيزيون قد حلّوا محل البحارة الجنويين «القراصنة» الذين سبق لوالده أن منحهم امتيازاً عام ١١٥٣ لنقل البضائع والمنتوجات بين المغرب والشواطىء الايطالية بالاضافة الى شرقي البحر الأبيض المتوسط.

ـ وفي عام ١١٧٥ توفي أبو حفص عمر الهنتاني شيخ المشايخ في المجلس الاستشاري.

ـ وفي عام ١١٧٧ تخلص الخليفة يوسف من وزرائه المنتسبين لعائلة ابن جامي.

ـ وفي عام ١١٧٨م ـ ٥٧٤ هـ، ثارت مدينة قفصة في تونس بتحريض من أحد أقرباء إبن روند وهو من فروع الزيريين. وذلك في أعقاب ثورة قبائل الهلاليين في تونس وغيرها، ثم ثارت الجريد وعماله فاضطر الخليفة يوسف الى أن يقمع الثورة بنفسه بعد أن قاد حملة الى أفريقيا، ولم يستتبّ الأمن في تلك الربوع الاّ بعد سنتين.

وتفاقمت الأحداث في مدينة بلنسية عندما ثار محمد بن سعد بن مردانيش، وكان غانم بن مردانيش وهو زعيم أندلسي عيّنه عبد المؤمن في حياته قائداً لأسطول الموحدين فاستولى على بلنسية ومرسية، وتحالف مع القشتاليين لدعم ثورته فتمكّن من مهاجمة كارمونا وهدّد قرطبة بالاحتلال، ثم توفي عبد المؤمن قبل أن يتمكّن من مهاجمته وإخضاعه فاستفحل شرّه وتفاقم خطره في عهد إبنه الخليفة يوسف، ووجد يوسف نفسه بين نارين: اندلاع الفتن في أفريقيا. وثورة غانم بن مردانيش في الأندلس فاضطرّ الى

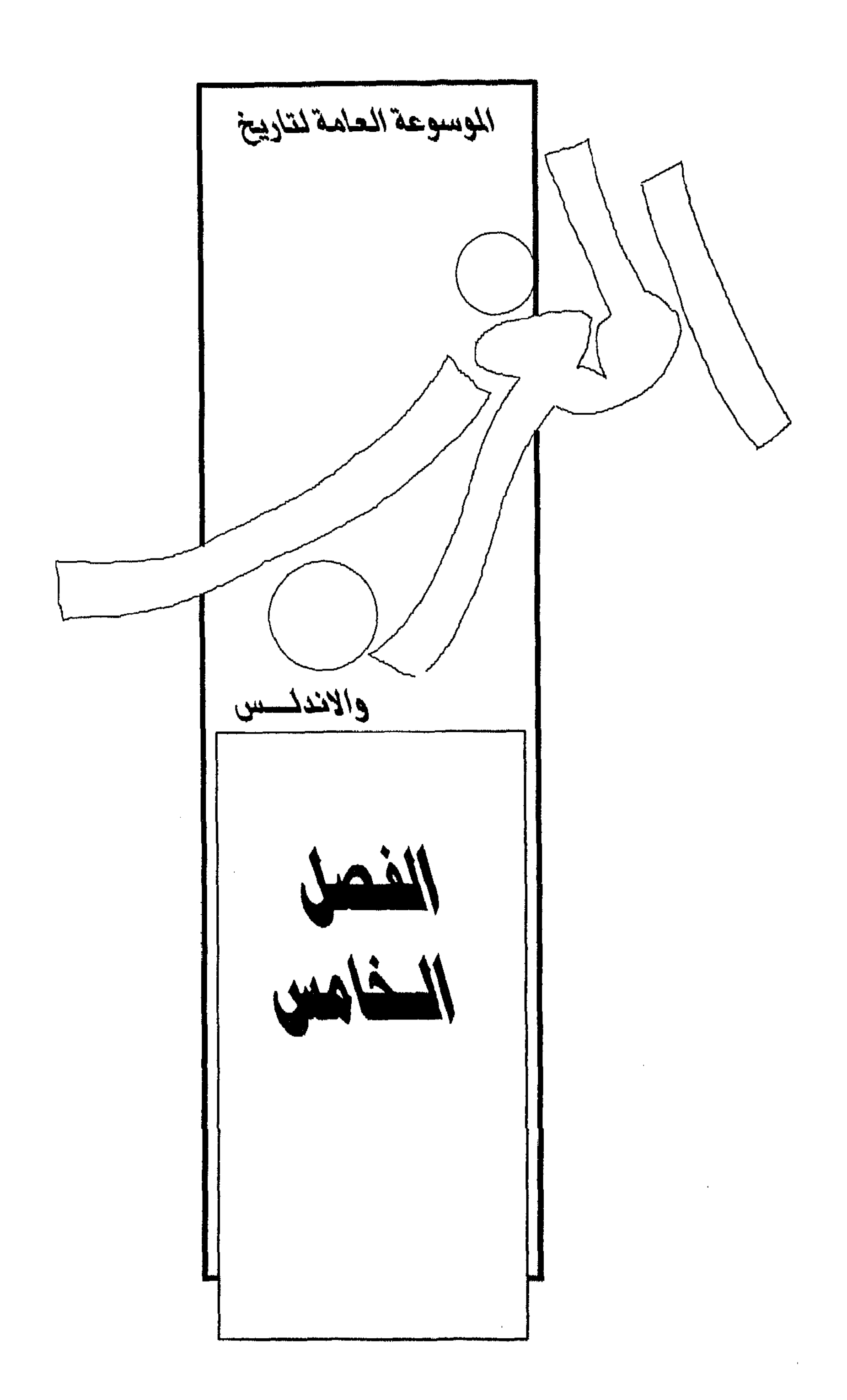
عقد محالفة مع القشتاليين لكي يتمكّن من محاصرة ابن مردانيش وثار محمد بن سعد بن مردانيش داعياً الى تحرير الأندلس من حكم الموحدين، فاستولى على وادي آش وغرناطة بمساعدة صهره ابن همشك. فانبرى لمحاربته الخليفة يوسف ولكن الفوز لم يكن حليفه في عدد من المعارك.

وهكذا وجد الخليفة يوسف نفسه بين ثورتين متأجّجتين في الأندلس. فحشد جيشاً كثيفاً وزحف للقاء محمد بن سعد بن مردانيش فهزمه في معركة «الجلاب» سنة ١١٦٤، وعاجلت المينة غانم بن مردانيش فتوفي عام ١١٧١.

ولكن محمد بن سعد بن مردانيش أعلن الثورة مجدداً فحاصره الخليفة يوسف في مرسية، واستمر الحصار طويلاً. في أثنائه مات محمد بن سعد عام ١١٧٢ فانهارت ثورته، واستردّ الخليفة يوسف مرسية وبلنسية، كما استسلم جميع أبناء مردانيش وبذلك تمت سيطرة الموحدين على الأندلس.

وفي عام ١١٨٤ توفي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فتولّى الحكم بعده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن في العام نفسه.

والجدير ذكره أن الخليفة الراحل يوسف كان قد بدأ ببناء منارة المسجد الجامع في أشبيلية (لاخيرالدا) عام ١١٧٢ ولكنه توفي قبل أن يتم بناءها فتمّت في عهد إبنه الخليفة يعقوب بن يوسف.



الفصل الخامس

الخليفة يعقوب بن يوسف
الملقب بأبي يوسف المنصور

١١٨٤ ـ ١١٩٩

هو أعظم الخلفاء الموحدين بعد جده عبد المؤمن، وأخلدهم صيتاً وأكثرهم حروباً، ويعود له كل الفضل بإعادة أفريقيا وطرابلس الى حظيرة الدولة. وأمه رومية، ورث عرش الخلافة عن والده يوسف وهو غير مستقر تسيطر على أجواء الدولة وحدودها الفتن القبلية والانقلابات الناشئة عن غزوة مملوك صلاح الدين الأيوبي لطرابلس الغرب وأجزاء أخرى من أفريقيا، وتمرّد علي بن غانية آخر ولاة المرابطين في جزائر البليار.

وكان صلاح الدين الأيوبي في إبان ظهوره، قد أخضع مصر لسلطانه بالقضاء على الدولة الفاطمية، وفرض الحجر على آخر خلفائها العاضد لدين الله ١١٦٠ ـ ١١٧١.

وفي عام ١١٧٤ أعلن صلاح الدين استقلاله في مصر، بعد وفاة نور الدين زنكي وكان الخليفة العاضد الفاطمي قد توفي قبلاً ـ عام ١١٧٠ فخلا

الجوّ لصلاح الدين. فقرر أن يوسّع دولته الناشئة على حساب الدول المجاورة فأرسل مملوكه التركماني شرف الدين قراقوش لاحتلال مدينة طرابلس الغرب عام ١١٧٠ فزحف على طبرق ثم على فزان وزويلة[١] وانضمت اليه القبائل الثائرة في المنطقة فقادها وزحف على طرابلس سنة ١١٧٢، بعد أن حالفه العرب وأمير جبل نفوسه مسعود البلاط، فحاصرها ثم اقتحمها وأخذها عنوة كان ذلك كلّه في عهد الخليفة يوسف الموحدي، والد يعقوب المنصور.

ولما ارتقى المنصور عرش المغرب عام ١١٨٤، تمرّد على إبن غانية[٢] فأعدّ أسطولاً واندفع به من مدينة مينورقة نحو تونس فاحتلها ثم استولى على مدينة بوجي في المغرب الأوسط، فلم يتمكن عبد الرحمن بن حفص ابن عم الخليفة الموحدي من مقاومته فأخضعه بكامله وتحالف علي بن غانية مع القبائل الهلالية التي هزمها قراقوش من قبل.

وبعث قراقوش الى الخليفة العباسي الناصر ١١٨٠ ـ ١٢٢٥، رسولاً يطلب منه لقب الإمارة فرفض طلبه، ويبدو أنه أرسل الطلب من وراء ظهر صلاح الدين الأيوبي وفي نيّته التمرّد عليه.

توران شاه يحتل اليمن والحجاز

ولما نجح توران شاه أخو صلاح الدين الأكبر في الاستيلاء على اليمن، وبعد انضمام الحجاز الى مصر، أصدر الخليفة العباسي الناصر إرادة ملكية بناء على طلب صلاح الدين أسندت فيها اليه السلطنة على مصر «والمغرب» والنوبة وغربي الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا الوسطى.

(١) النائب في كتابه المنهل العذب.

(٢) وهو علي بن يحيى الصوفي وكان حاكماً على جزر البليار منذ عهد علي بن يوسف بن تاشفين.

والخليفة العباسي عندما أصدر تلك الإرادة لم يكن يملك شيئاً من البلاد المذكورة.

يقول المؤرخ أبو الفداء نسيب صلاح الدين، أنه استطاع بعد عشر سنين أن يخضع الموصل ويضم اليه أمراء العراق[1] ، وبذلك تكون قد تحققت أمنية نور الدين زنكي الذي أراد أن يحاصر الصليبيين من سوريا والعراق ومصر. ثم يُطبق عليهم وهم في وسط هذا المثلّث العظيم، ولكنه لم يتمكن في حياته من تحقيق تلك الأمنية فحقّقها من بعده صلاح الدين الأيوبي.

صلاح الدين يراسل يعقوب المنصور

عندما أكتملت لصلاح الدين القوة البرية لمهاجمة الصليبيين استنفر يعقوب المنصور الخليفة المُوحّدي فبعث اليه وفداً يرأسه أحد أقارب أُسامة بن منقذ ومعه هدايا ثمينة يستنجده على الصليبيين الذين تمكّنوا من الوصول الى الديار المصرية وساحل الشام، ويقال بأن رسول صلاح الدين، عندما خاطب يعقوب المنصور الخليفة المغربي لم يلقبه بأمير المؤمنين، بل بأمير المسلمين فعز ذلك على أبي يوسف فلم يجبه الى طلبه. ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن أبا يوسف المنصور عندما تلقّى رسول صلاح الدين احتفى به وأنبأه أنه على وشك أن يزحف لاسترداد المغرب الأوسط الذي احتله علي بن غانية وأفريقيا وطرابلس اللتين احتلهما قراقوش مملوك صلاح الدين، ووعد بارسال أُسطوله بعد أن يستتبّ الأمن في ربوع مملكته الواسعة الأرجاء. «وسنعود لتتمة هذه القضية فيما بعد».

ولما عجز ابن عم الخليفة المنصور، وهو عبد الرحمن بن حفص عن

---

(١) راجع: أبو الفداء ٣/ ٦٠.

مقاومة علي بن غانية قاد المنصور الحملة بنفسه فاسترد المغرب الأوسط، وهرب علي بن غانية الى الصحراء، فطاردته قوات الخليفة ولكن المنية وافته عام ١١٨٩ .

احتدام المعارك بين المنصور وقراقوش

وفي أثناء ذلك تمكّن المنصور من الوصول الى ليبيا، فتركه قراقوش مملوك صلاح الدين يتوغل في البلاد، وهو يتظاهر بالضعف والانكماش حتى أمن المنصور جانبه، وفجأة انقضت قوات قراقوش على قوات المنصور فهزمتها. فأسرع المنصور الى جمع فلوله وانقضّ على مدينة قابس فاحتلهاومزّق جيش قراقوش شر ممزق، واستولى على أمواله ونسائه وأولاده، عندئذٍ أذعن قراقوش وشرع يتفاوض مع المنصور ليسترد نساءه وأولاده بعد أن ألقى السلاح.

فاحتل المنصور طرابلس عام ١١٩٠ وانسحب قراقوش الى تونس حسب الاتفاق مع المنصور، ولكن قراقوش التركماني لم يفِ بوعده فقرر أن ينقض الاتفاق الذي عقده مع المنصور خصوصاً بعد أن تمكّن من جمع فلول عساكره، فخرج بهم واحتل قابس، ثم احتل طرابلس، وعلى مسافة ساعة ونصف منها بنى لنفسه قصراً في غربيها ـ من حجر الآجر أطلق عليه إسم قراقوش، ولم يبق من هذا القصر الاّ معالم تعرف باسم «قرقارش» وهي قريبة من حمامات قرقارش المعدنية المشهورة.

وفي هذه الأثناء اتفق المنصور مع يحيى بن غانية شقيق علي بن غانية الميت، وبموجب هذا التعاون نجح المنصور باحتلال طرابلس للمرة الثالثة عام ١٢٠٢ .

يحيى بن غانية يتغلب على قراقوش

وفي عام ١٢٠٤ قدم المنصور الى طرابلس فاحتفل السكان به خليفة على بلادهم فعيّن يحيى بن غانية والياً على طرابلس وقابس مكافأة له على مساعدته في حرب قراقوش، وانخدع بإبن غانية . .

ومع ذلك فلم ييأس قراقوش فزحف على فزّان في الجنوب وراح يعبث فساداً بين القبائل الجنوبية، فغنم منها غنائم كبيرة، فأوعز يعقوب المنصور الى إبن غانية أن يبادره بالقتال، وبعد لأي استطاع يحيى بن غانية أن يتغلب عليه فأخذه أسيراً كما أسر عائلته وأولاده ثم قتلهم جميعاً وبذلك انتهت حياة قراقوش[١] . ولكن هذا التكليف سيكلف المنصور وخلفاءه متاعب كثيرة لأن يحيى ابن غانية مثل أخويه علي بن غانية الذي مات وعبد الله بن غانية الذي عاد الى البليار ونصب نفسه حاكماً عليها فهم كانوا متواطئين مع ملوك وأمراء النصارى في شمال الأندلس، ويبدو أن ثمة اتفاقاً سرياً كان بين الطرفين فحين يكون الخليفة المنصور أو أحد خلفائه ينازل القشتاليين في الأندلس، يثور يحيى بن غانية في أفريقيا ولدى اقتراب الخليفة الموحدي من أفريقيا يختفي يحيى بن غانية في الجريد ويثور القشتاليون وهكذا . . .

الخليفة المنصور في الأندلس

ثم انتقل الخليفة المنصور الى الأندلس، وكان سكانها المسلمون مهددين من قبل القشتاليين فاندلعت الحرب من جديد ولكن المنصور كان قوياً وكان جيشه وأسطوله مجهزين تجهيزاً جيداً فانتصر على تحالف الملوك

(١) Annales Tripolitaines - Feraud .

والأمراء، القوط في معركة «الأرك» عام ١١٩٥ انتصاراً أعاد الى الأذهان انتصار معركة «الزلّاقة».

ولكن يحيى بن غانية لم يترك للخليفة المنصور أي مجال لتوسيع دائرة انتصاراته في الأندلس فثار في تونس وما حولها وراح ينكل بالسكان التعساء ويقتلهم بلا حساب، فاضطر الخليفة الى وقف الحرب مع القشتاليين وتوقيع هدنة مع ملكهم والعودة الى مراكش.

أهم انجازات المنصور

وكان يعقوب المنصور محباً للبناء والعمران، وتعد الأبنية الباقية من عهد المنصور في مقدمة الآثار من نوعها في مراكش والأندلس، ففي مدينة أشبيلية الزاهرة أتمّ منارة المسجد الجامع الكبير الذي باشر والده يوسف بناءها عام ١١٧٢ وتم سنة ١١٩٥ وتعرف اليوم باسم منارة «لاخيرالدا» وبني المنصور على ساحل مراكش مدينة «الرباط» على شكل مدينة الاسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم واتقان البناء[1].

وشيّد في مدينة مراكش بيمارستان «مستشفى» قال المراكشي المؤرخ عنه «ما أظن أن في الدنيا مثله».

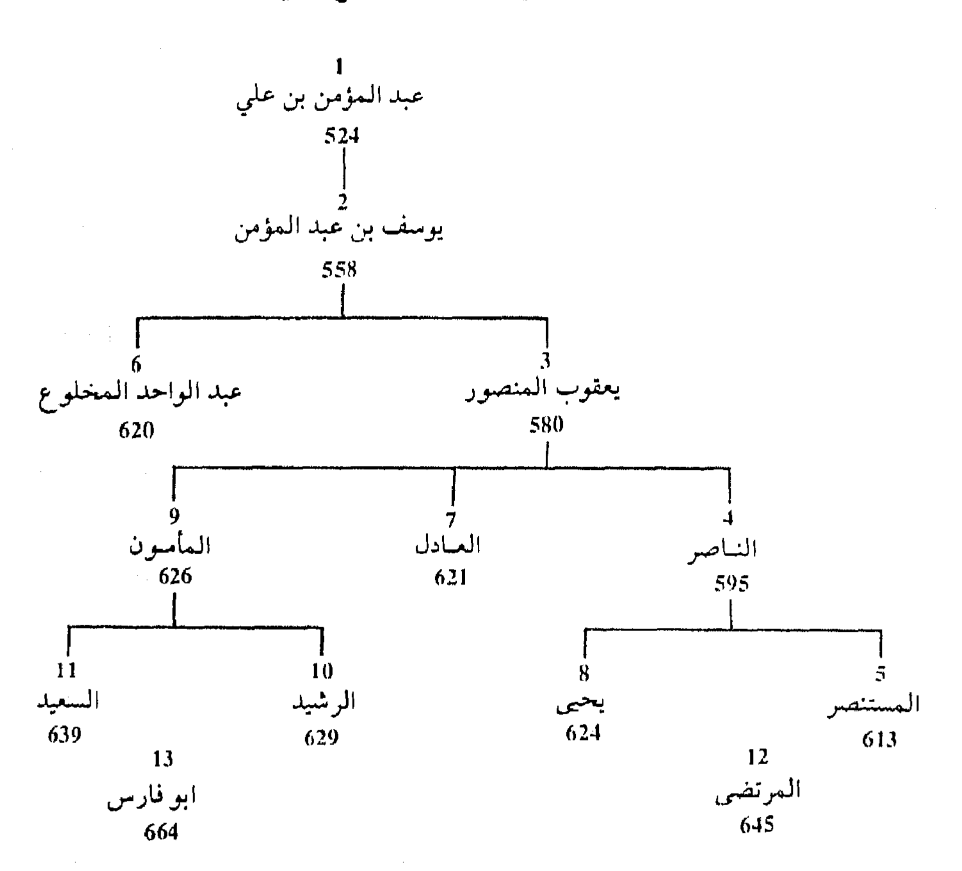
ومن انجازاته في مراكش القصبة وجامعها ذلك الجامع الذي شيّد فيه المنصور مقصورةً متحركة تبرز عند دخوله للمسجد وتختفي عند خروجه منه.

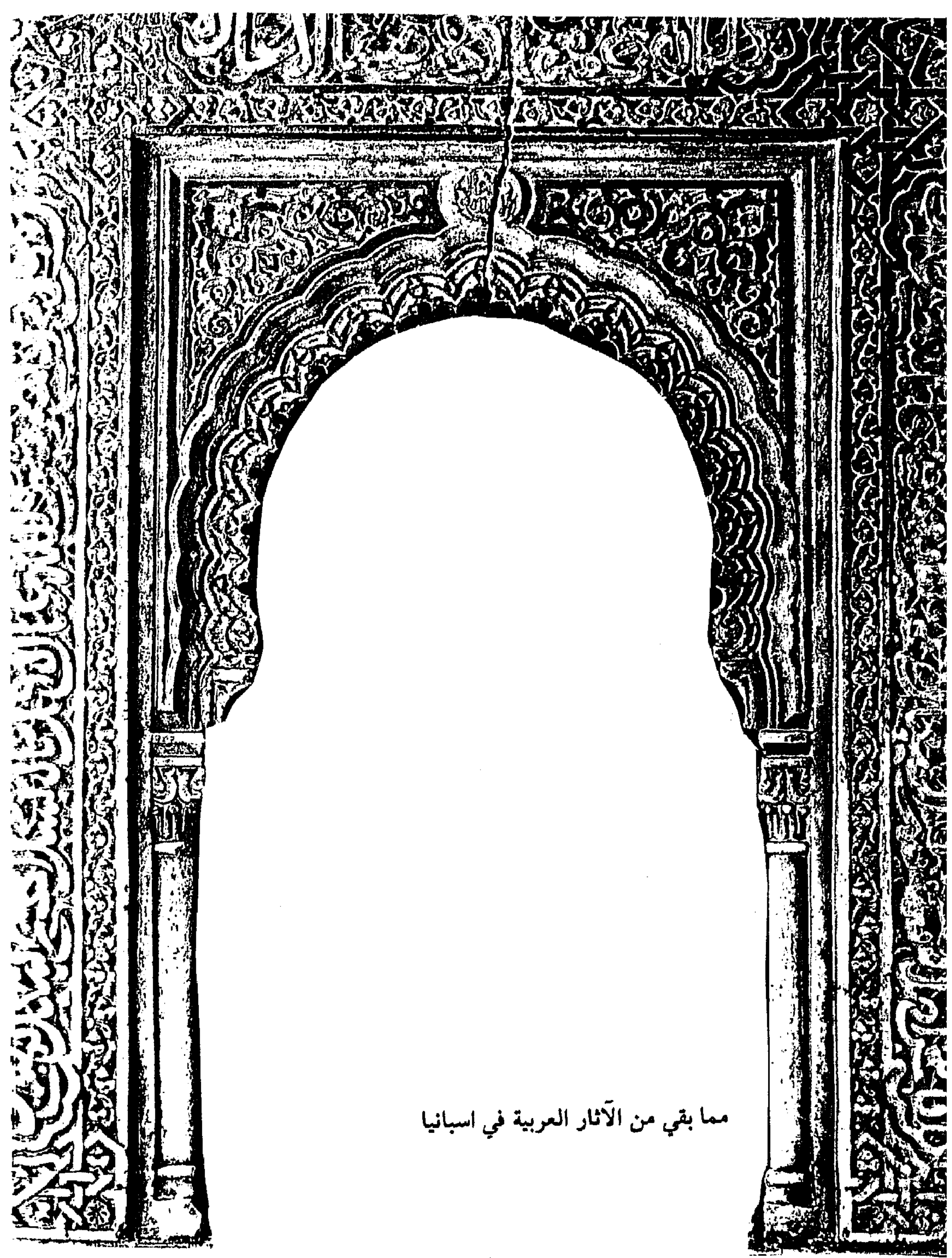
وكل من زار مدينة مراكش لا يمكن أن ينسى منارة جامع الكتبيّة وهي شقيقة منارة لاخيرالدا في المسجد الجامع في أشبيلية التي أصبحت عاصمة ثانية في الأندلس للموحدين سنة ١١٧٠. ومنارة الخيرالدا تتميز بأنها من

(١) راجع وفيات الأعيان ٣/ ٣٨١ ـ تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٦.

أعظم آثار المنصور الخالدة، ولكننا يجب الّا ننسى أن منارة الكُتبيّة تكاد تكون صورة طبق الأصل لمنارة جامع الرملة في فلسطين الذي بناه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وكان هذا الخليفة قد ابتنى مدينة الرملة واتخذها مقراً له.

جدول ملوك الدولة الموحدية





مما بقي من الآثار العربية في اسبانيا

لاخيرالدا
منارة مئذنة المسجد الجامع في أشبيلية

أما ما آلت اليه منارة الخيرالدا فإننا نفصله فيما يلي: بعد سقوط أشبيلية في أيدي القشتاليين النصارى حوّلوا مسجدها الأعظم الى كنيسة، وفي سنة ١٤٠٢ بوشر بتحويل الكنيسة الى كاتدرائية عظمى فوق مسجدها الأعظم القديم واستمر العمل في بنائها أكثر من مئة عام حتى غدت برقعتها الشاسعة وعقودها المنيفة وزخارفها الرائعة ثاني كاتدرائية في العالم.

ولم يبق من المسجد الأعظم سوى صحنه أو البهو الكبير «المُصلّى» وهو ما زال محتفظاً ببنائه العجيب وموقعه في شمال الكاتدرائية، ومساحته تعادل ربع مساحتها، وفي منتصفه نافورة أندلسية، ونُقل اليه حوض التعميد الحجري، وغرست في جوانبه أشجار البرتقال فصار يعرف باسم «بستان البرتقال» وما زالت عقود الصحن قائمة من الناحيتين الشمالية والغربية، ثم دخل بعض التشويه على الصحن بإضافة بعض الأبنية اليه، ولكن مشارفه بقيت على حالها.



الخيرالدا

وبقي باب الجامع الرئيس الواقع في شمال الصحن كما هو بعقده وزخارف قوسه البرونزية العربية. وقد نقش على كل من قبضتيه الضخمتين البسملة «**بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد**».

ويبلغ عرض الباب نحو خمسة أمتار وارتفاعه عشرة أمتار، ومن العجيب أن ذلك الباب الأندلسي العربي الشاهق. بالرغم من نقوشه الاسلامية والآيات القرآنية المكتوبة عليه يعرف بالاسبانية باسم «باب الغفران» وهو يفضي الى هيكل أقيم تحت عقده الداخلي القديم ونصب في جانبه تمثال للعذراء، ينحني أمامه طلاب التوبة والغفران.

ويلي المسجد من الجهة الجنوبية صرح الكاتدرائية الضخم ويقع بابه الرئيسي المباشر في الجهة الشرقية وهو نفس باب المسجد الأعظم وهناك بالاضافة إلى ذلك ستة أبواب في الجهتين الشرقية والشمالية وكلها مصفحة بالنحاس والنقوش العربية والآيات القرآنية وكلها أبواب المسجد الأعظم القديم.

المنارة المعجزة

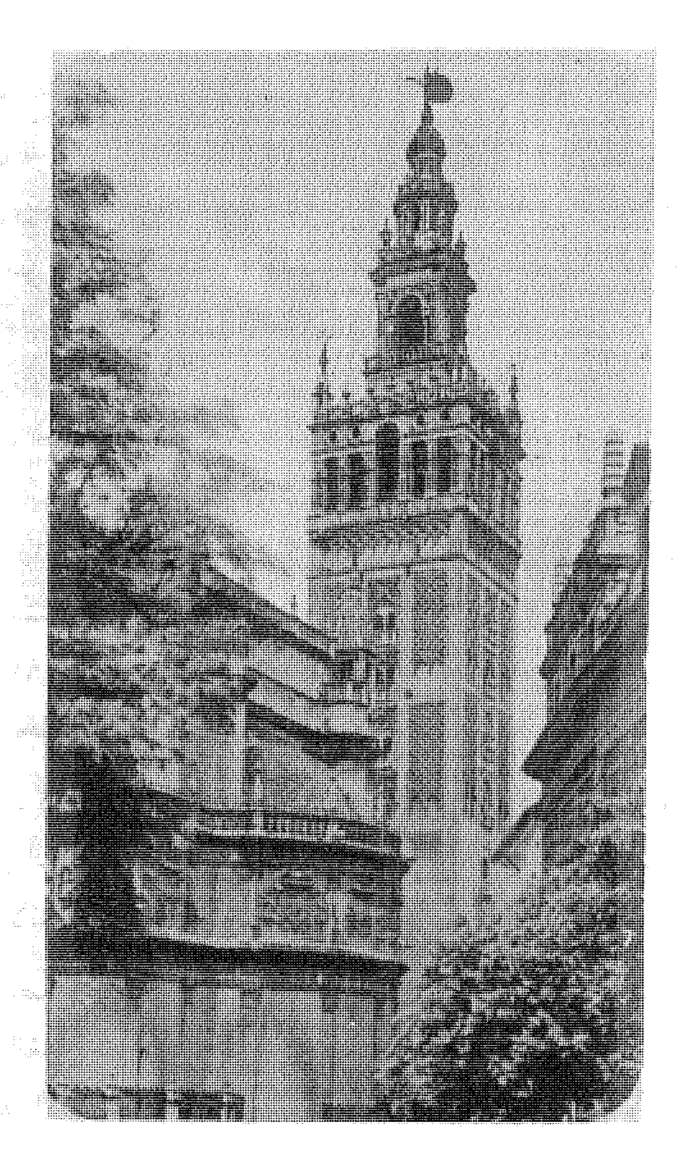
وهي نفسها مئذنة مسجد أشبيلية الأعظم بجمالها الفائق وحسن تصميمها وبنائها، وتعرف حالياً باسم «لؤلؤة أشبيلية الأثرية» وموقعها بارز الى جوار زاوية الكاتدرائية من الجهة الشمالية الغربية، وفي جنوب غربي الصحن، وقد أنشأها أبو يوسف يعقوب الملقّب بالخليفة المنصور على طراز منارة جامع الكُتُبِيَّة في مراكش، وهو منسوب اليه أيضاً، وشكل المنارة مربّع، وعالية جداً، وكان لها عند إنشائها ثلاث ساريات أو تفافيح ضخمة والوسطى منها بالغة الفخامة، قام برفعها الى أعلى المنارة المعلم أبو اللّيث

الصقلي. وموّهت التفافيح بالذهب وقد بلغت قيمته ١٠٠ ألف دينار.

أما ارتفاع منارة المنصور ـ لاخيرالدا ـ فيبلغ ٩٦ متراً ويصعد إليها من الداخل بواسطة ممرات منحدرة متصاعدة مرصوفة بالآجر وتبلغ نحو الثلاثين، وفي ثلثها الأوسط أربع طبقات من المخادع الجانبية بديعة، وتعلو هذه الطبقات الأربع طبقة خامسة ذات أروقة وشرفات عالية، والظاهر أنها كانت طبقة المؤذنين ثم تأتي الطبقة الخامسة وقد تحولت الى برج أجراس الكاتدرائية. بعد أن أزيلت سارياتها الاسلامية المذهبة «التفاتيح» والقسم الذي يلي من الأسفل، وأبقي هيكلها الرئيسي بطبقاته الخمس على أصله. ثم بنى الاسبان في أواخر القرن السادس عشر برج الأجراس المذكور من طابقين على طرز «عصر النهضة» ونصبوا فوق البرج تمثالاً برونزياً للإيمان ارتفاعه نحو خمسة أمتار، وله شارة تدور عند هبوب الريح لذلك أطلق الاسبان على المنارة أسمها الذي تعرف به وهو «لاخيرالدا» أي الدوارة نسبة الى الشارة التي تدور مع الريح.

وقد وصفها ابن صاحب الصلاة بقوله:

فلما وصل أمير المؤمنين وهزم الله اذفونش الطاغية أمر رضي الله عنه (يعقوب المنصور) في مدة إقامته بأشبيلية التفاتيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة الكبيرة الجرم، المذهبة الرسم. الرفيعة الاسم والجسم فرفعت في منازلها بمحضر وحضر المهندسون في إعلائها على رأيه، وبلوغ وطره، مركبة في عمود عظيم من الحديد مرسي أصله في بنيان أعلى الصومعة أعلاها زنة العمود ماية وأربعون ربعاً من الحديد موثقاً هناك في تلاحك البنيان بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح الى الهواء يكابد من زعازع الرياح وصدمات الأمطار ما يطول التعجب من مقاومته وثباته.



الخيرالدا

وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقال كباراً يعقوبية عملها الصياغ بين يدي أمير المؤمنين وحضوره ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لكيلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار وحملت على العجل مجرورة الى الصومعة بالتكبير عليها والتهليل حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى أعلا الصومعة المذكورة ووضعت في العمود وحصلت فيه بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه وبمحضر إبنه وولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر لدين الله وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضي وطلبة الحضر وأهل الوجاهة من الناس وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من شهر مارس العجمي عام أربعة وتسعين وخمسماية ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م. ثم كشف عن أغشيتها فكادت تغشي الأبصار من تألّقها بالذهب الخالص الابريز وشعاع رونقها[١] .

وقد كان لطراز منارة لاخيرالدا وجمالها أثر واضح في تطور الفن المعماري الكنسي المتعلق بالمنارات والأبراج الكنسية في أشبيلية وغيرها من مدن الأندلس وفي فرنسا وغيرها.

وتنتصب المنارة الأندلسية لاخيرالدا في قلب أشبيلية بقامتها الرشيقة الشاهقة بالغة الروعة كأنها ملكة تزهو وتتسامى، وهي تطل على أشبيلية من كل جهاتها الأربع وتشرف على نهر الوادي الكبير القريب منها وعلى مناظره البديعة.

---

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالامامة: راجع دولة الاسلام في الأندلس عصر الموحدين ص٢٣٢ لمحمد عبد الله عنان.



جسر على الوادي الكبير

وقد تمكّن المنصور من حل قضية قبائل بني هلال وبني سليم وبني رياح الزغبيين ـ التي كثيرا ما عانت فساداً في البلاد فأزهقت العباد بشرورها فنقل منهم من نقل الى المغرب الأقصى. وأقطع بني هلال ناحية الغرب ـ أي سهول الأطلنطي، وبني سليم وحلفاءهم ناحية الحوز وقد أفادت هذه القبائل المجتمعات البربرية في زمانها لأنها نقلت اليهم اللغة العربية الفصيحة لغة القرآن.

ويقول إبن خلكان ومثله ابن خلدون أن المنصور جهّز أسطولاً من ١٨٠ قطعة بحرية لمنع الصليبيين من الوصول بمراكبهم الى شواطىء الشام[١] وبذلك يكون قد وفى بما وعد به صلاح الدين الأيوبي، أما التنظيمات التي استحدثها فقد كان معظمها تتمة لما بدأه والده يوسف بن عبد المؤمن، فأبقى الفيلسوف ابن طفيل في منصب الوزارة الذي شغله في عهد

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٣٨١ ـ تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٦.

والده، وأسند اليه وظيفة رئيس أطبائه، ثم ترك له المجال ليكتب قصته الفلسفية الشهيرة «حيّ بن يقظان» التي اعتبرت من رواع الأدب الاسلامي في العصور الوسطى فنقلت الى اللاتينية أولاً ثم الى لغات أوروبية كثيرة منها الاسبانية والهولندية والروسية.

ابن رشد

ثم وزّرَ المنصور ابن رشد أعظم فلاسفة المغرب وهو الذي ترك طابع ثقافته وعلومه على العقول الغربية، لأن شرحه لكتاب أرسطو نقل الى اللغات الأوروبية، ودُرس في جامعاتها كما أصبح كتابه «الكليات في الطب» الذي أوضح فيه وظيفة «شبكة العين» وكانت مجهولة في القرون الوسطى وما بعدها ـ من أشهر الكتب في الطب. وهو الذي قرّر الحقيقة التي تقول أن الانسان لا يصاب بالجدري مرتين لأن اصابته في المرة الأولى تعطي الجسد مناعة.

كان ابو الوليد محمد بن رشد من ألمع الشخصيات في عصره في سائر العلوم الفكرية المتداولة في المغرب والأندلس في عصر أبي يوسف يعقوب المنصور الخليفة الموحدي، وقد درست طائفة من كتبه في عصرنا الحديث لذلك اشتهر في تاريخ الفكر الأوروبي قديماً وحديثاً بوصفه شارح لفلسفة أرسطو، ولم ينافسه في ذلك أحد، فهو والحالة هذه الحكيم الأول ـ والمعلم الأول الذي تمكّن من تقديم الجواب الشافي على اسئلة الفلسفة كلها، لأنه كرّس نفسه لشرح فلسفة أرسطو الذي عاش في أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد، أي في أزهى عصر الاغريق والمكدونيين الوثنى.

عكف ابن رشد على دراسة فلسفة أرسطو وغيره من الفلاسفة الاغريق، وهو يعيش في عصر إسلامي مستنير. في وقت كان العالم



ابن رشد أحد أبرز الوجوه
الفكرية في العصور الوسطى

الاسلامي في المشارق والمغارب مفعماً بالعلماء والفلاسفة والفقهاء العرب، وكان ابن رشد نفسه من الفقهاء لذلك كانت مهمة عسيرة نوعاً ما لأن عمله في الفلسفة الاغريقية كان يستدعي منه أن يكون حذراً حتى لا تثور عليه العامة من جهة وجماعة الفقهاء المتزمتين من جهة أخرى.

ولما استدعاه الخليفة يعقوب المنصور لمقابلته، كان ابن رشد يعيش في مدينة مراكش وعمره آنذاك ٣٨ عاماً وذلك سنة ٥٦٠ هجرية ـ ١١٦٤ ميلادية، واستبدّ به القلق والخوف من تلك الدعوة، ولكنه اطمأن قليلاً، لما دخل على الخليفة ورأى صديقه ابن طفيل جالساً الى جانب الخليفة.

وأخذ الخليفة يسأله عن نسبه وأبيه وجدّه حتى تطمئن نفسه وفجأة سأله: ماذا يقول الفلاسفة في أصل العالم.. هل هو قديم أم مخلوق؟

فعاد الجزع والاضطراب الى نفس ابن رشد، وشعر وكأن الخليفة يريد استنطاقه وكأنه في قفص الإتهام. وأن التهمة الموجهة اليه هي الاشتغال في الفلسفة.

قال ابن رشد فيما بعد: وبلغ مني الجزع مبلغاً عظيماً، وأخذت انتحل المعاذير للتخلص من تهمة الاشتغال في الفلسفة التي كانت تضارع تهمة الكفر والالحاد في المغرب، وهي عادة تهمة تؤدي بصاحبها الى الموت، ولم يخطر ببالي ما كان يخبئه لي الخليفة ومستشاره إبن طفيل. وأذكر أنّ الخليفة وقد بدا له اضطرابي، قد أخذ يناقش السؤال الذي طرحه علي، فأبدى في ذلك من قوة الحافظة والاحاطة ما لم أعهده في المختصين في هذا الميدان ـ ميدان الفلسفة».

«وظلّ أمير المسلمين يهدىء من روعي، ويطيب لي حتى عاد اليّ ضبط نفسي وتمالك أعصابي.

وانتهت المقابلة التي أعدّها صديق الطرفين ابن طفيل، وكلّف ابن رشد على أثرها بشرح فلسفة أرسطو وتيسيرها حتى تكون مفهومة ومستساغة لدى الناطقين بالضاد. على اعتبار أن الذين شرحوا فلسفة أرسطو من العرب، لم يكونوا يحسنون الترجمة والصياغة من قبل، ولم يستوعبوا الغموض في فهم فلسفته. وكان أبو بكر بن باجة قد عالج ذلك الشرح من قبل ولكنه تركه ناقصاً، ولولا مساعي ابن طفيل لما أتيح لابن رشد ذلك التكليف.

الخليفة المنصور يكرّم الفلاسفة

في عصر الموحدين خُفّفت القيود المفروضة على محبّي الفلسفة من العرب والمسلمين وذلك على خلاف عهد المرابطين المتسم بالتشدد والتزمّت، وهم الذين قيل أنهم تشبّثوا تشبّثاً حرفياً بمبادىء الأشعري. ولا عجب في ذلك، ومن المعروف أن ابن تومرت تتلمذ على الامام الغزالي وهو الذي وصف بأنه كان عدواً للفلسفة الا أن الخليفة يعقوب المنصور عطف على الفلسفة والفلاسفة المسلمين خلافاً لما كان يتوقع منه لأنه كان من نسل عبد المؤمن، وكان كما قال ابن رشد واسع الاطلاع في العلوم الفلسفية.

ويقول المقري في نفح الطيب: كل العلوم كان لها حظ عند الأندلسيين الا الفلسفة والتنجيم، وكانت العامة في الأندلس تطلق على كل من يشتغل في الفلسفة «زنديق» فان زَلَ في شُبهةٍ رجموه بالحجارة أو أحرقوه، قبل أن يصل خبره الى الوالي أو السلطان وربما أعدمه السلطان تقرباً الى العامة، في حين كان فقهاء الأندلس والمغرب يكفرون الفلاسفة ويتهمونهم بالزندقة ولو على سبيل تقليد الامام الغزالي.

أمام هذا التعنّت انكشفت الفلسفة وراح البعض ممن يشتغلون بها لأنفسهم يعملون على تبرئة ذمّتهم من التهم الموجهة اليهم او الى الفلسفة ومنهم ابن باجة أستاذ ابن الرشد الروحي فقد جاء في كتابه «تدبير المتوحّد» أن الفلسفة لا علاقة لها بالمجتمع، وأن الفلاسفة عاجزون عن احداث أي تغيير في مجرى حياة الناس، ولا سيما من الناحية السياسية، فالمشتغلون بالحكمة هم السعداء ـ لا صلة لهم بعامة الناس، أما الغاية التي ينتهي اليها الفيلسوف بتأمّلاته في عزلته فهي الاتصال روحياً بالله.

ابن رشد يدافع عن الفلسفة والمشتغلين بها

هذا القلق الذي كان يسيطر على عقل ابن رشد، كثيراً ما حاول صديقه ابن طفيل إزالته بالنصيحة والارشاد وبمساهمته في توجيهه، خصوصاً وأَنّ ابن طفيل كان قد شرح فلسفته بأسلوب قصصي رائع في روايته «حي بن يقطان» ولكن إبن رشد ما لبث أن استمد من الضعف قوة فراح يدافع عن الفلسفة بجرأة ويهاجم أعداءها بالفكر الصائب والاتزان الرصين.

ولد ابن رشد في قرطبة سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م في بيت اشتهر بالفقه والفقهاء، وكان أبوه قاضياً وكذلك جَدّه، كما أصبح هو نفسه قاضياً فيما بعد، وكان يميّز بين القضاة الثلاثة بالحديث والكتابة فيقال القاضي ابن رشد الجد، والقاضي ابن رشد الأب والقاضي ابن رشد الابن ـ وقد اشتغل أبناء إبن رشد بالفقه ما عدا واحداً منهم وهو الذي انصرف الى الطب.

وحفظ ابن رشد موطأ مالك بن أنس غيباً وشغف بشعر أبي تمام والمتنبي، والتحق بصدر شبابه بجامعة قرطبة وفيها تابع دراسة الفقه، ثم تخصّص بالطب كعادة الفلاسفة في ذلك الزمان.

ثم عهد اليه بمنصب القضاء في اشبيلية سنة ١١٦٩ وبعد ذلك عينه

الخليفة يعقوب المنصور بمنصب قاضي القضاة في قرطبة «سنة ١١٧١»
واستمر بمنصبه هذا عشر سنوات.

بعد ذلك اختاره الخليفة يعقوب المنصور ليكون طبيبه الخاص سنة ١١٨٢، أي عندما ألحت الأمراض على الخليفة، وبتوصية من صديقه الكبير في السن ابن طفيل. ولكن عمله هذا لم يدم سوى سنتين لأن الخليفة يعقوب المنصور توفي عام ١١٨٤ وخلفه أبنه الناصر.

ابن رشد والناصر الموحدي

وعامله الناصر كوالده بالاحترم اللائق به كما أشار بذلك ابن أبي أصيبعه الدمشقي في كتابه «عيون الأنباء» فقال: لما توجّه الناصر الى قرطبة في طريقه الى غزوة «الفنش» في الشمال عام ٥٩١هـ/ ١١٩٤م استدعى ابن رشد وقرّبه اليه وأجلسه الى جانبه مفضلاً إيّاه على زوج ابنته أبو محمد عبد الواحد، ثم خرج ابن رشد راضياً فاستقبله تلامذته بالتهنئة.

ولكن أعداء ابن رشد ما لبثوا أن أوغروا صدر الخليفة الناصر على ابن رشد فأبعده الى «اليسانة» وهي بلدة صغيرة قريبة من قرطبة، بالاقامة الجبرية ثم تبع ذلك اعتداء على ابن رشد بالاهانة والحط من قدره. ثم تفاقمت المحنة عندما جمعت كتبه وأحرقت ولا سيما كتب الفلسفة ـ ومن أجلها لقي كل ذلك العنت والارهاق وبعد سنتين عفا الخليفة الناصر عن ابن رشد، ولكنه لم يعش سوى سنة واحدة بعد العفو اذ مات في سنة ٥٩٥هـ ـ ١١٩٨م.

آثار ابن رشد

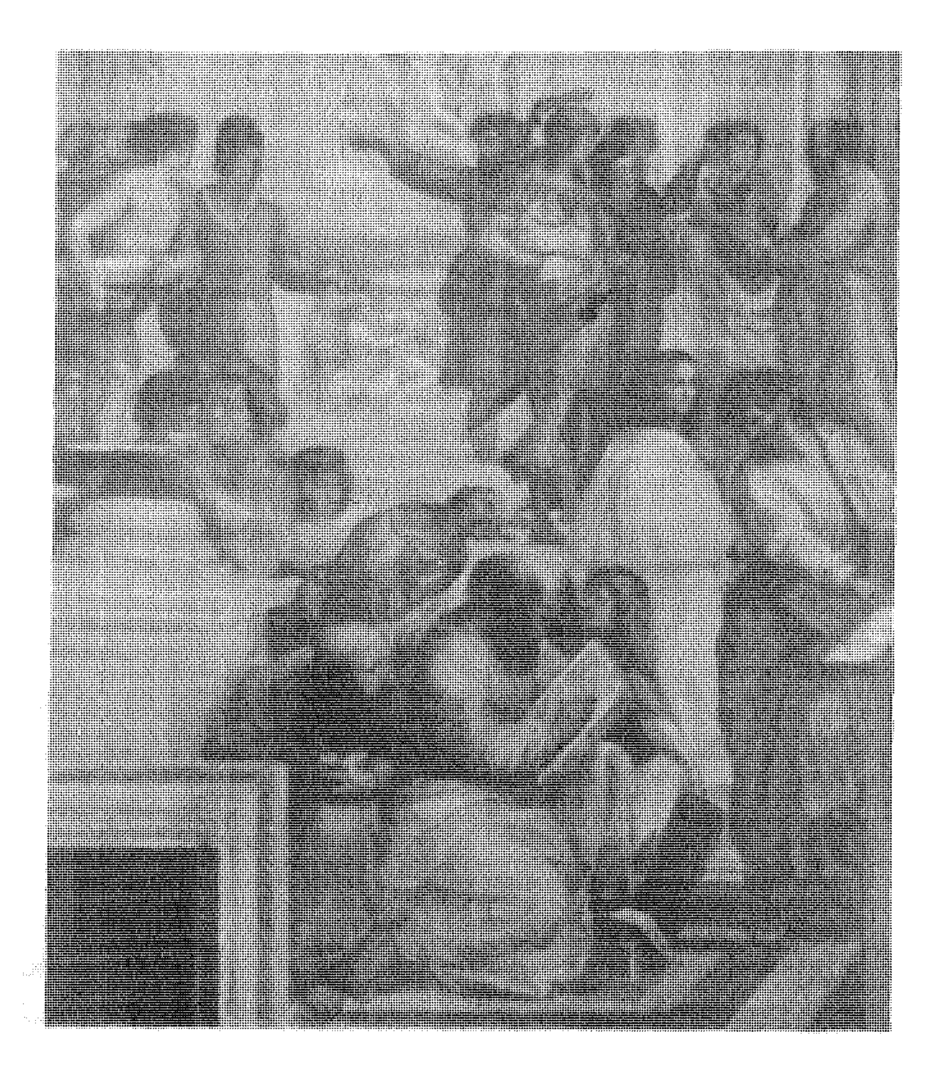
قيل أنّ ابن رشيد كتب أكثر من ١٠ آلاف ورقة ضمنها خمسين كتاباً عدّد أسماءها إبن أبي أصيبعة وكلها في الطب والفقه والفلسفة، ومنها كتاب

«الكليات في الطب» وكتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» وكتاب «قانون الإرث» ما يزال مخطوطاً الى يومنا هذا أما كتبه في الفلسفة فكانت شروحاً لفلسفة أرسطو ومنها كتب التلخيص، وكتب الشرح والتفصيل، ثم كتب الجوامع. وهناك ثلاثة كتب ضمنها ابن رشد فلسفته الخاصة، منها كتاب «تهافت التهافت» وهو الكتاب الذي هاجم فيه الامام الغزالي، والثاني كتاب «فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة» وكتاب «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد أهل الملّة» وقد شرح إبن رشد في كتبه مشكلة الدين والفلسفة وتفوّق في شرحه هذا على إبن طفيل وبزّه في كثير من الأمور.

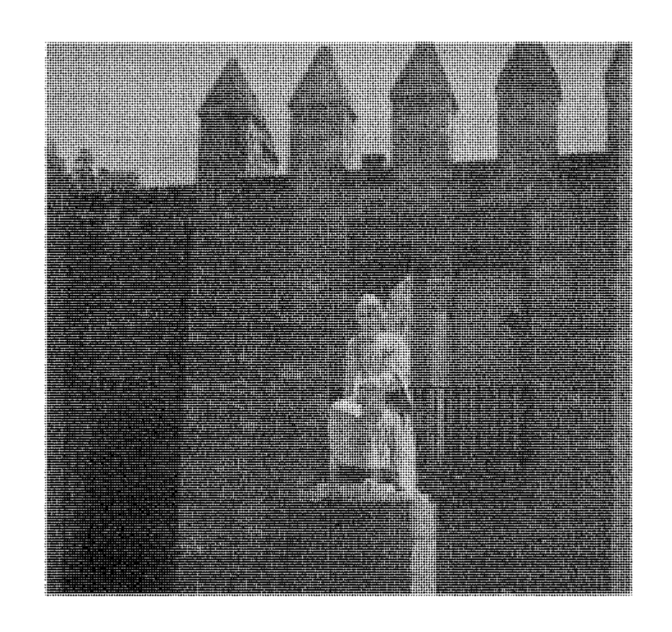
وكان يعتقد بأن الفلسفة ضرورة من ضرورات الحياة، وشغف بالبحث عن الحقيقة وآمن بحرية الفكر على أساس أنها لا تقوم بدونها أية فلسفة ـ وكان يؤكد بأن الشريعة الاسلامية هي الدستور المثالي للدولة ولكنه نبذ الخرافات والمسائل التي لا يقبل بها العقل، وكان يعتقد بأن الفلسفة ضحية العامة التي تؤمن بالخرافات، وقد آمن بحرية الإرادة، فلم يبتعد بذلك عن الغزالي ويرى بأن الانسان مخلوق يخضع لقوانين الطبيعة التي أوجدها الخالق ـ فهو مسيَّر عاجز عن الإفلات من هذه القوانين خلافاً لما كان يعتقده المعتزلة من أن الانسان حرّ الإرادة ومخيّر.

وبالرغم مما لقيه ابن رشد من معاصريه من جحود ونكران، فقد نفذت شروح أرسطو التي كتبها الى أوروبا، فهزّت محافلها العلمية، وكان ذلك بمثابة إحياء لفلسفة ابن رشد وعلومه التي سمّاها الأوزوبيون «Averroism» .

وتجدر الإشارة هنا الى أن رسالته في شرح فلسفة أرسطو كانت كل ما تبقى من فلسفة أرسطو لذلك تقبّلها الغربيون بسرور بالغ على اعتبار أنها قامت مقام فلسفة أرسطو المفقودة.



هذا هو ابن رشد، Averroes، كما تصوره رفائيل في لوحته الشهيرة: «مدرسة أثينا».
انه الرجل الوحيد الذي يلبس عمامة بيضاء في اللوحة كلها، ونحن لا نرى من هذه اللوحة



نصب تذكاري لابن رشد في قرطبة

ابن عربي شيخ المتصوفين

نسبه:

هو أبو بكر محمد بن علي محي الدين ابن عربي وينسب الى حاتم الطائي فقيل في نسبه الحاتمي الطائي. ويعتبر صاحب أعظم عبقرية خيالية في التصوّف الاسلامي.

مولده:

كان مولده في مدينة مُرسية سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٤، ولكن نجمه تألّق في أشبيلية حتى سنة ١٢٠١ـ١٢٠٢ ثم توجّه الى مكة، وبعد أن أدّى فريضة الحج انتقل الى بلدان المشرق وتوفي في دمشق عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م وما يزال قبره في أحد مساجدها يزار في بعض المناسبات[١].

مؤلفاته:

وعرف ابن عربي عند أتباعه بالشيخ الأكبر، أما نظامه الصوفي فقد

---

(١) ابن الجوزي مرآة الزمان ص٤٨٧ـ نفح الطيب للمقري ١/ ٥٦٧.

أودعه في مؤلفاته الكثيرة وأهمها «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم» و(التدبيرات الالهية) وفي الفصل المئة والسابع والستين من كتابه «الفتوحات المكية» تحت عنوان «كيمياء العادة» وهو بحث مجازي باطني يشير الى صعود الانسان الى السماء، وفي كتاب آخر لم يطبع بعد ـ «الأسرا الى مقام الأسرى» أورد ابن عربي قصة الأسراء وتوسع في زيارة النبي (ص) للسماء السابعة فسبق بذلك دانتي.

آراؤه:

كان ابن عربي في موقفه من الشرع ظاهري المذهب مشايعاً لمواطنه ابن حزم، أما في مسائل الايمان الخيالي فقد كان باطني النظر (١) ، وكان في فلسفته يعتقد أن الكون جوهر فرد، لذلك كان يؤمن بشمول الألوهية ووحدة الوجود وقد بنى فكرته الأساسية على أن الأشياء موجودة منذ البدء كأعيان ثابتة في معرفة الله تعالى، وهي صادرة عن الله وراجعة اليه. ولم يعترف ابن عربي بفكرة الخلق من العدم ولكنه قال: أن الكون مظهر الله الخارجي، والله سر الكون المكنون، وليس ثمة فارق بين الذات والصفات، أي بين الله والكون، وقد استحال ـ هنا ـ التصوّف الاسلامي الى فلسفة قوامها القول بشمول الألوهية، وفيها تتجلى الألوهية في البشر، ويعتبر محمداً الانسان الكامل، كذلك غدا محمد «الكلمة» كما كان المسيح «الكلمة» وليس للمتصوّف الحقيقي ـ في رأيه ـ الاّ مُرشد واحد، هو النور الداخلي، ومن هنا فهو يجد الله الحق في جميع الديانات (٢) .

وكان لهذه المدرسة الاشراقية التي تزعمها ابن عربي في الأندلس تأثير ظاهر في حلقات المتصوّفين الفارسية والتركية، ومدرسة الفلاسفة

(١) نفح الطيب للمقري ١/ ٥٦٩.

(٢) ابن عربي: ترجمان الأشواق ص١٩ـ٦٧ نشر نكلسون وترجمة ليدن ١٩١١.

المسيحيين في العصور الوسطى أي المدرسة الأوغسطينية[١] .

وجارى ابن عربي في تفكيره وأبحاثه مواطن له في مُرسية يدعى محمد عبد الحق ابن سبعين نحو «١٢١٧ـ١٢٦٩» .

وكان ابن عربي قد قضى أخصب سني حياته في المغرب وخاصة في مدينة فاس وهو الذي حثّ على إلغاء العصبيات القبلية والدينية حيث يقول :

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورةٍ
فمرعى لغزلان، وديرٌ لرهبانِ
وبيتُ لأوثانٍ، وكعبة طائفٍ
وألواحُ توراةٍ، ومصحف قرآنِ
أَدين بدين الحب أنّى توجّهتْ
ركائبُهُ فالحب ديني وإيماني

وقد ذاعت شهرة ابن عربي في جميع البلاد العربية والاسلامية ثم انتقلت الى أوروبا وتأثر به فلاسفتها منهم (دانتي) و(رامون لول) كما كتب عنه المستشرق الاسباني الكبير أسين بالاثيوس كتاباً قيّماً بعنوان الاسلام المتنصّر El islam cristianizado .

ومن جميل شعر إبن عربي قوله :

درست عهودهم وأن هواهم أبداً جديد في الحشاما يدرس
هذى طلولهم وهذي الأدمع ولذكرهم أبداً تذوب الأنفس
ناديت خلف ركابهم من حبهم يا من غناه الحسن ها أنا مُفْلِس
يا موقداً ناراً رويداً هذه نار الصبابة شأنكم فلتقبسوا

---

(١) جلال الدين الرومي من شعراء التصوّف الاسلامي توفي بعد مرور ٣٠ سنة على وفاة ابن عربي وقد ربطته به علاقة عن طريق أحد تلامذة ابن عربي.

وقوله :

ليـــت شعـــري هـــل دروا   أي قلـــبٍ ملكـــوا

وفـــؤادي لـــو درى   أي شعـــب سلكـــوا

أتـــراهـــم سلمـــوا   أم تـــراهـــم هلكـــوا

حـــار أربـــاب الهـــوى   فـــي الهـــوى وارتبكـــوا

الأطباء

كان معظم الأطباء من عرب الأندلس قد اتخذوا الطبابة كحرفة كمالية الى جانب عمل آخر يتعاطونه، كإبن باجة وابن طفيل وابن رشد، وكانوا بالأصل فلاسفة، أما الأطباء الذين كرّسوا أنفسهم للطب والجراحة فكانوا كثيرين، والذين تخصَّصوا في الجراحة كانوا أقلّ من الذين مارسوا مهنة الطب، ومن هؤلاء أبو القاسم خلف ابن عباس الزهراوي المتوفي عام ١٠١٣ [١] ، وكان هذا الطبيب الجراح النابغة يقوم بمهنته هذه في بلاط الحكم الثاني الأندلسي، وقد تفوّق في كتابه، أو رسالته القيّمة : «التصريف لمن عجز عن التأليف» وهي في جزئها الأخير جامعة لما كان يعرف عن الجراحة في ذلك العصر، ومن آرائه البارزة فيها ما يتعلق بكيّ الجراحات، وسحق الحصاة في المثانة، ولزوم تشريح الأجسام الحية والميتة، وقد نقل هذا الجزء الى اللاتينية جراردالكرموني، وصدرت منه طبعات مختلفة، منها واحدة في البندقية سنة ١٤٩٧، وأخرى في باسل سنة ١٥٤١، وأخرى في أكسفورد سنة ١٧٧٨ . وقد بقي معمولاً بهذا الكتاب قروناً كثيرة في مدرستي

(١) نسبة الى مدينة الزهراء في ضاحية قرطبة وهي مسقط رأسه.

سالرنو ومونبيلية وغيرهما من مدارس الطب المتقدمة .

وكانت هذه الرسالة تحوي صوراً وأشكالاً لآلات طبية تأثّر بها مؤلفون آخرون من العرب، كما ساعدت على وضع أسس الجراحة في أوروبا، وظهر من أصدقاء الزهراوي في عصره الطبيب حَسْداي بن شبروط اليهودي.

أما الطبيب المشهور ابن زهر ويدعى مروان عبد الملك ابن أبي العلاء الملقّب بإبن زهر[1] فقد كان له مقام سامٍ في الطب يوازي مقام الزهراوي في الجراحة، وهو ألمع شخصية في أسرة اشتهر أطباؤها بتفوّقهم في الطب، في الأندلس. وكان مولده في أشبيلية بين سنتي ١٠٩١و١٠٩٤، وفيها توفي سنة ١١٦٢، بعد أن خدم سنين كثيرة طبيباً ووزيراً في بلاط عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين، وكانت ميزته أنه كرّس جهوده في الطب فقط، وقد بقي لنا من كتبه الستة التي ألّفها ثلاثة، أعظمها وأعمها فائدة كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» ووضعه بإشارة من صديقه ابن رشد ليكون مقابلاً لكتابه «الكليات» وقد عالج في كتابه هذا مواضيع أخص من مواضيع كتاب «الكليات» وكان ابن رشد معجباً بابن زهر، واعتبره أعظم طبيب عرفه العالم بعد الرازي. ويقال بأن ابن زهر أول من بحث في موضوع الاحساس بالعظام وثاني من وصف «صؤابة الجرب» أما الأول فهو أحمد الطبري من أبناء النصف الثاني من القرن العاشر.

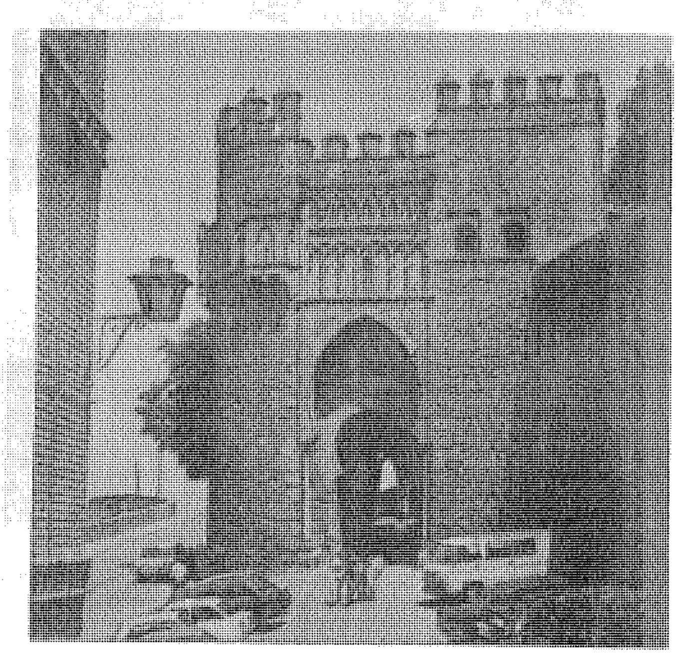
وقد أنجبت أسرة إبن زهر، نحو ستة أجيال متتابعة من الأطباء، ظهر منهم بعد ابن زهر، ابنه أبو بكر محمد المتوفي سنة ١١٩٨ـ١١٩٩ وهو أعظم أفراد هذه الأسرة مقاماً، لتضلعه الى جانب الطب في فروع الآداب العربية، وهو المشهور بالحفيد ابن زهر واليه تنسب كثير من الاشعار الجميلة

(١) ابن أبي أصيبعة ٢/ ٦٦ـ٦٧ .

والموشحات الغنية بالعواطف الرقيقة.

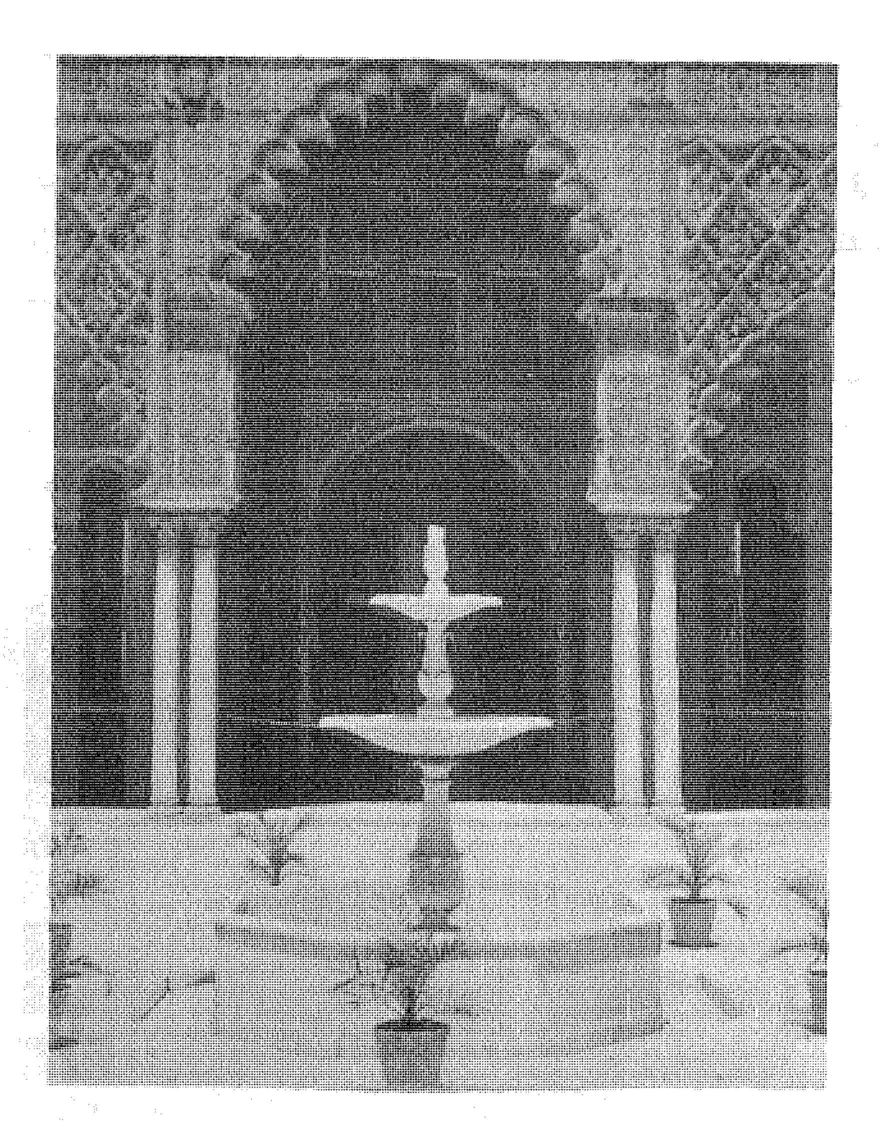
وقد عيّنه أبو يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين طبيباً في مراكش ومات فيها مسموماً بيد وزير من حسّاده، ومشى الخليفة المنصور في جنازته وصلّى عليه، ومن أبناء زهر الأوائل، جد أبي مروان عبد الملك وسميه وقد عمل في الطب في الأندلس وبغداد والقيروان والقاهرة[1].

ومن الأطباء الأندلسيين الطبيب المظفر الباهلي وأصله من مدينة المرية الأندلسية وكان شاعراً وطبيباً وقد عمل طبيباً في خدمة محمد إبن السلطان ملكشاه السلجوقي في بغداد، وأنشأ له في معسكره مارستانا نقّالاً كان ينقل على أربعين جملاً. ثم عاد الى دمشق ومات فيها سنة ١١٥٤[2].

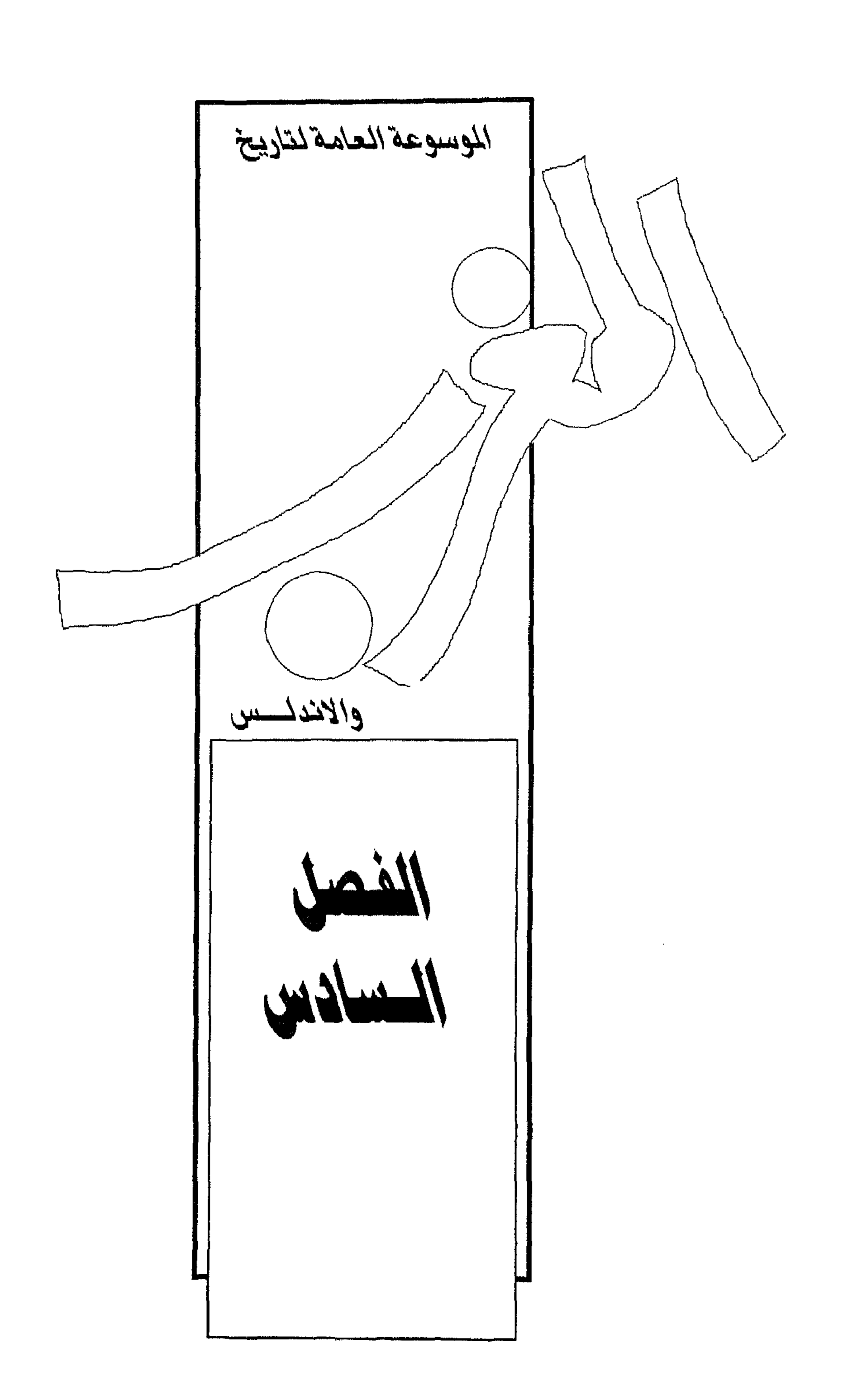


احدى بوابات طليطلة

(١) ابن أبي أصيبعة المرجع السابق ٢/ ٦٤ وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٦-٣٧٧.
(٢) نفح الطيب للمقري ١/ ٨٩٩.



ساحة العذارى في «الكازار» باشبيلية



الفصل السادس

انتقال الثقافة العربية الى أوروبا

قبل أن يستتم المغرب والأندلس ثقافتهما العلمية والدينية والأدبية والطبية، وقبل أن ترتفع هذه الثقافات الى الأوج، كان طلاب التزود بهذه الثقافات يرحلون من المغرب والأندلس الى الأقطار الشرقية كمصر ودمشق والعراق وفارس والى بلاد «ما وراء النهرين في وقت متقدّم» كما يتّضح ذلك من قائمة المقري للذين رحلوا في طلب العلم[1] . ثم ما لبثت الآية أن انعكست في القرن العاشر والقرون اللاحقة عندما تدفّق علماء المشرق وعلماء أوروبا على الأقطار المغربيّة والأندلس.

وقد لعبت أفريقيا الشمالية والمغرب بصورة خاصة دوراً بارزاً في هذا المضمار ومثلها الأندلس، وبصورة خاصة مدينة طليطلة الأندلسية حيث عاش جرارد الكرموني، وميخائيل سكوت، اللذين قاما بعمل بارز في حركة انتقال الطب العربي الى أوروبا. وتميّزت هذه الحركة بواسطة الترجمات اللاتينية عن العربية لنقل العلوم العربية الى الغرب الأوروبي.

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

نشاط حركة الترجمة الى اللغات الأوروبية

وقد أسهم في هذا النشاط قسطنطين الأفريقي المتوفي سنة ١٠٨٧ وهو الذي ترجم القسم النظري من «كتاب الملكي» لعلي بن عباس[١]، وكان قسطنطين الأفريقي هذا من مواليد قرطاجنة، ولهذا سمّي بالأفريقي التحق بالمدرسة الطبية في سالرنو وهي أول مدرسة طبية في أوروبا أسّسها أربعة أساتذة: لاتيني ويوناني ومسلم ويهودي. لذلك كانت أوروبا مدينة بوصول الطب اليها في العصور الوسطى الى هذه الطائفة من العلماء المذكورين وأمثالهم من علماء الاسلام في الطب الذين انتقلوا الى صقلية وايطاليا منذ عهد الفاتحين الأغالبة.

وقد ترجم جرارد الكرموني المتوفي سنة ١١٨٧، كتاب «التصريف» للطبيب العربي الزهراوي، وكتاب «المنصوري» للطبيب الرازي، وكتاب «القانون» للطبيب إبن سيناء، ومنهم أيضاً فرج بن سالم اليهودي الصقلي مترجم كتاب الحاوي» في الطب للرازي سنة ١٢٧٩، وتقويم الأبدان لإبن جزلة، وهكذا تسنّى للعلوم الطبية أن تنتقل الى أوروبا.

كما انتقلت أيضاً المصطلحات الطبية والفنيّة من العربية الى اللاتينية والاسبانية «فيما بعد» الى أوروبا مثل «Juleb» الجلاّب، وهي كولاب الفارسية، ولفظه «Rob» من «رُبّ» أي المربى المصنوع من مزيج التمر بالعسل ولفظة «Syroup» شراب السكر ولفظة Sodanum - Soda وهو اسم علاج مشتقة من كلمة «صُداع» العربية أي وجع الرأس.

ويقال مثل ذلك عن الكلمات الكيميائية المترجمة عن كتب لجابر بن

---

(١) نقل الجزء الجراحي منه الى اللاتينية يوحنا الشرقي (١٠٤٠ـ١١٠٣) وهو أحد تلامذة قسطنطين الأفريقي وكان من أطباى سالرنو.

حيان وسواه من رجال الكيمياء المسلمين، كلفظة «Alcohol» الكُحل، و «Alembic» الأنبيق، و«Alkali» القلي و«Antimony» الاثمد «Aludel» الأثال و «Realgar» رهج الغار و«Tutty» توتياء.

وكنا أشرنا قبلاً الى أن ابن باجة وابن رشد وضع كل منهما شرحاً لفلسفة أرسطو مما أدى الى مزيد من احتكاك أوروبا بالفكر الفلسفي العربي، ومما أدى أيضاً الى انتقال الفلسفة العربية الى أوروبا فقادتها الى حركة فكرية ناشطة لا تزال أوروبا تنعم بثمارها حتى اليوم.

وقد تفرّدت مدينة طليطلة لحد ما كمركز للدراسات الاسلامية، بترجمة الكنوز العربية الاسلامية الى اللغات الغربية، مما ساعد على إنشاء مدرسة نظامية للترجمة بمساعي رئيس الأساقفة ريموند الأول ١١٢٦-١١٥١» وقد لمعت طائفة من المترجمين ظهروا ما بين ١١٣٥ و١٢٨٤ وقصدها علماء كثيرون من أوروبا والجزر البريطانية مثل ميخائيل سكوت وروبرت أوف تشستر.

أشهر الكتب العربية المترجمة

في سنة ١١٤٥ نقل روبرت المذكور كتاب الجبر للخوارزمي لأول مرة، وفي سنة ١١٤٣ أكمل مع هرمن الدلماتي أول ترجمة للقرآن الكريم.

كما تأسّست في طليطلة أيضاً أول مدرسة للدروس الشرقية في أوروبا وذلك سنة ١٢٥٠، بمساعي جمعية الوعاظ بقصد تدريب المبشرين قبل ارسالهم الى إفساد المسلمين واليهود وتحويلهم عن الديانتين الاسلامية واليهودية.

ونقل ادلارد أوف باث الذي زار الأندلس وصقلية وسوريا، الى اللاتينية التقاويم الفلكية التي وضعها المجريطي - أبو القاسم مسلمة

المجريطي (نسبة الى مدينة مجريط)، وهي مدريد الحالية عاصمة اسبانيا، وكانت هذه التقاويم مبنية على أساس تقاويم الخوارزمي وتضم تقاويم جيوب القوس في الدائرة، كما نقل عدداً من الرسائل الرياضية والفلكية، فأصبح في ذلك رائداً في موكب المستعربين الانكليز.

ونقل ميخائيل سكوت المتوفي سنة ١٢٣٦ فلسفة ابن رشد الى اللاتينية. وفلسفة ابن رشد هي غير شروح فلسفة أرسطو التي كتبها ابن رشد كما نقل أثناء وجوده في طليطلة كتاب «الهيئة» في علم الفلك للبطروجي وهو نور الدين أبو إسحاق البطروجي نسبة الى بدرجة شمالي قرطبة المتوفي سنة ١٢٠٤، وتلميذ ابن طفيل وله «كتاب الهيئة» الذي عالج فيه صورة الاجرام الفلكية، كما نقل سكوت كتاب أرسطو المسمى «De coelo et mundo» مع شرح ابن رشد، وترجم كتباً عربية أخرى، قدمها لفردريك النورماندي ملك صقلية بعد الأغالية، ومنها رواية ابن سينا لكتاب أرسطو في علم الحيوان.

ولكن أكثر علماء طليطلة أثراً في الترجمة عن العربية هو جرارد الكرموني المتوفي سنة ١١٨٧، الذي نقل الى اللاتينية رواية الفرغاني لكتاب بطليموس المسمى بـ المجسطي، وشرح الفارابي على أرسطو، وأصول الهندسة لاقليدس، ورسائل متفرقة لأرسطو وجالينوس، وأبقراط وعددها واحد وسبعون مؤلفاً عربياً.

ومن التراجمة ابراهيم بن عزرا الطليطلي وهو يهودي المتوفي سنة ١١٦٧ وأحد شارحي التوراة البارزين وكان قد ترجم شرح البيروني على زيج الخوارزمي، ومنهم أيضاً، يوحنا الاشبيلي «١١٣٥-١١٥٣» الذي ترجم الى القشتاليّة كتباً عربية كثيرة في الحساب والفلك والتنجيم والطب والفلسفة للفرغاني، وأبي معشر الكندي، ولإبن جبيرول والغزالي.

وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت العلوم العربية كلها والفلسفة قد نقلت الى أوروبا الجاهلة، وكانت صقلية والأندلس في عهد الحكم العربي الوسيطين في هذا الميدان.

الاشعاع العربي ينير أوروبا

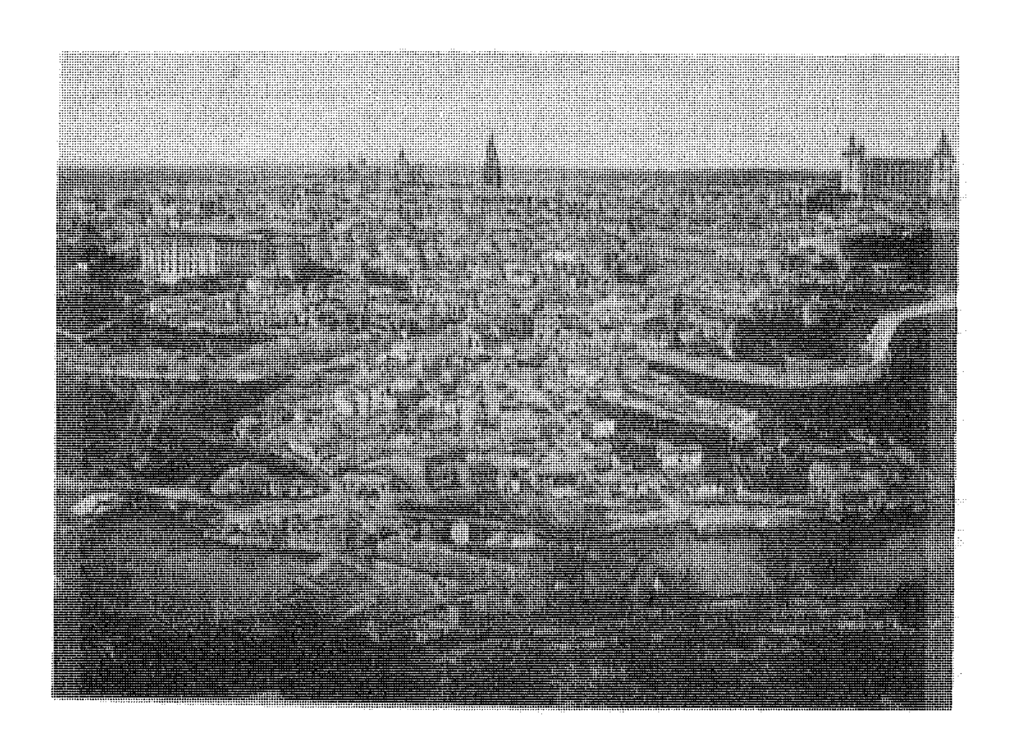
كما انطلقت شمالاً هذه العلوم من أبواب الأندلس ومن جامعة القرويين، ومدرسة القيروان ومن طليطلة بصورة خاصة ـ الى جبال البيرنية «البرانس» الى بروفانس واللورين، فالمانيا وأوروبا الوسطى، كما عبرت بحر الشمال الى بريطانيا، ومرسيليا حيث قام ريموند عام ١١٤٠ بوضع صورة لتقاويم السيارات الفلكية مبنية على العلوم العربية الأندلسية والمشرقية(١)، وفي مدينة تولوز نشط هرمن الدلماتي «نسبة الى «دلماتيا» فأنهى عام ١١٤٣، ترجمة المجريطي لكتاب بطليموس المسمى «بلانسفوريم» ومن مدينة أربونة الأندلسية نقل ابراهيم بن عزرا اليهودي سنة ١١٦٠ شرح البيروني على تقاويم الخوارزمي، والى مدينة مونبيلية التي أصبحت في القرن الثالث عشر، أهم مراكز الدراسات الطبية والفلكية في فرنسا ومن مدينة كلوني الفرنسية نشر عدد من رهبان الأندلس طائفة كبيرة من العلوم العربية، ووفق الراهب بطرس بوضع ترجمة للقرآن الكريم في اللاتينية، وكان من نتيجة إدخال العلوم العربية الى اللورين في القرن العاشر أن أصبحت تلك المنطقة مركزاً علمياً هاماً، ومثلها لياج وغورز وكولون وسواها من مدن اللورين التي غدت مراكز بارزة للعلوم العربية.

وبانتقال هذه الثروة العلمية العربية الى أوروبا تمكّنت هذه من

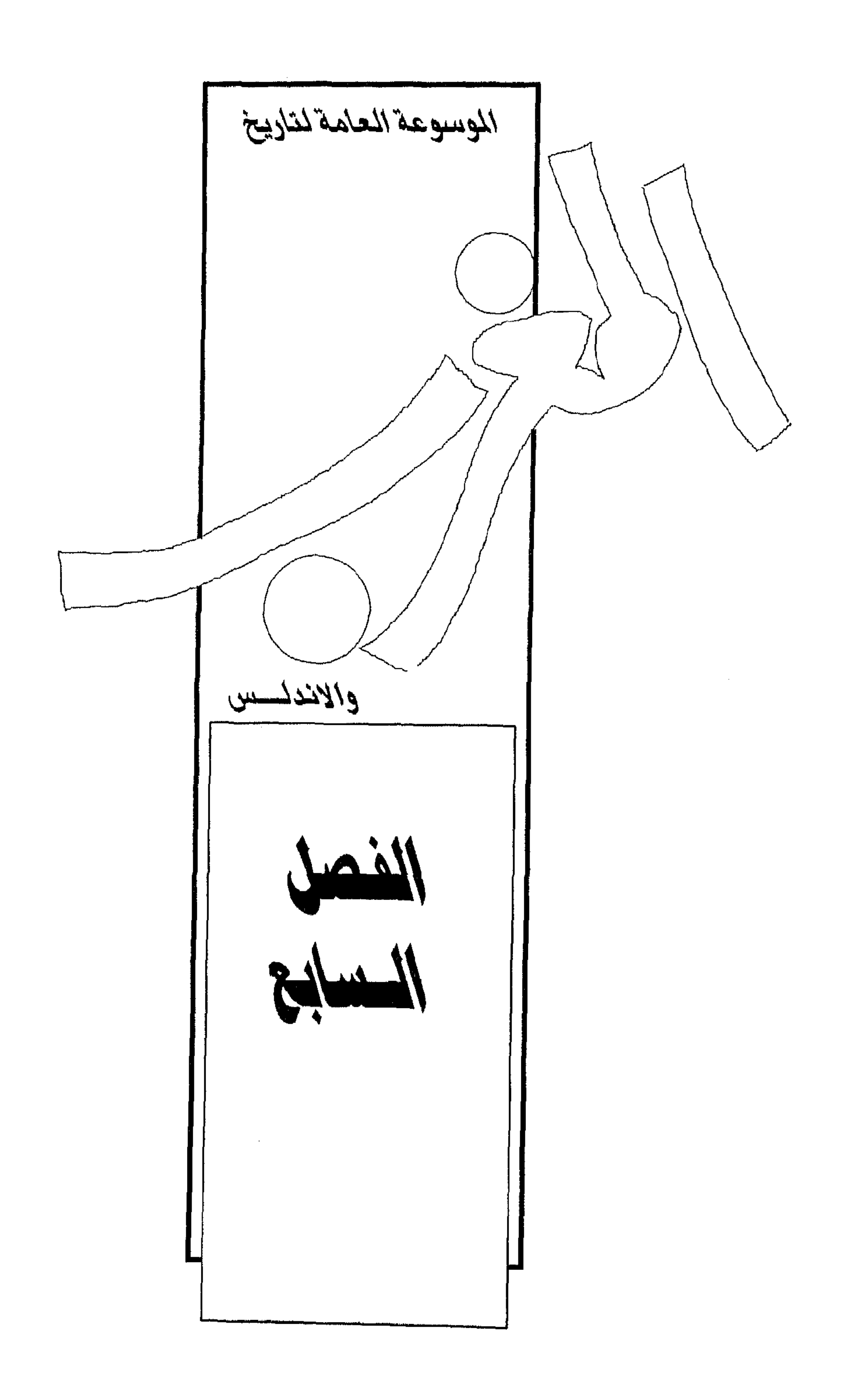
---

(١) أن أوّل كتاب طبع في انكلترا نقله وليم كاكستون سنة ١٤٧٧ عن كتاب عربي أسمه: (مختار الحكم ومحاسن الكلم) تأليف أبي الوفاء مبشّر بن فاتك في منتصف القرن الحادي عشر.

النهوض والبروز في عصر النهضة في حين لم يستفد العرب والمسلمون من علومهم فتأخّروا وما زالوا متأخرين.



منظر عام لمدينة «طليطلة» اليوم



الفصل السابع

الخليفة محمد الناصر
١١٩٩ـ١٢١٤

اعتلى عرش والده يعقوب المنصور الذي توفي بعلّة استعصت على نُطس الأطباء، فآلى على نفسه المحافظة على دولة الموحدين مهما كلفته التضحيات، ولكن الحالة السيئة التي كانت مدار الأحاديث والشكوى والتذمر كانت أكثر مما يتصور . .

فقد كان على الخليفة الناصر أن يواجه أربع حالات في منتهى الخطورة :

١ـ تآمر القوط مع يحيى بن غانية، وأخيه عبد الله الذي احتل جزيرة ماجوركا عام ١١٨٧ على عهد الخليفة الراحل المنصور .

٢ـ تقاعس الأندلسيين عن الحرب للدفاع عن بلادهم .

٣ـ عودة الصليبيين المنهزمين في فلسطين الى مسارح القرصنة والارتزاق في البحر الأبيض المتوسط . وتحالف ما يسمى بالفرسان

الهيكليين مع الفونسو الثامن في الأندلس ملك قشتالة ١١٥٨ ـ ١٢١٤م.

٤ ـ جيش الموحدين الذي ما زال مؤلفاً من عناصر مختلطة أكثرها مرتزقة كالهلاليين، وكتائب القوط المندسّة في جيش الموحدين بايعاز من ملوكهم وأمرائهم، والسود الأفريقيين.

وبعد أن تداول الناصر مع وزرائه ومستشاريه أجمعت آراؤهم على وجوب مواجهة يحيى بن غانية في حزم وشدة والقضاء عليه وعلى مؤيديه وأنصاره لأنه عنصر هدّام، وخائن يتعامل مع القوط وينفذ أوامرهم بقصد إبعاد جيش الموحدين عن الأندلس كي يستفردوا بسكانها المتخاذلين.

وكان ابن غانية في عهد الخليفة يعقوب المنصور قد عاد واحتل طرابلس وتونس وما بينهما من مدن وحصون وارتكب الفظائع في السكان، فأبحر الناصر في أسطوله ونزل في طرابلس، في الوقت الذي فرّ منها يحيى بن غانية هارباً. . فراح يعمل على تهدئة روع سكان المناطق الذين بطش بهم ابن غانية، بدون رحمة أو شفقة وقبل أن ينتقل الخليفة الى المهدية ترك على المدينة قائداً من أكثر قوّاد عهد الموحدين شجاعة وتقى هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص. ويبدو أن الناصر ترك قوة كبيرة في طرابلس بالاتفاق مع واليها الجديد عامداً على أن تبقى تلك القوات مختفية، الى حين عودة يحيى بن غانية مرة أخرى لاحتلال المدينة. علماً منه بأن الخليفة الناصر توجّه الى المهدية، في طريقه الى بوجي في المغرب الأوسط. وانتقل الناصر الى المهدية، ولكنه ظلّ فيها لمعرفة ما سيكون من شأن ابن غانية.

وبالفعل تحققت التوقعات، فظهر ابن غانية وجيشه المؤلف من قبائل بني هلال وبني سليم المتمردة دائماً ـ في ضواحي طرابلس، فابتدر اليه

بجيش الموحدين القائد عبد الواحد بن أبي حفص، واندلع القتال بينهما في معركة طاحنة استغرقت طول النهار.

وهكذا وقع ابن غانية في شرك الموحدين وراح يتخبط فيه. وعند المساء حاقت الهزيمة بقوات ابن غانية، ونجا هو بنفسه جريحاً الى الصحراء.

وقد خسر ابن غانية معظم قواته وثروته الكبيرة التي انتهبها من المدن الليبية والتونسية، فساق عبد الواحد الحفصي غنائمه وتوجه الى المهدية وقدم استقالته الى الخليفة ولكنه رفضها واستبقاه على ولايته. وأمره بالعودة الى طرابلس سنة ١٢٠٦ وحمله هدايا كثيرة لأعيان المدينة والقادة العسكريين ولكن عبد الواحد أصرّ على وجوب إعطائه حق التمتع بالاستقلال الذاتي فكان له ما طلب.

وفي عام ١٢٠٩ ظهر يحيى بن غانية مرة أخرى في نواحي جبل نفوسة، فخرج أبو محمد الحفصي لنزاله، ودارت بين الفريقين معركة شعواء استمرت طول النهار وبضع ساعات من المساء، فدارت الدائرة على يحيى بن غانية، فقتل عدد من زعماء القبائل الموالية له بالاضافة الى أحد أبنائه، وتمكن هو من الفرار مرة أخرى الى الصحراء.

الخليفة الناصر يواجه جيوش أوروبا

ولما عاد الخليفة الناصر الى عاصمته مراكش تواردت اليه الأنباء من الأندلس، بأن ملوك القوط وأمراءهم شكلوا فيما بينهم اتحاداً، فحشدوا جيشاً كبيراً قوامه ملك الاراغون على رأس جيشه، وملك النافار وجيشه، وجيش البرتغال المؤلف من فرسان الهيكل الذين عادوا من المشرق، وقد اسندت قيادة هذا الجيش اللجب الى الفونس الثامن ملك قشتالة، وبين

جنوده بعض المحاربين الفرنسيين الصليبيين.

وحشد الناصر جيشاً كثيفاً بالمثل قيل أن تعداده بلغ ٦٠٠ ألف مقاتل.

وقد اشتبك الجيشان عام ١٢١٢، في معركة «العقاب» كما يسميها المؤرخون العرب «ولاس نافاس دي تولوسا» كما يسميها المؤرخون الاسبان.

وكان في جيش الناصر أعداد كبيرة من الكتائب القوطية المرتزقة التي دسّها عامداً ملوك وأمراء القوط في جيش المسلمين. فكانوا أوّل من هزم عند بدء المعركة، فانضمت وحداتهم المنهزمة الى جيش العدو، ثم انهزم الأندلسيون ولحقت بهم كتائب السود وهكذا هزم جيش الخليفة الناصر في معركة يبعد مكانها سبعين ميلاً عن قرطبة.

عاد الخليفة الناصر ـ ولم ينج من جيشه سوى ألف محارب ـ[1] الى مراكش، فعيّن مكانه إبنه يوسف الذي لقب بالمنتصر ثم اعتزل الحكم في قصره الى أن مات قهراً سنة ١٢١٣مـ٦١٠هـ.

أسباب هزيمة الناصر

وقد قيلت في أسباب هذه الهزيمة أقوال كثيرة منها أن جيش الناصر لم يكن متجانساً اذ كان مؤلفاً من قبائل شتى ومنها قبائل بني هلال وبني سليم الموتورين الحاقدين على الموحدين، وكتائب من السود المرتزقة، وأخرى من القوط وقد تحدثنا عنها.

هذا بالاضافة الى متاعب اقتصادية ومالية كما يقول ابن أظهري.

وينسب بعض المؤرخين أسباباً عديدة الى الهزيمة منها الافتقار لوجود

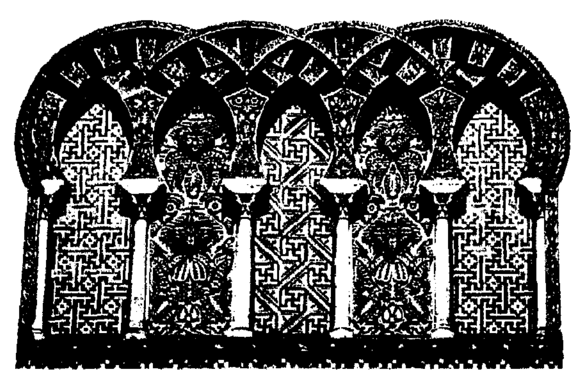
---

(١) المقري ٢/٦٩٦ ـ ابن أبي زرع ١/١٥٩.

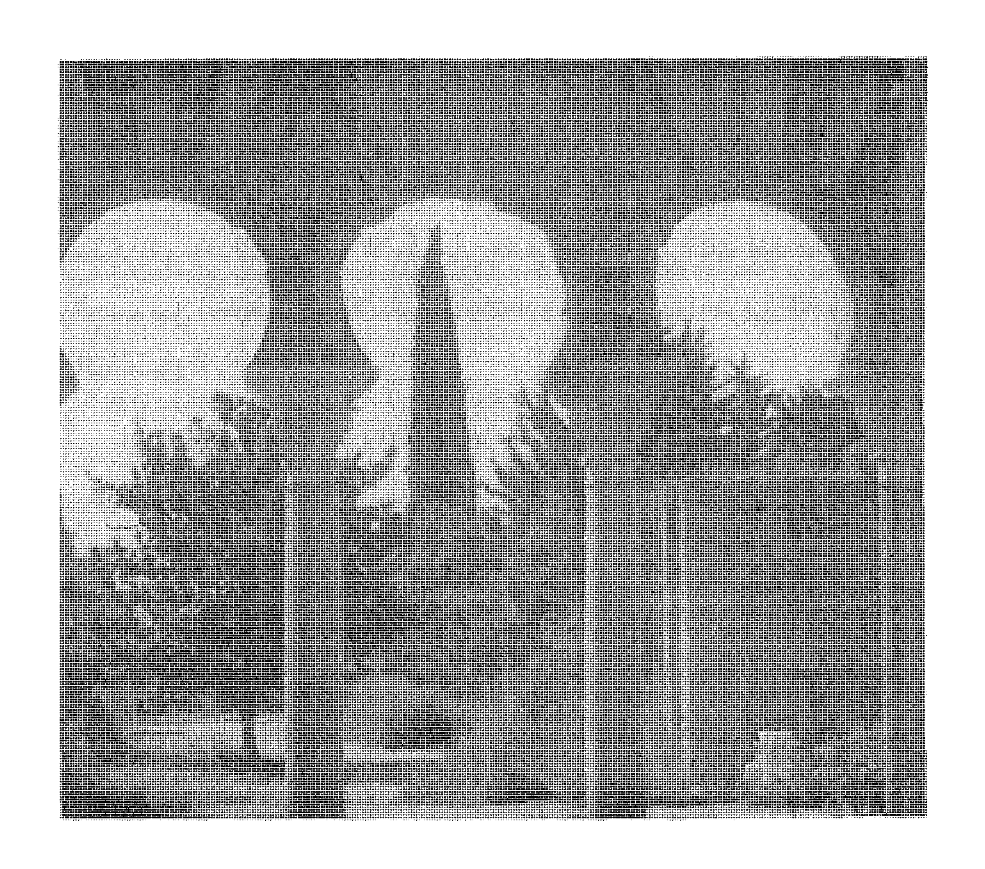
قيادة عسكرية حازمة في جيش الموحدين، يقابل ذلك كثرة المشايخ والمستشارين الذين ربما كانوا يحسنون التكلم في الدين والفقه، ولكن ليس في المسائل العسكرية، وقيل بأن الخليفة الناصر لم يكن أهلاً للقيادة العسكرية، وكذلك الوزير الأول ابن جامع يضاف الى ذلك فقدان الانسجام والحب بين السلطة والأندلسيين، وعدم وجود تنسيق حربي كامل وهيئة قيادية مسؤولة.

ويبقى السبب الأول والأهم وهو تغلغل الجنود القوط والجواسيس في جيش الموحدين وكانت كتائب القوط المرتزقة أول المنهزمين بموجب خطة بارعة وتواطؤ فظيع.

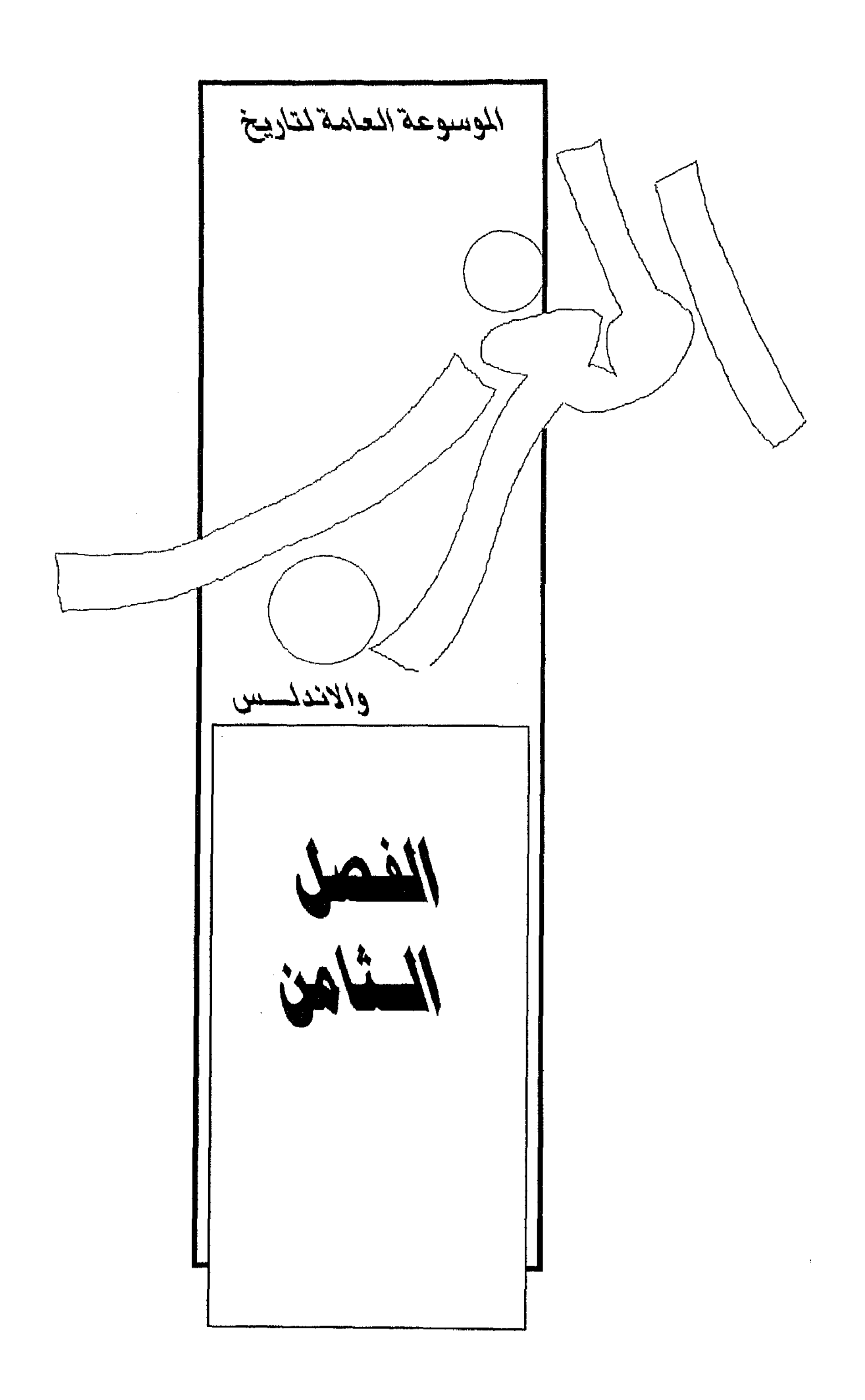
في حين كان جيش القوط مسنوداً بكتائب الصليبيين كالفرنسيين وفرسان الهيكل المنهزمين أمام جيش صلاح الدين الأيوبي في فلسطين وأواسط سوريا، هذه الهزيمة الكبرى مهّدت للقضاء على دولة الموحدين التي دام دور انهيارها خمسين عاماً.



قطاع المسجد في قرطبة



بعض آثار مدينة الزهراء


الموسوعة العامة لتاريخ
والاندلــــس
الفصل
الـثامن

خلفاء موحدون خروف

يوسف المستنصر :

تولّى الحكم بعد تنازل أبيه عام ١٢١٣ وعمره ستة عشر عاماً وكان قاصراً فحكم مشايخ الموحدين الدولة كأوصياء عليه، وفي الوقت نفسه عيّنوا عبد الواحد الحفصي قائداً عاماً لقوات الموحدين في أفريقيا.

وفي عام ١٢٢١ توفي عبد الواحد الحفصي فتولّى القيادة مكانه إبنه عبد الرحمن الحفصي.

وفي عام ١٢٢٣ ، فتك مشايخ الموحدين بالوزير الأول إبن جامع واستردوا سلطة الحكم كاملة.

كان بلاط الخليفة المستنصر ينغل فيه الفساد والدسائس لتسلط المستشارين من أسرته على أفكاره، وجهاز الحكم فلما توفي عبد الواحد الحفصي عام ١٢٢١ الذي نال من الخليفة الناصر محمد بن يعقوب تعهداً بالاستقلال الذاتي، اجتمع موحدو أفريقيا وانتخبوا أبنه عبد الرحمن مكانه، ولكن الخليفة المستنصر عارض انتخابه نزولاً على طلب مشايخ الموحدين من أسرته فعيّن إدريس بن يوسف شقيق جدّه في الوقت الذي ظهر فيه ابن غانية مجدداً ولكن ادريس وأبنه من بعده عبد الرحمن لم يتمكنا من القضاء على ابن غانية وفي هذه الفترة توفي الخليفة المستنصر فحلّ محلّه الخليفة العادل سنة ١٢٢٤ ميلادية ـ ٦٢١ هجرية.

الخليفة العادل:

«١٢٢٣_١٢٢٧» اختار العادل ـ بعد أن أيقن أن أفريقيا لا يمكن أن تحكم الا بأسرة آل حفص ـ عبد الله بن عبد الواحد الحفصي والياً على قابس ولكنه فشل في محاربة ابن غانية.

وكان العادل عبد الله بن المنصور والياً على مرسية في الأندلس من قبل المستنصر ولما توفي المنتصر وقع اختيار الموحدين على عبد الواحد بن الناصر ليكون الخليفة ولكن عبد الله «العادل» رفض الاعتراف به، وقام مستشاره ابن يرجان بحملة لاقناع أسرة الموحدين بتعيين العادل فتم له ما أراد.

وفي ذلك الوقت كان إدريس بن المنصور والياً على قرطبة، وأخوه علي بن المنصور والياً على غرناطة، وأخوه الثالث أبو موسى والياً على ملقا وابن عمه عبد الله البياسي والياً على جيان فوقع الخلاف بين الخليفة العادل عبد الله بن المنصور وأحد أخوته، واستنجد كل منهما بالقشتاليين «الأعداء» فحاربه أخوته المنشقون وعاد الى مراكش حيث توفي عام ١٢٢٧.

الخليفة يحيى بن الناصر:

تولّى الخلافة عام ١٢٢٧ ولقّب بالخليفة المعتصم.

الخليفة إدريس المأمون:

اعتلى العرش الخليفة التاسع إدريس المأمون ١٢٢٩_١٢٣٢، فعمد الى التخلص من مذهب الموحدين معلناً ذلك في جامع مراكش، فاعتقل جميع المشايخ وعددهم أربعة آلاف ويقال بأنه عمل على قتلهم وبذلك فقد مبرر وجوده على العرش الممثل للشرعية.

ثم راح يتورط بالأخطاء على عادة من سبقوه من الخلفاء فاستعار من

ملك قشتالة جنوداً مرتزقة، وجند الكثير من الهلاليين الى أن توفي عام ١٢٣٢، وكان عمر إبنه عبد الواحد الرشيد أربعة عشر عاماً.

عبد الواحد الرشيد:

«١٢٣٢» استغل ما تبقى من شيوخ الموحدين صغر سنه فحرضوه على إعادة مذهب الموحدين لكي يسترد سلطة الحكم، لتقوية مراكزهم والحفاظ على ثرواتهم وأرستقراطيتهم.

وفي أفريقيا تفاقمت الأوضاع، ولكن أبا زكريا شقيق عبد الله بن عبد الواحد الحفصي كان قد تولّى الحكم من بعده سنة ١٢٢٨ـ تمكن من القبض على ابن غانية وإعدامه سنة ١٢٣٣ والقضاء على أولاده. وبذلك استقر الحكم لآل حفص في أفريقيا، وكان قد رفض الانضمام الى حركة الخليفة المأمون الموحدي عام ١٢٢٩.

وفي عام ١٢٣٦ أعلن أبو زكريا نفسه خليفة لابن تومرت وأمر بأن تلقى خطبة الجمعة باسمه في أفريقيا وانضمت اليه أشبيلية في الأندلس ثم اعترفت به كل من مدينة سبتة ومدينة مكناس في المغرب فبايعتاه خليفة للمسلمين سنة ١٢٤٤.

وتولّى الخلافة الموحدية أثناء ذلك المعتضد بالله علي بن المأمون بن المنصور ثم الخليفة السعيد سنة ١٢٤٢ـ١٢٤٨ فحاول أن يُقصي أبا زكريا عن أفريقيا ولكنه فشل.

وفي أثناء هذا الصراع تحركت السلالات القديمة في الأندلس، كأبناء هود وأبناء مردانيش ولكن الأمور كانت قد وصلت بالموحدين الى نهايتها فطردوا من الأندلس عام ١٢٣٠م ـ ٦٢٨هـ واعترف بعض ولاة الأندلس بالسيادة العباسية والبعض الآخر بسيادة الحفصيين في أفريقيا.. وبهذا

التمزّق والتمرّد أعد الأندلسيون نهايتهم بأنفسهم.

عودة الصراع القبلي

أما في المغرب فقد سيطر الهلاليون على طريق فاس ـ مراكش، وسيطر المرينيون ـ العنصر الجديد الذي ظهر في الدولة ـ على طريق مكناس تازا، كما سيطر الزيانيون على طريق أفريقيا.

وكانت هذه القبائل هي التي تمد الموحدين بالجنود والعساكر، والهلاليون كما ذكرنا سابقاً كان البعض منهم جُباةً يجبون الأموال لحساب الدولة، ممن حولهم. ولكن الكثيرين منهم ظلوا متفرقين ومختلفين فيما بينهم، فلم يتمكنوا من الانقضاض على الموحدين في الوقت المناسب، على عكس المرينيين الذين توحدوا حول زعيم كبير من زعمائهم. وهكذا نشأت سلالتان جديدتان، المرينيون المتأهبون للوثوب على مركز الخلافة والزيانيون من أسرة بني عبد الواد في تلمسان.

فالزيانيون اختاروا واحداً منهم هو جابر بن يوسف زعيماً لحركتهم ولكنه فشل عندما أراد توسيع سلطته فحلّ إبنه حسن بن جابر محله ولكنه فشل أيضاً، فاتفق الزيانيون على اختيار عمه أبو عزة بن زيان، فوقع الخلاف بينه وبين بني المُطهّر، وفي أثناء الاشتباك الذي وقع بينهم قتل أبو عزّة عام ١٢٣٥، فخلفه أخوه يغموراسن. وفي خلال ذلك كانت سلطة الموحدين ما تزال معترفاً بها.

وعندئذٍ قطع يغموراسن صلاته بالموحدين وقرر الاعتراف بسلطة أبي زكريا الحفصي.

في هذه الأثناء زحف الخليفة أبو الحسن علي السعيد الموحدي «١٢٤٢ـ١٢٤٨» على تلمسان للقضاء على تمرد الزيانيين من آل عبد الواد

ففشل وقتل في تلمسان سنة ١٢٤٨، وعندئذٍ علا شأن الزيانيين، فزحفوا على وهران في المغرب الأوسط واحتلوها.

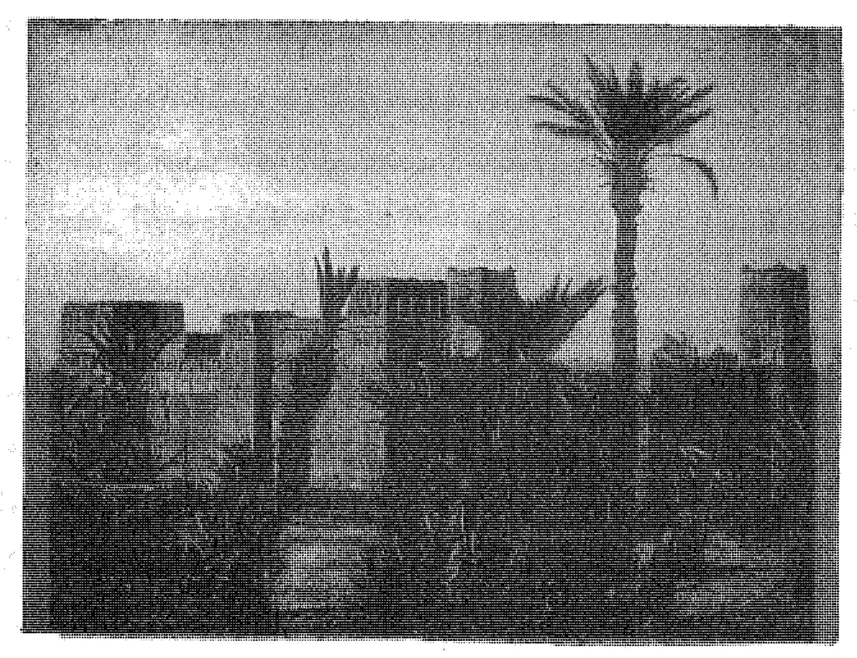
نهاية الموحدين

وهكذا اقترب عهد الموحدين من نهايته، فقيل أن من أسباب تدهور عهدهم مناصرتهم للأندلسيين وضمهم الأندلس الى دولة المغرب الكبير فوقعوا بين شقي الرحى حيث القشتاليون وحلفاؤهم القوط في الأندلس وإبن غانية حليف القوط في أفريقيا. ولكن هل كان بوسعهم أن يتركوا الأندلسيين تحت رحمة القوط، ولو أنهم لم يفعلوا ولم ينجدوا الأندلسيين لسقطت الأندلس في أيدي القوط منذ أواخر عهد المرابطين.

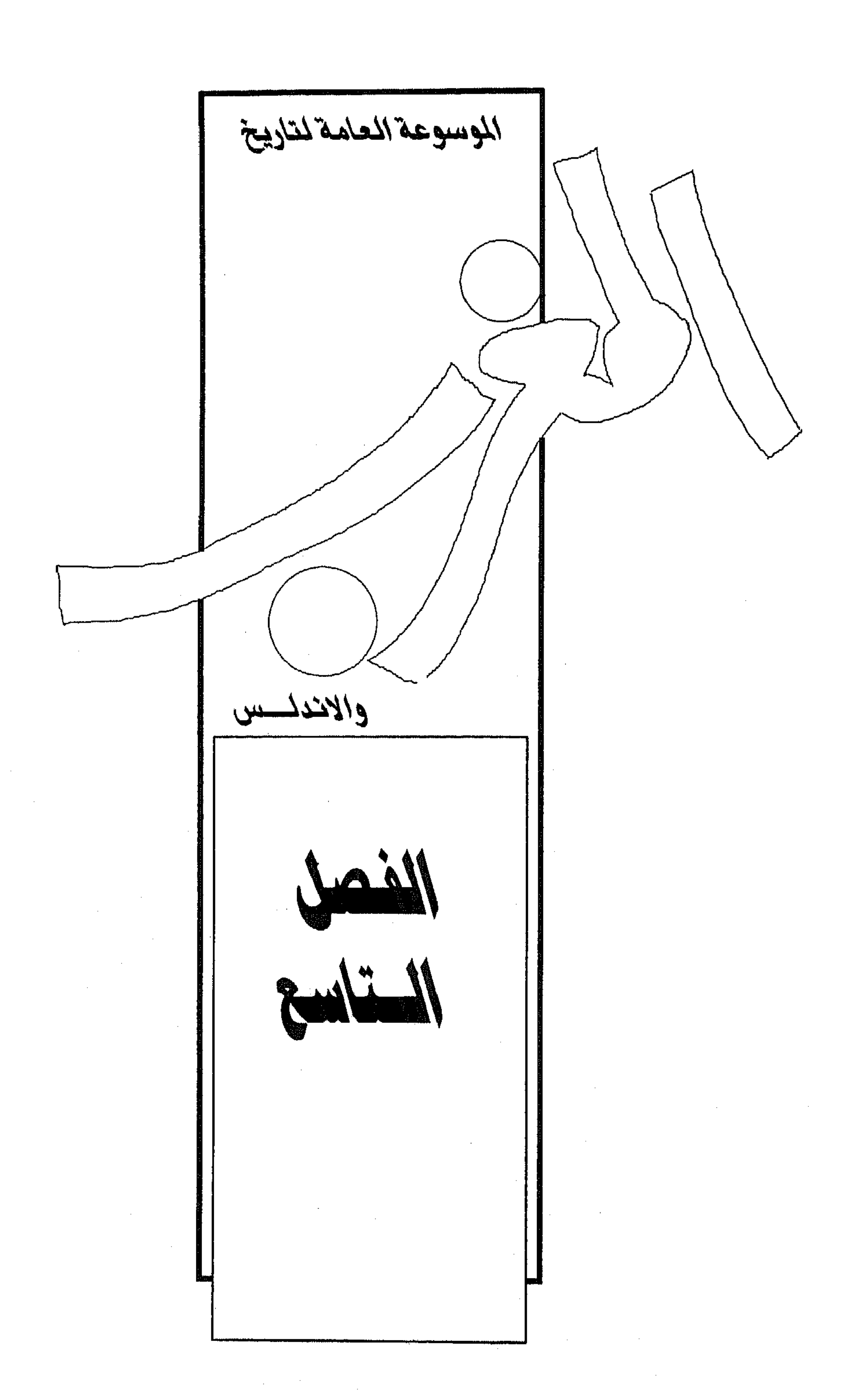
وكان الأندلسيون مسؤولين عما حاق بهم وببلادهم منذ القرن الحادي عشر عندما تنازل خلفاء الموحدين عن ولايات الأندلسيين لولاة من الأندلسيين أنفسهم، فاذا ما شكا الأندلسيون وتذمروا من استبداد أولئك الولاة اللاهين العابثين في بلد مهدّد دائماً بالقوط المتربصين، سارع الموحدون للوقوف الى جانب الشعب وحمايته من الولاة، فيعمد هؤلاء الى التحالف مع ملوك القوط وأمرائهم ضد شعوبهم والموحدين في آن واحد. وهكذا دواليك ظلت «اللعبة الأندلسية» تدور من عام الى عام على محورين: الموحدين من جهة، والقوط من الجهة المقابلة. حتى اضطر الموحدون الى الانسحاب من الأندلس ليس اختياراً بل مرغمين لمجابهة حركات الانشقاق والتمرد في أفريقيا بقيادة الحفصيين والزيانيين في تلمسان المغربية، وغيرها، وعندئذٍ وقع الأندلسيون لقمة سائغة في أشداق أعدائهم القوط المتربصين.

لقد ظلّ دولاب الحظّ يدور تارة سلباً وتارة ايجاباً في المغرب،

فالأدارسة انشقّوا عن الدولة العباسية واستسلموا الخديعة الخط المتقلّب، فخدعهم حقبة من الزمن ثم انقلب عليهم بالانقلاب الذي قام به المرابطون وانتزعوا منهم مقاليد الحكم، ثم لعب دولاب الحظ مع المرابطين حقبة أخرى من الزمن ثم انقلب عليهم لصالح الموحدين، ثم سقط الموحدون ودولاب الحظ ما زال يدور وهو يعمل الآن لصالح بني مرين الزناتيين وهكذا دواليك . .



الريف المغربي



الفصل التاسع

عهد الدويلات في المغرب

يرى المؤرخون العرب والافرنج على السواء أن هزيمة الخليفة الناصر الموحدي في معركة «العقاب» عام ١٢١٢ كانت السبب الأكبر في القضاء على دولة الموحدين التي دام انهيارها زهاء خمسين سنة تعاقب على حكمها خلفاء الناصر وعددهم تسعة خلفاء من ذرية عبد المؤمن بن علي بعد أن انقسمت الى ثلاثة كيانات: دولة بني مرين الناشئة، ودولة الحفصيين في أفريقيا ودولة الزيانيين في تلمسان ووهران. ولم يبق من الحكم والنفوذ الا القليل في أيدي بقايا الموحدين.

وقد استولى الحفصيون على المغرب الأوسط، معتبرين أن ذلك حق من حقوقهم لأنهم أحفاد أبي حفص عمر الهنتاني أحد الرجال العشرة الكبار الذين قامت على أكتافهم دولة الموحدين، وكان أبو حفص يُعد الثاني بعد الخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن، فاقتسمت عائلتاهما بالتساوي تقريباً القيادتين العسكرية والادارية في المغرب.

وفي عام ١٢٣٦ عمل أبو زكريا يحيى الحفصي على أن تقام الخطبة

باسمه، وقيل بأنه اتخذ لنفسه لقب الخلافة على أنه وريث عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين، واعترفت بسيادته أجزاء من الأندلس التي مزّقتها الخلافات ومثلها مدن المضيق في شمالي المغرب ومكناس، وكذلك المرينيون في أول ظهورهم «خداعاً» فأعاد يحيى الحفصي تنظيم أفريقيا «تونس» ثم استولى على قسنطينة وبوجي، وأرغم تلمسان على أن تدفع له الجزية، وبسرعة مدهشة أصبح أقوى ملك حفصي في المغرب، فأقام علاقات تجارية مع السودان حيث ازدهرت تجارة الحبوب والتمور والماشية والصوف بواسطة القوافل التي كانت تسير بصورة متواصلة بين «الجزائر» والسودان. ثم انشأ علاقات تجارية ـ كما يقول الجيلاني في كتابه «تاريخ الجزائر العام ـ مع دول البحر الأبيض المتوسط، ووقع سلسلة اتفاقات مع مدن فينيسية وبيزا وجنوى الايطالية، بالاضافة الى اتفاق مع مملكة اراغون في الأندلس.

واستفاد خليفته محمد المستنصر ١٢٥٠ـ١٢٧٧ من الوضع المكتسب فاتخذ لنفسه لقب خليفة.

سقوط الخلافة العباسية

في تلك الحقبة التي لم يكن حظّ بلاد المشرق بأقل من حظّ المغرب بالانقلابات والاضطرابات فقد سقطت بغداد بيد السفاح هولاكو المغولي عام ١٢٥٨ فاختفت الخلافة العباسية من بغداد الأمر الذي عقبه اعتراف شريف مكة بالخليفة المستنصر الحفصي عام ١٢٥٩، ثم اعترف بخلافة الحفصيين مماليك مصر عام ١٢٦٠، ولكن تلك الاعترافات لم تُعمّر طويلاً ـ أي أكثر من سنة لأن السلطان بيبرس بطل معركة عيّن جالوت ضد المغوليين، عاد وأحيا الخلافة العباسية سنة ١٢٦١ فاستقرّ الخليفة العباسي في القاهرة.

وكان الحفصيون يدعون بأنهم من سلالة عمر ابن الخطاب، لذلك اتّسم ملكهم بالتوقير والاحترام سواء ثبت ذلك أم لم يثبت، وقام الملك المستنصر باصلاحات عمرانية في تونس، فاستلفت ذلك لويس التاسع ملك فرنسا أحد ملوك الحروب الصليبية الأخيرة فقاد حملة صليبية الى تونس عام ١٢٦٩، اعتقاداً منه بأنه اذا تمكّن من احتلال تونس صار بوسعه أن يتخذها قاعدة للزحف منها على مصر ولكن الحملة فشلت بسبب تفشّي الأمراض في الجيش الفرنسي.

قيام الدولة المرينية

هكذا كان الوضع في أثناء احتضار دولة الموحدين، في حين كانت دولة بني مرين تتصاعد رويداً رويداً لبلوغ قمة المجد، ولكن بحذر شديد خوفاً من خصومها اللدودين بني حفص وبني زيان.

ومن المعروف ان بني مرين لم يكونوا مجهولين في إبان عهد الموحدين المزدهر لأنهم كانوا من صنائعهم، وعمالهم حيث عيّنهم الموحدون في وظائف «المخزن» قصر الحكم وغيرها من وظائف الدولة، وذلك يعطينا الدليل على أن هؤلاء المرينيين كانوا مثقفين ولولا ذلك ما عيّن الموحدون بعض مثقفيهم في «المخزن» أي دار الحكومة المغربية.

انتهى الجزء الثاني
ويليه الجزء الثالث

الفهارس العامة

1 ـ فهرس الأعلام.
2 ـ فهرس المدن والأماكن.
3 ـ فهرس البلاد والقبائل والشعوب والأمم.
4 ـ فهرس المصادر.
5 ـ فهرس المحتويات.

١ ـ فهرس الأعلام

ـ أ ـ

- ح -

ـ ق ـ

ـ ك ـ

-ل-

-م-

- ن

- هـ -

- و -

- ي -

٢ ـ فهرس المدن والأماكن

ـ أ ـ

-ج-

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

-ص-

-ع-

٣ ـ فهرس البلاد والقبائل والشعوب والأمم

ـ أ ـ

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ن ـ

- هـ -

- و -

- ي -

٤ ـ فهرس المصادر

١ ـ المراجع العربية والمترجمة

القرآن الكريم[١].

الأحاديث النبوية الشريفة.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٦.

ابن أبي أُصَيْبِعَةعيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ القاهرة ١٨٨٢.

ابن أبي زرع: الأنيس المطرب روض القرطاس. أو بسالة المغرب ١٨٤٣.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة دار الكتب العلمية بيروت.

ابن جُبَيْر: رحلة ابن جبير.

ابن الجوزي: ١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم حيدر أباد.

٢ ـ مرآة الزمان في تارخ الأعيان حيدر آباد.

ابن حزم: ١ ـ الفصل في الملل والأهواء والنِّحَلْ ـ القاهرة.

٢ ـ جمهرة انساب العرب ـ دار الكتب العلمية بيروت.

ابن حوقل: المسالك والممالك.

ابن خلكان: وفيّات الأعيان تحقيق د. إحسان عباس دار الثقافة بيروت.

ابن خلدون ـ ١ ـ المقدمة

٢ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ القاهرة.

الن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة تحقيق عبد الهادي التازي ـ بيروت.

ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ دار الثقافة بيروت.

ابن العبري: (أبو الفرج ـ غريغوريوس) تاريخ الدول.

ابن عبد ربه: العقد الفريد دار الكتاب العربي ـ بيروت.

ابن عبد الحكم: أخبار مصر وفتوحها ـ القاهرة.

ابن العربي: ترجمان الأشواق ـ نشرة نيكلسون ترجمة ليدن ١٩١١

ابن القطان: نظم الجمان.

ابن قُتَيْبَة: ١ ـ الإمامة والسياسة.

٢ ـ عيون الأخبار ـ القاهرة.

ابن القطان: نظم الجمان.

ابن القوطيّة: تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق عبد الله الطباع ـ بيروت ١٩٥٧.

ابن الكتاني: رسالة عبد الرحمن بن طاهر إلى عبد المؤمن بن علي.

أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر دار المعرفة ـ بيروت.

أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم): كتاب الخراج ـ بولاق.

أحمد المكناسي: خريطة المغرب الأركيولوجيّة ـ تطوان ـ ١٩٦١.

الباقلاّني (محمد بن الطيب): الملل والنحل.
البلاذري: فتوح البلدان ـ القاهرة.
الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ـ تحقيق أحمد زكي ـ القاهرة.
حسين مؤنس: ١ ـ فتح العرب للمغرب ـ مكتبة الآداب بالجماميز ١٩٤٧.
٢ ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس مؤسسة المعارف ـ القاهرة.
الحلل الموشية: لمؤلف مجهول.
خير الدين الزركلي: الأعلام ـ قاموس تراجم ١٩٦٩ ـ بيروت.
الأدريسي: نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان روما ـ ١٩٥٢.
الدينوري: الأخبار الطوال تحقيق عبد المنعم عامر ـ القاهرة ١٩٦٠
دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي ـ بيروت.
ديوان الفرزدق: شرح على فاعور ـ دار الكتب العلمية بيروت.
ديوان المتنبي: شرح عبد الرحمٰن البرقوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
ديوان ابن خفاجة: ط. مصر ١٢٨٦هـ.
السيوطي: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ـ مصر.
الشهرستاني: الملل والنحل مؤسسة ناصر بيروت.
الصفدي: (صلاح الدين) ١ ـ الوافي بالوفيَّات ٢ ـ أعيان العصر.
الأصفهاني: الأغاني ـ دار الثقافة ـ بيروت.
الطبري: تاريخ الرسل والملوك دار المعارف ـ القاهرة.
الفردبل: الفرق الاسلامية في الشمال الأفريقي ـ ترجمة عبد الرحمٰن بدوي ـ دار الغرب الاسلامي بيروت.

فيليب حتي: ١ ـ تاريخ العرب المطول ـ دار الكشاف بيروت ١٩٦١.
٢ ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين دار الثقافة بيروت.
٣ ـ تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر دار الثقافة بيروت.
لسان الدين بن الخطيب: ١ ـ أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام تحقيق: العبادس ـ الكتاني ـ الدار البيضاء ....
٢ ـ الاحاطة في أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة.
محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس مكتبة الخانجي القاهرة.
المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ دار المعرفة بيروت.
مصطفىٰ الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده ـ دار النهضة العربية ـ بيروت.
المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد): رياض النفوس ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت.
ملحم البستاني: العرب في الأندلس ـ بيروت.
المقريزي: اتعاظ الحُنَفا. تحقيق د. جمال الدين الشيال دار الفكر العربي بيروت ١٩٤٨.
المقري: نفح الطيب من تاريخ الأندلس الرطيب ـ دار صادر بيروت.
مجهول: الحلل الموشيّة.
مجهول: أخبار مجموعة.
نجيب زبيب: دولة التشيع في بلاد المغرب ـ دار الأمير بيروت.
النويري: (أحمد شهاب الدين) نهاية الأرب في فنون الأدب

مخطوط ـ دار الكتب رقم ٥٤٩ الرباط.

اليعقوبي: تايخ اليعقوبي ـ دار صادر بيروت ١٩٦٠.

يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين محمد عبد الله عنان ـ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٨.

مجلة المجمع العلمي بدمشق: الجزء السابع ـ المجلد الثاني تموز/ يوليو/ ١٩٢٢.

٢ ـ المراجع الاسبانية

Miguel Asín palacios

1 - Huellas del islam. Madrid 1941.
(la razón y la fe según Averroes).

2 - Al - Andalus P. 37 - 1934.
(revista de las escuelas de estudios árabes de Madrid y de Granada)*

J - Condé: historia de la dominación de los arabes en España.

Al Hakam 11 y los berberes - Madrid 1948.

٣ ـ المراجع الفرنسيّة

- R. P.A. Dozy.
Histoire des musulmans d'éspagne - leyden 1861.

- E. L. Provençal: histoire de l'éspagne muslmane Alger 1950.

W. Marcauis: Comment l'Afrique du Nord a été arabisée - Annales 1934.

Annales tripolitaines - Feraud.

٤ ـ المراجع الانكليزيّة

- the moors in spain - London 1887.
- history of Arabs London 1953.
- E Doazy: spanish islam London 1913.

٥ ـ فهرس المحتويات

Najib Zbib

GENERAL ENCYCLOPEDIA FOR HISTORY OF MOROCCO AND AL-ANDALUS

INTRODUCED BY
Ahmad Ibn Soda
CONSULTANT OF
KING HASSAN II

Vol 2

[illegible]



نجيب زبيب

ربما تكون هذه الموسوعة أول عمل ضخم يتناول تاريخ المغرب والأندلس منذ أن وطئت أقدام الكنعانيين أرض الشمال الافريقي وشبه جزيرة إيبيرية في الألف الثالث قبل الميلاد إلى يومنا هذا، يقدمها الاستاذ نجيب زبيب بسرده العلمي والموضوعي للأحداث وبأسلوبه الأدبي المشوق ومن هنا يكون هذا التزاوج المتين بين دقة المعنى وأناقة العبارة. وهي وإن كان موضوعها تاريخ المغرب والأندلس إلا أنها حافلة بجلائل الأحداث التاريخية الكبرى التي كانت البلاد العربية والإسلامية في مختلف عصورها التاريخية مسرحاً لها

هذا الكتاب

تعتبر هذه الموسوعة من أجلّ الأعمال التي كتبها الأستاذ نجيب زبيب وأضخمها. إنها بحق كما وصفها المؤلف بنفسه وصف الواثق المطمئن «عقد فريد لم يسبقني إليه الأوائل وسيكون تراثاً للأواخر ومفتاحاً لكل أبواب تاريخ المغرب العريق بأمجاده والعريق بإيمانه بوطنيته وبعقيدته الاسلامية والعريق أيضاً بعروبته وكنعانيته»...

وإذا قيل عن العقد الفريد لابن عبد ربه أنه (خزانة حوت خلاصة علوم ذلك العصر) فإن عقد الأستاذ نجيب زبيب هذا هو سجلّ ضخم حافل للأحداث في مختلف العصور القديمة منها والحديثة وذاكرة حيّة شاهدة وعت التاريخ العربي والاسلامي بعمق في مشرق البلاد العربية ومغربها وغاصت في زواياه ومنعطفاته فسجّلت ودوّنت ونقلت تفاصيله بكثير من الصدق والأمانة والدقة والموضوعية.

في هذه الموسوعة يتكلم الأستاذ نجيب زبيب عن المغرب فيعرض لتاريخه النضالي الطويل منذ زمن الكنعانيين وحتى بدايات عهد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني مبرزاً الدور الريادي الذي لعبه على مسرح الأحداث في إفريقيا والأندلس والمغرب العربي الكبير وحضوره الفاعل في الميادين السياسية المعاصرة؛ العربية منها والاسلامية والعالمية على حدٍ سواء.

